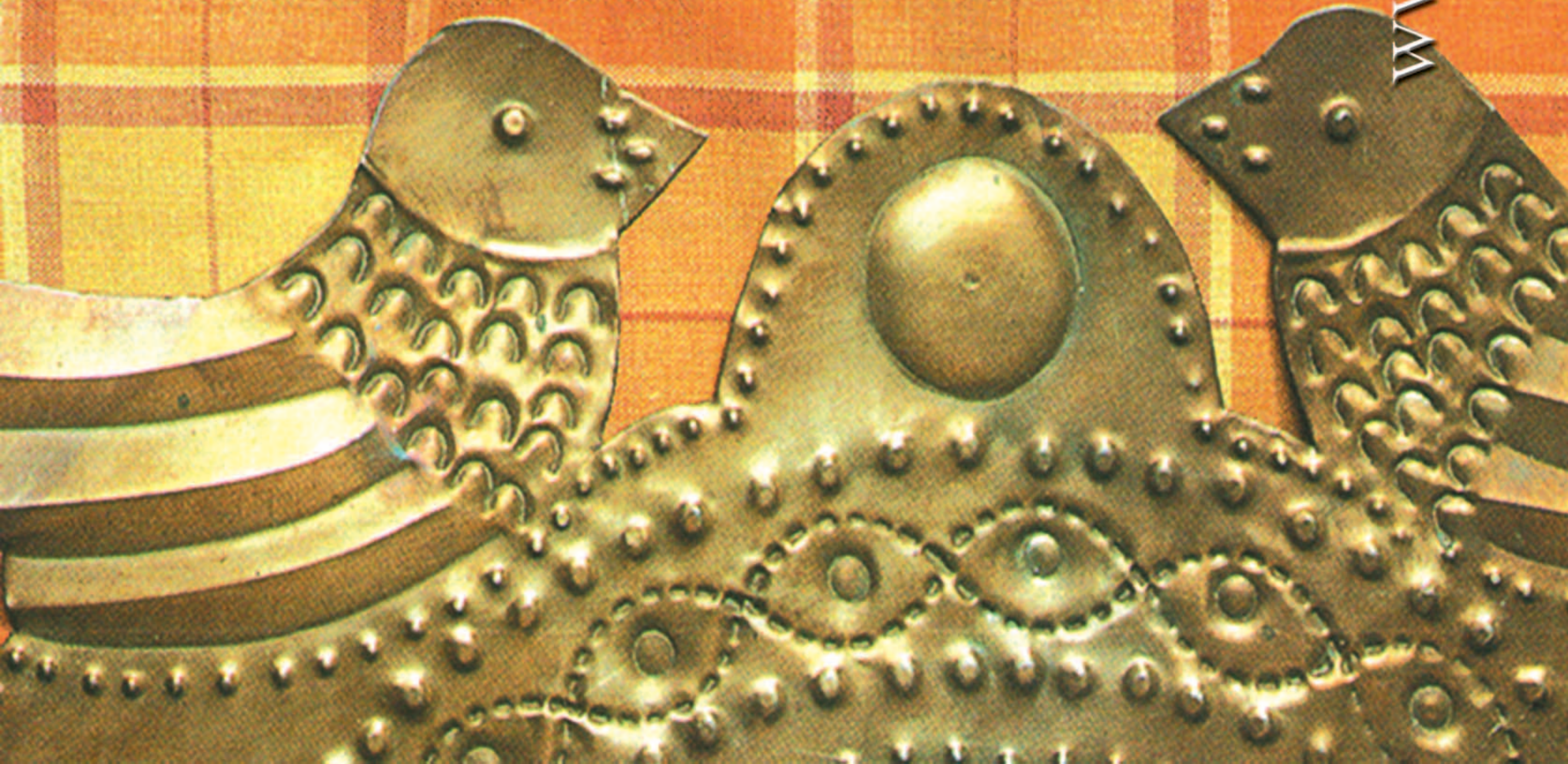
رواية

إبراهيم عبدالمجيد

# طيور العنبر





# طيور العنبر

تأليف :

إبراهيم عبد المجيد

تصميم الغلاف: هند

" لي من الذكريات أكثر مما لو كان عمري ألف سنة "

بودلير

" إنها أكثر من سكندريتنا، إنهـا سـكندريتنا التـي صنعناها، التي خلقناها من الروائح والأزهار والمحسوسـات والخيال والحب والتي هي باقيـة؛ لأنـه إذا افتقـدت هـذه الإسكندرية فماذا يتبقى لي..؟ "

هاري تزالاس

إلى فاطمة

....

إبراهيم

# القسم الأول

( ١ )

لا أحد أمامه على امتداد البصر. ترعة المحمودية خالية من المراكب الكبيرة والصغيرة. ليس هناك ترام واحد يتحرك على الضفة الأخرى، وعلى يمينه ليس إلا طوب وأسمنت لبناء مدرسة جديدة تشغل جزءا من الخلاء الواسع الذي تحتله مخازن قسطنطين سلفاجو. مشهور سلفاجو اليوناني هذا في الإسكندرية. مخازنه تشغل بقية الفضاء العريض من ترعة المحمودية حتى سور السكك الحديدية، وتمتلئ ببراميل الزيت والشحم وبالآت الخيط ودوائر من الأسلاك والسيور الجلدية القديمة والحديدية وأشياء أخرى متنوعة وغريبة من معادن صدئة ومعادن تبرق في ضوء الشمس. سلفاجو يمتلك حصصا كبيرة في شركة الغزل الأهلية المصرية القريبة في كرموز، والشركة المساهمة لتنظيف وكبس الأقطان التي تقع قريبا من مينا البصل في الاتجاه المعاكس لكرموز، وفي شركة مصانع النحاس المصرية بسيدي جابر، وشركة الترام وغيرها، وهذه الأرض الفضاء الرحبة هي مخزن الخردة التي تلفظها كل هذه الشركات. يا الله، لا يوجد ناس الآن في هذا الخلاء غيره

هو. حتى عمال بناء المدرسة غير موجودين ولـيس اليـوم عطلة، ولا الوقت مساء.

الوقت صباح، ضحى، وليس ثمة أحد غيـره. هـو وحده الموجود في هذه الدنيا. هل هذا معقول؟ هذا الإحساس الغامض الذي قفز فجأة في تجاويف رأسه، ثم وقف داخلهـا منتصبا، ها هو يقفز ليقف أمامه بـين عينيـه، فـوق أنفـه مباشرة، ويبتسم له في سخرية. أنه يراه ويكاد يهشـه بيـده ليسقطه أمام قدميه لكنه لا يفعل. يتوقف وينظر خلفه فلا يجد غير امتداد الشارع الأسفلتي الذي حال سواده. لم يعد أحـد يأتي يعتني بالشارع. قبل ذلك كان العام لا يدور إلا وقد جاء "وابور الظلط" يبلط الشارع بالزفت الأسود والحصى الأسود البازلتي. هل لا تزال السماء مكانها؟. سؤالي حط عليـه لا يعرف مصدره. ليرفع عينيه شيئًا فشيئًا. وجدها مكانها كمـا يجدها كل يوم. لو اختفت ماذا كان يمكن أن يحدث لـه؟ لا أقل من أن يموت في الحال. يرتعش جسمه ويتفتت وينهـار لحمه حول قدميه ثم يتلاشى هيكله العظمي. يصـير ترابـا أبيض. ابتسم. أين يمكن أن تختفي السماء يا عربي؟. حتـى الحرب لم تقم بعد، قد لا تقوم بالمرة – كانت قوات إسرائيل

قد عبرت حدود سيناء أمس ولم يكن يعـرف حتـى الآن – ولاحظ أن السماء اليوم بعيدة بعض الشيء. بل بعيدة أكثـر من كل يوم. يستطيع أن يراهن على ذلك. سـحب رماديـة وسوداء جاءت تجري من الشمال والشمال الغربـي معطلـة ضوء الشمس للحظات فاتحة الباب لهبة ريح خفيفة بـاردة. لكن على عكس ما يحدث في مثل هذه الحالات، لـم يشـعر باتساع الدنيا. أحس أنها ضيقة مثل علبة باردة، مثل صندوق سمك زجاجي. هو إذن سمكة وإن كانت غير ملونة تتحـرك في مساحة صغيرة وتصطدم "ببوزها" كل حين في الجـدران الزجاجية. سمكة مسكينة لا تكف عن الحركـة ولا تتفـادى الاصطدام، والبرد يدخل إليه منعشًا من الكم النصف للقميص الأزرق السماوي الواسع الذي يحرص على كي ياقته بالنشـا كما يحرص على فرد شعره بالصابون وعمل "بوف" ينكسر فوق جبهته العريضة اللامعة تماما كما ينكسر "بوف" جيمس دين. "الجيليه" الخفيف فوق القميص لا يكفـي لصـد البـرد المفاجيء. ليس ذلك مهما على أية حال. لا يذكر يوما واحدا شعر فيه بالدفء. حتى عند "كاتينا"، في اللحظات الجميلـة

التي ينفردان فيها معا، لم يكن يفارقه الصقيع. لا تحبه كمـا يحبها، ومصيرها الرحيل ذات يوم. تقول دائما.

ما يخيفه، الآن، بحق، هو هذا الإحساس بأنه وحيد في الدنيا، وأن العالم صغير يبدأ وينتهي بعد خطوة، وأنه قد يسقط بعد هذه الخطوة في حفرة.

ولم يسقط. انتبه إلى أن الأرض مستوية وجامـدة. لقد انشقت فقط منذ قليل وأخرجته. أنه مخلوق في التـو، لا يذكر شيئًا من ماضيه ولا يعرف أين يقصد بالضبط. وإذا لم تكن الأرض هي التي انشقت وأخرجته، فإنه الله هـو الـذي قذفه من السماء. أجل. أمسكه من قفاه و "بنترة" صغيرة من إصبعه قذفه إلى الأرض فاخترق كل هذه الحجب والسموات الطباق، ولما رآه مسكينًا حائرا في الفضاء قال له انزل يـا عربي إلى الأرض بسلام! هنا في شارع قنـال المحموديـة حيث لا يوجد أحد غيرك الآن! ليس خلفه إذن ثلاثون سـنة من العمر، فهل أمامه شيء؟ لقد حمله الهواء العجيـب إلـى هذه الدنيا من حلم عميق، بئر، حلم كـالبئر، بئـر كـالحلم، وصار موجودا وإن لم يشعر أحد بوجوده. كيرك دوجلاس، الممثل القوي الرشيق ذو النونة العميقة في ذقنه خدع الوحش

الرهيب ذا العين الواحدة بعد أن كان حبسه وبحارتـه فـي المغارة وراح يأكل واحدا منهم كل يوم. سقاه خمرا فأسـكره ولما سأله عن اسمه قال له " لا أحد"، ثم فقأ عينه الوحيدة بعد أن غلبه السكر وفر من المغارة هاربا ومعه رجالـه. مـلأ زئير الوحش الجبال وهو يبكي خلفهم حتى اجتمعت حولـه الوحوش وسألته من الذي فعل بك ذلك؟ فقال " لا أحد" فوقفت عاجزة ولحق كيرك دوجلاس وبحارته بالسفينة وعادوا إلـى بلادهم. سليمان شاهد الفيلم وقال إن كيرك دوجـلاس كـان موجودا، لكن الوحش لا يراه، فهو إذن غير موجود. وهكـذا الواحد لا يكون حيا إلا إذا رآه الناس وتعـاملوا معـه وإلا سيكون مثل " لا أحد ". لكن العربي لا يقتنـع بهـذا الكـلام الصعب لسليمان رغم إنه يشعر بأن له قيمـة كبيـرة هـذا الكلام! . ما يضايقه الآن ليس أنه وحيد في الشـارع، لكـن خوفًا غريبا أن تنشق الأرض وتبتلعه إلى حيث كـان، إلـى الحلم أو البئر، أو يأخذه الله إلى السماء فـي طرفـة عـين. بقسوة أو بلين فهو الله يفعل ما يشاء. بيد من نار أو بيد مـن ماء!. وقد يسمح له أن يراه مثل سيدنا موسى عليه السـلام،

أجل. يمكن أن يكافئه الله برؤيته، هـو العربـي المسـكين التعيس الخائب.

كادت دموعه تطفر منه، وجاهد ليمنعهـا. صـار رأسه فارغًا وراح فمه يبحث عن كلام. الصمت يكاد يخنقه، فليتكلم بأي شيء حتى ولو إلى لا أحد!.

راح يحرك شفتيه لكن لا صوت يخـرج منهمـا، وحين خرج الصوت وسمعه لم يفهم ماذا يقول. كان نصـف الكلام قد مضى في الصمت!. أجل. قال النصف الأخير من الجملة فلم يعرف لها معنى. سليمان قال إن كيرك دوجـلاس قام بدور "أوليس" . استقام للعربي الكـلام، "أولـيس" بطـل يوناني مكار شديد الحيل كما قال سليمان، لكـن كاتينـا لـم تحدثه أبدا عن أوليس، واليونانيون في الإسـكندرية طيبـون يعملون بجد ولا يبدو أحد منهم مكارا شديد الحيل.

يا عربي ! كيف تعرف؟ نعم كاتينـا طيبـة جـدا وليست ماكرة أبدا كأوليس.

"لازم أرابي بعد ليل فيه نهار" تقول دائما. لابد يـا عربي من فرصة كبيرة لك يوما ما. أنت شخص حلو. تقول وهو يعرف إنه وسيم لا ينافسه في الرشاقة إلا رشاد الـذي

التحق بالقوات البحرية وراح يختال ببدلته البحرية البيضاء والشرائط الزرقاء، لكنه في النهاية عسكري تافه. لطفي السائح يحاول أن يكون وسيما مثله لكنه لا يستطيع، يبالغ في كي ملابسه ووضع الفازلين على شعره لكن العربي يظل الأكثر أناقة دائما، لذلك لم يتطوع ليكون جنديا في البحرية كرشاد، وهو للأسف لا يستطيع أن يكون ضابطًا، فهو لا يحمل أي شهادات، ولا يستطيع رغم الأناقة أن يكون مدرسا ابتدائيا مثل لطفي. لطفي يتفوق بالعلم إذن، لكنه مسكين لم يمنع العلم أن تتكسر عظامه في أية لحظة كلما اصطدم بشيء.

لقد توقف لطفي من زمان عن اللعب معهم بالكرة الشراب؛ لأنه في كل ماتش كانت رجله تتكسر، وتوقف عن الهزار مع أي شخص لأن أي شخص يستطيع إذا لوى ذراعه أن يكسرها. اعتزل لطفي الجميع وانكب على المذاكرة فصار مدرسا. منذ سنوات خرج في مشوار غرامي مع إحدى زميلاته وجلسا بحدائق الشلالات قرب تمثال نوبار باشا. وهما يغادران المكان كانت هناك بقعة في الأرض عارية من النجيل، وكانت زلقة بفعل الأمطار التي هطلت في

الصباح فانزلق لطفي وسقط على مقعدته فانكسر فخذه. توقف بعدها عن الحب والغرام!

لا لطفي ولا رشاد لديهما إمكانياته في القوة والجمال. لكنه أمر محزن حقا لو مات رشاد في الحرب. منذ أيام قيل إنه ممنوع من العودة إلى البيت بسبب حالة الطوارئ العسكرية المعلنة في البر والبحر والجو. محمود الملاح أيضا تم استدعاؤه إلى الجيش. ظهر "المدثر" شيخ الحارة فهتف محمود الذي كان يجلس مع العربي، كلاكيت آخر مرة يا محمود. ثم قال ظهر الفساد في البر وأبلغه المدثر بضرورة تسليم نفسه لمنطقة التجنيد في الحال.

لطفي لم يخدم في الجيش بسبب هشاشة عظامه. هل كان ممكنًا؟ كان التدريب يفجره عشرات القطع في الفضاء. العربي أيضا لم يخدم في الجيش. بسبب أن في قدميه "فلات فوت". الجيش كان سيحرمه كثيرا من كاتينا، الحرب كان من الممكن أن تحرمه منها إلى الأبد. أتيليه كاتينا جميل تعود على العمل فيه منذ عشر سنوات الآن. يجلس بالباب يستقبل النساء الداخلات ويودع الخارجات، يفتح لهن الباب ويغلقه خلفهن. كثيرا ما يصحبهن إلى بيوتهن حاملاً فساتينهن

الجديدة. النساء باهرات الجمال كألوان القماش الذي يحملنه لهن رائحة جديدة مثل القماش دائماً. كلهن يحببن أن يقدم العربي لهن القهوة بالحبهان والشاي بالنعناع، وكلهن يأخذن رأي العربي فيما يرتدين عند البروفة وهو في الحقيقة لا ينظر إلى القماش، بل إلى ما تحت القماش ويبدو أنهن يدركن ذلك من نظراتهن وابتساماتهن، أكثرهن أجنبيات فلا يجدن مشقة أن ينظر إليهن رجل كالعربي يتفحصهن ويمضي بقية اليوم صامتًا. إنه لا يتكلم معهن أبدا، لكنه لا يكف عن توزيع ابتساماته عليهن وهن يتحركن أمامه كالفراشات.

يجمع آخر النهار ما تناثر على الأرض من قصاقيص، وينظف المكان، وتنصرف الخياطتان، جورجيت المسيحية، وأسمهان الإيطالية التي لا يستطيع أن يصدق أبدا أن اسمها أسمهان!. تبقي كاتينا وحدها. إنها تعيش في الغرفة الصغيرة في طرف الشقة الكبيرة بحيث لا يبدو من اتساع الأتيليه أن هناك هذه الغرفة وأن كاتينا تعيش فيها. تجلس متعبة على الفوتيه والعربي يقعى تحت قدميها فوق الأرض يصب لها قدحاً من النبيذ القبرصي الأحمر، ويشوى لها "أبو

فروة" على الموقد الكحولي في أماسي الشتاء، ويصب كأسـا لنفسه ويتهيأ لسماع القصة التي لا تملها كاتينا.

" عارف عربي، ياناكيس كان حبيبي. زوجي لكـن حبيبي أكثر. عارف عربي. ياناكيس كان يسـاري. أنـت لا تعرف ماذا تعني كلمة يسـاري؟. يسـاري عربـي تعنـي شيوعي، تضحك. أنت لا تعرف ماذا تعني كلمة شـيوعي، يعني لا يحب الملك، ملك يوناني ملك مصري ملك إنجليزي، ملك أي بلد. كان يحب العمال. يحب ستالين. يكـره هتلـر، يكره النازي. النازي دخل أتينا عربي ياناكيس سافر يحارب مع العصابات. عصابات يعني جيش صغير مثـل عصـابة اللصوص لكن لا يسرق. يظهر ويختفـي بسـرعة بعـد أن يضرب قوات النازي. هذا كان في الحرب العالمية الأخيـرة عربي. ياناكيس مات في جبال اليونان.

زميله حضر هنا وأعطاني محفظة يا ناكيس كـان فيها صورته وصورتي وصورة بنتنا الصغيرة فيدرا. فيـدرا الآن عربي في أتينا مع زوجها سيفيريس. أنا هنـا وحيـدة عربي".

- وأنا أيضاً وحيد كاتينا.

قال لها ذلك بالأمس كما قاله مرات كثيرة سـابقة. قالت.

- لا . هناك معجبة تريد تتزوجك عربي.

- من ؟

- راشيل زهاف.

لم تقل ذلك من قبل. أمس فقط قالت ذلك. صـدمته المفاجأة.

- راشيل. راشيل زهاف عندها خمسون سنة كاتينا!

ضحكت وقالت.

- لكنها تحبك عربي.

- أنا أحبك أنت كاتينا.

- أنا أيضاً عندي خمسون سنة عربي.

أنا أراك في العشرين كاتينا.

أنت واحد مجنون عربي. أنا لازم يأتي يوم أسـافر فيه أتينا.

لكن لن أتزوج غيرك كاتينا.

خلاص عربي أسافر أنا وتبقى أنت من غير زواج.

أنا أيضا لن أتزوج في اليونان. أنا تزوجـت مـرة. كـان

ياناكيس حبيبي عربي. كان يساري. أنت لا تعـرف معنـى يساري. يعني شيوعي عربي. أيضاً لا تعرف معنى شيوعي. كان يكره الملك. ملك مصر ملك يونان ملك إنجلترا، أي ملك في أي مكان. كان يحب ستالين. كان مجنونًا، أنـت أيضـاً مجنون عربي.

وجذبته من شعره الناعم واضعة رأسه في صدرها. كانت زجاجة النبيذ قد فرغت فنهض بصعوبة ليأتي بغيرهـا لكنها طلبت منه أن يضع في البيك أب أسطوانة لأم كلثـوم التي يحبها. وضع أسطوانة تحمل أغنية الآهات فقالت كاتينا.

غير الأسطوانة عربي. لا داعي للآهـات الليلـة. سمعنى على بلد المحبوب وديني.

صدحت أم كلثوم فراحت كاتينـا تتمايـل طربـا، وابتهجت، وقالت:

تعرف عربي لو حصل أني تركـت مصـر لازم أعطيك ساعتها خمسين جنيها تبدأ بها مشروعا كبيـرا فـي حياتك.

لكنها سرعان ما استغرقتها الأغنية وانـدفعت فـي البكاء. ارتبك العربي لكنه استطاع أن يقف من جديد ويحملها

إلى سريرها. أنامها وغطاها كما يفعل فـي معظـم الليـالي وقبلها فوق جبينها لكن يبدو أنها لم تعد تشـعر بـه. تسـلل خارجا من الغرفة ثم من الأتيليه، حين لامست قـدماه أرض شارع الكنيسة الإنجيلية، تطلع إلى الكنيسة القريبة من البيت، وإلى هدوء الشارع بالليل الذي لا يختلف كثيرا عن هدوئـه بالنهار، وفكر لو أن كاتينا غادرت البلاد حقا في يـوم مـا وتركت له الخمسين جنيهاً لن يبدأ بها أي مشروع، سـينفقها كلها في الملاهي على الكورنيش، المونسـينور والأجلـون والاكسلسيور وعطيات حسين وميرامار واللؤلؤة الزرقاء وذا شيب وغيرها، وسيخرج من آخر ملهى يسهر فيـه صـافقًا الباب خلفه قاطعا الهواء ورذاذ الموج إلى سور الكـورنيش، صاعدا فوق السور ثم يقف لحظات يأخذ فيها نفسا عميقًـا، ويتأمل فيها البحر الهائج، ثم .. ثم .. يلقى بنفسه وسط ظلام الماء. أجل. الكثيرون يفعلون ذلك بالليل هذه الأيام!!

( ٢ )

بين أشجار الكافور والكازورين والسدر المحيطـة بسور مستشفى الأمراض الصدرية يمشي إبـراهيم مرسـي

الهوينى مع نادية سلام. أمامهما مساحة من الخلاء الأسفلتي الرائق تنسكب عليه الأضواء الواهنة للشمس الهاربة من بين السحب السوداء والرمادية تصنع خيالات تتـراقص لأوراق الأشجار الصغيرة الصامدة للخريف.

مساكن عمال وموظفي البلدية ذات القرميد الأحمـر والأصفر تبدو قوية نظيفة وعلى اليسار الحديقـة الصـغيرة التي سيجلسان بها بعد قليل.

نادية فارعة الطول بالنسبة لفتاة في سن السادسـة عشرة، عالية الرقبة كالزرافة! رشيقة القـد ترتـدي فسـتانًا طويلاً، شانيل وإن لم تعرف ذلك، وفي يدها "بـوك" نقـود صغير أسود ومنديل أخضر به ورود بيضاء. لناديـة وجـه مستطيل وشعر أسود غزير تركته طـويلاً خلفهـا، عيناهـا سوداوان واسعتان وبشرتها خمرية رائقة وصـدرها مرتفـع تحت الفستان غير متسق بارتفاعه الزائد مـع رشـاقتها. لا يعرف أحد أن نادية تتعمد زيادة ارتفاعه بما تضـعه أسـفل نهديها من قطن داخل السوتيان!.

تمشى نادية واسعة الخطى بسبب ساقيها وتبدو دائماً جادة في الطريق تعرف أن عيون الرجال تتعلق بالنساء وأن

بين الرجال والشباب طائفة "وسخة" ليس لهم من شغل غيـر تلقيح الكلام على البنات والنسوان في الطرقات. هكذا سمعت أمها تتحدث كثيرا ولم تعرف أبدا كيف عرفت أمها ذلك فلـم يحدث أن رأتها تخرج من البيت!. الآن تمشي نادية الهوينى أيضا مع إبراهيم الذي استحم اليوم بصابونة بريحـة كـان مرفقاً معها صورة لمارلين مونرو تضـحك ويكـاد يسـمع صوت ضحكتها في الحمام. لقد وضع على يديـه وشـعره قطرات من كولونيا الياسمين التي يخبئها في مكان لا تصـل إليه أيدي أخواته البنات كما سمع لطفي السائح يتحدث مـرة عن كولونيا الشبراويشي خمس خمسات التي اشتراها وكـان أول من أدخلها إلى المكان بين الشباب. لإبراهيم مرسي وجه مستدير منفوش وبشرة صفراء قليلاً وباهتة وشـعر أسـود وعيناه عسليتان. قالت نادية بصوت هادىء.

لماذا تأتي إلى هنا دائماً يا إبراهيم؟

أمان. هنا أمان يا نادية.

بدا لها الأمر مثل اللغز. ألا يوجد بالإسكندرية مكان آخر يتسم بالأمان؟ من قبـل أخـذها إلـى نهايـة ترعـة المحمودية، بعد كوبري التاريخ حيث الخلاء الكبير، لكنهـا

خافت من المباني ذات النوافذ الكبيرة المغلقة بشباك الســلك الضيقة لا يظهر خلفها شيء من فرط ما علق بها من نــدف القطن. قطن قديم اصفر لونه وقطن جديــد شــديد البيــاض وقطن أشد قدما سود من لونه الغبار المتــراكم. مــن علــى شاطيء المحمودية المهجور. هنا كان يمكن أن ترى أعــالي السفن في الميناء، سفن بيضاء المداخن وســوداء بعضــها، صواريها تحمل أعلاما ملونة تحيط بهــا رءوس الأونــاش العالية التي تبدو مثل حيوانات خرافية قديمة. قــال إبــراهيم ذلك اليوم إن المكان أمان، فعمال مستودعات القطن الضخمة هذه لا يظهرون إلا في ساعات محددة باليوم، السابعة صباحاً والثالثة بعد الظهر والحادية عشرة فــي المســاء، مواعيــد الورديات، بين ذلك ليس غير الصمت وبعض طيور تســبح في الفضاء. الساعة كانت حوالي السادسة والوقت كان صيفاً، وبدا المكان الصامت متسعا بالخوف الواسع وسع الكون. قال إبراهيم لها ذلك اليوم إنه قد يأتي "عيال صيع" قطاع طــرق من باب الكراستة أو ســوق الجمعــة أو كــوم الناضــورة فيضايقونهما ويأخذون ما معهما، لكنه استعد لــذلك بمطــواة بسستة أخرجها أمامها وضغط على زرار عند رأسها فانفتح

سلاحها الأبيض حادا أمامها فانكمشت من الرعـب، لكنهـا ابتسمت وقالت ساخرة..

- وماذا معنا ليأخذوه؟

ارتاحت قليلاً للهواء المنعش الودود المتحرك بتؤدة قادما من الميناء ساريا بين المباني الرطبـة، لكـن الهـواء الوديع هذا وحده لا يكفي للمغامرة بالحضور إلى هنا دائمـا. لقد تركا خلفهما "مرسى" الفلائـك، الملونـة عنـد كـوبري التاريخ، تاقت نفس نادية لاستئجار إحـداها، لكـن إبـراهيم خشى أن يراهما أحد يتنزهان في الترعة. قال لها إذا أردنـا أن نفعل ذلك فعلينا أن نذهب إلى المرسى البعيد هنـاك فـي الناحية الأخرى عند حديقة الحيوان. لـم يكـن أمامهمـا إلا الإيغال في الصمت، صمت المباني وصمت الأزقة البازلتية الضيقة بين المستودعات وصمت الفضاء الكبير وصـمتهما معا.

فجأة برز شاب وفتاة أمامهما لكن على مسافة بعيدة. قبل أن تعلق نادية بكلمة أو إبراهيم رأيا الشاب يركن الفتـاة على جدار أحد المستودعات ويضغط عليهـا بجسـده كلـه ويقبلها وهي الفتاة التي اختفت وراء جسده، بدورها أحاطتـه

بذراعيها، ثم لاحظت نادية إنهما شيئًا فشيئًا ينزلان معا إلـى الأرض. لقد أمسك إبراهيم بيدها وضغطها بقوة لكنها سحبتها منه بسرعة وطلبت أن يعودا على الفور. لـم تنتظـر رده، جفلت واستدارت عائدة وهو يلهث ليلحق بها. شعر أنها أقوى منه على المشي، حتى إذا ابتعدا كثيرا وقفت غاضبة تتسـع عيناها بالشر وهو خائف حقيقة من غضبها، لكـن صـورة الفتاة والشاب وقد تمددا على الأرض لم تكن قد فارقتها بعد، وجدت نفسها تبتسم، واتسعت ابتسامتها شيئًا فشـيئًا، حتـى ضحكت وطلبت منه ألا يأتي بها إلى هنا بعد اليوم!.

اختار إبراهيم الحديقة الصـغيرة أمـام مستشـفى الصدر. حديقة متسعة بها أكثر من شجرة تـوت وسـنديانة قديمة ضخمة وعدد من أشجار اللبخ.

قال لها إنه بالإسكندرية توجـد حديقـة الشـلالات الجميلة لكنها في العادة تمتلئ بالعشاق وقد يكون هناك مـن يتعرف عليهما، وتوجد حديقة الحيوان. أو النزهة كما يسميها الناس في الإسكندرية، ولا يختلف أمرها عن الشلالات، أمـا حدائق المنتزه فهي بعيدة جدا وممنوعـة حتـى الآن علـى الشعب. ليس ثمة حديقة آمنة إذن إلا هنا حيث لا يأتي غيـر

بعض الفلاحين يزورون مرضاهم، يجلسون بالحديقة، يأكلون، ويثرثرون، ثم يختفون بعد قليل ولا يظهر إلا رجل متعب جاء يستريح بعض الوقت قبل أن يستأنف سيره، وربما امرأة مجهدة، وعادة كلب وحيد لا يكف عن الدوران في لامبالاة، وغالبا قطة بائسة.

قالت نادية:

- كلما جلست هنا رأيت رجلاً ينظر ناحيتي من نافذة الدور الأخير. نظر إبراهيم ليرى الوجه الشاحب لرجل زائغ النظرات.

- أنه لا ينظر إليك يا نادية. انظري إلى كل النوافذ ستجدين وراءها مرضى ينظرون في الفضاء البعيد.

- مساكين.

قالت نادية ولم يرد إبراهيم فعادت تقول:

- أنا أعرف أن السل مرض قاتل وأن هذا مستشفى للسل.

وسكتت حتى قال إبراهيم.

- دعينا من الكلام في الأمراض. حدثيني ماذا فعلت أمس؟

لكنها لم تتكلم. ظهرت قطة تمسك بفأر صغير بين أسنانها وتمشي على مهل تتلفت يمينًا ويسارا ثم اختفت تحت الأشجار القصيرة لسور الحديقة. رفعت نادية رأسها جافلة إلى الفضاء فوقعت عيناها من جديد على الرجل الذي ينظر إليها لا يزال من أعلى نافذة بالمستشفى. لقد تأكد لها الآن ذلك فهو يبتسم وترى ابتسامته، بل يلوح بمنديل أبيض. أغمضت عينيها وأطرقت.

- في مثل هذه الحالة لا تتابعي المشهد.

كان يقصد القطة، وكانت تتشرب مشهد المريض في حالة هي مزيج من الدهشة والغبطة ولم تشعر بإبراهيم وهو يضع ذراعه حول كتفيها حتى إن سخونة صعدت في جسدها فجأة ولم تعرف سببها الحقيقي، صدمة مشهد القطة أم غرابة مشهد المريض أم ذراع إبراهيم. بينما إبراهيم نفسه راح يفكر على نحو مفاجئ أن نادية هذه قد تكون بنت عبيطة، فهي أطول من بقية البنات، وتمشي مسرعة، وإذا ضايقها أحد هزت كتفها، وقالت "سم" ثم مطت شفتيها، لكنه يحبها ولا يعرف السبب!

- هل تعرف ماذا يمكن أن يحدث يا إبـراهيم لـو رآنا أحد؟

- أعرف.. قريبا سأجد عملاً بالدبلوم وأتزوجك.

- أنا خائفة يا إبـراهيم. أهلـي صـعايدة وأهلـك فلاحين.

- لكني متعلم ولن يرفض أهلك.

ضايقتها إجابته. لم تستمر في التعليم. لـم يوافـق أبوها قط. في المساكن كلها لا تجد بنتاً قـد اسـتمرت فـي التعليم غير مريم القبطية التي هي أصـغر مـنهن جميعـاً والتحقت بالمدرسة الإعدادية هذا العام، ونوال التي تخرجت في مدرسة التمريض وتعمل في المستشفى الأميـري. كـل البنات اللاتي التحقن بالمدارس تركنها وهن بالكاد في السـنة الثانية الابتدائية. كان هو قد أخرج صورة كارت بوستال من جيب قميصه، ووضعها أمام عينيها فهتفت.

- الله ! عبد الحليم حافظ. الله. أنت أيضـا معـه! كيف؟

- هذا سر.

تهدج صوت نادية وهي تقول:

- نفسي أشوف فيلم لعبد الحليم.
- تعالى معي غدا إلى سينما ركس. فيها فيلم "أيـام وليالي".
- هل تريد أن يقتلني أبي ؟

سكتا قليلا بينما هي التي صارت الصورة معها الآن راحت تتأملها مندهشة من كون إبراهيم يحتل مربعا صغيرا عند كتف عبد الحليم حافظ، وقال إبراهيم..

- عملية تكنولوجية معقدة.
- نعم!؟ ماذا تقصد؟
- لقد دفعت لكاكايان ربع جنيه كاملاً ليفعل ذلك.
- كاكايان. من هو كا.. كا..يان.
- مصوراتي أرمني ابن هرمة عند أبو الدرداء. اسمه كاكايان.
- أجل.
- يعيش كاكايان.

هتفت نادية واندفعت فجأة فقبلته بسرعة على شفتيه فأسكرته القبلة والدهشة معا ولم يستطع الكلام. جرت المتعة، البهجة العجيبة الممزوجة باللذة، من شفتيه إلى جسمه كلـه.

بهجة عارمة دارت بالجسد بحق فقد كانت هذه أول قبلة فـي حياته. لقد انطبعت شفتاها على شفتيه وانتقل تيار من العسل إلى دمه فتشبعت روحه بالسكر والنشوة حتى لكاد يطير، هو نفسه، أمام عينيه! وظل واقفاً متسع العينين في ذهول كامل! كانت قد اتجهت إلى شجرة السنديان الكبيرة ووقفت تحتهـا تنظر إليه في خجل حقيقي.

كيف حقا فعلت ذلك..؟ لقد كانت أول مـرة أيضـا تقبل فيها رجلاً.

لم تكن تعرف أن القبلة تأتي بكل هذا الفرح الذي يكاد يشـع من مسام جسدها، ولا أن القبلة تطلق كل هذه العصافير مـن صدرها. مشى هو كالتائه نحوها حتى إذا اقترب منها عـاد يحيط كتفها بذراعه، فقالت بصوت خفيض وألم حقيقي:

- هل ستكرهني يا إبراهيم. ستكرهني. أليس كذلك؟

ولم يكن قد عاد من أرض النشوة بعد. قالت:

- هيا نعود.

ثم بهدوء أبعدت ذراعه عن كتفيها ومشـيا لـدقائق صامتين حتى سمعته يقول بصوت خفيض "الله". كانت تعرف أنه لا يزال منتشيا من أثر القبلة، هي كذلك لا تزال، لكنها لا

تستطيع أن تعلن هذا الانتشاء، لم تكن هي التي قبلته، قوة خفية دفعتها لذلك، وهي لن تغفر لنفسها أبدا هذا الضعف. سألته.

- أنت شفت فيلم أيام وليالي؟

- طبعاً.

- من الممثلة؟

- آمال فريد.

- حلوة؟

- صوتها حلو مثل صوت الأطفال.

سأل نفسه لماذا سألته هذا السؤال ما دامت لا تعرف الممثلين ولا الممثلات ولا تذهب إلى السينما.

- أنا أقصد شكلها.

تردد وتلعثم. أدرك أنه لا يستطيع بحق أن يصف جمال امرأة. لم يسبق له أن فكر في ذلك. لا يستطيع أن يقول أكثر من حلوة أو وحشة! وبدأ يتذكر كلمات المتنطعين الصيع الجالسين على الدرج عند مدخل القبو المؤدي إلى الملاحة وهم يصوبون كلماتهم إلى النساء ويتغزلون فيهن. حديثهم دائماً وقح عن الأرجل والبطن والسوة والعيون

والأرداف!. إن أحدا لا يعـرف مـن أيـن يـأتي هـؤلاء المتنطعون يترددون على المكان، يعرف النـاس أسـماءهم لكنهم لا يعرفون أين يختفون آخـر النهـار ولا إلـى أيـن يذهبون، ويعودون دائما في اليوم التالي.. أدرك فجأة علـى نحو غامض ومثير أن الممثلة آمال فريد هذه ذات الصـوت الطفولي، ضئيلة الجسم ضيقة الخصر بارزة الصـدر رغـم اكتناز كتفيها، والأكثر إثارة فيها حقا هما شفتاها الممتلئتـان. ها. لقد صار خبيرا بالشفاه بعد القبلة الأولى بدقائق! كما أن لآمال فريد بشرة خمرية مريحة وأهدابا طويلة ونظرة بريئة ثاقبة، لكن أجمل ما في هذه الممثلة بحـق هـو الحـذاء ذو الكعب العالي الذي يتيح لها الحركة كفراشة بفستانها الطويل واسع الذيل، الكلوش. لكنه تردد أن يقول لنادية ذلك. قال:

- شكلها معقول.

سمع أباه مرة زمان يصف قريبة له أمام أمه فسألته كيف حقا عرف ذلك كله إن لم يكن ينظـر إليهـا بعينـين شرهتين. ولمح نادية تبتسم في سعادة، ربما زهـو، لعلهـا أدركت أن الممثلة ليست جميلة، وكانت بالفعل تفكر في ذلك،

لكنها قالت لنفسها، ومن أنا حتى أقارن نفسي بها؟ وران على وجهها شيء من الكدر فتساءل إبراهيم:

- ماذا بك يا نادية؟

لم ترد. قالت لنفسها تريدين إبراهيم وهاهو معـك فلماذا تفكرين في عبد الحليم حافظ وتريدين منافسة آمال فريد فيه؟ ثم إن عبد الحليم الحقيقي مريض وفي لندن يعالج كمـا يقولون والفيلم كله تمثيل في تمثيل.

قالت بهدوء.

- إبراهيم. يظهر إني جننت. تصور غرت علـى عبد الحليم حافظ من آمال فريد. خفت أن يتزوجها.

سكت إبراهيم ولم يعرف ماذا يقول ثم فجأة هتف:

- سأمنع هذه الزيجة بأي ثمن.

فانطلقا يضحكان في الفضاء الواسـع بـين سـور المستشفى الخلفي وورش ترام كرموز. لقد ابتعدا عن الحديقة في طريق عودتهما. جريا إلى جوار سور الـورش العـالي الذي تعلوه قطع من الزجاج تمنع اللصوص مـن الصـعود فوقه والقفز داخل الورش. توقفا وقال إبراهيم:

- عبد الحليم يغني في الفيلم أغنية جميلة جدا.

لكن انفجارا دوى فجأة في الفضاء. ظهرت عربـة جيش عالية قادمة في سرعة من ناحية المحموديـة محملـة بصناديق من الذخائر، وخلفها ثلاث عربات أخرى على كل منها مدفع طويل رفيع وعدد من الجنـود، التفـت إبـراهيم ونادية ليريا إلى أين تذهب هذه العربات فوجدا أنهـارا مـن الأطفال تأتي من كل ناحية إلى الحديقة كأنهم سيول أمطـار تجري من فوق الجبال إلى الوديان تملأها هديرا. لقد امـتلأ الفضاء بحق بهدير الأطفال وهم يصيحون:

"حنحارب. حنحارب كل الناس حتحارب" ارتعـدت نادية، أمسكت بيديها في ذراع إبراهيم.

- ماذا جرى يا إبراهيم؟

- يبدو أن الحرب قامت يا نادية.

- من أين جاء هؤلاء الأطفال!؟

- من المدارس. لابد أن الحكومة أغلقت المـدارس اليوم بسبب الحرب.

ظلا يتابعان الحديقة التي تمتلئ بالأولاد والصـياح، هو في دهشة وهي في ذعر.

- طيب وعساكر الجيش أين يذهبون؟

- لا أعرف يا نادية، العربات وقفت أمام الحديقـة. ربما هي مدافع مضادة للطائرات سينصبونها فوق المستشفى.

- أنا خائفة يا إبراهيم.

- لا تخافي. هذه احتياطـات مهمـة. لا أظـن إن انجلترا تقدر ترجع مصر مرة ثانية.

- أنا أكره الإنجليز يا إبراهيم. هيا نسرع.

- وأنا أيضاً يا نادية.

قال ذلك وأسرعا في الطريق الذي عاد إليه الهدوء كلما ابتعدا حتى إذا صارا وحدهما في الكون الواسـع مـن جديد قالت له فجأة وقد أمسكت بذراعه وتطلعت إلى عينيه.

- غنها لي يا إبراهيم. غن لي أغنية عبـد الحلـيم حافظ. الأغنية التي سمعتها في الفيلم.

نظر حوله فلم يجد أحدا في هذه المساحة الكبيرة من الخلاء بين سور الورش وسور المستشفى ومساكن الباديـة. دائرة واسعة من الفضاء البهي وخضرة الأشجار. أغمـض عينيه وأتى صوته خفيضا ناعما..

" كفايــة نــورك علـــي"

"نور لــي روحــي وقلبــي "

" خلانــي شــفت بعينــي "

" اللي انكتب لي فـي حبـي "

ولأنها سمعت الأغنية كثيراً بالإذاعة اشتبك صوتها بصوته.

" قريـــت علـــى ضــيك "

" كـــلام جميـــل زيـــك "

" كفايـــة نـــورك علـــي "

وانطلقا ضاحكين ، لكن ظهرت المحمودية قريبـة جدا منهما فقال إبراهيم.

- لقد وصلنا إلى الحدود يا نادية.

كانت هذه آخر نقطة يمكن له أن يصـحبها إليهـا. عليها الآن أن تكمل الطريق وحدها إلى المعدية تنقلها إلـى البر الثاني حيث "المساكن"، أما هو فسيعود إلى حيث كان ثم يدخل كوم الشقافة مواصلاً المشي في شارع بـاب الملـوك حتى تقاطعه مع شارع عامود السواري فينحرف يمينًا إلـى كوبري كرموز حتى يعبره ثم ينحرف يمينًـا مـرة أخـرى

ليقطع الكيلو متر الذي يفصل المساكن عن الكوبري، تكـون نادية قد عادت قبله بكثير إذ تستغرق دورته هذه أكثـر مـن نصف الساعة. هذه هي الطريقـة الوحيـدة للتمويـه علـى الآخرين!

وقف قليلاً ينظر إليها كأنه لن يراها مـرة ثانيـة. كانت هي أيضا تفعل ذلك.

- إبراهيم. لابد نتقابل في مكان آخر بعيـدا عـن المستشفى.

- أنا أيضا أفكر في ذلك يا نادية.

تركته مسرعة وأخذت تخب المسافة القليلة الباقيـة من سور الورش ثم الفضاء الواقع بين الورشـة والمعديـة والذي يمكن فيه لأي شخص في البر الثاني أن يراها. لكنها وحدها الآن. لا خوف إذن. وإن كانت تصل إلـى المعديـة دائما لاهثة الأنفاس فذلك من أثر السرعة والتـوتر. لكنهـا سرعان ما تهدأ، حين تضع قدمها في المعدية، وتقول لنفسها، كل شيء كما هو، الصبية يلعبون، وعمـال شـركة الملـح والصودا يجلسون بدكانتي العنيبسي والسيد خليل، ووردة في المعدية تأكل هريسة وتبتسم. لا تكف عن أكل الهريسـة ولا

تكف عن الابتسام. كل شيء صامت ولا أحد يـدري بأحـد وإبراهيم المسكين لا يزال يسرع الخطى في كـوم الشـقافة. لعله لم يدخل شارع باب الملوك بعد. لكنها مسـافة ليسـت طويلة على رجل على أي حال، ثم إنها كلها تقع في شوارع مأهولة يقول عنها إبراهيم إنها لا تخلو أبدا من رائحة المـاء والصابون الذي تلقيه النساء في الصباح علـى الأرض مـن الشرفات، وهي لا تعرف لماذا تلقى النسـاء فـي الأحيـاء الشعبية حقا ذلك الماء والصابون.

( ٣ )

ماذا يفعل عيد بالنظر في وجوه الفتيات؟. لا أحـد يعرف ، هذا سر.

صار مشهده وهو يتـابع النسـاء والفتيـات فـي الطرقات لا يدعو لغير الابتسام. يرى المرأة قادمة من بعيـد متجهة إلى "الملاحة" لشراء السمك، أو خارجة مـن القبـو المظلم الواصل بين الملاحة وطريـق المحموديـة بعـد أن اشترت السمك، يراها فيتجه إليها لا يشغل نفسه بشيء غيـر

عينيها. لا يتجه إلا إليهما، لا يهمه إذا كانـت المـرأة قـد خرجت من القبو وقد تهدلت ملاءتهـا الـف، أو ظهـرت ذراعاها عاريتين وكتفها أحمر، أو اتسعت قبة جلبابها حـول عنقها في جوف الظلام. لا تخطر هذه الأسئلة على بال عيد وإن خطرت على بال "الصـياع" الجالسـين جـوار دكانـة العنيبسي إلى جانب السلالم المؤدية إلى القبو مجهولي الهوية الذين يأتون كل يوم يأتنسون بمحمود القزعـة بـائع الـثلج وصبيانه وتاجر البهار، فلفل مطحون كما يسمى نفسه. عيـد ينتظر حتى إذا اعتدلت الواحدة منهن وسوت ملاءتها وثيابها، ثم ينطلق بسرعة إليها حتى إذا صار أمامها نظر في عينيها وابتسم.

في البداية ترتبك، بعضهن يصرخن أو يجرين مـن أمامه، بعضهن يشتمنه أو يوجهن إليه لكمة خفيفة على كتفه، لكنهن سرعان ما يتماسكن ويبتسـمن أو يضـحكن، وعيـد يوليهن ظهره ثم يضرب كفا بكف، تماما مثل طفل صـغير يقلد الكبار، وتتهلل عيناه بالسرور، ويضحك. لقد صار عيد معروفًا للكثيرات من المترددات على الملاحـة مـن نسـاء كرموز وغيط العنب وكفر عشرى وكوم الشقافة.. عم يبحث

الولد الأشقر الجميل حافي القدمين في عيون النساء ووجوههن؟ لا أحد يعرف. ولما سأله "عربي" عن ذلك مرة تأمله طويلاً ثم ابتسم وأعطاه ظهره وانصرف. وقف عربي حائرا ومندهشًا ثم ابتسم بدوره ولم يعد بعد ذلك لهذا السؤال. أدرك عربي أنه لن يصل إلى شيء، كما أدرك ذلك والد عيد نفسه. لقد ضربه كثيرا حتى ينتظم في الدراسة، لكنه كان إذا وصل إلى باب المدرسة، وقف يتأمل كروان وهو يدخل ثم يعود هو يبحث عن النساء. لا يزال عيد يفعل ذلك كل يوم ينهض فيه مبكرا. يصحب كروان لكنه لا يدخل معه المدرسة أبدا. يئس أبو عيد ويئست أمه، وركب كليهما الحزن.

- أخاف أن يعتدي على عيد أحد، شخص ما يكون مع امرأة.

- أخاف أكثر منك.

تنحدر دمعه على خد الأم، ويتمتم الأب " لله في خلقه شئون"، ويتذكر شقرة عيد وعينيه الخضراوين، ويقول هذا ولد جميل غير جدير بهذه البهدلة !؟. لقد كف عن ضربه منذ تلك الليلة التي قفز فيها عيد من داخل البيت إلى الخارج كما لو كان يقفز من فوق السطح إلى الأرض، ثم جرى في

الشارع الوسطاني الذي يتوسط المساكن، هاربا إلى الفضـاء على المحمودية، ولم يجدوه إلا بعد ثلاثة أيام. لم يكن بعيـدا أبدا كما تصوروا، كان قد صعد إلى السطح بالليل من خلف البيوت، تسلق الجدار المواجه لخطوط السكك الحديدية، جدار أملس تماما لكنه تسلقه، وتمدد فوق السطح بلا حركـة. لـم يأكل شيئًا ولم يشرب فلم يعد قادرا على الحركة. أوشك على الموت الحقيقي من العطش. لم يفكر في النهوض، ولا العودة ولم يسمع له أحد صوتًا، أنينًا أو استغاثة، رغم أن أسطح كل عشرة منازل متصلة، والنساء والفتيات عادة يصعدن إليهـا لينشرن الغسيل. لم تلتفت واحدة منهن إلى ذلك الشيء الممدد جوار الجدران المهملة هل هو عيد أو كائن حي من أي نوع.

كان قد غطى نفسه بخروق قديمـة وجـدها فـوق السطح واطمأن ونام حتى اليوم الثالث حين صعدت "الجوني" وراحت تتمشى على السطح في الأصيل وتعبـث بـالطوب الصغير والزلط الذي لا يعرف أحد مصدره، وتقذف بعضـه في استرخاء وهي تعرف أن خير الدين على السطح الآخـر يتابعها بشغف. سقطت منها "زلطة" فوق عيـد ولـم تردـد، اقتربت الجوني من هذا الشيء الطري الذي اصـطدمت بـه

"الزلاطة" فرأت كف عيد ظاهرة صفراء من تحـت الهـدوم فصرخت "قتيل قتيل" وجرت تصرخ من كل ناحيـة علـى السطح في هستيرية حقيقية فصعد إليهـا الرجـال والنسـاء وشباب وصبية المساكن جميعا وراح عيد ينظر إليهم بإعياء شديد. كان قد جلس ولم يستطع النهوض. ظلت أمه تضع له لحم الدجاج في فمه، وتسقيه الشوربة الساخنة طول الليـل، بينما لم ينقطع أبوه عن البكاء في صمت.

يذهب عيد مع كروان إلى مدرسة القباري الابتدائية، يقطعان الطريق بين قضبان السكك الحديدية، وفوق "رصيف الباشا" الذي تأتي إليه البضائع من داخل البلاد بالقطـارات، وما يكادان يخرجان من البوابة، ويكون معهمـا مصـطفى وعبده اللذان يسبقانهما في التعليم، حتى يتخلف عيد عـنهم. لكنه لا يعود من الطريق نفسه. يأخذ ناحيـة كفـر عشـري ويعود من شارع قنال المحمودية بعد أن يمـر مـن شـارع التجارة الرطب ويشم رائحة الغلال، ويقرأ لافتـة مدرسـة الشيخ عبد الله النديم الابتدائية ويضحك. لقد ألحقه بها أبـوه في أول سني الدراسة لمدة عام واحد قبـل أن يحولـه إلـى مدرسة القباري، ولقد حبسه أحد الشيوخ كثيرا فـي حجـرة

الفئران لأنه كان كلما قرأ سورة الفاتحـة قـال " بسـم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين ولا الضـالين آمـين صدق الله العظيم!". من هنا تـأتي نسـاء كثيـرات لشـراء السمك، والنساء العاملات في محالج القطن أمـام كـوبري التاريخ يأتين زرافات في الصباح الباكر من الجحور الفقيرة للقباري وباب الكراستة وكوم الشقافة. عيد يحار من أين يبدأ وأين ينتهي بالنظر في عيونهن وتحمله سعادة غريبـة إلـى سماوات على وهو يرى وجوههن البيضاء المستديرة جليـة وسط السواد السابغ الذي يلون جلابيـبهن والطـرح فـوق رءوسهن، كما تلمع عيونهن بالضوء الباهر وسـط بيـاض وجوههن المحاطة بالسواد ! حوالي الحادية عشرة صـباحا يكون هو قد انتهى من النظر في وجوه النساء ويصـل إلـى البيت. يقول لأمه باسما.

- لو كنت في المدرسـة الآن كـان زمـاني فـي الفسحة!.

تتألم صامتة وتعرف أنه بعد قليل سيخرج ولا يعود إلا في المساء. لم يفلح الشيوخ في علاج عيد وقالوا سينتهي وحده حين يكبر ويتزوج، وتأسف أبوه قـائلاً لنفسـه، ومـا

السبيل إلى ذلك يا خلق هوه، عيد لا يـزال فـي العاشـرة ويحتاج ليكبر ويتزوج عشرة أخرى من الأعوام والأهوال!

عيد اليوم لم يترك كروان عند باب المدرسة. دخل معه إلى الفصل وكان منظره غريبـا وسـط التلاميـذ. رآه مدرس الحصة الأولى فابسم:

- ما الذي فكرك بالمدرسة يا عيد؟

لكن عيد لم يرد. نظر حوله كأنما يبحث عن شخص آخر وجه إليه المدرس السؤال. تركه المدرس وراح يتحدث عن احتمالات الحرب التي بدأت بالليل أمس واحتمال دخول بريطانيا الحرب ضد مصر في أية لحظـة. لقـد وصـلت المفاوضات إلى طريق مسدود بين عبـد الناصـر والـدول المنتفعة بالقناة، كان يتحدث بجدية والتلاميذ يصـغون إليـه باهتمام. إنهم لم يروا حربا من قبل، وفوجئ المدرس بعيـد يرفع أصبعه السبابة يطلب الكلام. وضع التلاميذ أيديهم على أفواههم يكتمون الضحك وتساءل المدرس:

- ماذا تريد يا عيد؟

- أنا أعرف جمال عبد الناصر.

وانفجر التلاميذ بالضحك. هدوء. سـكوت، طلـب المدرس.

- طيب يا عيد متشكرين.

لكن عيد لم يسكت. تساءل مبتسما.

- هل تعرف جمال عبد الناصر؟

كاد الأولاد يضحكون بقوة أكبر لولا أن أشار إليهم المدرس بالصمت، ثم تقدم من عيد وانحنى فوقه مقتربا مـن وجهه وقال:

- يا عيد كلنا نعرف جمال عبد الناصر لأنه رئيس البلاد، رئيس مصر.

لكن عيد لم يسكت.

- لقد مر جمال عبد الناصر مرة في القطار خلـف بيوتنا، واسأل كروان صح يا كروان، صح أم لا ؟

- صح يا أستاذ.

قال كروان. كان عبد الناصر عائدا من يوغسـلافيا عن طريق البحر وركب القطار من الميناء حتى القاهرة. لقد وقف يومها في العربة المكشوفة في القطار الملكي الذي كان مخصصا قبل الثورة للملك فاروق وصعدت النساء والرجال

والأطفال فوق الأسطح يحيونه بالتصفيق والزغاريد والهتافات. لكن عيد أضاف:

- بعد ذلك جاء مرة إلينا في البيت وتعشى معنا، أي والله. أكل كثيرا جدا.

هنا لم يستطع التلاميذ السكوت، انطلقوا في الضحك، صفقوا، ودبدبوا بأرجلهم على الأرض، والمدرس ينظر إلى عيد مبتسما محاولاً بكل جهده ألا ينفجر في الضحك، لكن ضجة كبيرة سمعت في الطرقة أمام الفصول، رأى التلاميذ زملاءهم يجرون بعد أن خرجوا من فصولهم ودخل أحد المدرسين إلى الفصل قائلاً:

- انتهى الدرس. الحرب قامت يا أولاد. اسرائيل هاجمت قواتنا في سينا والإنجليز والفرنسيين وجهوا إنذارا لمصر!.

اندفع التلاميذ بقوة خارجين من المدرسة، انسكبوا في الشارع الضيق أمامها فامتلأ عن آخره، قبل أن ينظموا أنفسهم في مظاهرة كبيرة تندد بإيدن وبن جوريون وموليه ويخرجون فيها إلى الشارع الكبير المتجه إلى مينا البصل أو المكس، نظر عيد إلى كروان في غاية السعادة وهو يقول:

- أول يوم أحضر إلى المدرسة قامت الحرب.

اختفى بعد ذلك بين الزحام. أخذ كروان ومصطفى وعبده طريقهم إلى المساكن عبر السكة الحديد. هي فرصـة يصطاد فيها عبده ومصطفى العصافير "بالنبل" مـن تحـت الأسقف العالية للأرصفة، وكروان لا يستطيع أن يفارقهم فهم الأكبر، وعادة ما يتركون كتبهم معه أثناء الصيد. لم يسـتمر التلاميذ طويلاً في شارع المكس وهم يندون بإيدن وموليـه وبن جوريون، بسرعة تفرقوا جماعات صـغيرة ضـاحكين ذاهبين إلى بيوتهم. مشى عيد مع جماعة منهم ناحية كوبري التاريخ، طريقه المعتاد في العودة، عنـد الكـوبري تـركهم وانحرف إلى "كفر عشرى" يهتف فجأة وحده في وجوه بعض المارة "طز في بن جوريون". ولم يدخل عيد شارع التجـارة اليوم. جذبته الفتاة الجميلة ذات العينين السوداوين الواسعتين والوجه المستدير الأبيض الريان والابتسامة السحرية كمـرآة من بللور. كان قد اقترب منها يتطلع في عينيها. لم يبد أنهـا خافت أو ارتبكت. ابتسمت.

- وبعد ذلك ماذا ستفعل؟

وقف مبتسما بدوره. قالت: -

- ولد . كتير أشوفك في الشارع ماشي تبص في عيون النسوان.

لماذا؟

ظل مبتسما مثبتًا عينيه على عينيها، كادت الملاءة السوداء تنزلق من على كتفيها، فرفعتها وأحكمتها فوق رأسها وأمسكت بطرفها وهمست له:

- تحب تشوف عيون؟

اتسعت ابتسامته أكثر.

- تعال ورائي.

مشت وهو خلفها، وكلما تقدمت التفتت تتأكد من وجوده فتراه مبتسما.

- لاتقترب مني . لا تفضحني يا عبيط.

وهو يزداد سعادة وابتساما، دخلت به شارع عبد النبي الضيق القصير لكنه بدا طويلاً ملتويا لا ينتهي، أكثر رطوبة من شارع التجارة، لا تشم فيه رائحة الغلال المخزونة كشارع التجارة لكن تشم فيه رائحة الأنفاس المكتومة للبشر المنسيين، ورائحة تزكم الأنوف من النفايات الملقاة طوال الطريق، عند نهاية الشارع انحرفت الفتاة لتدخل

في زقاق ضيق، فدخل خلفها، في وسـطه لـم يعـد هنـاك غيرهما فوقفت وهو جوارها.

- هات يدك يا مضروب.

ترك لها يده. أحس بدفء أصابعها، صار يضـحك كأنما يدغدغه أحد، ونزلت به درجا بدا له لا ينتهي أفضـى بهما إلى باب خشبي عال وكبير راحت تـدق عليـه دقـات خفيفة بالسقاطة القديمة التي على شكل يد بشرية.

انفتح الباب فقالت "خطى برجلك اليمين يا عيد"، لما نظر إليها مبتهجاً قالت "عارفة اسمك. كلنا هنا عارفين اسمك يا ولد" دخل عيد برجله اليمنى فوجد نفسه أمام ساحة مضاءة بنور لا يعرف مصدره، وقف مبهوتًا يقول الله! منشرحاً من فرط البهاء المنسكب حوله، فقالت "أنت لم تر شيئًا بعـد يـا عيد، الجنة على بعد خطوتين من هنا" وانفتح أمامهما بـاب آخر أقبلت منه روائح بخار الماء الممزوج بماء الورد، رأى خلف الباب فراغًا من سحب بيضاء مشوبة بزرقـة خفيفـة، قالت له أدخل ولا تخف ودخل ومشى بين البخار لا يعـرف علام يدوس بقدميه، تراب ناعم أم مخمل أم نجيل طـرى أم حرير، كانت هي تبتعد عند وسط البخـار، ولـولا المـلاءة

السوداء ما كان قد رآها وهي تبتعد، شيئًا فشيئًا، غاب البياض السواد، وغلبته الروائح الجميلة العجيبة للمسك والعنبر والكافور والبلسم التي تجعل الدنيا واسعة كبيرة، سحابة ولا أقل تحمله وتطير به بين السحب وبين المطر أيضاً!!

ظل يمشي، يمشي لأنه غير قادر على الوقوف وبخار الماء يشف لكن غرقًا على الجانبين تمتلئ بالبخار الكثيف وتهل منها الروائح العجيبة، وأجساد بيضاء وحمراء تسبح بين البخار ويسمع ضحكاتها، نساء تضحكن ضحكات كسلانة ورجال يهمهمون ، إخلع هدومك يا عيد، سمع الصوت وامتدت اليدان الطريتان النديتان تخلعان عنه قميصه وفانلته ثم تحمله الروائح العجيبة فيتعلق في الفضاء، وتنزل عنه اليدان الحانيتان بنطلونه وسرواله الداخلي بعد أن نزعت حذاءه الذي يلبسه دون جورب. لا يضع عيد جوربًا في قدميه. تعود أن يعود إلى البيت يخلع الحذاء ثم يخرج ماشيا حافيا في الشوارع. تعال معي يا عيد، وسحبته اليد الحنون، خطى العتبة، ورفع قدمه بخطوة نزل بعدها في ماء تاركًا اليدين الجميلتين تمشيان على جسده كله من عنقه حتى قدميه.

إنه يرى الوجه الجميل للفتاة، التي تفعل به ذلك، أنه يرى وجوها كثيرة لفتيات جميلات، وتمر على جسـده الآن أياد كثيرة حانية. ترى كم يدا وكم وجها؟ لا يعرف. كأنمـا مرآة تعكس مئات الأيادي والوجوه، وعلى جسده مشت أيـاد باللوف الخشن والصابون. وفعل الماء الساخن فعله فـانتعش عيد وارتخى جسده وأحس براحة سحرية وأوشك أن يضحك والأيدي الندية تمشي بين فخذيه، وضحك ولم يرتفع صـوته واهتز جسده بالضحك والنشوة واقتربت شفتان مـن شـفتيه وراحتا تسقيانه عسلا مصفى فبدأ يغيب عن الوعي. ما الذي شق صدره وأدخل فيه نورا وراحة وطمأنينة وحبا لأبيه وأمه وكروان والأولاد جميعا في المساكن. لقد رأى قبل أن يغيب عن الوعي وجوه بنات المساكن، الجوني وشـوقية وبدريـة ومشيرة وحسنة ونوال ونادية وحكمت وفاطمة على أجسـاد البنات اللاتي يحطن بجسده. علم هذا أم حلم؟. لقـد أحـبهن جميعاً الآن، ويراهن وقد تحـولن إلـى فراشـات بيضـاء وصفراء وزرقاء ويطوف في الحدائق التي لم يذهب إليها من قبل قط وحول جداول المياه الشفافة الرقراقة. إنه يركب الآن زورقًا رقيقًا تحمله مياه جدول دافق وهو يصرخ ويضـحك

ويقف ويجلس فوق الزورق الذي لا يتوقف حتى رأى نفسـه وسط شارع عبد النبي، وعدد من الرجال ينظرون إليه فـي دهشة. هو الآن يرتدي جلبابا أبيض نظيفًـا فـوق ملابـس داخلية نظيفة وجسده كله نظيف تشع منه الروائح المبهجـة، وعلى رقبته تعلقت مخلاة بها ثيابه التي خلعتها عنه الفتيـات الجميلات. أخذ طريقه إلى البيت صامتًا وطـوال الطريـق تجذب روائح المسك والبلسم والكافور والعنبر أنوف المـارة من الرجال والنساء وتكاد تحركهم من أماكنهم، لم يفكر فـي النظر إلى عيون النساء اليوم. وصل إلى البيت فهتفت أمـه في دهشة وفزع.

- أين كنت يا عيد؟

نظر إليها مبتسما وقال بصوت خفيض كأنه هسهسة الشجر.

- شفت الجنة!

سكتت أمه. خلع المخلاة المعلقة على رقبته وتركها تسقط على الأرض..

- هل تريد أن تأكل يا عيد؟

تأملها في دهشة. لم يستطع أن يقـول لهـا إنـه لا حاجة به إلى الطعام بعد اليوم.

( ٤ )

كلاكيت آخر مرة يا محمود ...

إلى أين تذهب به هذه العربة المحملة بالجنود؟. لقد نسى الجيش والسلاح فمن الذي وشى بـه؟ هـي الحـرب النظام والقانون يا محمود. لدى الحكومة سجلات تعود إليها لجمع الجنود الاحتياط عند اللزوم ولقد تم استدعاء الاحتيـاط من طول البلاد وعرضها فلماذا يتركونك!؟ ضحك الضـابط وهو يطلب منه أن يلحقه بقسم الإعلام. لماذا يـا عسـكري؟ لأن لدي فكرة ممتازة يا افندم عن الإخراج السينمائي وأريد أن أصور الحرب. لكنك في السجلات جندي مشاة عـادي لا تحمل أي مؤهلات علمية أو فنية، عسـكري مـيح يعنـي والإخراج علم وفن وشهادات؟! يا أفندم إلى متى تظل مصر بلد شهادات، لابد من إعطاء فرصة للخبرة!.

تمعن فيه الضابط مندهشًا من جرأته. للحظة شـك في سلامة قواه العقلية فطلب منه أن يقترب ثم يستدير دورة كاملة أمامه ثم راح الضابط يضحك عالياً ويقول:

- مخرج سينمائي مرة واحدة. طيـب، مـن أيـن حصلت على الخبرة يا عسكري مشاة يا ميح؟

- اشتغلت يا أفندم مع حسن الإمام في فيلم لك يوم يا ظالم..

- ومع من أيضاً؟

- مع يوسف شاهين في فيلم ابن النيل.

- وماذا فعلت في الفيلمين؟

- يا افندم أعطني الفرصة وأنت ترى.

- طيب اركب يا عسكري مع زملائك وسوف نرى!

ركب محمود مع الجنود الذين جيء بهم من البلاد. هل جمع المدثر كل هؤلاء الجنود؟ يا له من رجل هذا المدثر، أسود كأنه قطعة متحركة من الليل ويظهر دائما بالنهار! شيخ حارة كرموز الذي يظهر أمامك فجأة حاملاً لك مصيبة من قسم البوليس، وفي الوقت نفسه يكون جالسا في مقهى "سلامة الغلق" فتوة كرموز يكتب العرضحالات للناس. المدثر هو أول وآخر شخص يظهر في مكانين في وقت واحد!

وسلامة الغلق، صاحب المقهى، يجلس دائما صامتًا لكنه لا ينزل بصره عن المدثر، ضئيل الحجم جدا الذي يقف

أمامه هذا الطابور من طالبي الحاجات من قسم البوليس. لقد ولى زمن الفتونة الجميل. كان شيخ الحارة موجودا دائمـا، لكنه الفتوة هو الذي كان رجل الحي.

من يتخيل بحـري دون حميـدو أو السـيالة دون منصور أبو شجرة أو المنشية بدون أبو خطوة. من يتخيـل كوم الشقافة القريب بدون أحمد فايد، أو الباب الجديد بـدون محمد النجرو، وأين ذهب صيت على الفلاح في النزهة، وما أبأس النهاية التي انتهى إليها جابر النشار فتوة شارع فرنسا قبل الثورة. قطع ثدى المرأة المومس التي يحبها فـي كـوم بكير ليمنعها من الدعارة فقطع القوادون ساقه، وفي دكانـه، دكانه لحم الرأس والكوارع. ماتت المرأة بعد أسابيع ولحـق هو بها بعد أيام. قصة حب مثل روميو وجولييت لكن أبطالها فتوات وعاهرات وقوادون فلابد أن تكون النهايات مفزعـة. الموت وحده لا يفزع، لكنها الطريقة التي يموت بها النـاس. قضت ثورة يوليو على الفتونة والفتوات وأصـبح "أجعـص جعيص " يعلق في قسم البوليس كالذبيحة وتوضع العصا في مؤخرته، أو يركب في الفلقة ويمد على قدميه. وهل ينسـى الفتوات نهاية محروس أبو راس فتوة باكوس الـذي جعلـوه

يمشي عاريا تماما في شارع السوق وفي إليتـه رأس فجـل تهتز فروعها الخضراء وعسـاكر البـوليس تحوطـه مـن الجانبين، وكلما وقعت رأس الفجل أعادوهـا مكانهـا وهـو يمشي والدموع تسح من عينيه والضابط الشـاب والجنـود يطردون الناس المتجمعين ليقفوا بعيدا على الرصـيفين. لـم يكن الناس متعاطفين مع البوليس، وكادت تحدث ثورة لـولا أن محروس أبو راس جرى من وسط الجميع بسرعة مذهلة ليلقى بنفسه، أمام القطار القادم من محطة باكوس في طريقه إلى سيدي جابر. لقد سمع صوت صفارة القطـار قبـل أن يتحرك فأسرع قبل أن يمر عابرا المزلقان وانتهـى النهايـة التي تليق بالرجال. هكذا قال الرجال، لقـد انتهـى عصـر الفتوات، وأضافوا في عجب!

لقد لاذ سلامة الغلق بمقهاه ولم يتوقف عن النظـر بأسى إلى المدثر الحاكم الأوحد الآن فـي الحـي، بقميصـه الأبيض الوسخ دائماً وفوقـه الصـديري الأسـود المزيـت وبنطلونه الصوف الأزرق الواسع وبالمنديل المحلاوي يربط به رأسه صيفًا وشتاء. اسمه المدثر رغم أن أحدا لم يضبطه أبدا متلبسا بالنوم. شيخ حارة عجيب يتكلم فلا تسمع صـوته

لكنك تعرف ماذا يريد، ويقبل الإكرامية من التعريفـة حتـى الخمسة قروش ولا يكرهه أحد في كرموز. رآه محمود منـذ أيام قادما من ناحية كوبري كرموز يشق سواده اللامع بياض النهار، فأدرك إنه إنما جاء من أجله هو ولا أحد آخر.

- مطلوب في الجهادية يا سي محمود.

- عارف يا مدثر لكن هل قامت الحرب؟

- ستقوم غدا يا سي محمود. أسهل شيء على بني آدم أنه يشعل الحرب!.

لو أن الأرض كانت انشقت وبلعت أحـدهما ذلـك اليوم. لكن لا بأس، خبرة جديدة ستضاف إلى حياته بعـد أن يعود. يعود؟!. ألا يمكن ألا يعود!

يموت !. لا. إنه يشعر بالاطمئنان. لـم يحـدث أن فكر في الموت من قبـل فلمـاذا يفكـر فيـه الآن؟ هنـاك مشروعات كبيرة في الدنيا تنتظره، وهو منـذور لأهـداف عظمى لم تتحقق بعد، هو إذن مطمئن من ناحية الموت هذه !

الآن هم في مدينة الإسماعيلية. كـانوا ينتظـرون الأوامر لعبور القناة إلى سيناء فصدرت الأوامر للقوات فـي

سيناء أن تنسحب إلى الغرب والغـارات لا تتوقـف علـى بورسعيد. وضحت المؤامرة لسحق الجيش المصري. لمـاذا إذن يحتفظون به وزملائه؟ هل سيكون دورهم فقط اسـتقبال الجنود المسنحبين؟ الغارات الإنجليزيـة والفرنسـية علـى بورسعيد تشي بأن إنزالاً جويا سيحدث فوق المدينـة. مـن هناك تتقدم القوات المعادية لاحتلال مدن القناة كلهـا، لـذلك يسرع الجيش بالانسحاب قبل أن يحاصر بالكماشة في سيناء، الإنجليز والفرنسيون من الغرب، والإسرائيليون من الشرق. ربما يحتفظون بهم لصد أي قوات يمكن أن تتقدم في القنـاة إذا حدث ونزل الإنجليز والفرنسيون في بورسعيد. الأخبـار القادمة من بورسعيد لاتسر. حرائق وتفجير للبيوت، ورحيل مروع إلى القرى المجاورة. لكن هل حقـا سـيعطيه هـذا الضابط فرصة الإخراج السينمائي، فرصة صنع فيلم حـي، لايف، عن الأحداث؟ لا يظن كلاكيت آخر مرة يا محمـود. ستعود إلى الإسكندرية دون أن تصنع فيلمـا عالميـا عـن الحرب مثل الأفلام عن "طبرق" أو "العلمين". سـيناء أيضـا صحراء مثل الصحراء الغربية التـي جـرت فيهـا وقـائع الفيلمين العالميين أثناء الحرب العالمية الماضية، ممكن جـدا

أن يعاني الجنود في الخنادق من الفئران كما عانى جنود فيلم "طبرق" وممكن جدا أن تهاجمهم دبابات الأعداء فيصـوبون إليها قذائفهم الخارقة للدروع فتتعطل وتحترق فـي اللحظـة التي يبدو فيها أنها ستهدم الخندق على من فيه، يطل الجنـود من فوهة الدبابات يحاولون الهرب أو الاستسلام فتحصـدهم الرشاشات ويتدلون قتلى على فوهة الدبابات منكسي الرءوس تتهاوى خوذاتهم معلقة حول رقـابهم وينسـكب الـدم مـن صدورهم وأكتافهم على الدبابات الصفراء. ينصب بسـرعة مستشفى ميدان كبير فـي الخطـوط الخلفيـة تـأتي إليهـا ممرضات جميلات مسلمات من الهلال الأحمر وقبطيات من الصليب الأحمر. سيعشـق الجنـود الممرضـات وتعشـق الممرضات الضباط المصابين ولا يصل الجنود للممرضـات ولا تصل الممرضات إلى الضباط ويحمل الجميـع مناديـل الوداع يلوحون بها والحزن على وجـوههم والـدموع فـي عيونهم وصوت المذيع الجهوري القوى يعلق على المشـهد "هذه هي الحياة لقاء وفراق، حب وألم، وتقـدرون فتسـخر الأقدار!. ينتقل الفيلم بعد ذلك من حروب المشاة والمدرعات إلى حروب البحرية. رشاد على ظهر المدمرة "نصر" التـي

تطلق قذائفها على مدمرة للعدو. غواصة إسرائيلية تظهر من بعيد قادمة في خبث تحت الماء تغوص أكثـر مثـل حـوت يضمر الشر. تطلق طوربيدها الـذي يجـري يشـق المـاء الأزرق فيجعله أبيض على الجـانبين، "يلـبس" الطوربيـد للأسف في المدمرة التي يقفز جنودها إلى الماء في رعـب. رشاد يقفز أيضا مصابا في فخذه والدم يلون المـاء الأزرق كنافورة. لا يعود رشاد المسكين إلى فاطمة. يأخذ هو فاطمة إلى المقبرة الرخامية وسط المقابر التي يعلوها نبات الصبار الأخضر والبنفسجي.

تضع فاطمة باقة من القرنفل الأحمر متشحة بالسواد وعلى وجهها بيشه سوداء شفافة وترف أهدابها قليلاً وتنـزل على خدها دمعة هادئة. موقف جليل حقا، والمقابر الرخامية لامعة وسط الشتاء، على شاهدها نقش يقول هنا يرقد زهـرة شباب الوطن رشاد الذي كان يحب فاطمة، الجليـد يغطـي الأرض والثلج الطائر ينزل من السماء خطوطًا بيضاء هشة فيزداد ارتفاع الجليد، وأشجار البلـوط والكسـتناء العاليـة سقطت أوراقها واحترقت من البرد فوقفت سـوداء عاريـة يتعلق بها الجليد الأبيض حول المقابر. لا إله إلا الله هل تآكل

عقله؟ من أين سيأتي الجليد في مصر؟ ليعد بسرعة إلى فيلمه عن المشاة في الصحراء. ليترك تصوير المعارك الحربية إلى مخرج كبير مثل صلاح أبو سيف ولمصور بارع مثل وحيد فريد. الأفضل أن تكون مقبرة رشاد في الصحراء وسط الرمال والشمس اللاهبة وفاطمة في زي الحداد الأسود الخفيف. تضع على رأسها برنيطة فرنسية مائلة وعلى وجهها خمار خفيف. لا حول ولا قوة إلا بالله. رشاد في البحرية فكيف يموت في الصحراء؟ رشاد هذا سيفسد الفيلم كله. ثم لماذا يصر على استشهاد رشاد مع أنه لا ينافسه في شيء؟ الأفضل أن يعود رشاد بعد الحرب إلى المساكن ويجلس معه على الرصيف الممتد خلف البيوت أمام شارع قنال المحمودية وأمامهما الصبيان والبنات يلعبون وتمر النساء الجميلات بالملاءات اللف والفتيات الأجمل قادمات من كرموز وكوم الشقافة وكفر عشري لشراء السمك، ولا مانع أن يشاركهما سليمان الجلوس ويحدثهما كالمعتاد عن أزمة الإنسان المعاصر التي لم يفهماها منه أبدا، كما يشاركهم نسيم ويحدثهم عن حلم حياته في السفر إلى كندا بعد أن ينتهي من التعليم، ويتفرجون على محمود القزعة وهو يتفرج على

النسوان مبحلقًا في سيقانهن وأردافهن التي تتحرك بسرعة لا تقل عن سرعة أفواههن وهن يمضغن اللبان! عـادة يجلـس محمود القزعة بين صناديق السـمك الفارغـة والسـيجارة "المعدن" الرفيعة لا تفارق أصبعيه ولا يكف خلال متابعتـه للنساء عن تحريك فكه الأسفل كأنه يحـولهن إلـى شـيء يمضغه. أجل، كثيرا ما تأتي نساء إلى الملاحـة ولا تعـود. يختفي أصلهن وخيالهن. أين يمكن أن تذهبن؟ لابد أنه هـو محمود القزعة قد مضغهن ولابد أنه ابتلع كثيرا جـدا مـن النساء على مر السنين.

كلاكيت آخر مرة محمود...

لقطة كبيرة للجنود فوق العربات المصفحة يعبرون شوارع المدينة. حنحارب، حنحارب، كل الناس حتحـارب. الشوارع ممتلئة بالزينات تدعو للنصر. الناس من البلكونات وعلى الأسطح والأرصفة يصفقون ويزغردون. الفتيات تقبلن الجنود. جمال عبد الناصر يتقدم الجنود رافعا ذراعيه ملوحا للجماهير بعلامة النصـر التـي اخترعهـا تشرشـل مـلـك الإنجليز!! يعبر جمال عبد الناصر قوس النصر في شـارع الشانزليزيه، وتنطلق الصواريخ الملونة والـورود ويطيـر

الملح والأرز فوق الرءوس وتتقاطر الفتيات من كل ناحيـة لتقبيل الجنود ويلقين بأنفسهن في أحضانهن.. ما هذا .. هـذا فيلم عن دخول باريس. المشهد كله مسروق من عودة ديجول إلى فرنسا بعد غزو نورماندي. فرنسا تحاربنا الآن. فرنسـا إذن غير جديرة بأن أستعير منها شيئًا. أريد فيلمـا مصـريا مائة بالمائة. قال لنفسه. فلنعد إذن إلى الصحراء. طـائرات المستير الفرنسية والكانبيرا البريطانية تغير على الجنود الذين ينبطحون على الأرض في مساحات شاسعة. اللهب يمسك في الخيام والأكشاك. النار ترتفع إلى السماء. انفجارات هائلـة. ودخان يملأ الفضاء. الانفجارات تتوالى. إنه مخزن الذخيرة نفسه الذي انفجر. العربات المجنزرة والعربات النقل تحترق وتنفجر وتطير شظايا أمام عينيه. اللهم ارحمنا. لم ير حربـا من قبل. حين أدى الخدمة العسكرية الإجبارية كان ذلك بعـد حرب فلسطين بعامين. من الذي قال إنـه يريـد أن يصـنع فيلما؟ . لكن الطائرات تبتعد ولا يبقى فـي الفضـاء غيـر الصمت ورائحة البارود والدخان. يقفز جنود الخنادق. والذين انبطحوا أرضا ولم يصابوا بأذى لإنقاذ زملائهم. يحملـونهم ويجرون بهم إلى الخلف لتحملهم السيارات إلـى المستشـفى

داخل المدينة. ترتفع الأصوات وتتداخل. يا إلهي لقد كانـت غارة حقيقية.

لم يكن ذلك فيلما يـا محمـود. مـات الكثيـرون والجرحى أيضا كثيرون يصرخون ويئنون حوله. كلاكيـت آخر مرة يا محمود. رأى الضابط يقترب أغبر الثياب مصفر الوجه. لقد كان هو نفسه كذلك وأكثر.

- تعال ورائي يا عسكري.

كان يريد أن يجلس في مكان بعيد، وحده، وينفجـر في البكاء. أجل، لم يحتج للبكاء حاجته إليه اليوم. يا للضابط ذي القلب الحديد القاسي. رأى الضابط يمشي حتى ينزل إلى خندق تحت الأرض، مقر القيادة، لا يزال سليما لـم تهدمـه الغارات. وجد خمسة جنود وضابطًا أصغر رتبة.

- استعدوا غدا للسفر إلى بورسعيد.

............

- الضرب شديد على بورسعيد وهناك توقع لإنزال جوي بالمدينة.

........

- سيكون عليكم المساهمة فـي تنظـيم المقاومـة الشعبية.

........

- سيكون قائدكم الملازم نجاتي.

وأشار إلى الضابط الذي يقف معهم واستمر يتحدث.

من الآن حتى الغد تجهزون الذخائر والأسلحة التي ستأخذونها معكم. ستركبون السيارات حتى المطرية. هنـاك سيقابلكم شخص اسمه "الخميسي" طويل كأنه باب، يتحـدث كثيرا بمناسبة وبدون مناسبة، لكنه وطنـي وسيسـهل لكـم الاختباء بالمدينة حال حدوث إنزال جوي.

ثم نظر إلى محمود نظرة طويلة وقال.

سيحضر الإنجليز والفرنسـيون معهـم كـاميرات كثيرة، تستطيع إذا استوليت عليها أن تصـنع الفـيلم الـذي تريده..

لكن ذلك لم يعد الفيلم الذي يريده محمود. طيـران إلى الإسكندرية أين هي الآن وما السبيل إليها. كلاكيت آخر مرة يا اسكندرية. لقطة عامة كبيـرة للمدينـة مـن البحـر تستعرض القوس الكبير الذي يحتضن البحـر والعمـارات

الكلاسيكية وأشجار النخيل من قلعة قايتباي حتى قصر المنتزه. الكاميرا تقترب من وسط المدينة. ترتفع وتتجاوزه إلى ميدان الشهداء، ميدان الجمهورية، أمام محطة مصر، تصور البيوت القديمة المتساندة على بعضها، تمشي الكاميرا فوق المدينة. يستطيع أن يمر على جميع الأحياء والشوارع. إنه يحفظها لكن يريد بسرعة أن يعود إلى البيت. هواء الإسكندرية الجميل يحمله طائرا مع الكاميرا بسرعة عابرا فوق شارع عمر بن الخطاب داخلاً في شارع مسجد السلطان إلى البياصة إلى باب سدرة إلى شارع عمود السواري إلى كوبري كرموز طائرا فوق المحمودية إلى منتصف المسافة بين كرموز وكفر عشري وينزل الأرض حاملاً الكاميرا. هنا مساكن السكة الحديد، أمامها ترعة المحمودية والمعدية التي تنقل الناس إلى محطة الترام وإلى كوم الشقافة وخلفها خطوط السكة الحديدية بالقباري، أكثر من خمسة وثلاثين خطا تدخل وتخرج من الجمارك. السكك الحديد التي فوقها القطارات التي كم حملت من معدات الحرب الإنجليزية أثناء الحرب العالمية الثانية، وكم حملت من الأسرى الألمان والطليان، السكك الحديدية التي يعمل فيها أبوه وكل الآباء

هنا، والتي يعمل الديب فوق قطاراتها مقضيا أكثر عمره في الفضاء، وإلى اليمين الدكاكين الثلاثة للعنيبسي والسيد خليـل السيد الأعرج. الأولان يبيعان كل شيء من البقالـة إلـى العلافة، الأخير يبيع الخضر والفاكهة ولا يشتري منه أحـد، والكاميرا تقترب من تصوير غلام يخرج هاربا مـن تحتـه وهو يحاول النزول به إلى الأرض! على المحموديـة يقـف حبشي عاريا يصـرخ صـرخة طـرزان وحولـه أطفالـه الحقيقيون واللقطاء، ثم يتقدمهم قافزا إلى الماء. على جدران المساكن كتابات بخط ركيك. حج مبرور وذنب مغفور. لـم يذهب أحد منهم أبدا إلى الحج. فقراء لا يستطيعون إليه سبيلا !.

لو ترك الكاميرا تستعرض المكان والناس لاحتـاج إلى عشرة أفلام. لا يريد فيلما الآن. يريد أن يأخذ طريقه إلى البيت لينام بعد أن نزل الأرض بسلام. يشم رائحة البيـوت المكتومة، والشوارع المخنوقة بالعشش التي أقاموهـا أمـام البيوت وملأوها بالماعز والدجاج. أنه يفتح صدره يتنشق في سعادة الروائح القديمة المقبضة للمكان الذي صار بعيدا جـدا الآن. لقد تقرر ذهابه إلى بورسعيد ولا جدال فـي الجـيش،

يبقى الأمر في يد إنجلترا وفرنسا فهل تبغيان؟ أغلب الظـن إنهما ستهاجمان المدينـة. إذن لـيس أمامـه إلا النصـر.. سيحارب بشجاعة ولن يفكر مرة أخرى في الأفلام.!

( ٥ )

وضع سليمان كل الصحف والمجلات التي اشتراها أمس من محطة الرمل أمامه فوق المنضدة القديمة، وجلـس على المقعد الخشب القديم، فوق السطح في الصـباح يقـرأ ويقلب فيها. لقد دفع فيها مبلغًا محترما هو حصيلة الضـفادع التي باعها للطلاب طوال الأسبوع. إنه يصطاد الضفادع في الأماسي من البحيرة ويبيعها لطلاب القسم العلمي بالمدرسـة يقيمون عليها تجاربهم في التشـريح. الأهـرام، الأخبـار، المصور، روزاليوسف، والإيجيبشيان جازيت وكلها تقريبـاً

تتحدث بأسلوب واحد عن تطورات الهجوم العسكري على مصر. كل ذلك حتى لا يرى جين بانكروفت !؟ يا الله؟ كان يمكن أن ينقطع عن اللقاء معها دون حاجة إلى كل هذا العدوان على البلاد. لقد وقع الاعتداء الإسرائيلي في مساء الاثنين تسعة وعشرين أكتوبر، وكان يجلس معها في كافيتريا على كيفك مساء الأحد ثمانية وعشرين أكتوبر.

كانت تنظر إلى المارة أمامها في محطة الرمل، كأنها تملأ عينيها من المكان والناس قبل أن ترحل. ترحل!؟. وهل رحلت حقا؟ قالت له ألا يحاول الاتصال بها إذا وقعت الحرب، وإنها سوف تجد طريقة للاتصال به. كيف صدقها؟. كان عليه أن يحاول الاتصال. قال لها أنه لا يتوقع حربا، وإن الأمم المتحدة ستجد مخرجا للأزمة. فقالت له إنها تعرف بلادها جيدا، وتعرف أن إيدن يريد عملاً يدخل به التاريخ، تلميذ لتشرشل، لكنه تلميذ خائب، أخرق، وإن جمال عبد الناصر أيضا يريد أن يدخل التاريخ، بل لعله قد دخله بالفعل بقرار تأميم القناة هذا. قرار تأميم القناة أخطر من قرار الثورة نفسه، جمال عبد الناصر متهور، وإذا التقى أخرق ومتهور فماذا تنتظر غير الحرب. قال لها إنه يكره السياسة

والسياسيين، قالت هي كذلك تكرههم لكن للأسف هم الـذين يحركون العالم. انظر كم هو عالم تعيس هذا الذي نعيشـه. ولم يكن هو في حاجة إلى من يقنعه بتعاسة العالم، لكنه كان يرى أسبابا أكثر عمقًا، أسبابا تتعلق بالوجود الإنساني. بسوء الفهم الذي يكتنف الوجود الإنساني ويؤدي إلـى كـل هـذه الصراعات. لقد قرأ في الفلسفة الوجودية، أحب على وجـه الخصوص البير كامي. وكان مبتسما وسعيدا كمن لا يعنيـه شيء فسألته وهي في غاية الدهشة..

- ألا تعرف حقاً ماذا يمكن أن يحدث لـو قامـت الحرب بين مصر وبريطانيا؟

- ربما تحتل بريطانيا مصر لكن الشعب المصري سيقاوم بشدة.

- مع بدء الهجوم سيقوم عبد الناصر بطـرد كـل الإنجليز من مصر، وإذا اشتركت أية دولة في الهجوم مـع إنجلترا سيلاقي رعاياها المصير نفسه.

انتبه في تلك اللحظة إلى ما يؤدي إليه الكلام. قال.

- تقصدين إنني لن أراك؟

- أجل. لن تستطيع حتى أن ترسل خطابا لي؛ لأن كل الخطابات التي ستذهب إلى انجلترا أو ربما أوربا كلهـا، أو تأتي منها، ستخضع للمراقبة .

أنت لا تعرف بلادك يا سليمان!

لم يضايقه ذلك. هـو لا يعـرف إلا هـذه البقعـة الهامشية من الإسكندرية، وجين هـي التـي أخذتـه إلـى الاسكندرية كما يجب أن تكون. لكن ما يضايقه هو إنـه لـم يفكر فيها من قبل كأجنبية أبدا. دائما كان يراهـا مصـرية، وبعد كل لقاء معها وسط الأجانب كان بعد أن يتركها ويعود لا يفكر فيها إلا كمصرية يعرفها من زمن قديم وتعرفه، رغم اسمها الصعب، بانكروفت، الذي قال لها إنه يصلح ماركـة سيارة أو كرافتة فلم تتوقف عن الضحك لأيام عديـدة بعـد ذلك. مد يده أمسك بيديها وراح يتأملها كمـن يتأمـل شـيئًا يوشك على فقده.

- لن نعود معا بالترام هـذه الليلـة. لا داعـي أن توصلني إلى البيت. الشارع والناس كلهـا ضـد الأجانـب. انظر، حتى الجالسين في "على كيفك" وأكثـرهم يونـانيون وإيطاليون ينظرون إلي.

كان قد تعود بعد كل لقاء أن يركب معهـا التـرام حتى القصر الذي تسكنه مع عائلتها في بولكلي.

- لا أحب أن أودعك سليمان، لكن...

نهضا ، لم يتركها إلا عند السيارة الرولز رويـس التي تنتظرها أمام اتينيـوس فـي الزقـاق المـؤدي إلـى الكورنيش. لم يكن يعرف أنها تحبه أبدا لم يتصور نفسه أكثر من نزوة إنجليزية . قليل من الشطة في الطعام البارد. لكنـه اكتشف ذلك المساء أن الأمر مختلف.

لقد تطورت الأمور بسرعة بعد الهجوم الإسرائيلي على مصر، وبدا واضحا أن إسرائيل تستهدف سيناء كلهـا، جرت معارك باسلة في الكونتيلا ونخل وأبو عجيلة وكانـت القوات الإسرائيلية، على طريقة روميل في الحرب العالميـة الثانية، تترك المواقع المصرية خلفها وتتقدم مسـنودة مـن البحر بقذائف البارجات الإنجليزية والفرنسية. لقـد وجهـت إنجلترا وفرنسا إلى إسرائيل ومصر إنـذارا بوقـف القتـال والانسحاب عشرة أميال على جانبي خط القتال، كان واضحا منه أن تحتل إسرائيل سيناء وهي المعتديـة، كمـا احتـوى الإنذار ضرورة قبول مصر قوات إنجليزية وفرنسية في مدن

القناة؛ بورسعيد والإسماعيلية والسويس، وأن تتلقى الـدولتان إجابة خلال اثنتي عشرة ساعة.

لقد صرح "أرمان دو شايلا " سفير فرنسا السـابق في مصر بأن ما نسجته فرنسا في مصر طوال قرن ونصف القرن، بهدوء وعلى مهل، أضاعته ساعة واحدة من يوم ٣١ أكتوبر. وهو اليوم الذي بدأ فيه العـدوان بعـد أن رفضـت مصر الإنذار واعتبرته موجها لصالح اسرائيل.

تقرر سحب الجيش المصري من سيناء على عجل حتى لا يتم تدميره من الغرب بإنجلترا وفرنسا ومن الشـرق بإسرائيل، وتم سد منفذ القناة من ناحية بورسـعيد حتـى لا يتكرر خطأ عرابي عام ١٨٨٢ حين خشى من غضبة الدول الأجنبية فترك القناة مفتوحة للقوات البريطانية، وخطب عبد الناصر طالبا الصمود من الشعب، وأن الحياة الذليلـة هـي العبودية والموت خير من الذل، وقـررت وزارة الصـناعة الاستيلاء على شـركات البتـرول الإنجليزيـة والفرنسـية وممتلكاتها وأموالها، شل والأنجلو إيجيبشيان وسب، واستقال انتوني ناتنج وزير الدولة البريطاني من الـوزارة احتجاجـا على الهجوم وعرض داج همر شلد استقالته من سـكرتارية

الأمم المتحدة احتجاجا أيضا. قال في أسف: " لقد ضاعت كل الجهود الضخمة التي بذلناها للوصول إلى تسوية" وهاجمت الطائرات البريطانية القاهرة في غارات متتالية فأصابت مبنى الكلية الحربية ومطار ألماظة الدولي. وبعض الأماكن في شبرا، ونددت روسيا بالعدوان، وكذلك أميركا، والهند، والدول العربية، وفتح باب التطوع في البلاد للقتال، لكن المحلات أعلنت عن الأوكازيون الشتوي الكبير الذي بلغ فيه سعر متر الكستور أربعة عشر قرشًا. وتقاطر الناس لمشاهدة فيلم "كوفاديس" بسينما مترو بالإسكندرية ولم يخشوا الغارات. لقد تحصنوا ضدها بغارات الحرب العالمية الثانية التي لا تزال في الذاكرة، ولا يظن أحد أن غارات هذه المرة ستكون بتلك الكثافة التي كان يأتي بها الألمان والطليان. تلك كانت غارات دول فتية قوية، الآن غارات دول جار عليها الزمان، انتصرت في الحرب الثانية حقا، لكنها فقدت كل نفوذها في المستعمرات. أما إسرائيل فليست بالدولة التي تصل طائراتها بعد إلى أعماق البلاد. لكن أميركا بدأت في ترحيل رعاياها من مصر، ووصف شبيلوف وزير خارجية الاتحاد السوفيتي الهجوم بأنه عمل من أعمال العصابات، وقبض رجال

البوليس في المعادي على يهودي يرسل إشارات ضوئية للطائرات الإنجليزية، وقررت محكمة مصر حصر إيراد حفلات أم كلثوم في القضية المرفوعة من الفنان زكريا أحمد ضدها وضد الإذاعة المصرية. وفي سيدي بشر أوقف شاب جالس في سيارة جندي بوليس وطلب منه مشاركته في تدخين سيجارة حشيش فقبض عليه الجندي في الحال، وثار جدل حار بين الجالسين على جانب دكان أحمد العنيبسي على يسار السلم المؤدى إلى القبو الذي يفضي إلى الملاحات، ويزداد النقاش ويحتدم أكثر إذا وقعت غارة نهارية للطائرات طاردتها المدافع المضادة المنصوبة فوق المساكن ومن كل مكان في المدينة حتى تبتعد أو تسقط بعيداً.

- إنجلترا لا تريد أن تعترف بأنها شاخت.

- الإمبراطورية التي كانت لا تغيب عنها الشمس تريد العودة إلى مصر.

- إلى الشمس.

ها. ها. هيهات.

- المثل الفرنسي يقول "شيرشيه لا فام"، فتش عن المرأة عند وقوع أي جريمة، وأنا أقول فتش عن إنجلترا إذا وقعت أية حرب.

قال ذلك تاجر البهار "فلفل مطحون" كما يسمى نفسه والذي لا يعرف أحد كيف لا يجد لنفسه عملاً في أي من دكاكين العطارة بالمدينة ولا من أين جاء أو أين يمضي كل مساء. ومحمود القزعة يتابع الحوار متأففًا، فهو غير قادر على هضم أن رجلاً مثل جمال عبد الناصر يقف ضد الإنجليز. تضايقه هذه المسألة ويشعر بأنه، عبد الناصر، يعطي لنفسه ما هو أكبر من حجمه، وأحيانًا يتخيل أنه يريد أن يغيظه هو شخصيا بطوله الفارغ وسلوكه الجريء. لكنه لا يستطيع أن يكذب على نفسه، فهو معجب بوطنيته وشجاعته وإن لم يصرح بذلك.

وقال واحد:

- كل هذه الحرب من أجل تأميم القناة. ماذا كانت ستفعل إنجلترا لو كنا أخذنا منها شيئاً في بلادها هي؟

وقف تاجر البهار يقول بجدية شديدة..

- لا تندهشوا من هذه الحرب. لقد حاربت إنجلترا، إنجلترا وليس دولة أخرى، العالم كله من أجل البهارات.

- نعم !؟. بهارات. يقول بهارات. أية بهارات يـا رجل يا مطحون الرأس أنت ؟

- أنتم جهلة. جهلة حقيقيـون. إن أي تلميـذ فـي المدرسة يعرف أن إنجلترا احتلت الهنـد للحصـول علـى البهار.

بدت عيناه حمراوين وسط وجهه الأسود. وبدا شكله مضحكًا في ثيابه الشتوية القديمة، خاصـة بنطلونـه شـديد الضيق عند الحذاء. لكنه كان نظيف الوجه واليدين، حريصا على ألا يفتح الطريق لأية شعرة بيضاء، فدائما يوالي شعره بالصبغة السوداء التي يقوم بتصنيعها بنفسه. استمر يتكلم وقد أمسك نظارته ذهبية الإطار بين أصابعه.

- لقد وصلت البرتغال أولاً إلى الهند أيها الجهلـة منذ أكثر من أربعمائة سنة، لكن إنجلترا ظلت تحلـم بطـرد البرتغال ..

كانوا مندهشين جدا من حديثه بمن فـيهم محمـود القزعة وسليمان حتى أن أحدا لم يعد ينتبه لمرور النساء من أمامهم.

- لقد بدأ العصر الحديث كله فـي اللحظـة التـي اكتشفت فيها بلاد التوابل. في البدء حاولت إسبانيا والبرتغال. البرتغال هي التي نجحت ووصلت سفنها إلى سواحل الهنـد، إسبانيا تعثرت في أميركا وانشغلت في اكتشافها وتقتيل الهنود الحمر. أليس كذلك يا أستاذ سليمان؟

كان سليمان معجبا بحق من ثقافة الرجل العجيبـة، فهز رأسه بالموافقة والإعجاب.

- كانت التوابل تصل قديما قبل اكتشـاف طريـق رأس الرجاء الصالح عن طريق البر عبر إيـران والشـام، والبحر حتى سواحل عدن ومنها إلى السويس ثم بـرا إلـى الإسكندرية ودمياط ثم البندقية، فينيسيا التي غنى لهـا عبـد الوهاب قصيدة الجندول، وجنوا وغيرها من بلاد الطليـان. ماذا أقول لكم أكثر من ذلك يا بهائم. إنها تجارة "الكارم" التي احتلت مكانًا كبيرا في التاريخ. هل تعرفـون معنـى هـذه الكلمة. ليس ذلك مهما. المغاربة يعرفونها إذ لا يقدر قيمـة

البهار أحد مثل المغاربة أهل الأسرار، والعطارة أسرار فيها من نفحات الرحمن الكثير فلا تسخروا من الفلفل مطحونًا أو غير مطحون ففيه فوائد جمة، والفلفل، ولا تقاطعوني، إمـا أسود وهو ما تعرفونه، وإما أبيض وهو مـا لا تعرفونـه. الأسود الذي يجفف دون أن ينزع جلده والأبيض ينزع جلده، والأبيض أقل لذعا وأخف على المعدة، لكن نحـن شـعوب الشرق نحب الأسود الحامي، وغيطان الفلفـل تكثـر فيهـا الأفاعي فيحرقونها فيسود الفلفل ! ما رأيكم ؟ !

كانوا ينظرون إليه جميعا بإعجاب ويشعرون أن ما يقوله شيء حقيقي فاستمر يتحدث. هذا ما كان يعتقده النـاس زمان لكن ابن بطوطه جاء من المغرب ووصل إلى الصـين وفي الطريق مر بساحل ملبار بالهند ورأى كيـف يضـعون بذور الفلفل على الحصير تحت الشمس فيسود ويتكـرمش، وكذلك فعل ماركوبولو الإيطالي الذي جـاء أيضـا ليـزور الصين. أي نوع من الناس كانوا في زمـن لـم تكـن فيـه قطارات ولا طائرات ! ثم وصل البرتغاليون إلـى سـاحل ملبار كما قلت لكم ونقلوا الفلفل بكميات كبيرة إلى أوربا، لقد وصلت قيمته يوما ما إلى أن اليهود اندفعوا يتـاجرون فيـه

وأنتم تعرفون أن اليهود لا يتاجرون في شيء خاسـر. لقـد صار الفلفل مثل العملة يدفع منه التجار الجمارك كما يدفعون الفضة، وأحيانًا كانوا يدفعون الفلفل فقط. أصـبحت تجـارة الفلفل كبيرة وأصبح كل بيت. في العالم فيه فلفل يا فلفل، قال الكلمة الأخيرة بصوت خاص لامـرأتين سـمينتين تمـران أمامهم ثم اتجه إلى الجالسين وقال، فهل تسـكت إنجلتـرا؟ جاءت وراء البرتغال وحاربت جيوشها على سـاحل ملبـار بالهند وطردتها وأخذت مكانها، بـل أخـذت الهنـد كلهـا فأصبحت درة التاج البريطاني، وكل ذلك من أجل السـيطرة على مزارع وأسواق الفلفل فكيف بالله لا تريدونها أن تعلـن علينا الحرب لاستعادة قناة السويس التي هي ليست أقل مـن الفلفل!.

ظلوا ينظرون إليه غير مصدقين أن لديه كل هـذه القدرة على الحديث، بدا أنهم مستسلمون تماما لقدراتـه فـي الوقت الذي كان فيه الأولاد يحيطون بمجنون الغنـاء الـذي صار يظهر كل يوم منذ بدأت الحرب وكانت العادة أن يظهر مرة كل أسبوع أو عشرة أيام. أصاب المجنون ذعر شـديد يصيبه كلما أحاطوا به. انكمش وتراجع إلـى الحـائط. بـدا

جلبابه نظيفًا رغم كثرة الرقع التي خلفه. هذا يعني أن أحدا لا يزال يعتني به.

لقد ظهر كالعادة قادما من ناحية كفر عشري متجها إلى كرموز. لم يره أحد عائدا في الطريق المعـاكس أبـدا. يمشي بضعة أمتار ثم يقف يحك ظهره في الحـائط بقـوة، يظهر الألم واللذة في عينيه وعلى وجهه وهو يفتح فمه ويكز على أسنانه ويبدأ يغني "ياريتني طير وأنا أطيـر حواليـك" لا يتقدم عن هذه الشطرة أبدا. يعود للمشي من جديد عـدة خطوات ثم يقف يحك ظهره ويغني. أسنده مصـطفى إلـى الحائط كما يفعل كل مرة ولم يعطه فرصة لهـرش وحـك ظهره فظهر الضيق شديدا على وجهه والألم حتـى بـدا أن روحه سوف تهرب منه، فأطلقـه مصـطفى فـي اللحظـة المناسبة ليبتسم ويعود يحك ظهره ويغني بصوت رفيع فاتحا شفتيه ضاغطًا على أسنانه فيخرج الغناء وكأنه أنين عجيب. ياريتني طير وأنا أطير حواليك. يا ريتني طير وأنـا أطيـر حواليك.

- هل تعرف أن الحرب قامت يا روح أمك ؟

لم يرد. لم يزد على الابتسام.

- طيب. هل تحب أن تتطوع في الجيش؟

يبتسم.

- تعرف يا فريد، أنت الوحيد القادر على هزيمة أولاد القحبة.. ضحكوا. لم يكن اسمه فريد، لكن الأغنية في الأصل يغنيها فريد الأطرش. تركوه يمضي لحال سبيله وعادوا إلى جلستهم المعتادة عند سلالم الماكينة الحمراء، وهي حمراء للون الطوب المستخدم في بنائها، وهي ماكينة رفع المياه من المحمودية لا يعرف أحد إلى أين، يديرها الخواجه "بطسو" اليوناني الذي يغلقها الساعة الثالثة بعد الظهر ويمضي إلى بيته. علاقة الخواجة بطسو بالجميع محدودة هنا. لا يثيرهم فيه إلا وجهه شديد الاحمرار. نادرا ما يتكلم مع الكبار، وإذا تكلم مع الصغار فهو يطلب من أحدهم أن يشتري له بيضتين أو ثلاثًا من أحد بيوت المساكن. لا يشتري أبدا من الدكاكين، وأهل المساكن لا يبيعون إلا له فهو غريب. بدءاً من العصر يتجمع الأولاد على الدرجات الثلاث التي تؤدي إلى باب الماكينة وأمامها، بعضهم يجلس على الدرجات نفسها والبعض على الأرض. وإذا اشترك سليمان أو غيره من الكبار يحضر كل منهم كرسيا من

الخيزران معه من البيت. لقد فاجأ محمود القزعة سليمان بعد حديث تاجر البهار قائلاً...

- ألم تجد لي طريقة بعد يا أستاذ سليمان في استرجاع اليوم الذي ضاع؟ دهش سليمان، ذلك موضوع قديم كان قد نسيه... في شهر رمضان الماضي سأله محمود القزعة..

- الإنسان إذا أفطر في رمضان غير قاصد لذلك يستطيع بعد رمضان أن يعوض أيام الإفطار بصوم مثلها. أليس كذلك يا أستاذ سليمان؟

- أجل يا معلم محمود. الدين يسر.

- طيب ماذا يفعل الإنسان إذا صام يوما وأراد أن يعوضه بالإفطار ؟.

- لا أفهم ماذا تقصد بالضبط.

- كيف تفهم الأولى ولا تفهم الثانية؟

- صدقني أنا غير قادر على فهم قصدك. على أي حال تستطيع أن تفطر أي يوم.

- يا أستاذ كيف أفطر وأنا طبيعي فاطر؟ شف لي طريقة لاسترجاع اليوم الذي صمته الله يخليك.

ازداد اندهاش سليمان وقال..

- ولماذا ترهق نفسك وترهقني هكذا، ألست مسلما يا رجل؟

هنا اندفع محمود القزعة قائلاً.

- مسلم. واسمي محمود علي محمود لكني ابن ديك كلب جبان لا ينفع معي دين ولا إسلام وأريد أن يعـذبني الله أبشع تعذيب لما ارتكبت من آثام. لقد صمت يوما أريـد أن أستعيده ولا أستطيع. لقد هرب مني في قلب الزمن يا سليمان أفندي يا متعلم..

وقف سليمان ذلك اليوم في غاية الحيـرة، وهـاهو محمود القزعة يعيد السؤال بعد حديث تاجر البهار فتعود إليه الحيرة القديمة، زائدة هذه المرة بسبب ما يجري في الـبلاد، وبسبب افتقاده جين بانكروفت أكثر. ترك المكـان ومشـى ناحية الأولاد عند الماكينة الحمراء وارتفع صـوت محمـود القزعة خلفه " عليه العوض في التعليم والمتعلمين".

لكن ذلك لم يكن كل ما جرى منذ بدأت الحرب. لقد عاد الديب من رحلته فوق قطار البضاعة في اليـوم الثالـث للمعركة، رأى الأولاد جالسين أمام الماكينة الحمراء فأراد ألا

ينتبهوا إليه ومشى على الرصيف لا ينظر ناحيتهم. رأوه فنادوه، كان بينهم سليمان مشغولاً بتلميع حذائه. عادة يفعل سليمان ذلك كل يوم. وإذا لم ير أحد معه حذاء يلمعه يكون معه كتاب يقرؤه. قال لهم الديب.

- حكاية اليوم لن تصدقوها أبدا..

الديب يعمل "مسفرا" على قطارات البضاعة الخارجة من ميناء الإسكندرية إلى طول وعرض البلاد. والمسفر هو حارس ليلى ونهاري يجلس دائما فوق العربة الأولى أو الأخيرة يمنع السطو على القطارات. والمسفر لقب أطلقوه عليه من كثرة الأسفار.

- كيف تكون غير قابلة للتصديق؟

- لأنكم لن تصدقوا أن القطار خرج عن القضبان.

- لماذا لا نصدق؟ القطارات كثيرا ما تخرج عن القضبان.

- أنا لا أقصد ما تعنيه أنت. أنا أقصد أنه خرج عن الكرة الأرضية ذاتها.

نظروا إلى بعضهم في وجوم بينما استمر سليمان يلمع حذاءه مبتسما في خبث وعاد الديب إلى الكلام.

- كان القطار يمشي فوق الأرض بهدوء حتى بدأت الحرب وطاردتنا طائرات الأعداء فأسرع السائق بالقطار لا يقف أبدا حتى انتهت الأرض من تحته. لا يقاطعني أحد، قال ذلك حين لمح الضحك يكاد ينطلق من بين شفاههم واستمر يتحدث، لقد صار القطار مثل الطائرة وأنا فوقها أنظر إلى الناحيتين، فلا أرى إلا فضاء يموج فيه الضباب والسحب والبخار وعمق سحيق. قال مصطفى:

- وطبعا قفزت تاركًا القطار.

نظر إليه ساخرا ومتململاً. قال.

- أقفز إلى أين؟ تريد أن تقتلني، قلت هذا قضاء الله وانتظرت النهاية صابرا حتى لمحت قطارا آخر قادما من الناحية الأخرى.

ضربوا أكفهم ببعضها وانطلقوا ضاحكين، انطلق الولد الأسود "بلك" في الكلام..

- طبعاً قفزت إلى القطار الآخر الذي عاد بك إلى الأرض.

قال الديب مبتهجا.

- رغم أنك أسود واسمك بلاك وأبوك ولا مؤاخذه لا يفهم أي شيء في شغل السكة الحديد إلا أنك ولد شاطر..

عادوا يضحكون لكن مما قاله عن أبي بلـك هـذه المرة. عاد سليمان مبتسما إلى تلميع الحذاء وظل مصـطفى يتأمل الديب بدهشة بالغة ثم قال:

- طيب ، صدقناك، أين إذن ذهب قطارك؟ وكيف لم تسأل عنه المصلحة، والسائق هل عاد مثلك أم اختفى؟

- القطار لم يعد، والسائق طبعا، والمصـلحة لـم تسألني عن أي منهما وهذا هو ما يغيظني في هذا البلد، ليس للإنسان أي قيمة حتى لو كان سائق قطار !

وقف مصطفى بعيدا عنهم بخطوات ورفع يديه إلى السماء هاتفًا.

- يارب أنت شاهد وشـايف، انجلتـرا وفرنسـا واسرائيل من ناحية، والديب من ناحية، عليه العـوض فـي ثورة يوليو!

نهض الديب ثائرا وانصرف عنهم غاضـبا. وبعـد عدة خطوات توقف ينظر إليهم وهتف قائلاً.

- لو كان الشعب كله مثلكم غـاوي كـلام علـى الفاضي وفاكر نفسه هو وحده الذي يفهم كل شيء فالله يكون في عون ربنا على الشعب!!

كان اليوم هو الجمعة وكان مقررا أن يخطب جمال عبد الناصر بعد الصلاة في الجامع الأزهر. تجمع الرجـال والشباب والأولاد في دكانة العنيبسي وأمامها يستمعون إلـى الصلاة المذاعة. صلوا جماعة بسرعة. أمهم تاجر البهـار!. كانوا يريدون أن يسمعوا صوت عبد الناصر، وحتى يـأتيهم صوته راحوا يتحدثون فيما جرى؛ كيف أغـارت المـدمرة "إبراهيم" على ميناء حيفا أول أمس بالليل وأشعلت الحرائـق في أكثر من مكان، وكيف أنها في طريق العـودة اشـتبكت معها ثلاث مدمرات فرنسية فأصـابتها وأسـرتها، وكيـف رفضت المدمرة دمياط الاستسلام للمدمرات البريطانية فـي خليج العقبة وقاتلت بشرف حتى الغرق وعليها قائدها الصاغ محمد شاكر حسين واليوزباشي مدحت الزيات، لكن المدمرة رشيد نجحت في الإفلات من حصار المدمرات الإنجليزيـة في شرم الشيخ وعادت سالمة، وقطعت مصر تماما علاقاتها السياسية مع إنجلترا وفرنسا، كذلك فعلت سوريا، وتم تعطيل

البنوك الإنجليزية والفرنسية حتى يتم توقيع الحراسة عليهـا، وهدد نهرو بالانسحاب من دول الكومنولث، وقـام العمـال العرب في سوريا بتدمير أنابيب البترول التي تنقل البتـرول من العراق إلى البحر المتوسط إلى أوربا، حدث ذلـك فـي البحرين أيضاً، خسارة فادحـة تلقتهـا شـركات البتـرول الإنجليزية، وكان واضحا من الكلام أن العالم كله مع مصر، اليونان منعت دخول سفن الأعداء إلـى مياههـا الإقليميـة، والجمعية العامة ستنعقد بناء على طلب أميركا ومصر بعـد أن أوقفت إنجلترا وفرنسا قرار وقف إطلاق النـار بمجلـس الأمن، وسكتوا جميعا في خشوع وأرهفوا السمع، هـا هـو صوت عبد الناصر يأتي إليهم.

في اللحظة التي تهدج فيها صوته، قائلاً سنقاتل إلى آخر قطرة من دمائنا، سنقاتل ولن نستسـلم أبـدا، انفجـروا بالهتاف، الله أكبر، يسقط أيدن، يسقط موليـه، يسـقط بـن جوريون، نموت وتحيا مصر، وأخذوا طريقهم ناحية كوبري كرموز، رجالاً وشبابا وأطفالاً، من المساكن وغرباء ومـارة بالصدفة، وعلى الشاطيء الآخـر تجـاوب معهـم عمـال وكمسارية ورش الترام، ولم ينقطع هتافهم طوال الطريق إلى

الكوبري، وكان واضحا أن أبناء المدينة كلهم قد خرجوا في مظاهرات حماسية تطلب الموت فداء للوطن وكان واضـحا أيضا أنهم سيلتقون بهم عند الكوبري ولن يعودوا إلا بالليل، الكبار، والصغار معا. كانوا مستعدين بالفعل أن يموتوا فداء الوطن، لكنهم كانوا بعيدين جدا هنا على هامش الإسـكندرية لا يسمعهم أحد ذلك اليوم الذي لن ينسوه أبدا بعد ذلك.

( ٦ )

ما الذي جعل العالم كبيرا هكذا فجأة؟ الحرب وليس غيرها هي التي جعلته جلبابا واسعا خشنًا يتعثر فيه صاحبه، عالم بايخ حقا وغير جميل...!

كن يجلسن حول أبلة نرجس، الست الطيبة مستديرة الوجه والجسد، تخر النعمة من وجهها البسيم! التي إذا تكلمت حطت الألفة على المكان. السيدة القصيرة الممتلئـة لا ـزوج الطويل الفارع مفتول العضلات. هي اسكندرانية أصيلة وهو صعيدي من نوع خاص، ترك لها عالمها الصغير، خياطـة الثياب للجيران وتعليم الفتيات. وتركت له عالمـه الكبيـر،

العمل بالسكة الحديد نهارا والتجارة ليلاً في السمن والأحرمة الصوف والجزارة. هو تاجر شاطر وهي خياطـة مـاهرة، وعمل كل منهما لا يترك لهما فرصة للكلام إلا قليلاً لـذلك تمضي الحياة لينة سهلة، وبسلام!.

في المساء، كل ليلة..، تتحلق البنات حـول "أبلـة نرجس" ويدخل "عم علي" إذا كان موجـودا، إلـى الغرفـة الداخلية لينام. يطلب أن يلحق به كروان الذي يحب أن يتلكأ ويجلس بين البنات، لكن بعد قليل تقول أمه.

- قم نم يا كروان عندك مدرسة في الصباح.

تحسده البنات لأنهن لا يذهبن إلى المدرسة، مـريم فقط هي التي تذهب ولا تأتي لتتعلم الخياطة هنا، تذهب إلـى مدارس فيرا بالمنشية.

أمه تقول إن القبط شاطرين، ومدارس فيـرا تعلـم الخياطة على أصولها، على الباترون.

تشتغل أبلة نرجس على الماكينة السنجر قلـيلاً ثـم تتركها للبنات وتنشغل بالتفصـيل والقـص. البنـات دائمـا مفتونات بألوان القماش ورائحته الجديدة مثل ملمسه النـاعم. الزفير خشن والبوبلين طري والباتستا مفـرح والشـانتونج

بيكب كده ألوان!. الله الله على الكريب، الواحدة عايزة تحطه على خدها وتنام! وأبلة نرجس تجلس فلا تنهض من مكانهـا إلا بعد أن ينصرفن جميعا، تقف وتنفض بيديها القصـاقيص الكثيرة التي لصقت بجلبابها والخيط وتندهش كيف تركت كل هذا يلصق بها، وتنظر إلى ما أنجزته مع "بناتهـا" وتشـعر بالسعادة ليس لما يعود عليها من مال، فهو بسيط، لكن لمـا يعود عليها من بهجة الأنس بالبنـات الجمـيلات الطيبـات، والإشباع العظيم الذي يمكن أن تفوز بـه معلمـة لتلميـذات مطيعات. الراديو دائما جوارها مطفأ حتى العاشرة حيث تمتد أكثر من يد لتشغيله. بعد العاشرة تبث المحطات دائما أغنيات جميلة، لكن أفضل الليالي هي الليلة، موعد برنامج ما يطلبه المستمعون، الذي يذاع مرة واحدة فـي الأسـبوع وتـدخر الإذاعة فيه باقة من أجمل الأغنيات كما تقول المذيعـة ذات الصوت الحلو الناعم. مطر خفيف الليلـة يتسـاقط يسـمعن صوت التقاء حباته بالسطح، بالذات بسطح العشة الخارجيـة الصفيح. إنه الخريف في الإسكندرية والأمطار تأتي مبكـرة عن موعدها دائما لكن برقة واعتدال.

العالم حتى أمس كان هذه الحجرة الصـغيرة التـي تساقطت قشور طلائها الجيري الـذي كـان أزرق فصـار أبيض! الحجرة التي ليس فيهـا غيـر كنبتـين صـغيرتين نظيفتين، وكليم صوف ناعم مرسوم عليه قوافل جمال بنيـة على أرضية بيج، وتكاد الجمال تخرج تمشي علـى الأرض من دقة الرسم وطزاجة الألوان.

بين الكنبتين ماكينة سنجر برجل!. وكرسيان مـن الخيزران وفي الركن منضدة صغيرة لا يزيد طـول ضـلع سطحها على نصف متر فوقها الراديو الوحيد في المسـاكن والموصل بالكهرباء. الراديو هو الذي يربط هـذه الغرفـة بالدنيا، والدنيا أغنيات حب وهجر وعذاب ينتظرنهـا أكثـر الليالي ويعولن عليها كثيرا في التفاؤل بما ستأتي به الأيام...

- الأغاني ستتغير الليلة يا بنات.

قالت ذلك أبلة نرجس في شبه أسف. كانت حسـنة الطويلة الهشة مشغولة بصورة عـم علـى زيـن العابـدين بملابس الإحرام أمام الحجر الأسود فـي الكعبـة المشـرفة والموضوعة في برواز أنيق ومعلقة أمامها علـى الحـائط.

كانت تسأل نفسها عن المصور الذي يستطيع أن يفعل ذلك في الحج وأمام الكعبة وهي تعرف أن التصوير حرام !.

لكنها سمعت أبلة نرجس فقالت:

- كيف يا أبلة؟

- لن يكون هناك أغاني حب الليلة. الأغاني كلها وطنية.

قالت حسنة:

- ألا يكفي طول النهار؟

وقالت حكمت ذات العينين الزرقاوين، الشقراء، الجميلة، التي لا تحضر إلا قليلاً.

- لم يكن ينقصنا غير هذه الحرب. أيام العلمين هاجرنا من الإسكندرية إلى طنطا. كنت صغيرة لكن فاكرة. كانت بهدلة.

قالت أبلة نرجس:

- كانت حربا صعبة الله لا يعيدها، وربنا يستر علينا في هذه الحرب ظهرت غيمة على وجه مشيرة، فقالت لها شوقية:

- لا تزعلي يا مشيرة، الحرب مصـيرها تنتهـي والأفراح تعود..

سكتن جميعا للحظات ينظرن على مشيرة وأيـديهن لا تكف عن العمل؛ واحدة تقيس، وأخـرى فـي السـراجة، وثالثة تسند القماش أمام الماكينة، ورابعة ترص مـا انتهـين منه وتفرزه، فتعزل الرجالي عن الحريمي، وما يخص الكبار عن الصغار . قالت مشيرة:

- كامل سافر مع الجيش. ودعني من أسبوع وقال لي إنه مسافر إلى سينا، قال لي ادعى لي يا مشيرة أعود..

لم تستطع أن تكمل. اختنق صوتها، لكـن حسـنة الطويلة الهشة الضحوك هتفت قائلة:

- هل رأيتن عم حمـزة؟ تطـوع فـي الحـرس الوطني. يلبس شورت كاكي وقميص وعلـى كتفـه بندقيـة أطول منه.

ضحكت الفتيات ولم تفلح جدية أبلة نـرجس التـي كتمت ضحكها في أن تجعلهن يتوقفن عن الضحك بسـرعة. زوجها مسافر إلى الصعيد منذ يومين للاتفاق علـى صـفقة سمن بلدي، ويمكن لها أن تضحك بشدة، لكنهـا لا تريـد أن

تعود البنات على السخرية من الرجال! قالت بدرية الحمراء مثل دجاجة:

- الجزمة التي في قدميه أثقل منه.

فقالت حكمت:

- لكنه رجل طيب، ويكفي أنه أبو نوال.

قالت أبلة نرجس:

- عم حمزة هذا له قصة عجيبـة فـي الحـرب الماضية. سنة كاملة ضاع فيهـا بـين الإنجليـز والألمـان والطليان وشاف الموت بعينيه ألف مرة.

كانت الأغنيات الوطنية قد بدأت تنهمر من الراديـو الذي أشعله كروان.

تكررت أغنيات: دع سمائي فسمائي محرقـة، دع قناتي فمياهي مغرقة. والله أكبر، وأنا النيل مقبرة للغزاة، من كل المحطات التي كان كروان يبحث فيهـا عـن أغنيـات عاطفية، والبنات ينظرن إلى بعضهن في يأس.

لم يكد يمر أسبوع واحد على الحرب ولم تعد الدنيا هي الدنيا. كانت كل مـنهن تنتظـر برنـامج مـا يطلبـه المستمعون طوال الأسبوع حتى ترى حظها فجاءت بريطانيا

وفرنسا وإسرائيل معا من أقصى الدنيا لتحرمهن من ذلك رغم أن أيا منهن لم تسيء إلى أية دولة منها، بل لا تعرف واحدة منهن أين تقع هذه البلاد!. كن يسمعن في طفولتهن شيئًا من القصص عن الإنجليز المخمورين على الكورنيش لكن أيا منهن لم تلتق بعسكري إنجليزي وجها لوجه. إنهن، ببساطة، لم يكن يذهبن إلى الكورنيش ولا زلن، إلا مرات قليلة في الصباح الباكر في صحبة أمهاتهن لشرب دماء الترسة في حلقة السمك بالأنفوشي. كل منهن كانت مشغولة دائما بالبحث عن عبد الحليم حافظ في البرنامج، والهرب من فريد الأطرش الذي لا يحببن نواحه، ويرضين بشادية ونجاة وفايزة أحمد ومحمد قنديل وعبد الغني السيد وكارم محمود، ويتركن الأغنية الأخيرة التي تكون دائما لأم كلثوم، يتركنها لأبلة نرجس. حكمت كانت أكثرهن حظا مع عبد الحليم. يندهشن من حظها، والحقيقة أنها كانت تعمل ذهنها قليلاً. لقد أدركت من التكرار أن البرنامج لا يثبت إلا فريد الأطرش وعبد الوهاب ثم أم كلثوم. هم دائما آخر الأغنيات. قبل ذلك خمس أغنيات أو أربع تتغير فيها مواقع المطربين، لذلك كانت تمارس نظرية الاحتمالات دون أن تعرف أن هناك

نظرية للاحتمالات، فإذا طلبت أن تكون الأغنية الثالثة فـي أحد الأسابيع لها وكانت لعبد الحليم حافظ تأتي الأسبوع التالي لتطلب الأغنية الأولى فتكون لعبد الحليم حافظ أيضا أو فـي أكثر الأحيان. ثم تأتي الأسـبوع الثالـث وتختـار الأغنيـة الخامسة فتنجح في اصطياد عبد الحلـيم وتتصـاعد آهـات وزفرات البنات وإعجاب أبلة نرجس. فـي النهايـة صـار معروفًا أن لكل واحدة تقريبا حظا شبه ثابت. شـوقية يـأتي حظها غالبا مع أحلام وأغنية " ياعطارين دلوني الصبر فين أراضيه" أو مع عبده السروجي وأغنية "غريب الدار علـي دار زمان قاسي وظلمني " وتمصمص شفتيها حسـرة علـى حظها مع اليأس والبؤس هذا. أحيانًا يسعدها الحـظ فتكـون أغنية نجاة على "فاكراك ومش ح أنسـاك" ومـرة فوجئـت بدويتو راقية إبراهيم وعبد الوهاب. صرخت راقية إبـراهيم "آي سنتي" فضحك الجميع وابتهجت هي وكانت هـذه هـي المرة الوحيدة التي ظهرت لها أغنية غير بائسة في البخت!

في الأسبوع الماضي ابتعدت عن جميـع الأمـاكن الأولى واختارت الأغنية السادسة راضـية بصـوت عبـد الوهاب الرخيم فغنى لها عبد الوهاب أغنية "طـول عمـري

عايش لوحدي غريب وراضي بحالي" فبكت شوقية بحق ولم يستطعن إيقافها عن البكاء إلا بعد وقت طويل أطفـأن فيـه الراديو ورحن يواسينها ويذكرنها أن هذا كله لعب وهـزار ولم تتوقف عن البكاء حتى نهرتها أمها، أبلة نرجس، محتجة على هذا الدلع الزائد!

مشيرة حظها في الغالب يكون مع ليلـى مـراد أو فايزة أحمد. كثيرا ما تغنى ليلى "الحب جميل" أو تغني فايزة "أنا قلبي إليك ميال".

يتورد وجه مشيرة السمراء بالفرح والرضا. أنهـا تعيش قصة حب حقيقية. مع كامل الـذي لـم تعرفـه قبـل الخطوبة لكنها الآن كمن تعرفه منذ عشرات السنين. البنـات لهن رأي آخر في كامل ويندهشن من هذا الحـب، فهـن لا يرين (كامل) مغريا في شيء، هو أبيض الوجه مائـل إلـى الحمرة، أشقر، عسلي العينين، له شارب رفيع محفوف بعناية يقول عنه إنه مثل شارب كلارك جيبيل، وهن لا يعرفن من هو كلارك جيبيل هذا، وما إذا كان وسيما أم لا؟ كامل أيضا يعمل "مزين"، صحيح في محل كبير بالمنشية لكنه في النهاية "مزين". ثم أن رجلاً شديد البياض والحمرة والنظافة وبـارد

أيضا أمر يغيظ!. لا يعرفن كيف يكون الرجل أبيض. مـاذا تكون المرأة إذن؟. الرجل أسمر والمرأة بيضاء، هكذا خلـق الله الدنيا أو هكذا رأين في حياتهن.. لكنهن قط لم يقلن شـيئًا من ذلك لمشيرة، ويتمنـين لهـا السـعادة التـي ترجوهـا ويستمرون في ذلك الرجاء!

توقفت الأغنيات، وانطلقت المارشات العسكرية ثـم أعلن المذيع في أسى عن بدء الإنـزال الجـوي البريطـاني الفرنسي على بورسعيد بعد أن تم ضربها بالنهار بالمدافع من البحر والجو، ثم صرخ المذيع بأننا أبدا لن نركع ولن نستسلم وطالب شعب بورسعيد بالصمود ومـن الشـعب المصـري التطوع للدفاع عن الوطن، ومن الشعوب العربية المـؤازرة والاستمرار في تدمير الممتلكـات الإنجليزيـة والفرنسـية، وانطلق بعده نشيد الله أكبر يزلزل أركان الفضاء.

- الحرب صارت بجد يا بنات..

قالت أبلة نرجس، بينما كان البنات ينظـرن إلـى بعضهن غير قادرات علـى فهـم هـذا الإنـزال الجـوي بالمظلات، فشرحت لهن معنى المظلات، وكيف كان للألمان في الحرب الماضية جيش من المظلات يبهدل في الدنيا كلها،

وزاد الرعب على وجه مشيرة خوفًا على خطيبهـا كامـل، وازداد توتر بدرية الحمراء كدجاجة، فلقد تم استدعاء خطيبها أيضا إلى المعركة منذ أيام وإن بدت من قبل متماسكة ولـم تعلن لهن ذلك إلا الآن. ابتسمت حسنة وقالت:

- لذلك لم تأت إلينا بالهريسة معك.

خطيب بدرية حلواني يعمل في محل عنـد محطـة الساعة بالورديان لا يزورهم إلا وعلبة الهريسة بالبندق فـي يده. وقالت حكمت:

- أخذوا الحلاقين والحلوانية وتركوا باعة السمك.

هل باعة السمك لا يصلحون للحرب؟

لم يرد أحد. يعرفون أنها تقصد خطيبهـا صـفوت الجعفري، تاجر السمك العايق أبو سـنة دهـب. الصـعيدي الشاب الذي دفع فيها مهرا مقداره مائتا جنيه لكنها، ولدهشتهم الدائمة، لا تحبه. إنهن يحسدنها على هذا التاجر الشاب الأنيق الوسيم وهي لا تحبه. تعلق قلبها به في أحد مشاويرها مـع أمها إلى حلقة السمك بالملاحة. أعجبها هندامـه العصـري، فهو لا يرتدي زي الصيادين الإسكندراني، اللباس الواسع أبو حجر، الطويل، والصديري الأسود تحته الفانلة البيضاء ذات

الأكمام الطويلة. يرتدي بنطلونًا وقميصا على طريقة جيمس دين ونظارة الشمس ريبان، وفي معظم أصابعه خواتم ذهبية.

خطف عينيها وهز قلبها ذلك اليوم، وهـي أيضـا استغرقته عيناها الزرقاوان وبشرتها البيضاء لامعة النضـرة وشقرة شعرها. أدمنت شراء السمك مع أمها، وأدمـن هـو البيع لهما بأسعار رخيصة وأسماك طازجـة، ولـم يسـتمر طويلاً في ذلك. تقدم لخطبتها ففقدت وعيها من الفرحة. لـم تمض أسابيع حتى كرهته بنفس القوة. لم تسـتطع أن تعلـن رغبتها في فسخ الخطوبة. كيف حقا ترفض عريسا شابا أنيقًا غنيا. لن يصدقها أحد إذا روت القصـص عـن مغامراتـه العاطفية وغرامياته مع الأخريات أدركت أنها ليست أكثر من نزوة، قصة عابرة قد تستمر بعض الوقت، لكنها لن تـدوم، لكن لا قدرة على التراجع، هو غني وأهلها فقراء، دفع المهر كاملاً أكثر مما يتوقع، واشترى لها شبكة بعشـرين جنيهـا كاملة ويصحبها لتشتري أجمل الفساتين مـن هـانو وعمـر أفندي، وعلمها الجلوس في ديليس وتريانون وكيف تشـرب الشاي مع الكيك، دخلت معه السينما وتركت يـده تحوطهـا بهدوء، وتركته يقبلها بهدوء، ولم يلاحظ أنها لا تنفعل معـه.

قالت لنفسها إنه طالب متعة أناني لا أكثر. أخذها إلى محلات الأحذية الشهيرة بشارع الفلكي وصحبها إلى الشلالات فجلست معه بين العشاق في كازينو الشجرة، ولم تحبه، شربا معا الخروب البارد اللذيذ في الصيف من العربة البيضاء الجميلة التي تشيع البرد حولها عند الأصيل وفي المساء، جوار نقطة باب شرق ولم تحبه. كان انجذابها الأول مثل ومضة كهربية سرعان ما انتهت. سيتزوجها ليضعها في البيت دمية جميلة بينما ينطلق هو في الهواء يلبي نداء نزواته، ولن تستطيع الاحتجاج. ستذوي إذن على يديه هذا السجان الجميل الذي قطع طريق حياتها. وبدأت تفقد كثيرا من وزنها ورونق بشرتها وبريق عينيها ولم تتزوج بعد.. فجأة انطلقت في البكاء بين صمت الجميع. هتفت أبلة نرجس:

- كوب ماء يا كروان.

راحت تسقيها الماء بهدوء. كانت تعرف أن البنت الجميلة لم تتحمل فكرة أن تتمنى الموت لخطيبها في الحرب. لا شك أن البنت الرقيقة أحست كما لو كانت قتلته بالفعل.

شربت حكمت الماء والدموع معـا. وقالـت أبلـة نرجس:

- اسمعوا يا بنات. الحب الحقيقي لا يأتي إلا بعـد الزواج. والزوجة الشاطرة هي التي تقـدر علـى تـرويض زوجها. وكل الرجال فيهم عيوب، لكن كل الرجـال فـيهم مميزات كذلك. وإياكن تصدقن الأغاني.

سكتن جميعا. كن يعرفن أنها تخفف عن حكمـت. قالت حسنة:

- مادامت الحرب قامت، والإذاعة منعت الأغاني العاطفية، ما رأيكم أغني أنا، الغناء ضاغط على قلبي، منهم لله الإنجليز.

ضحكن، ضحكت حكمت بلا صوت، ومسحت آثار دموعها براحتيها.

قالت مشيرة في حزن:

- قلبي على أهالي بورسعيد .

فقالت بدرية:

- ربنا إن شاء الله ينصرهم وينصرنا..

لم يكن يدركن حجم المعركة، وحتى أبلة نرجس التي عاشت في الإسكندرية أثناء الحرب العالمية الماضية لم تكن تدرك حجم الهجوم، كان الأمر بالنسبة لهن معركة لبضعة أيام وتنتهي، وبدا أنهن ذاهلات عن الراديو الذي يبث نداءات النصر والقوة لأهل بورسعيد وللشعب المصري.

قالت حسنة:

- إذا كان صوتي لا يعجبكم تختار كل واحدة أغنية وتغنيها.

قالت أبلة نرجس:

- اقتراح جميل يا بنات. هيا.

سكتن جميعا للحظات، كل منهن تنتظر أن تعلن الأخرى البداية، ففاجأتهن حكمت..

- سأبدأ أنا..

تركزت عيونهن على وجهها، كانت هي قد أغمضت عينيها وتنهدت.

قالت أبلة نرجس:

- صوتك يا حكمت جميل من قبل أن أسمعه.

وإذا بصوت دافئ شجي ناعم عذب معذب يسـري هادئًا من بين شفتيها معبأ بالعتاب والشجن.

مالك ومالي يا أبو قلب خـالي
ريحت قلبك وشـغلت بـالي
يـــا أبـــو قلـــب خـــالي

أشارت لهن أن يعدن "الكوبليه" وظلت صامتة حتى انتهين ثم واصلت الغناء. كان في إعادتهن شيء من المـرح الخفيف.

أيـام بتبعـد، وأيـام بتوعـد
ولا بعد يغني، ولا وعد يسعد
قلبـــك غـــدر بـــي قلبـــك
وأنـــا قلبـــي حبـــك قلبـــي
ليه بس قلبي مش زي قلبـك
مـــا لـــوهش غـــالي
يـــا بـــو قلـــب خـــالي
يـــا بـــو قلـــب خـــاااالي...

أعدن "المذهب" من جديد، لكن شيئًا من الحزن الحقيقي تسلل إلى أرواحهن، وتوقفت حكمت عن الغناء لأن صوت صفارة الإنذار انطلق في سماء المدينة.

تشبثن بأماكنهن من الذعر، اندفع كروان يطفئ النور وسمعن خطواته في الظلام وهو يقفز إلى الخارج. هتفت شوقية: كروان! لكن أمها، أبلة نرجس، طلبت أن تتركه. الوقوف في الفضاء أفضل من البقاء في البيت... الحقيقة إنه كان قد تعود عند وقوع الغارة أن يقف عند المحمودية مع أصحابه يتابعون القذائف المضادة وهي تنطلق نحو الطائرة. راحت أبلة نرجس تحكي لهن عن الغارات الحقيقية في الحرب الماضية. غارة الست ساعات، أشهر الغارات على المدينة، التي بدأت في المساء وانتهت في منتصف الليل، بأن دمرت حي باب سدرة كله وجزءا كبيرا من كرموز.

ماتت خلق كثيرة في الإسكندرية في تلك الحرب، وهاجر الباقون حتى كادت المدينة تفرغ من السكان، لكنها رفضت الهجرة إلى الصعيد حيث أهل زوجها، أو إلى محافظة البحيرة التي بنت فيها الحكومة أكبر المعسكرات

للمهاجرين "لن أترك الإسكندرية أبدا. قلت لزوجـي، وهـذه المرة لن أتركها أيضا . العمر واحد والرب واحد يـا بنـات وكما انتهت الحرب السابقة ستنتهي هذه الحرب " وانطلقـت أصوات المدافع في الفضاء، منها مدفع موجود فوق السـطح مباشرة هز البيت فالتصقت البنات ببعضهن، ولسوء الحـظ كان اليوم هو الرابع من ربيع الأول فلم يكن هناك قمـر ولا هلال في السماء يمكن أن يضيء لهن شـيئًا. قالـت أبلـة نرجس: إنه من حسن الحظ لا لسوئه؛ لأن الطائرات أيضا لا ترانا، لكن فجأة امتلأ الفضاء بالضوء. صواريخ.. صواريخ!

استمعن إلى صوت الرجال الذين تجمعوا في الأزقة بين البيوت.

كانت الطائرات تلقى شرائط الفوسفور فوق المدينة لتضيء فضاءها المعتم، ازداد انطلاق المدافع وخوف البنات وسمعت صوت "الجوني" بالباب. ادخلي على مهلك. قالـت أبلة نرجس وكانت الجوني قد دخلت بالفعل ووقفت قريبا جدا منهن في الظلام لا يرينها وإن كن يسمعن صوتها المميز ذا البحة الجميلة. قالت:

- كنت نائمة وحلمت حلما فظيعا. حلمت برجـل يحملني على رأسه يصعد بي إلى جبل عال ثم يلقى بي على الأرض. قمت من الكابوس مفزوعة على صـوت صـفارة الإنذار. كانت أمي توقظني بفزع وسمعت أبي يصلي..

مدت حسنة يدها أمسكت بها في الظلام.. وسحبتها جوارها:

- تعالى هنا لا تخافي يا حبيبتي..

تسكن الجوني مع أسرتها في البيت المجاور لأبلـة نرجس، وهي أيضا شـقراء مثـل حكمـت إلا أن عينيهـا خضراوان، ورغم أنها أصغر، بالكاد في الخامسة عشرة فقد أطلقوا عليها لقب "الجوني"، كما كانوا يطلقونه على الانجليز.

سمعن بالباب صوت نوال يطلب الدخول، فضحكن ولم يعدن يسمعن صوت المدافع وأزيز الطائرات رغم أنه لم ينقطع. هتفت شوقية: لا ينقصنا الآن غير نادية، فقالت نوال: "إنها قادمة خلفي"، سمعن بالفعل صوت نادية يطلب الدخول في الظلام. قالت حسنة:

- هل تصدقين يا نوال أننا كنا نغنـي؟. أي والله. وجدنا منافسا خطيرا لك. حكمت.

قالت نوال:

- حكمت صوتها جميل في الغناء أو في الكلام.

قالت مشيرة:

- صحيح يا نوال أنك تغنين في المستشفى؟

قالت نوال:

- صحيح، عندنا دكتور جراح مجنون كل عمليـة يطلب مني أدخل معه غرفة العمليات ولا يكلفني بأي عمـل. يقول لي أن أجلس على الكرسي في ركـن مـن الحجـرة وأغني. يقوم هو بالعملية تساعده الممرضات والأطباء الشبان وأنا أغني، وإذا توقفت لحظة ينظر لي في غيظ مـن خلـف القناع فيرعبني فأغني.

قالت أبلة نرجس:

- أول مرة أسمع شيئًا كهذا.

وقالت حسنة:

- هذا بدل أن يساعدك في التقدم إلـى الإذاعـة. عشنا وشفنا .

قالت نوال بطفولة:

- اسمي في المستشفى مطربة العمليات، لم يعـد حتى أحد يقول لي سستر نوال ولا الحكيمة نوال..

هتفت شوقية في الظلام:

- فشر. أنت ولا كوكب الشرق أم كلثوم وبكـرة تشوفي بس ياريت تغني لنا حاجة لغاية الليلة دي ما تعدي!

ضحكن وقالت نوال:

- طيب اسمعوا.

حط عليهم الصمت، حتى المدافع بدا أنها صـمتت أيضا، وربما كانت الطائرات قد ابتعدت عن المدينة. لم يعدن يسمعن شيئًا خارج المكان.

بدأ صوت نوال القوي الرنان يسري فـي الظـلام بهدوء وعلى مهل وبعذوبة فائقة.

يا حلاوة الـدنيا يـا حـلاوة

يـ ـا حلول ـ ـو يـ ـاحلاوة

فاجأتهن الأغنية لكنها ألهبتهن كثيرا مـن البهجـة والحماس فرحن يرددن خلفها كلما توقفت.

حلاوتهـا لمـا تصـفى لـي

أنا وانتم واللـي فـي بـالي
يصـفى لـي كـل مطلـوبي
وكفايــة وجــه محبــوبي
والبــاقي كلــه يتســاوى
يا حلاوة الـدنيا يـا حـلاوة

كان الرجال والنساء والأطفـال المتجمعـون فـي الزقاق القريب قد بدأوا يسمعون الغنـاء غيـر مصـدقين. اقتربت النساء والأطفال من البيت، بينما قال أحد الرجـال. "مسخرة البنات حتى في الغارة".

وأتى صوت نوال القوي العذب الرنان.

وما دام الدنيا مـاهش دايمـة
وقيامة علـى العـالم قايمـة
حلوهــا وافرحــوا بيهــا
والطيــب اعملــوه فيهــا.

وراحت البنات تعدن معها الغناء، بدأ بعض الأطفال ممن اقتربوا من البيت يرددون معهن، ثم بدأت بعض النساء،

ازداد الصوت الجماعي قوة في الداخل والخارج ووصل إلى الرجال الواقفين في الأزقة، والرجال المتجمعين في المسـجد الصغير وسط البيوت، ولم يعلق هذه المـرة أحـد. أرهفـوا السمع الآن. كل على حدة. بل لم يعد أحد يتكلم مع أحد. ملأ صوت البنات داخل بيت أبلة نرجس، والنساء والأطفال فـي الخارج، فضاء الليل الأسود حتى كاد يضيئوه بعد أن كفـت الطائرات عن إلقاء شرائطها الفوسفورية.

( ٧ )

كانت الحركة بالنهار اليوم غير عادية في الأتيلييه. كثيرات جئن يطلبن من ماريانا الانتهاء بسرعة من حياكـة ثيابهن. لم تظهر زبونة جديدة. أمضت جورجيـت القبطيـة اليوم تتحرك وتعمل وتضحك بـلا سـبب، بينمـا أمضـت "أسمهان" الإيطالية اليوم صامتة، اقترب منها العربي قبل أن تنصرف بقليل.

- مالك مدموازيل أسمهان اليوم كله حزينة؟

- الحرب قامت عربي.
- أعرف أسمهان. الحرب مع المصريين والحرب أيضا بعيد في بورسعيد. هنا غارات بسيطة، ليست كالغارات التي كان يقوم بها الإيطاليون على الإسكندرية فـي الحـرب العالمية.
- عربي، غارات الحرب العالمية كانـت بسـبب الدوتشي، موسيليني.

نحن شنقنا موسيليني. أنا لا أخاف الغارات. المشكلة في أنطونيو.

- البوي فريند؟!
- أخي عربي، يريد أن يتطوع للدفاع عن مصر.
- بطل. رجل محترم.

قالت جورجيت التي كانت تسمع وتبتسم..

- حقا يا عربي لماذا لا تتطوع؟
- ذهبت . قالوا إنهم أخذوا العدد المطلوب، تركت لهم اسمى وعنواني لوقت الحاجة..

كانت كاتينا قد اقتربت منهم أيضا. قالت:

- عربي لا تتطوع، من يبقى معي؟. أنا أخاف من الغارات. ممكن أموت.

ثم نظرت إلى أسمهان وقالت:

- اليونان أيضا تطوعوا.. أكتر من مائتي يونـاني من الإسكندرية تطوعوا للدفاع عن بورسعيد..

قالت اسمهان:

- أنطونيــو يقــول إن الشــيوعيين الإيطــاليين واليونانيين اتفقوا على التطــوع مــن أجــل مصــر ضــد الإمبريالية.

قالت جورجيت:

- في الكنيسة أيضا طلب البابا من الشباب القبطي التطوع.

قالت كاتينا:

- أمس في كنيسة سان سابا كان زحــام فظيــع. هتاف ضد إنجلترا وفرنسا من كل اليونانيين.

جلس العربي وسطهم مندهشًا مما يسمع. لم يفهم ما قالته أسمهان عن الشيوعيين والإمبريالية. قالت كاتينا:

- الشيوعيون دائما يا أسمهان، ذكرتني يانـاكيس. ياناكيس كان يساري - أغمض العربي عينيه متوقعا الحديث الذي لا تمله ومنتظرا أن ينتهي في مال! - أنت لا تعـرف عربي ماذا يعني يساري، يعني شيوعي. شـيوعي يعنـي لا يحب الملك. ملك إنجلترا ملك اليونان. ملك مصر. يانـاكيس تطوع ليحارب النازي عندما احتل اليونان. ياناكيس مات في جبال اليونان عربي.

أدرك العربي حجم الكارثة في أن يجلس رجل وسط ثلاث نساء لديهن مشاكل غامضة وفي زمن الحـرب! لكـن ماذا يفعل. هنا عمله، وهنا المرأة التي يحبها برغم أنهـا لا تحبه.

بدت له أسمهان في حيرتها أكثر جمالاً.هـي فـي الأصل جميلة، شعرها الأصفر دائما منكوش مجعد؛ وتقـول إنها هي التي تجعله كذلك؛ شفتاها مكتنزتان عليهمـا دائمـا روج ثقيل وسط وجهها الأبيض، وطولها غير عادي بالنسبة لامرأة، لكنها دقيقة الخصر بشكل مثير. قابل أبواها المطربة الشهيرة أسمهان عام ١٩٣٨ في رأس البر، وتحدثت معهما، أبدى أبوها إعجابه لأسمهان بصوتها الرنان فقبلتـه وقبلـت

زوجته أيضا وأهدته أسطوانة عليها أغنيـات لهـا وعليهـا توقيعها. لا يزال أبوها يحتفظ بالأسطوانة في فخر، لقد وعد أسمهان إذا أنجب فتاة يعطيها اسمها. عارضت الأم بعـض الوقت ثم استسلمت. هي أيضا تحب صوت أسـمهان. ولقـد جاءت تحمل شامة صغيرة على ذقنها مثل أسـمهان أيضـا. لكن مأزق أسمهان ليس كمأزق راشيل اليهودية التي قالـت كاتينا عنها إنها تريد أن تتزوجه. العواطف متأججـة ضـد اليهود بسبب اشتراك إسرائيل في العدوان على مصر.

لم يجد العربي شيئًا يقوله لأسمهان غير الأمل فـي عودة أخيها سالما، وفكر فجأة في هذه البهجة التي تشعر بها المرأة جورجيت طول اليوم وقال هذه امرأة ظـل زوجهـا طول الليل ينكحها بلا هوادة..

انصرفت أسمهان وجورجيت في الخامسة ولم يبـق غيره لتنظيف المكان، ما كاد يفرغ من ذلك، ومـن إعـداد المكان لاستقبال اليوم التالي حتى دق الجرس. فـتح البـاب فرأى راشيل أمامه، وجهها شـديد الاحمـرار حتـى يكـاد يحترق، كانت ترتدي معطفًا أسود خفيفًا فوق بلـوز أسـود

وجوب أشد سوادا أيضا.. كانت شبه منهارة. الإيشارب الأخضر متهدل حول عنقها وتكاد تقع مغشيا عليها.

- إلحقني عربي.

ألقت نفسها على صدره فتلقاها بثبات وتراجع بها بهدوء إلى الخلف حتى أجلسها على أقرب فوتيل. أقبلت كاتينا في هلع.

- مالك راشيل.

وضعت يدها على جبهتها فوجدتها باردة، بينما كان عرق كثير يتفصد من مسام وجهها وجبينها ورقبتها، أسرعت كاتينا وأحضرت كأس نبيذ أحمر دلقته في جوف راشيل على مهل وهي تمسك بفكها ثم جلست أمامها على مقعد خيزران تتأملها والعربي يتأملها واقفًا. فتحت راشيل عينيها وهي تقول في ألم:

- خلاص كاتينا كل شيء انتهى في مصر.

كانت تكلم كاتينا وتنظر إلى العربي في حزن واضح، واستمرت تتكلم.

- اليوم قال لي حاييم إنه لم يعد لنا بقاء هنا.

حاييم هو أخوها. العربي يعرف ذلك ويعرف محل الدخان الذي يملكه في العطارين.

- حاييم فتح الدكان ساعة واحدة. كل زبون يـأتي يشتري دخانًا يقول له خلاص حـاييم أنـتم ظهـرتم علـى حقيقتكم.

قالت كاتينا:

- مشكلة. مشكلة كبيرة راشيل. إسرائيل سببت لكم مشكلة كبيرة للأسف.

- لكن أنا لست إسرائيل. حاييم كذلك. كثير مـن اليهود. ربما كلنا هنا في اسكندرية رافضين الحرب. الحاخام في المعبد استنكر العدوان..

قالت كاتينا في أسف:

- حكاية حزينة حبيبتي.

عاد الصمت من جديد. كانت راشيل قد اسـتعادت شيئًا من قوتها فاعتدلت في جلستها. كانت لا تزال تنظر إلى العربي الذي بدوره رآها جميلة جمـالاً يليـق بـامرأة فـي الثلاثين وليس في الخمسين. اندهش لهذا الإدراك المفـاجئ.

لكن راشيل لم تكن تعنيه أبدا في أي يوم. لم يشعر حتى أنها تميل إليه. قالت كاتينا.

- هل سيهاجر حاييم ؟
- طبعا. وسيأخذني معه.
- إلى إسرائيل؟
- لا . لا كاتينا. إلى البرازيل.

انكمش العربي للحظة. البرازيل دولة بعيدة جـدا. كان يظن أنها صاحبة محل البن البرازيلي في شارع سـعد زغلول حتى قالت له كاتينا ذات يوم " عربـي أنـت دائمـا معلوماتك غلط. البن البرازيلي محل ماك واحد يوناني فتحه من خمسين سنة.."

تنفس مرتاحا. هاهي الحرب ستحمل راشيل بعيـدا عنه آلاف الأميال.

لكن ما ذنب الناس في بورسعيد حتى يتعرضوا لهذا الموت من أجل أن ترحل راشيل! إذا كان زواجه منها يمنـع الحرب فلديه الاستعداد لذلك. لكن .. لا الحرب قامت لتمنـع هذا الزواج ؟ ولا الزواج سيمنع الحرب يا عربي، إنما هـي الحياة وألاعيبها التي لا يفهمها أحد.

قالت راشيل:

- تعال عربي ، اجلس جواري.

تردد للحظة ثم تذكر أنها ذاهبة إلى نهايـة العـالم فجلس جوارها فاستدارت تتكلم.

- أنت عارف عربي أني أحبك من زمان. أنـت رجل ممتاز عربي وجميل لكن مسكين غير متعلم. أنـت لا يمكن أن تجد عملاً بسهولة عربي. أنا الآن سـأرحل عـن مصر كلها. حاييم وجد مشتريا لمحل الدخان. مشتريا سوريا. حاييم سيبيع المحل برخص التراب، وأنا أحب أعطيك هـذا المبلغ البسيط كتذكار مني. سوفينير صغير عربي.

قالت ذلك وهي تخرج من حقيبـة يـدها مظروفًـا صغيرا.

- بهذا المبلغ، خمسون جنيها عربي يمكن أن تبدأ حياتك. تتاجر في أي شيء.

كانت لا تزال تمد يدها بالمظروف بينما هو يفكـر في أمر هاته النسوة اللاتي يعرضن عليه الأموال بدلاً مـن الحب. ابتسم وقال في نفسه هذا سبب ثان للانتحار في البحر يا عربي . تساءل:

- ولماذا تهاجرين راشيل؟ يمكن أن تبقى.

- مستحيل عربي. اليهود لم يعد لهـم مقـام فـي مصر. الثورة مع فلسطين، وإسرائيل مع الإنجليـز ونحـن اليهود ندفع الثمن.

سكتنا قليلاً ثم تساءلت:

- لماذا لا تقبل هديتي عربي. أنا يهودية لكن غيـر بخيلة. أنا أحبك.

اندهش هو من هذه الصراحة وظل غير قادر على أن يمد يده. لاحظ شيئًا من الامتعاض على وجه كاتينا. إنها لا تسمح لأحد من زبائنها بزيارتها بعـد السـاعة الخامسـة شتاء. لكن ليس هذا هو السبب. لابد أنهـا خافـت أن يبـدأ بالخمسين جنيها مشروعا تجاريا ويتركهـا. إنهـا بالنسـبة للعربي كتاب مفتوح رغم أنها لا تبادله الحب. قالت كاتينا:

- ما رأيك راشيل أن تنامي عندي الليل. أخـاف تخرجي تحدث غارة.

لم تكن هذه غير دعوة للانصراف، لكـن راشـيل المرتبكة لم تفهمها فيما يبدو إذ طلبت كأسا آخر مـن النبيـذ وقالت وهي تنظر إلى العربي:

- سأترك الفلوس هنا، وأنت حر، أنا لن أعود بها.

وضعت المظروف على منضدة مستديرة صغيرة جوارها. ثم عادت للحديث.

- هتلر في الحرب الماضية خلانا نترك إسكندرية إلى جنوب أفريقيا، إسكندرية هي بلدنا تماما مثل المسلمين والمسيحيين. تأتي إسرائيل تجعل الناس يكرهوننا. أيضا لابد أن يقول أحد لعبد الناصر ألا يسمح لأحد أن يشتمنا. نحن مصريون عربي. من هنا وليس من إسرائيل:

بدا العربي مرتبكًا لا يعرف بما يجيب. طبعا هم مصريون لكنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا، المشاعر متأججة ضد اليهود بسبب هذه الحرب، كل حين يتم القبض على جاسوس يهودي يرسل إشارات للإنجليز فيزداد عداء الناس. هو يعرف أنه ليس كل اليهود جواسيس، وليس كل الناس ضد اليهود، لكن المشكلة فيما يبدو ليس لها حل، أو على الأقل أكبر من قدرته على الإدراك.

طال سكوته حتى وقفت راشيل تتأمله وهو يقف يودعها. قبلت كاتينا بسرعة، ثم أخذت العربي في حضنها بقوة. بدت له أقوى منه. أدهشه ذلك جدا وهو يترك لها نفسه

تضمه إلى صدرها كطفل. انفجرت بالبكاء وخرجت جاريـة ولم يتحرك ليغلق الباب خلفها. وقف حائرا . وسط الصـالة أكثر من مانيكان من الجبس الملون عارية من الثياب بدت له كائنات حية مبتورة السيقان لم يبق منها غير النصف العلوي فقط. كانت كذلك فعلاً ومرفوعـة علـى مواسـير حديديـة كالخوازيق. بدت له كائنات شديدة البشاعة. رأى المظـروف في مكانه على المنضدة فبدا له شيئًا غريبا يحاول جاهـدا أن يتذكر أين رآه من قبل.

ألقى بنفسه في ركن من الصالة على مقعـد قـديم وأشعل سيجارة وراح يدخنها بهدوء. هل حقـا هنـاك دنيـا خارج هذا الأتيليه؟. لماذا حقا كلما جاء هنا لا يشعر أن ثمة شيئًا في الخارج. لمح كاتينا وهي تغلق الباب بالمفتاح مـن الداخل. لن تتركه يعود إلى البيت اليوم أيضا. تركتـه فـي مكانه ودخلت إلى غرفتها البعيدة وتمددت على كنبة عريضة مواجهة للسرير النحاس ذي الناموسـية البيضـاء وقالـت بصوت واهن، عربي. عربي. سمعها فنهض متلكئًا إليها..

في حوالي الساعة العاشرة كانا قد انتهيا من شـرب زجاجتين من "الميتاكسا" ذي السبع نجـوم، ذلـك البرانـدي

اليوناني الفاخر الذي تقول كاتينا عنه إنه لا يوجـد إلا عنـد الدبلوماسيين ونجوم الفن اليونانيين. قال العربي وقد لعبـت الخمر برأسه:

- تعرفي كاتينا أنا نفسي في إيه !؟
- لا.
- اسمع أغنية ليت للبراق عينًا.
- هذه أغنية عربي؟
- قصيدة تغنيها أسمهان.
- هذه أغنية صعبة هل تفهمها؟
- لا.
- عجيب أنت عربي. لا تفهم الأغنية وتريـد أن تسمعها.
- بالضبط كاتينا، مثلما أحبك أنت التي لا تحبيني ولا أفهم لماذا أحبك، ومثلما تحبني راشيل ولا أحبها ولا أفهم لماذا لا أحبها مع أنها جميلة.

سكتا طويلاً حتى قالت كاتينا:

- اسمع عربـي. الآن أبـواب السـماء مفتوحـة للمظلومين. أنت مظلوم كتير عربي. أهلك لم يعلموك. تحبك

النسوان العواجيز وأنت تحب أيضا امرأة عجوز. ادعى إلى ربنا أنه يوقف هذه الحرب حتى يظل كل واحد في مكانه في إسكندرية. ادعى عربي ربنا لازم يسـمع منـك. صـدقني عربي. أنا أعرف ربنا تماما برغم أني عملت أشياء كثيـرة غلط.

( ٨ )

على شاطيء ترعة المحمودية، على السطح وقرب الماء، داخل الكشك الصفيح، جلس "حبشي" و "بدرة" يحتسيان الشاي ويدخنان" الجوزة". الأولاد والبنات ناموا بـلا نظـام متفرقين على الحصير حولهمـا. بعضـهم تعـرى جسـده، وبعضهم انقلب على الآخر. لحم أبيض لحم أسمر ولحم بين بين. رائحة بخر ماء المحمودية لا تفارق المكان. رائحة بخر ماء مغلي رغم برودة الخريـف. حبشـي يـدخن الجـوزة باستغراق، ويفكر في أنه سيحتاج قريبا إلـى توسـيع هـذا الكشك، لقد كثر الأولاد والبنات، ورائحة المعسـل العنتبلـي تنعشه. بدرة تقاسمه التدخين في الجوزة وتخرج الدخان مـن

منخاريها وفجأة ضحكت بلا سبب. كان هو قد أخذ يتأملها وقد تكون مثل قطعة واحدة صغيرة من الثياب القديمة. يتعجب كيف كان له هو الطويل من دون الرجال أن يتزوج هذه المرأة القصيرة من دون النساء. هو ذو الوجه القوي المشرق والشعر الناعم الذي يطلقه خلفه تماما مثل طرزان، وهي ذات الوجه الخشن البشرة المليء بآثار حب شباب غزير والشعر الخشن الأكرت! هو ذو العينين الواسعتين، وهي ذات العينين الصغيرتين، الأصغر من عيون اليابانيين الذين يراهم في أفلام الحروب.

لكنه يحبها ولا يقدر على فراقها. خمس سنوات وهي تعيش معه هنا على الشاطئ في هذا الكشك، وهو رجل بلا عمل ولا أهل ولا أقارب. هو ليس لقيطًا، يذكر جيدا أباه وأمه. كانا يعيشان بالكشك نفسه حين كان أقل من ذلك مساحة بكثير. نشأ بينهما وبين الترعة والسفن العابرة واللصوص ومطاردات البوليس والمعدية التي يمارس فيها المعداوي الجنس مع نساء لا يعرف من أين يأتي بهن بالليل بعد أن ينقطع مرور البشر. لا ينسى كيف استيقظ وهو في الخامسة عشرة من عمره ليجد أمه وأباه ميتين متعانقين.

شيء لا يحدث إلا في الأفلام للعشاق . حبشي يهـيم بـأفلام طرزان، وقبل أن يسبح في المحموديـة يصـرخ صـرخة طرزان الطويلة رغم أنه لا غابة حوله ولا حيوانات.

انتشر خبر موت أبيه وأمه متعـانقين بـين عمـال السكة الحديد على الشاطئ وعمال ورش الترام على الشاطئ الآخر وعابري المعدية والجالسين بدكانتي أحمـد العنيبسـي والسيد خليل، وكذلك دكانة السيد الأعرج الذي لا يجلس عنده أحد. تحدثت الإسكندرية كلها عن هذا الموت العجيب. بكـت نساء كثيرات، لا يعرفهن حبشي ولا يعرفنه. امتلأت جنـازة أبيه وأمه بخلق كثير. ولا ينسى المقبرة التي دفنا فيها بـين مقابر الصدقة في مدافن عامود السواري. هو إذن على يقين بأنه ليس لقيطًا رغم أنه كان يسمع أباه كثيرا وهو يضـرب أمه يعيرها بأنها عاقر، وكان يسمعها كثيرا تصرخ فيه بأنـه ليس رجلاً كالرجال!. ربما لذلك لم يبك ساعة موتهما. بعـد أسبوع كامل، بالليل وهو يجلس على شاطئ المحمودية بكى بكاء له عويل، ونزل الترعة بجلبابه يسبح كـالمجنون مـرة ناحية الميناء ومرة ناحية كرموز، ويفكر أن يظل سابحا حتى يدخل في فرع النيل ثم يستمر حتى يقطع البلاد كلها واصلاً

إلى أسوان ويتجاوزها إلى السودان يصارع التماسيح كما يفعل طرزان في الأفلام. لكنه تعب وعاد مهدود الحيل إلى الكشك، نام ليصبح الصباح فيجد الدنيا قد تغيرت، وأن هناك حربا قد اشتعلت فيها، وأن الميناء صار باب المدينة الذي تأتي منه الدبابات والمدافع. لقد تحارب الإنجليز والألمان. وها هي حرب جديدة، فيها الإنجليز ومصر هذه المرة. يبدو أن الإنجليز يحبون الحرب في مصر حتى ولو مع المصريين!.

- مالك يا حبشي؟
- لا شيء. تذكرت الحرب الماضية.
- فقط ؟
- وماذا عندي لأتذكره يا بدرة؟

سكتت. هي أيضا مثله لا أهل ولا أصحاب وهذا الذي يجعلها تبقى. أين تذهب؟ خمس سنوات مضت على اليوم الذي رآها فيه أول مرة مع رجل كهل ينتظران وصول المعدية ليعبرا إلى البر الثاني.

تكرر حضورهما كل يوم في الموعد نفسه. في يوم كانت المعدية متوقفة بسبب مرور عدد من "الصنادل" القادمة

من الميناء. رأى التعب على وجه الرجـل الضـرير الـذي تسحبه بدرة كل يوم. دعاه إلى الجلوس في الكشك ليستريح، خاصة أن مطرا خفيفًا بدأ يهطل.

ما إن جلس الرجل داخل الكشك حتى قال: "شـكرا يا حبشي" يعرف اسمه. إنه يأتي كل يوم منذ عدة أيام ولابـد أنه سمع أحدا يناديه. انتهى عبور الصنادل وعادت المعديـة للعمل. لم ينقطع الرجل الضرير وبدرة عن الحضور. فـي كل مرة يلقى التحية على حبشي، وإذا تعطلت المعدية بعض الوقت، جلس وبدرة معه في الكشك أو أمامه، حتى أتى يوما وبدرة معه في الكشك أو أمامه، حتى أتى يوماً وبدرة معـه كالعادة، لكنها كانت تحمل كيسا من القماش به طعام، وطلب الرجل من حبشي أن يشاركهم في الغداء.

داخل الكشك أخرجت بدرة من الكـيس دجـاجتين مطهوتين وأرزا معمرا وخبزا وبرتقـالاً. أكلـوا وجلسـوا يشربون الشاي الإنجليزي الذي اختفى من البلاد منذ قامـت الثورة ولا تجده إلا عند حبشي الذي يأخذه من نوتية السـفن النيلية الذين يأخذونه بدورهم من بحارة السفن البحرية فـي الميناء.

يتاجر حبشي سرا في الشـاي الأصـلي، ويمسـك بالعلبة منه ويقول في نفسه هل يعرف الناس طول المسـافة التي قطعها هذا الباكو البروك بوند ليصل إلـى حبشـي؟ . تاجر البهار فلفل مطحون قال لي إن موطن هذا الشاي الهند وسيلان. كنت أعرف ذلك من أيام الحـرب. كـان الجنـود الهنود كثيرين في المدينة. تاجر البهار فلفل مطحون قال إن الذي اكتشف نبات الشاي نبي - استغفر الله. نبي هندي كان يمشي في الغابات ويأكل فلا ينام، فعـرف أن هـذا النبـات يساعد على السهر. وقال إن الإنجليز حين عرفوا بذلك تركوا بلادهم الباردة وأخذوا سفنهم وجيوشهم واحتلوا بلاد الشـاي. تصور يا محترم أن إنجلترا احتلـت الهنـد حتـى يسـتيقظ الإنجليز من نوم القيلولة فيجـدوا شـاياً يشـربونه. شـاي العصاري يا محترم. دنيا كبيرة وكلها أسرار. هكذا قال تاجر البهار الذي يتكلم عن الفلفل هذه الأيام!.

- هذا شاي معتبر يا حبشي لم يعد موجـودا فـي البلاد.

- كل ما هو غير موجود، موجود عندي يا والدي.

- هؤلاء الأولاد الذين يتحركون حولنا أولادك يا حبشي؟

- طبعا.

- كلهم صبيان؟

- ثلاثة صبيان وثلاث بنات. الولد الكبير والبنت الكبيرة أبنائي.

زام الرجل ولم يتكلم. أدرك حبشي أنه أخطأ في الكلام. لابد أن الرجل الآن يسأل نفسه عن الأربعة الآخرين، ربما يسأل نفسه أيضاً عن أم الولد والبنت.

- لكنهم صغار يا حبشي. واضح من حركتهم وأصواتهم.

- الولد خمس سنوات والبنت أربع والآخرون أربعة وثلاثة لا أذكر بالضبط.

نام الرجل بعد الغداء قليلاً. ترك حبشي الكشك وراحت بدرة تلعب مع الأولاد. أقبل المساء ولم ينصرف الرجل ولا بدرة. طلب منهما حبشي أن يمضيا الليل عنده فوافق الرجل، ولم يندهش حبشي. قال في نفسه كلانا يعرف

الآخر. كما توقع حبشي بالضبط أصبح الصباح فوجد بـدرة ولم يجد الرجل. كيف انصرف وحده وهو ضرير؟

سأل بدرة.

- أين أبوك؟
- لم يكن أبي.
- أين ذهب ؟ من أين كان يأتي ؟
- لا أعرف.
- طيب إلى أين كنت تمشين معه ؟

سكتت.

- لقد كان ضريرا ...
- لم يكن كذلك.

سكت. طال سكوته.

- أين تذهبين إذن الآن؟
- لا أعرف.

سكت لمدة أطول.

- تودين البقاء معي؟
- أجل.
- لعلك تريدين أن تتزوجيني؟

- أجل.

قالت ذلك وهزت رأسها في سعادة.

نظر حبشي إلى الدجاجة الثانية. قام وأخذ بدرة في يده إلى مأذون كرموز الذي أيقظه في الصباح الباكر. أخـذ معه شاهدين من أمام سينما النيل حيث يعرفه باعة الحلـوى ولاعبو الثلاث ورقات. صارت له زوجة جديدة، ظل ينكحها طول الليل ويضحك مما تفعله به الأيـام. لمـا اسـتغربت ضحكاته سألته:

- لماذا تضحك هكذا طول الليل؟

قال:

- منذ خمس سنوات أتت هنا امرأة ضريرة ومعها فتاة جميلة كان اسمها مهجة. تركت لي مهجة واختفت. ولما سألتها قالت لي إن المرأة لم تكن ضريرة ولم تكن أمها.

ابتسمت بدرة.

- هي أم الولد والبنت؟

- بالضبط. لكنها للأسف اختفت بعد خمس سنوات من الزواج.

كما استيقظت من النوم فلم أجد أمها، استيقظت فلـم أجدها.

نظرت إليه بألم. قالت:

- مسكين أنت يا حبشي.

قال:

- ممكن ألا تكون المرأة أمها، لكنها، مهجة، كانت أم الولد والبنت فكيف تتركهما؟.

سلّطت عليه عينيها بشدة أدهشته. قالت:

- هل أنت تعرف كل شيء في الدنيا؟

ظلت تنظر إليه فوجد أن معاودة النكـاح أفضـل. عودها على الاستحمام معه في الترعة بالليل بعد أن ينقطـع مرور البشر. لا ينسى اليوم التالي للزواج كيف وقـف فـي الصباح الباكر ليرى شيئًا أمامه أبيض، والبياض يمتد بـين السماء والأرض. لقد سمع ذلك الصباح صوت الماء وهـو يتنفس وتخيل أن الماء صار طبقات هواء ترتفع إلى السـماء وأنه قد خلع ثيابه وصار يسبح بين السماء والأرض.

كانت بدرة ذلك الصباح نائمة مستغرقة في الهنـاء. فكر أن يذهب إلى سوق سيدي كريم بغيط العنب أو السـاعة

بكرموز أو باب عمر باشا أو محطة مصر أو إلى أي سوق قريب تجتمع فيه النساء ليستأجر امرأة تأتي معه فتدخل على بدرة الكشك حاملة صينية عليها طيور مشوية وأرز معمر وبرتقال وموز وتفاح، وتجلس جوار بدرة تسألها كيف مرت الليلة وتترك لها جنيها كاملاً كما تفعل الأمهات في صباحات الزواج مع بناتهن. أدرك أنه لا يملك في جيبه غير خمسة قروش. لم ييتئس. أسرع إلى حلواني جزر في غيط العنب واشترى بها كلها هريسة وعاد قبل أن تستيقظ بدرة. لما استيقظت راحت تأكل الهريسة كالحالمة، كانت لا تزال بين اليقظة والنوم. كان الأطفال جميعا، الكبار والصغار، يلهون في الماء. جميعا علمهم حبشي السباحة. لكنها لمحت شيئًا ملفوفًا في خروق على الأرض. إنه طفل حديث الولادة. نظرت إلى حبشي في دهشة. قال:

- وأنا عائد بالهريسة وجدته على الشاطئ.

- .....

- لقيط مسكين أحضرته معي. سأربيه مع إخوته

وضحك.. هكذا صرت أما قبل أن تحملي ! رزق من الله!.

سألته وهي لا تزال غائبة في الدهشة..

- هل بقية الأولاد لقطاء؟

- بالضبط. أجدهم دائما على الشاطئ. إنها خطايـا المدينة يا بدرة يقذفونها علينا.

- لماذا لا تتركهم فيأخذهم شخص آخر؟

- مادمت رأيتهم فهذا يعني أن الله وضـعهم فـي طريقي. ثم من يضمن أن يراهم أحد. من يضـمن لـي ألا يموتوا؟

- طيب لماذا لا تأخذهم إلـى قسـم البـوليس أو الملاجئ؟

- في هذه الحالة سيموتون لا محالة.

سكتت. بعد قليل انصرفت إلى اللقيط. هـاهو الآن في الخامسة من عمره. هو النائم بعيدا فـي الـركن. وجـد حبشي بعده اثنين آخرين، أبناؤهما الآن عشرة؛ لأنها أنجبت بنتين!. ضحكت فسألها وهو يشد نفسا من الجوزة:

- ماذا يضحكك الآن؟

ظلت تضحك وتقول:

- هل أنا ضحكت فعلاً؟

- ماذا جرى يا امرأة. تستغليني؟

- لا والله يا طرزان.

كان لا يحب منها أن تقول له ذلك بالليل بالـذات؛ لأنه كان يتذكر على الفور أنها تشبه القردة شيتا، وهو يريـد أن ينسى شكلها الذي لم يتعود عليه رغـم مـرور خمـس سنوات. لكنها اقتربت منه ودفست نفسها في صدره.

- دفيني يا حبشى.

مد ذراعه وأحاطها وراح يضغط عليها في صـدره ويقول:

- بدرة أكثر من مرة قلت لك الضحك مـن غيـر سبب قلة أدب.

لكنها عادت تضحك وتهتز في صدره وهو بـدوره استجاب لضحكها وراح يهتز معها. قالت:

- أنت حاطط حشيش في الجوزة يا حبشي؟

- هل تشمين رائحة حشيش؟

- لا.

- إذن أنا لم أضع حشيشًا.

ضحكا معا واهتزا معا، هو بدوره فكر فـي هـذه الحالة من الانسجام هل سببها المعسل فقط؟. قال:

- تكون شركة المعسل وضعت حشيشًا للشعب؟

لكنها لم ترد. سكتت لحظات، ابتعدت عنـه قلـيلاً وقالت:

- أنا محتارة في الدنيا يا حبشي.

- نعم ؟!

فوجئ بالكلام. لكنها استمرت.

- كل يوم بعد أن ينام الأولاد والبنات وتنام أنـت بعد أن تقوم بعملك المجنون معي، وينقطع من الدنيا الـنفس، أسأل نفسي إحنا فين ومين اللي حاططنا هنا؟

أمسكها من كتفيها وراح يحملق في وجههـا وسـط الضوء الهادئ للمبة الكيروسين نمرة(١٠) الموضوعة فـي ركن بعيد.

- بدرة! جرى شيء لعقلك؟. ربنا هو اللي حاططنا هنا!

- أعرف لكن كان ممكن يحطنا في مكان تاني.

لم يرد. سكت غير مصدق ما تقول.

- أنت زعلت؟

- أزعل ليه. هل أنا ربنا؟!. ربنا هو اللي حيزعـل منك.

سكتنا طويلاً بعد ذلك، كانت تفكر في هذا الإحساس الذي باحت به الليلة وكيف يداهمها كل ليلة بعنـف، وكيـف يسري إليها بالخوف بأن الليل لن ينتهي إلا ويحملها معه إلى الآخرة مع أول خيوط الصباح. كان حبشي قد أدرك كلامهـا في رأسه وأعجبه ذكاءها. هو أيضا كلما تقدم الليل وأطبـق عليه الظلام من كل ناحية ووجد نفسه وحده جوار الترعـة فكر أنه يمكن جدا ألا يطلع عليه نهار جديد، وأن هذا الظلام الكثيف يمكن أن تعجز الدنيا عن زحزحته، بل يمكـن لهـذا الظلام أن يبلعه في جوفه ولا يتبقى منه أي أثـر، لكنـه لا يعطي لعقله فرصته في الاستمرار في الأفكار، ذلـك يفـتح الطريق للجنون. هو يعرف سكة الأسئلة. هكذا علمته الوحدة وشذاذ الآفاق الذين عبروا أمامه عبر السنين. وسمعا خروشة خارج الكشك وصوت شيء يسقط في الماء.

- فأر.

قالت بدرة بهدوء ودخلت في صدره من جديد. قال:

- غرق. مسكين. حاول أن يمسك في الشاطئ وفشل. خديني في حضنك يا بدرة!

صار كل منهما في حضن الآخر. لم تكن هذه أول مرة يسمعان خروشة الفئران ولا سقوطها غرقى. لقد تعودا على ذلك، وعلى الثعابين التي كثيرا ما تظهر على الشاطئ بالنهار، وعلى القطط الضالة والكلاب، وعلى جثث الحيوانات النافقة وهي تعبر في سلام فوق الماء! وعلى القتلى المرسلين من الريف إلى الإسكندرية في الأجولة مقطوعي الأطراف مشوهي الوجوه، وعلى نقيق الضفادع وصرير الجنادب وقفزات القراميط فوق الماء وهمسات الأسماك بالليل، ودوت صفارات الإنذار فارتعبت بدرة ودخلت في صدره أكثر.

- أطفئ اللمبة يا حبشي.

- أتركيها. لا أظن أنهم يضربوننا. ماذا فعلنا لهم؟

لكنها انتفضت وقفزت إلى اللمبة ونفخت فيها فانطفأت وعادت إليه دون أن تتعثر في الأطفال. كان هو قد فتح الباب وخرج إلى الشاطئ فخرجت تقف جواره. قال:

- أيام هتلر حصلت غارات كثيرة على المحمودية عند كوبري كرموز. كانت القنبلة تنزل هناك تهزنا هنا.

- أنت خائف يا حبشي؟

- أنا عمري ما خفت لكن الإنجليز أبالسة عارفين كل مكان في مصر، وأنا تاريخي معهم لا يسر. كنت أذهب إلى المنشية أيام الحرب أسرقهم. أخطف عصـا، برنيطـة، كاب، لفة ورق أو شنطة مع واحد منهم وأجري ولا يلحـق بي أحد، وإذا قابلت بالليل واحد سكران آخذ كل ما في جيبه حتى ساعة يده.

- ما هذا النور؟!

تساءلت بدرة في فزع.

- لا تخافي. لا تخافي. صواريخ.

كانت الطائرات البريطانية والفرنسية قد ألقت فـوق المدينة الشرائط الفوسفورية الملونة، وكانت القذائف تطـارد الطائرات من كل مكان على الشاطئين، من فـوق المسـاكن وفوق ورش الترام وفوق مصانع الزيوت والصابون وفـوق جبل كوم الشقافة. أتى إليهما صوت الأولاد الذين خرجوا من المساكن وتجمعوا على الشاطئ أمام الماكينة الحمراء يتابعون

الطائرات ومطاردتها. أحس حبشي بـالفخر وأحسـت هـي بالاطمئنان وهي تسمع صوت الأولاد، كـان أبنـاؤهم قـد استيقظوا من أثر صوت المدافع وخرجوا يبحثون عنهما.

- تعالوا. تعالوا هنا تفرجوا على خيبة الإنجليز.

كانت طائرة تحترق في السماء وتهوى بعيدا مشتعلة وسط الظلام.

- أنا فاكر في الحرب أيام هتلر أن أبـو الـدرداء كان يوقف القنابل في الجو. في هذه الحـرب أبـو الـدرداء زعلان.

قال عيد ذلك فنظر الأولاد إليه مندهشين. كـروان وبلك ومصطفى وعبده وغيرهم من الذين تجمعـوا خـارج المساكن في منتصف هذه الليلة يشاهدون مطاردات المـدافع المضادة للطائرات المغيرة على المدينة.

اندهشوا من كلامه، خاصة أن عيد مثل معظمهـم ولد بعد الحرب العالمية الثانية أو على الأكثر بعـد معركـة العلمين. كانوا ما بين جالس على سلالم الماكينة الحمراء أو أمام الكوخين اللذين صنعهما بلك وكروان والصبية من أفرع الأشجار. لقد أشعلوا أخشابا بعد انتهاء الغـارة والنـار الآن تلتهب في الظلام وتلقى بالنور على وجوه بعضهم.

قال مصطفى:

- أنت شفت الحرب أيام هتلر يا عيد؟

- طبعا وشفت أبو الدرداء وهو رافع يديـه إلـى السماء تحملان الطوربيد الذي ألقت به الطائرة لحجزه عـن المدينة..

بعد ذلك دار الحديث عن تلك المعجزة التي حـدثت حقا بالإسكندرية أثناء الحرب العالمية الثانية. كانت ليلة ألقت فيها الطائرات الألمانية قنابل كثيرة حتى ضج الناس في كل مكان ورفعوا أيديهم إلى السماء طـالبين العـون مـن الله، وجاءت طائرة كبيرة ضخمة تئز أزيزا متواصلاً ثقيلاً عميقًا وعريضا يملأ الفضاء، كان واضحا أنها ستهدم المدينة على من بقي فيها، ألقت طوربيدا ضخما ثقيلاً بعـد أن اقتربـت كثيرا من الأرض فإذا بذراعين من ضوء يخرجان بسـرعة من مسجد أبو الدرداء الصغير ويرتفعان حتى يصـلا إلـى الطوربيد الهابط فيتلقيانه ويمنعانه من السقوط فوق المدينة.

توقف الطوربيد في منتصف المسافة إلـى الأرض، وظل ذراعا النور ينبعثان من المسجد. رأهما الناس الـذين خرجوا من بيوتهم فتنادوا وهتفوا في الظـلام الله أكبـر الله أكبر، وجرى النبأ من "العمري" إلى كرموز وكوم الشقافة من جهة، ومحطة مصر وباب عمر باشا وراغـب مـن جهـة

أخرى، ومينا البصل والقباري والمكس مـن جهـة ثالثـة، والمنشية الصغيرة والميـدان وشـارع التتـويج وبحـري والأنفوشي من جهة رابعة، هرع الناس من كل فـج عميـق ليروا هذه المعجزة الإلهية لأبي الدرداء، لم يهتمـوا بعـودة الطائرات الألمانية وتزاحموا رجالاً ونساء وشـبابا وفتيـات وشيوخًا وأطفالاً. كان النور المنبعث ذراعين من أبي الدرداء يضيء ظلام الليل ببهجة سحرية والطوربيد الأعمى الأسود ممددا فوق ذراعي النور، لم ينقطع تهليل الناس وتكبيـرهم الذي راح يزداد والضوء يتراجع شـيئًا فشـيئًا والطوربيـد يقترب من الأرض وكلما اقترب من الأرض ازداد الهيـاج: الله أكبر الله أكبر، وصار الصوت من القوة حتى هز أركان الفضاء، جاءت فرق الإنقاذ تبعد النـاس الـذين لا يريـدون الابتعاد حتى نزل الطوربيد إلى الأرض بسلام، فعلا الصياح والتهليل والتكبير وارتفعت الأصوات من مكبرات الصـوت تطلب من الجماهير الابتعاد حتى لا ينفجر الطوربيد، وأفسح الناس طريقًا لرجال الإنقاذ الذين تقدموا من الطوربيد الممدد على الأرض مثل حوت ميت ووصلوا إلى جهـاز التفجيـر الخاص به ونزعوه فصار مثل الجثة لا يخيف أحدا. رفعـوه

على إحدى العربات الكارو ومشوا به بعيداً والناس وراءهـم يهتفون الله أكبر، ويضـحكون وبعضـهم يتقـدم ويضـرب الطوربيد بيده أو يبصق عليه، والأطفال تهتف خلف العربة: بكرة من ده بمليمين، ثم بدأوا يعودون إلى بيوتهم مطمئنـين إلى أن حياتهم منذ هذه الليلة ستكون في حمى أبي الـدرداء الذي سيشاركه بالتأكيد القطب الأكبر أبو العبـاس المرسـى وسيدي ياقوت وسيدي علي تمراز وسيدي العـدوي، فلـن تسقط قنابل أبدا على بحري أو الأنفوشي أو منطقـة المينـا، وكذلك سيشاركه سيدي العجمي وسيدي القباري فلن تسـقط القنابل غربا، أما شرقًا فسيتكفل سيدي جابر وسـيدي بشـر بالدفاع عن المدينة ضد الأعداء.

دوت صافرة الإنذار مرة ثانيـة. بسـرعة أهـالوا التراب فوق النار. سمعوا صوت أزيز الطائرات يقترب من المدينة قادما من ناحية الغرب. انطفأت الأنوار على الشاطئ الآخر. ازداد اقتراب أزيز الطائرات فامتلأت السماء بالجحيم الصادر من المدافع المضادة من كل مكان فـي الإسـكندرية وسمعوا صوت انفجار قوي.

- فشنك.

هتف مصطفى ضاحكًا ثم أضاف:

- هناك في الملاحة سقطت القنبلة.

ودوى صوت انفجار آخر. هذه المرة وسط المدينة. لكنهم بعيدون فلن يسمعوا صوت عربات الإنقاذ أو الإسعاف، والوقت الآن بعد منتصف الليل. قال مصطفى:

- ولد يا عيد. أنت فيك شـيء لله. قـل يـا رب الطيارات تقع.

سكت عيد لحظات وأشار إلى السماء.

- هذه الطيارة ستقع.

كانت أضواء خافتة متقلبة تظهر في السماء، هـي أضواء الطائرات التي لم تلق بشـرائط الفوسـفور الليلـة. ومضت الطائرة ومضة كبيرة واشتعلت فيها النار. إنها تقـع بعيدا أمام أعينهم.

هتف الولد بلك:

- الولد عيد فيه شيء لله بصحيح.

ضحك عيد وضرب كفا بكف وقال:

- وهذه أيضا ستقع..

ما هي إلا لحظة وانفجرت الطائرة البعيدة أمـامهم في الظلام السحيق..

هتف عيد وهو يضحك:

- أبو الدرداء لم يعد زعلان.

أحاطه الأولاد.

- هيا يا عيد قل إنها ستقع، قل عن الطيارات إنها ستقع يا عيد.

لكن عيد ظل واقفًا سعيدا غيـر مصـدق، كانـت الطائرات قد ابتعدت عن المدينة، توقـف صـوت المـدافع المضادة، فقال عيد:

- أنا عائد إلى البيت، الطائرات لن تعود.

تركهم ومشى لا يلتفت كأنمـا كـان عليـه مهمـة وأنجزها. عاد الأولاد لإشعال النيران في الحطب. انصـرف مصطفى وعبده عائدين إلى بيتيهما معتبرين ما يفعله الأولاد شيئًا لا يليق إلا بالأطفال. كان كروان وبلك قد قررا منذ أيام أن يديرا حربا كالتي تحدث في البلاد. أخذا عددا من الصبية إلى "المرعى" وقطعوا عددا كافيا من أغصان أشجار الكافور والخروع والجوافة والتوت والكازورين والسدر تكفي لبنـاء

كوخين على الشاطئ. الدخول إلــى المرعــى، أو الحديقــة الصغيرة المهملة وسط فضاء السكة الحديدية، يحتاج لعبــور البوابة التي تفصل المساكن عن السكة الحديد، وهذا ســهل، والعودة كذلك سهلة فلن يمنعهما الشرطي الجالس بالبوابة لا في الذهاب ولا في الإياب. ثم إن هذه الحديقة المهملة يذهب إليها كل صباح قطيع الماعز الذي يربيه أهــاليهم ويمضــي القطيع يومه هناك حتى المساء في أمان ولا يعــود إلا مــع أصحابه العائدين من العمل. أخذوا طريقهم منذ أيام ومعهــم عدد من الأولاد وسط قضبان السكة الحديدية، فوقهم فضــاء رائق وحولهم ضوء أبيض غامر باهر عجيب شفاف يــرون بعضهم من خلاله!. أما السماء فكانت شديدة الزرقة لا سحب تحتها، كأننا لسنا في الخريف ونقتــرب مــن الشــتاء. فــي المرعى، أو منطقة الأشــجار الشــيطانية الكثيفــة، راحــوا يقطعون الأغصان التي أسقط عنها الخريف أوراقها كالتوت والجوافة والتي تصمد طوال العام كالكافور والكازورين. قال بلك وهو يرى قطيع الماعز يرعى ويأكل من كــلأ الأرض ويقترب من أوراق الأغصان القريبة ليأكلها.

- كيف يأمن أهالينا ويتركون الماعز هكذا وحدها، أكثر من مائة ماعز وجدي.

لكن أحدا لم يرد. انشغلوا بجمع الأغصان وربطهـا في حزم صغيرة بالدوبار.

فور عودتهم إلى الشاطئ راح بلاك وكروان يعلمان الصبية كيف يقيمون الكوخ كما شاهدوا في السينما في أفلام طرزان.

قبل الظهيرة كانوا قد أتموا إقامة كوخين صغيرين. قسموا الأولاد فريقين. فريق الإنجليز وفريـق المصـريين، استقل كل فريق بكوخ. "ملك أم كتابة" ألقى كـروان بقـرش الصاغ، فظهرت الكتابة وهذا يعني أنه سيكون قائدا لفريـق المصريين، أما بلاك الذي أطلقوا عليه هذا اللقب لسواد لونـه فسيكون قائدا للإنجليز!

إنهم لا يقصدون الكلمة الإنجليزية "بلاك" بل الزفت الذي يستخدم في سفلتة الأرض والذي يطلقون عليـه كلمـة بلأك. والتي لا تعني غير الكلمة الإنجليزية بلاك! وقال بلاك:

- الإنجليزي لازم يكون أبيض.

قال كروان:

- أجرينا قرعة وانتهى الأمر.

كانت الأسلحة التي أعدوها هي الحجارة والمقاليع والإبر ذات الريش، تلك التي رأوها في الأفلام تنطلق من قطع البوص الصغيرة بعد أن ينفخ فيها الزنجي من ناحية فتصيب هدفها وتقتله في الحال، ليس لقوتها، لكن لأنها مسمومة. إنهم من عشاق أفلام طرزان و "تايوكا" ومغامرات الأدغال. أعجبهم انطلاق الإبر في الأفلام من أعالي الأشجار وبين الآكام على الأعداء. لكن المكان هنا مفتوح فكان على حامل البوصة أن يخفيها بسرعة. لقد جربوا سلاحهم على الخيل والحمير والبغال التي تمر جارة عربات الكارو قادمة من كفر عشري إلى كرموز. يقترب الواحد من الحيوان ثم ينفخ فيه الإبرة فيرتعش الحيوان للحظة ثم ينهق أو يصهل والعربجي المسكين يتوقف بعد أن يضربه كثيرا بالكرباج، ثم يأخذ في مسح جسده بيده بهدوء فيصطدم بالإبرة ذات الريشة في الخلف فيتلفت حوله في غيظ فلا يجد أحدا.

لم تكن البغال تهتز أو تصدر صوتًا من أي نوع. كانت تمشي في طريقها والإبرة مغروزة في جلدها.

كيف سيطعمون الجنود من الصبية والأطفال. قـال كروان:

- يأتون بطعامهم من بيوتهم.

قال بلك:

- هذا لا يكون جيشًا. الحكومة تطعم الجيش ونحن الحكومة الآن.

بدا الأمر صعبا. كيف سيطعمون عشرين طفلاً. قال كروان:

- نشتري من عند العنيبسي شكك!

- سيعرف أهلك وأهلي آخر الشهر، إنهم يشترون في حدود معلومة لا يزيدون عليها.

وقفا حائرين حتى لمعت عينا بلك السوداوان. قال:

- عندي فكرة بمائة جنيه، نذهب نشتري ما نريـد للجنود من عم أحمد العنيبسي في الوقت الذي لا يكون فيـه بالدكان إلا ابنه أنور، سيعطينا دفتر الشكك الذي فيه صـفحة لكل شخص. نكتب ما نشتري في صفحة عم أبي الحسن.

- أبو الحسن. لماذا؟

قال كروان مندهشًا فقال بلك:

- لأنه يشتري كل يوم زجاجة سينالكو بقرش صاغ وقطعة "معمولة" بقرش تعريفة فقط. هكذا سمعت أبي يقول.

- لكن هذا حرام يا بلك.

- هل يموت الجنود من الجوع يا كروان؟

- طيب وإذا طالت الحرب.

- يكون أبو الحسن حظه سيئًا.

- ياللا بينا!

قالا ذلك وهما يضحكان، يقلدان أنور وجدي حين يكون مقبلا على عمل من أعمال الشهامة. اشتريا جبنًا وحلاوة طحينية وخبزا وقطع حلوى وأقراص طعمية ووزعوها على الجنود الصغار.

عند العصر بدأت المعركة. جرى الإنجليز أمام المصريين الذين حملوا عليهم بالحجارة الكثيفة. كان الإنجليز قد بدأوا من قبل بهجوم قوي بالحجارة أيضا. انتهت المعركة بعد نصف ساعة لا أكثر حين اكتشفوا أن الإصابات لم تترك منهم أحدا. لقد تشابكوا أيضا بالأيدي حين لحق المصريون بالإنجليز الذين كانوا قد فروا أمامهم، كل ذلك والناس في

دكانة العنيبسي وجوارها يتفرجون ولا يتدخلون. أصيبوا إصابات متنوعة في الوجوه والرءوس والأذرع والسيقان وجلسوا معا على شاطيء الترعة غير مصدقين ما فعلوه، إذ رأى كل منهم الإصابات في وجوه الآخرين فانطلقوا ضاحكين. وقال بلك:

- الحرب صعبة بحق.

قال كروان:

- هذه بالحجارة، ماذا لو كانت بالمدافع؟

قال بلك:

- الإنجليز نزلوا بورسعيد بالمظلات.
- أعرف.
- ما رأيك أن نعلم الجنود الهبوط بالمظلات؟

تأمله كروان مندهشًا واستمر بلك يتحدث.

- أنا أعرف كيف تُصنع المظلة. لقد صنعت واحدة وقفزت بها اليوم في الصباح. ودخل الكوخ وأخرج شنطة زوزو الورقية وأخرج منها ملاءة سرير موصلاً بها دوبار كثير من أطرافها وأماكن على محيطها ومتصلة نهاياته كلها في عقدة كبيرة.

- هذه هي المظلة، يمسك الواحد في الدوبار ويقفز، أو يربطه في وسطه فترتفع الملاءة فوقه ويملأها الهواء وينزل بسلام.

تأمله كروان غير مصدق وسأله:

- أنت قفزت بالمظلة؟

- أجل، من فوق السطح. في الصباح حيث يوجد هواء.

سكت كروان الذي تشكك في الأمر كله بعض الوقت ثم سأل:

- من الذي نزل بالمظلات في بورسعيد؟

- الإنجليز والفرنسيون.

- إذن لماذا تريد من جنودي المصريين الهبوط بالمظلات؟

وافق بلك أن ينزل جنوده في اليوم الأول، ويزيد من عددهم ويقلل من عدد المصريين الذين سيقاومونهم. كان الموعد هو صباح الغد. أحضر الأطفال، سرقوا في الحقيقة، ملاءات سرير من بيوتهم، وأمضوا الليل مع بلك يصنعون المظلات، كان أهاليهم قد تعودوا على غيابهم في الخارج منذ

بدأت الحرب، فهم يسمعون صراخهم ولهوهم في أي وقـت يصل إليهم من النوافذ المطلة على المحمودية. في الصـباح الباكر، قبل أن يبدأ الرجال في الخروج إلى العمـل دافعـين الماعز أمامهم كان الأولاد، الإنجليز، يقفون فـوق السـطح المطل على شارع القنـال يتوسـطهم بلـك وقـد أمسـكوا بالملاءات، بينما وقف كروان وسط العدد القليل مـن جنـود المصريين في أيديهم حصي والأحجار. هوب واحـد اثنـين ثلاثة وصرخ بلك صرخة الموت وقفز الأطفال معه رافعين المظلات التي لم تنفتح ولم يملأها الهـواء. لحظـة وكـانوا جميعا قد ارتطموا بالأرض. سلط عليهم المصريين الأحجار والإبر ثم انهالوا عليهم ضربا بالعصـي. صـرخات بلـك والأطفال كانت عالية وحقيقية فتوقف كروان وجيشه ونظروا على زملائهم ليشاهدوا الألم الفظيع على وجوههم، العـرق الذي يتفصد من بشرتهم، وبعضهم الذي فقد الوعي. وصـل صراخهم إلى النوافذ فخرج الأهل في فزع ليـروا أبنـاءهم ممددين على الأرض مهشمين كسرت أقدامهم جميعا، وبلغت الإصابة أشدها في بلك واثنين آخرين حيث أصيبوا بكسر في الحوض، كان بلك ينظر إلى كروان نظـرة مليئـة بـالغيظ

والاتهام بالغدر والخيانة بينما أدرك كروان أن الحرب ليست لعبة أبدا ولن تكون..

وقف تاجر البهار "فلفـل مطحـون" يخطـب فـي الجالسين على جانب السلالم المؤدية إلى القبو قائلاً:

- أنا حفيد أكبر تجار الكارم في التاريخ، الحـاج عمر بن محمد بن سليمان نجم الدين القاضي الدماميني، من دمامين بالصعيد، الذي توفي عام ٧٠٧هجرية، أي منذ سبعة قرون تقريبا. وكانت له قيسارية، يعني وكالة يـا أخـواني تشغل نصف شارع فرنسا قبل أن يكون هناك شارع فرنسا، وكانت مليئة بالعنبر والعصفر والبهار ولهـا سـتة أبـواب: أربعة منها ناحية الجهات الأربع، واثنان منها مفتوحان على السماء، كان له بالإسكندرية فنادق الدماميني فـي مواجهـة الميناء ينزل بها الجنويون من جنوا، والبيزيون مـن بيـزا، والفلورنسيون من فلورنسا، والفرنسـيون مـن مارسـيليا، والقبارصة من قبرص، والأتراك والشوام والمغاربة يتفقـون معه على حصصهم من الكارم التي ستحملها السفن إلى كـل الدنيا. هذا تاريخ أجدادي منذ الدولة الفاطمية وأنتم تجهلونـه

يا أخوان، وأحب لكم أن تعرفوه قبل أن يأتي اليـوم الـذي تندمون فيه على ذلك!

كان محمود القزعة ينظر بدهشة ممزوجة بالإعجاب إلى هذا الذي يتحدث جادا في أمر هزل! في الوقـت الـذي يلعن في سره الحرب التي قلت من حضور النساء إلى حلقة السمك بالملاحة خاصة في اللحظات الأخيرة للنهـار، تلـك التي كان فيها ضوء الشمس الواهن يسقط وهو ينسحب على ربلات سيقان النساء من الخلـف فتتـألق برقـة وتهمـس بالأسرار. كان سليمان قد تأكد من أن جين بانكروفـت قـد غادرت البلاد. كل الصحف تحدثت عن طرد رعايا الدولـة البريطانية والفرنسية، لكنه لم يستيقن حتى ذهب بنفسه إلـى بولكي، ورأى القصر الجميل مغلقة بوابة حديقتـه بسلسـلة سميكة من الحديد وقفل ضخم وأمامه أكثر من جندي حراسة شاكي السلاح. عاد حزينًا، لم يشعر حتى بصـوت أمـواج البحر الهائجة وهو يمشي على الكورنيش فاتحا صدره لعـل الهواء البارد الذي في الدنيا يثلج روحه التي تكاد تنفجر بين الحين والحين كان يفطن لأصوات الموسيقى التي تنبعث من خلف أبواب الملاهي الليلية لكنه لا يتوقف.

يشير إليه رجل ضخم أن يدخل، وأحيانًا امرأة، لكنه لا يكلف نفسه حتى بالابتسام ويظل ماضيا في طريقه وعلى مهل حتى وصل إلى المنشية. مشى مسافة طويلة حقا ذلـك اليوم. من المنشية قرر أن يركب الترام إلى كرموز، نهايـة الترام أمام المعدية مباشرة ولن يحتاج الأمر إلا إلى عبـور المعدية ليصل في ثوان بعد ذلك إلى البيت. لكنه مشي قلـيلاً في ميدان المنشية. النوافذ مغلقة، يبدو أنها لم تفتح منذ أيـام، غبار كثير على النوافذ، يبدو أن أحدا لم يعد يعتني بها، حتى نوافذ البورصة العالية مغلقة، والمحلات في الأدوار الأرضية مغلقة في معظمها، وعليها أقفال ضخمة تشي بأن أصـحابها لن يفتحوها في القريب العاجل، وعلى الأرصفة لـيس ثمـة صيارفة، واحد أو اثنان قرب قهوة إسكندرية، منزويين فـي الممر كأنهما لا يريدان أن يراهما أحد ربما لأننا ندخل فـي المساء. هنا الإسكندرية يا سـليمان. ميـدان المنشـية هـو الإسكندرية أنشأه محمد علي باشا، وبدأت فيه قنصليات الدول في الظهور، وقامت حوله العمارات الباذخة، المسـرفة فـي الحليات والكرانيش والزخرفة، وسكنها الصفوة من التجـار ورجال الأعمال، في أوائل هذا القـرن أنشـأت القنصـلية

الفرنسية الحديقة الفرنسية تفتح الميدان على البحـر، حمـل الميدان اسم محمد علي باشا، مؤسسه والـذي وضـع فيـه الخديوي إسماعيل تمثاله الذي صممه المعمـاري الفرنسـي آمبرواز بودري بين عامي ١٨٧١ - ١٨٧٣ وتكلف مليونين من الفرنكات بحساب ذلك الزمان. قيل إن حكومـة الثـورة كادت تصهره لتصنع منه نقودا معدنية بسبب الأزمة الكبيرة في العملات الصغيرة التي واجهتها العـام الماضـي، لكـن الحكومة كانت أكثر تعقلاً، تركته مكانه، لـم تصـهره، وإن رفعت تمثال إسماعيل باشا الذي كان يطل على البحر أمـام الحديقة الفرنسية ولا يعرف أحد إلى أين ذهبوا به. لا يمكـن أن يكونوا قد صهروه أبدا. ربما فعلوا ذلك حقـا، مسـكين إسماعيل باشا، جنت عليه النقود في حياته وجنت على تمثاله بعد ذلك. لكن يظل هذا أمرا بعيد الاحتمال. لقد احتاج وضع تمثال محمد علي في ميدانه إلى فتوى من الإمام محمد عبده. كانت هذه أول مرة يوضع فيها تمثال في مدينة عربية. كان جريئًا ذلك الشيخ . المنشية الكابية الآن التي يكاد يصرخ فيها الهواء هي التي شهدت صعود عائلات البورجوازية الأجنبية اليونانية واليهودية والإيطالية وغيرها من الملل والأديان. كل

شيء كان يبدأ من المنشية وفيها ينتهي يا إسكندرية. منشـة. سورسول، كرم، ساويرس، رولو، نوبار، امبروزو، سلفاجو، بيناكي، بسترودس، روسيتي، إيفيرينو.

الإيطاليون تركوا أثرهم في العمارة.. ثراء ما قبـل عصر النهضة في الواجهات شديدة الزخرفـة، والأوكـالات Okale ، العمارات الراسخة الكبيرة التي يشغل فيهـا كـل طابق أسرة واحدة.

تاريخ المنشية هو تاريخ الإسكندرية يـا سـليمان. انظر إلى أين انتهت. هجرها صفوة التجـارة والرأسـمالية الأوربية مرة من قبل إلى الرمل ومحرم بك، والآن لا أحـد يعرف إلى أين يذهبون. أصاب المنشية طائر الـنحس منـذ أطلقت فيها النيران على جمال عبد الناصر، لم يفلح تأميمـه للقناة من فوق شرفة البورصة في أن تستمر حيويتها. لم يعد أحد فيما يبدو يحبها من الأجانب. وربمـا مـن المصـريين أيضا، فلم تعد البلدية تعتني بنظافتها، وليست الحـرب أبـدا سببا كافيا لذلك.

أين هي المنشية التي مشى فيها، حتى أيـام قليلـة فقط، مع جين، يتحدثان أحيانًا بالإنجليزية، وأحيانًا بالفرنسية،

وتغلبه جين في معرفة اللغات فكانت تتحـدث نيابـة عنـه بالإيطالية واليونانية وكل ذلك في ثلاث ساعات هـي التـي يقابلها فيها. كثيرا ما كان يسأل نفسه لماذا حقا تختفي اللغـة العربيـة، ولا يسـتطيع أن يسـتخدمها إلا مـع الشـحاذين والمتسولين والأطفال الحفاة العراة جامعي أعقاب السـجائر، إنهم كثيرون بدرجة مدهشة حتى ليخيل إليك أنهـم تركـوا الإسكندرية كلها وتركزوا هنا في الميدان الجميـل. أحيانًـا يشعر بالضيق ثم يقول لنفسه إن جـين تعـرف ذلـك عـن المصريين وأكثر فلماذا يتضايق، ثم يقول لنفسه من المؤكـد أن الثراء الذي يرفل فيه أولئك الأجانب هو سبب الفقر الذي يغرق فيه هؤلاء المصريون ويشعر بالضيق من جين ذاتها، لكنها تبتسم أمامه فينسى كل شيء وتأخذه إلى شريف باشـا وهو مسحوب الروح معها، مسحور، كأنما ندهتـه النداهـة، فتدخل محل "أولد إنجلاند" الكبير الفخم فيشعر كما لو كان في فيلم سينمائي. خيال كل ما حوله خيـال، بشـر مضـيئون والمكان يكاد يرقص من الإضاءة ولغات أجنبيـة فـي كـل ركن، وباعة يتقنون كل لغات الأرض. هذا المحل يـذكرني بمحلات بيكاديللي في لندن. تقول جين. لم يذهب إلى لنـدن

ولم ير بيكاديلي. تدور على الأقمشة الجميلة، التويد والفيلا، يقابلها الموظفون بحفاوة، لا تشتري في الغالب، تطوف على أقسام الروائح وأدوات المطبخ، شوك وسكاكين مـن شـيفلد وأواني ودجود وهو مأخوذ ومطيع، تخرج فيخـرج خلفهـا ويظل يمشي في الشارع المسحور، لاميزون دي كـادو، لا ميزون فرانسيه، ويكاد يغمى عليه في إيتام للملابس الداخلية والجوارب، وينكس رأسه وهي تشعر به وتراه، ايجيبشـيان! وتبتسم ويستمر معها في التجوال فيرى محلات هـوروفيتش وزيف فرير وجراند مجازين وشالون وأوريكو حتى يصـل إلى صيدناوي على ناحية سيدي المتولي فيشعر أنه اقتـرب من دنياه، وأنه كان غارقًا في دنيا فرنسية وإنجليزيـة مـن المجوهرات والبارفان والثياب والأثاث والحلوى، وتعود بـه إلى هانو في نهاية شارع توفيـق فـي المنشـية الصـغيرة فيتناولان الحلويات ولا تنسى في النهاية أن تدخل قليلاً فـي فيكتوريا ستيشنري آند بوكس ستور لكن أسعار الكتب غالية، لقد تعود على الاستعارة من المكتبة المدرسـية، أو شـراء الكتب القديمة من مكتبات مثل الاسـتنارة وأخـوان الصـفا بالعطارين ومحطة مصر، تشتري هي عادة مجلـة لايـف

الأمريكية ومجلة الموضة الفرنسية جاردان دي مود، وطوال الطريق دائما يطاردهما الشحاذون الأطفال الذين يقل عددهم مع دخول الليل، يركب معها الترام حتـى بـولكلي، أحيانًـا يعود، وأحيانًا تدعوه للدخول، يمشي مـأخوذًا فـي حديقـة القصر ذي الشرفات اليونانية، الأبـيض وسـط الخضـرة والزهور، بالحديقة ملعب للتنس أجبرته يوما أن يلعب معهـا فيه ولم يشأ أبدا أن يخلع ثيابه ويرتدي اليونيفورم الذي قدمته إليه.. أحواض صبار من أنواع غريبة ملونة ومصابيح زيتية على أعمدة يونانية ورومانية قصيرة، والأشجار داخل السور القرميدي الأحمر عالية وقصيرة، بونسيانا وارفة الظـل ذات زهور حمراء وأشجار استوائية تتجه جذورها الخارجة مـن الأغصان إلى الأرض، وأحواض مـن البانسـيه والبنفسـج والبتونيا والجلوكسينيا واليسم المنتشـر علـى الأرض بـين النخيل بألوانه، الأبيض، والمائل إلى البنفسجي. هو لا يعرف أسماء النباتات. لا يعرف إلا الورد البلدي والفل والريحـان والتمر حنة والياسمين، وكل هذا موجود وأسـماء أخـرى. يكتشف قدرة جين المذهلة علـى حفظهـا والتحـدث فـي خصائصها، رغم أنها مدرسة لغة إنجليزية صغيرة لم تتجاوز

الثانية والعشرين من عمرها في الكلية الإنجليزيـة للبنـات، حيث بنات الجاليات الأجنبية. قالت له مرة إن في المدرسـة حمام سباحة فلم يصدق، وطلبت منه أن يزورها، لكنه كـان قد اكتفى باللقاءات الباهرة التي جعلت الأشهر الثلاثة التـي مضت حلما. فوق الجسر شاهدها مع رجل متوسـط العمـر عرف فيما بعد أنه والدها الذي يعمل في القنصلية البريطانية، وصبي مصري يتجهون إلى فلوكة صغيرة مربوطـة فـي الجسر. رآهما ينزلان من عربة جيب يقودها سائق زنجـي تعود بعد ذلك وتتركهما.

كانا في ملابس الصيف، على رأسها قبعـة كبيـرة وكذلك كان والدها الذي يحمل مثلها على ظهره مخلاة كاكي بها ما يحتاجه الصيادون من مؤن، وعلى كتف كليهما بندقية صيد طويلة. ستقلهما الفلوكة إلى جزيرة كبيرة وسط البحيرة حيث يتجمع الصيادون ينتظرون مرور أسراب الـبط فـي وسط الهيش والبوص الذي يملأ أرض الجزيرة.

كان الوقت مبكرا، نسمة منعشة تهب على الجسـر من مياه البحيرة التي تتحرك في كسل، كان هو واقفًـا يمـد شصه إلى الماء فأحس كما لو أن شخصا ينظر إليه. التفـت

ليجدها تتأمله باسمة.. ابتسامتها وشعرها الأصـفر وعيناهـا الخضراوان ووجهها الصغير دقيق الملامح وأهدابها الطويلة، وسط هذا الفضاء من البياض والزرقة المائية شيء لم يستطع نسيانه أبدا. هل تصطاد جيدا؟ سألته، فقال على الفور: أجـل بصوت عال. حظ سعيد قالت وقفزت إلى الفلوكة خلف أبيها، وراح الولد الصياد يدفع الفلوكة بالزانة التي كانـت أطـول وأثقل منه.

لم يبرح سليمان المكان في الظهيرة كما تعود. لقـد التفتت تنظر إليه وتبتسم في اللحظة التي علقت فيها بالشص سمكة ملونة. رأى ابتسامتها تملأ الفضاء وارتبك وهو يحاول الإمساك بالسمكة وضحكت هي ضحكة صغيرة لم يسـمعها، لكنه رأى تيارا من البهجة يسري في الكون حوله. لقد جلس حتى آخر النهار، لا ليصطاد، ولكن ليراها عند العودة.

لم تعد ذلك اليوم. أخذت في العودة طريقًـا آخـر، يؤدي إلى محرم بك. هكذا قال له الولد الصغير العائد وحده في المساء. سليمان لا يخرج للصيد كثيرا، عرف أنها تـأتي أيام الآحاد. في الأحد التالي ذهب مبكرا. أتت وألقت عليـه تحية الصباح. تجرأ وسألها هل ستعود من المكـان نفسـه.

اندهشت وابتسمت وأجابت بالإيجاب. عادت مع والدها مبكرة ذلك اليوم. وجد أنه من الشهامة أن يقف يمسك بيد الأب وهو يقفز إلى الشاطئ ثم بيدها. كان الولد يحمل مخلاة مليئة بالبط المذبوح. سألته: هـل اصـطدت جيـداً. رفـع "المشـكاك" المغروس في المياه، تلك الإبرة الطويلة، المسلة، المتصـل بها دوبارة طولها يزيد على المتر، والتي يدخلها في خيشوم الأسماك ثم يتركها في الماء حتى لا تفسد بعـد أن يغـرس المسلة في الطين تحت الماء. أوه ووندرفول. قالت. وسـألته ما إذا كان يحب أن يأخذ بطة مما اصطادوه اليوم فقال: لا . قد لا يناسب الطريقة الإسلامية، البط يهبط فاقد الحياة. تأملته مندهشة، بدا أنها تتذكر شيئًا نسيته. قالت أيام سـورى، وات إذ يورنيم. سليمان، سليمان عبد الباسط. ثانك يـو سـليمان، ماي نيم إذ جين. جين بانكروفت. قال مبتسما: بانكروفت اسم غريب يصلح ماركة لسيارة. ضحكت وأقبل أبوها يشارك في الحديث. كان سليمان يتحدث على استحياء خجلاً من أبيهـا وهي تتحدث بجرأة. تأخرت العربة الجيب التـي سـتقلهما فكانت هناك فرصة أن تسأله عن عمله، أدهشها أنه طالـب توجيهية يدرس العلوم ويقرأ الأدب العلمي بنهم. حدثها كثيرا

عن توماس هاردي وروايته الجميلة تس سليلة الدر برفيـل. سألته هل يقرأ بالإنجليزية، قال نعم لكن هذه الرواية بالـذات قرأها بالعربية. اندهشت من كون الرواية مترجمة للعربيـة فحدثها عن المترجم فخري أبو السعود، الشاعر السـكندري الذي انتحر في حديقة بيته بعد أن ماتت زوجته الإنجليزيـة وابنه في انجلترا تحت غارات الألمان. كان اندهاش والـدها أكبر. قال في النهاية إن العالم صغير. حدثهما سليمان عـن عمه الذي كان مشروع روائي كبير، لكنه أخفق، وسافر إلى أواسط أفريقيا. لماذا أواسط أفريقيا؟ قال أن المصريين أقاموا هناك إمبراطورية عند منابع النيل، ولقد ذهب يبحث عن آثار هذه الإمبراطورية ليكتب رواية غير عادية. سألته هل كتـب الرواية. قال إنه لم يعد ولقد مر على ذلك أكثر مـن عشـر سنوات. قال لها إنه أيضا صار يهوى كتابة القصص، لكنـه لا يتعجل النشر ولا الشهرة مثل عمه.

صارا يلتقيان بعد ذلك في كافيتريات محطة الرمل، "على كيفك" أو حديقة تريانون الصغير بشارع سعد زغلول. إنها تحب هذين المكانين أكثر من غيرهما. قالت لـه إنهـا يمكن أن تساعده كثيرا في السفر إلى إنجلترا بعـد حصـوله

على التوجيهية والالتحاق بإحدى جامعاتها، فلوالدها نفوذ كبير في الخارجية، وهناك منح لا يعرفها الكثيرون تعطى لأشخاص من الدول الأفريقية والأسيوية للدراسة في إنجلترا. هؤلاء هم الذين ينهضون ببلادهم بعد ذلك.. لم يكن هو يفكر في النهوض بالبلاد، فذلك شيء أكبر من طاقته. فقط يريد دراسة الأدب الإنجليزي والأدب العالمي. قامت الحرب وأظلمت الإسكندرية التي لم تظلم من زمان. منذ طاردت قوات الحلفاء قوات روميل في الصحراء بعد معركة العلمين. كان انتصار الفيلد مارشال مونتو جمري ذلك الوقت سبب عودة النور إلى الإسكندرية. أضيئت بعد ثلاث سنوات من الظلام. الآن القوات البريطانية ذاتها تتسبب في إظلام المدينة، ومعها القوات الفرنسية التي فتحت الإسكندرية ذراعيها لفيالق الأحرار منها حين استسلمت حكومة فيشي للألمان في الحرب الماضية. أصدقاء الأمس أعداء اليوم. السياسة لا تعرف الصداقة، لقد وجد شعب الإسكندرية أمامه قضايا كبيرة لم تخطر بباله من قبل. مساعدات مصر العسكرية لثوار الجزائر، مصر تعقد صفقة أسلحة مع المعسكر الشيوعي، البنك الدولي يمتنع عن تمويل مشروع

السد العالي، عبد الناصر يؤمم شركة قنال السويس من شرفة البورصة هنا في الإسكندرية. عبد الناصر يخطب من هنـا كل عام في السادس والعشرين من يوليـو، العيـد القـومي للإسكندرية، واليوم الذي غادرها فيه الملك فاروق. تفجيرات في سينمات الإسكندرية يقوم بها جواسيس إسرائيليون. التوتر بين مصر والدول المنتفعة بالقنال. الحرب. أعمال المقاومـة لم تنته من بورسعيد رغم وقف إطلاق النار. سـيأتي يومـا محمود الفلاح ويخبرنا، وربما يصنع فيلما، يقول تاجر البهار للجالسين.

يتحدثون عن أمجاد كتيبة المشاة التي كانت مسئولة عن ستر انسحاب القوات العسكرية مـن العـريش ورفـح، وكيف ظلت في مواقعها تؤدي واجبها حتى تم الانسحاب، ثم نجح أفرادها في العودة مشيا على الأقدام، مسافة لا تقل عن مائة وخمسين كيلو مترا يحملون أسلحتهم الخفيفـة بعـد أن دمروا خلفهم كل الأسلحة الثقيلة. ولا تخلو الدنيا من عجب، ففي كرموز، في شهر نوفمبر هذا تزوجت سيدة في الثامنـة عشرة من عمرها من رجلين في وقت واحد. تركت البيـت بعد زواجها من الأول لعدة أيام وتزوجت بآخر، ولما سـألها

الضابط قالت لم أكن أعرف أن ذلك ممنوع أو حـرام، لـم يعجبني زوجي الأول، يشتمني ويضربني، هو حضرتك لمـا تشتري شيء ويطلع وحش مش بترجعه وتشتري غيـره؟ . أنا عملت كده..

ونزلت أفلام جديدة في السينمات، القلب له أحكـام لفاتن حمامة، المتمرد لجيمس دين للكبار فقط ودخل البوليس الدولي إلى بورسعيد، وتنحى ايـدن عـن الـوزارة مؤقتًـا لاحتياجه إلى راحة نفسية وعصبية ليتولى الوزارة خلال ذلك زعيم الأغلبية بمجلـس العمـوم، وبـدأ انسـحاب القـوات الإسرائيلية والإنجليزية والفرنسية، وعرضت سـينما متـرو بالإسكندرية فيلم أمهر الرمـاة لجلـين فـورد، وخصـص الموسيقار فريد الأطرش إيراد فيلمه الجديد مع شادية "ودعت حبك" لأسر شهداء بورسعيد، فتقاطر الناس في زحام منقطع النظير على الفيلم بسينما ريتس بالإسكندرية وديانا بالقاهرة، وتبارت المحلات في الأوكازيونات الشتوية مبكـرا فوصـل سعر البالطو الفرو الفاخر ٧٥٠ قرشًا وقميص النوم الفـاخر ٨٥ قرشًا والسوتيان الساتان ١١ قرشًا والكيلوت ٧ قـروش والكيلوت الأنترلوك٩ قروش وشراب الموسيلين ١٥ قرشًـا

وشراب النايلون ٤٥ قرشًا، أما الجوارب الفيليه الأميركـي فيتراوح سعرها ما بين ٨٥ ، ٥٥ قرشًا بمحـلات القاضـي وحسين، وأعلنت مديرية الصحة أن عدد المواليد في المدينة هذا العام بلغ ألفًا وخمسمائة مولـود بيـنهم خمسـون مـن الأجانب، وأن تعداد المدينة بلغ أربعمائة وخمسين ألفًـا مـن المصريين وخمسة وستين ألف أجنبي يحتل اليونانيون فـيهم المرتبة الأولى، ثم اليهود، فالإيطاليون وجاليات صغيرة من الأرمن والقبارصة والشوام ودول أوربية أخرى، وأن أحدا لم يغادر المدينة عن طريق البحر بسبب توقف الملاحـة، فلـم تسجل إدارة الموانى أية رحلة بحرية منذ العـدوان، وغـاب الديب في رحلة طويلة وعاد في يوم جمعة. كانت المـدارس قد عادت إلى الدراسة، واحتفلت بعيد النصـر فـي الثالـث والعشرين من ديسمبر، وامتلأت الإسكندرية بالزينات، ولـم يعد محمود الملاح ولا رشاد من الحرب بعد، لكن الديب عاد من رحلته ليناديه الجالسون حول الماكينة الحمراء. يجلـس هذه المرة مع الأولاد خير الدين ونسيم وسليمان، خير الدين كثيرا ما يأتي مبكرا ليجلس منفردا ينتظر صـعود الجـوني على السطح ليغمض عينيه ويزداد حبه للدنيا وفرحـه بهـا.

يحب خير الدين الجوني في صمت. أفسحوا للـديب مكانًـا بينهم، قال وهو يجلس.

- دائما تصطادونني قبل أن أدخل البيت.

قال سليمان ضاحكًا:

- نحن نحس بك يا ديب ولو في أبعد جحر!

ضحكوا. في الحقيقة هم يحبون الديب، رغـم أنـه أكبر منهم وفي عمر آبائهم، إلا أنهم يشعرون به واحدا منهم. سأله مصطفى:

- إيه يا ديب القطار رجع أم لا؟

- أي قطار؟

- الذي خرج عن الكرة الأرضية. هل نسيت؟

- آه. هذا قطار قديم انتهت أخباره من الدنيا.

ضحكوا وصفق بعضهم بيديه. قال.

- هذه المرة كنت في مهمة غير عادية. هذه المرة لم يخرج القطار عن القضيب إنما انحرف فقط عن الطريق. كان القطار عائدا من الصعيد محملاً بالقصب، عنـد مدينـة دمنهور أخطأ موظف البلوك وفتح له طريقًا آخر لا يصـل إلى الإسكندرية. ظل القطار يمشي ثلاثة أيام في أرض خلاء

لا طير فيها ولا زرع ولا إنس ولا جن. كنت نائمـا فـوق القطار، نزلت على حالة من الرضا والسعادة أنستني الـدنيا، كنت مثل السكران فلم أنتبه إلى ما يجري، إذا جعت نزل إلي أكل من السماء، أي والله، وإذا عطشـت مصصـت أعـواد القصب. لكني بعد ثلاثة أيام انتبهت فزحفت فوق العربـات حتى وصلت إلى "العفريتة" ونزلت من السقف إلـى السـائق والعطشجي الذي كان أسود في لون الفحم. كان يضع الفحـم في النار بجنون حتى لا يتوقف القطار. سألتهما هل تعرفـان نهاية لهذا الطريق؟ قالا: لا.

إذن لماذا لا تتوقفـون؟. لا نسـتطيع . القطـار لا يتوقف. قلت للعطشجي هل أنت حمار؟ توقف عـن تغذيـة القطار بالفحم يتوقف القطار. بعد ساعة توقف القطـار فـي خلاء من الأرض البور . نزلنا نحن الثلاثة في خوف ننظر حولنا نترقب مصيبة تنزل علينا وحدثت المصـيبة. انشـقت الأرض وخرج منها رجال كثيرون طوال ضخام يتقـدمون ناحيتنا في بطء من كل جانب كأنهم يحملون صخورا علـى ظهورهم. اقتربوا فرأينا الحقيقة. كل رجل هو اثنان، رجـل وامرأة التصقت بظهره..

انطلقوا يضحكون بشراسة. صوت خير الدين أجش خشن رغم نحافته. قال ساخرا:

- أنت كنت تحشش فوق القطار ياديب، ها ها ها.

تأمله الديب في طيبة ثم قال:

- السينما لحست عقلك يا خير الدين. يابني الحياة فيها عجائب أكتر من السينما.

قال نسيم برزانة مصطنعة:

- اسكت يا خير الدين، دعنا نسمع القصة العجيبة المؤلمة للديب. رحلات الديب، مثل رحلات جـاليفر. ديبـز ترافيلز.

كانت رحلات جاليفر هي القصة المقررة على طلبة التوجيهية مثل نسيم وسليمان، وكانت معروفة أيضا لطلبـة التجارة مثل خير الدين. قال الديب:

- تقاطعونني دائماً ولا تعطونني فرصة. أنـتم لا تفهمون. موقف مثل هذا يحتاج على صـبر. هنـاك عبـرة وعظة يريدها الله من هذه المخلوقات التـي وضـعها فـي محافظة البحيرة بالذات - ضحكوا بشـدة - اسـمعنى يـا

سليمان، أنت دائما مشغول بتلميع حذاءيك. فلسفة أو تلميع أحذية. لا تؤاخذني يعني . أنت المفروض مثقف وتفهمني.

كانوا لا يزالون يضحكون إلا أنهم سكتوا وقال سليمان:

- عندك حق يا ديب .؟ استمر في القصة.
- القصة! لقد انتهت. رجال في ظهورهم تلتصق نساء فلا يستطيع الرجال أن يروهن ولا النساء يستطعن ذلك أيضا.

قال نسيم ساخرا:

- كان حقك فصلتهم عن بعض يا ديب.

عادوا إلى الضحك وهو يتأملهم صامتًا ثم قال بهدوء:

- حاولت. فشلت. جلسوا يبكون وجلست أنا والسائق والعطشجي نبكي معهم.

هتف خير الدين:

- كيف يجلسون في هذا الوضع يا ديب؟

قال الديب:

- سيأتي اليوم الذي تقعون فيه فـي هـذه الـبلاد وتتذكرونني. لقد هربنا حين شعرنا بأن شيئًا ثقـيلاً يحـاول الخروج من ظهر كل منا، أنا والسائق والعطشجي، جرينـا بأقصى سرعة وتركنا القطار.

- هذا ثاني قطار يا ديب تتركه يضيع.

- وثالث ورابع. كلها أخطاء عمل. الحمد لله أننـا هربنا قبل أن تنبت لنا نساء في ظهرنا، الواحد غيـر قـادر على امرأة واحدة يراها أمامه في البيت فهل سـيقدر علـى امرأة لا يراها أبدا؟

توالت ضحكاتهم، وما إن اختفى الديب حتى ظهـر مجنون الغناء قادما من بعيد، فهتف مصطفى الله يكون فـي عون ثورة يوليو. سمعه الديب فالتفت وهتف "الله يكون فـي عون ربنا على الشعب الذي يضم أمثـالكم مـن المتعلمـين الفالصو!" لكن أسرع الأولاد إلى مجنون الغناء المسكين الذي تلبسه الرعب، وشوهد تاكسي يقف أمام المسـاكن فتـأملوه بدهشة، نزل منه لطفي السائح على عكازين وقد وضع إحدى ساقيه في الجبس. كتموا ضحكاتهم.

سمعوا صوت تاجر البهار يهتف في محمود القزعة فاقتربوا، نسيم وخير الدين وسليمان.

- كان حقك تشكرني يا معلم محمود.

- أشكرك! أجل. لكن المشكلة أنه لا ينام منذ أمس يا رجل.

- وهل هذا يضايقك ؟. أنا عملت لـك وصـفة لا توجد إلا في جبال الهيمالايا.

- لكن أنا غير قادر على الحركة. أنا خملان يـا رجل.

- خلاص. أعمل لك وصفة تانية ينام فيها طـوال العمر.

- الله يخرب بيت أمك. من أي مكان أتيت إلينا يا فلفل يا مطحون؟

- أنا جئت من السماء، من الأنـس والجـن، أنـا ستعرفون قيمتي يوما. أهلي تجار الكارم الكبار في الشـرق دار عليهم الزمن لكن تاريخهم محفوظ، علموا أوربا معنـى العطور فامتلأت صدور النساء برائحة البلسم. كانت الفرسان تمشي في العصور الوسطى تشم رائحة البلسم فتقف تحـت

شرفات البيوت، يلقون إلى النساء بالورد وتلقى النساء إلـيهم بزجاجات البلسم الصغيرة. كم من حصن منيع لامرأة فتحته زجاجة بلسم أخذها الفارس من امرأة أخرى كانت أخذتها من فارس آخر كان قد اشتراها من جنوا أو بيزا أو مارسيليا أو نابولي أو اسطنبول وكلها اشترتها مـن الإسـكندرية، مـن قيسارية الدماميني في شارع فرنسا قبل أن يكون هناك شارع فرنسا، أو حتى فرنسا الحرة نفسها...

************

# القسم الثاني

( ١ )

انتهت الحرب. امتلأت البلاد بالزينات لخروج الإنجليز والفرنسيين من بورسعيد وإتمام انسحاب القوات الإسرائيلية من سيناء..

انتهت الحرب ولم يعد محمود الملاح، لكنه لم يمت، يرسل خطابات لأهله يقول إنه سيتأخر تسريحه من الجيش قليلاً لأمر غير مفهوم. لم يعد كامل خطيب مشيرة. لم يمت ولم يعثر عليه حيا. قيل إنه في قوائم المفقودين.

انتهت الحرب ولم يعد رشاد. لم يمت ولم يفقد. أصيب برصاصة طاشت من سلاح زميل له فوق ظهر المدمرة البحرية. هو الآن يرقد في المستشفى العسكري لذلك سيتأخر زواجه من فاطمة كثيرا.

انتهت الحرب وانشغلت الإسكندرية بالخروج الجماعي للجالية الإنجليزية والجالية الفرنسية واليهود.

لم يكن رحيل الفرنسيين يعني أحدا في مساكن السكة الحديد وأيضا ولا رحيل الإنجليز، لكنه سليمان وحده قد أيقن أنه لا سبيل إلى عودة جين بانكروفت. حتى لو

تحسنت السياسة، وهي غالبا تتحسن بين الدول بعـد فتـرة، فسيكون والد جين يخدم في موقع آخر في بلد آخر، وستكون جين نفسها قد تغيرت حياتها. سافرت جين بلا رجعة وعليه أن يتأقلم مع ذلك. العالم الذي صار شبه فارغ حوله لابد أن يملأه شيء. قرر أن يكتب رواية كبيرة عن الإسكندرية هـو الذي كان يتردد في ذلك كثيرا.

انتهت الحرب وامتلأت الإسكندرية بالقصص التـي تنفجر في فضائها كل يوم عن الفزع الذي أصـاب اليهـود، وخروجهم المتسارع، رغم أن الدولة لم تطرد إلا مـن رأت تورطه في نشاط معاد لها.

حمل الهواء إشاعات عن نية الحكومة في مصادرة أملاك اليهود، وأن المعتقلات ستفتح لهم جزاء مـا ارتكبتـه إسرائيل.

لم يقل أحد إنهم مصريون لهم هنا مئـات السـنين. حدث الخروج شبه الجماعي الأكثر كثافة مما حـدث حـين اقتربت القوات النازية من الإسكندرية أثناء الحرب العالميـة الثانية. تلك المرة خرج أثرياء اليهود. الآن يخرج الجميـع، كل حسب قدرته على إنهاء أعماله. تاريخ طويل من العـيش

بسلام في مدينة تتنفس التسامح مع الهواء، وهاهو قد تبخر في أيام، كأنما لم يتاجر اليهود مع بقية الشعب مسلمين ومسيحيين، وكأنما لم يعمل المسلمون والمسيحيون في متاجرهم، ولم يصاحبوهم سهراتهم في النادي الإسرائيلي أو يترددوا للعلاج في المستشفى الإسرائيلي، كأنما لم يتسكع الشباب أمام مدارس البنات اليهوديات، وكأنما لم يعرف الكثير منهم طعم الهوى لأول مرة على أيدي هاته الفتيات المتحررات.

تحولت المدينة عن اليهود، بدأ ذلك بسيطًا مع التفجيرات التي قامت بها عناصر يهودية تابعة للموساد الإسرائيلي قبل الحرب، وازداد مع اشتراك إسرائيل في العدوان على مصر. اتسعت مساحة الشك في اليهود بعد أن كانت نوعا من الفولكلور لا يتجاوز حدود النكتة. رغم ذلك لم يصل الأمر أبدا إلى اعتبار يهود الإسكندرية من رعايا دولة إسرائيل! لكنه الهلع الذي استبد باليهود. صار أكثر اليهود تفاؤلاً يؤمن بأنه إذا لم يخرج اليوم سيخرج غدا وإذا لم يخرج هذا الأسبوع سيخرج الأسبوع القادم. لم يفكر أحدهم أبدا في العام!. لم ينتظروا مرور العام.

انكمش عدد الصيارفة في المنشية قليلاً، تدهورت أسعار الأسهم في البورصة من جراء البيع السريع لها من قبل أصحابها اليهود، أغلقت جميع محلات "الرهن" التي لم يكن يديرها غير اليهود، حتى إذا أدارها مسلم مثل "أحمد حسن" صاحب محل الرهونات في كرموز كان يتكلم كاليهود من أنفه، ويمشي ببطء في الدكان منحنيا مع إنه ليس عجوزا ويتطلع بريبة إلى القادم ليرهن ما يملكه.. يدعي في البداية أنه لا حاجة له بما يحمله الزبون، ثم بعد أن يتأكد من ارتباكه يقدم له أقل مبلغ فيوافق. يمشي الزبون يشتم في أحمد حسن اليهودي وهو في الحقيقة مسلم!.

ظهرت علامات ثراء فاحش على مصريين كانوا يعملون عند اليهود. الخواجة شالوم ترك كل ثروته في الإسكندرية للسائق الخاص به، خميس الصايع الشهير بمحطة مصر الذي يعمل حمالاً بالمحطة بالنهار وبالليل قاطع طريق صار صاحب مقهى كان في الأصل بارا لسمعان اليهودي، مرسى القهوجي صار صاحب وكالة ملابس قديمة في العطارين لأنه كان يقدم أحسن شيشة لأصلان اليهودي صاحب الوكالة الذي سافر مع عائلته إلى كندا. بشر حمزة

الجزمجي الذي أسس مصنعا للأحذية الشعبية مساهمة مع خمسة من كبار التجار اليهود وجد نفسه فجأة المالك الوحيد لأسهم المصنع كلها وللمصنع بعد أن غادر التجار الخمسة البلاد على عجل إلى إيطاليا ليفتتحا هناك مصنعا لدباغة الجلود. وكذلك الشبان الثلاثة من بحري الذين سافروا مع البنات اليهوديات الجميلات الثلاث من عائلة ليفي التي سافرت كاملة إلى توليدو بإسبانيا.. ترددت أسماء دول كثيرة، الأرجنتين.. البرازيل، جنوب أفريقيا، الحبشة، المغرب، أميركا، كندا..

اندهش الناس من هؤلاء اليهود الذين عاشوا مئات السنين في الإسكندرية يخرجون إلى كل هذه الدول ببساطة كأنما هناك من ينتظرهم ويعرفهم. قالوا إنها قوة المال. واستراحوا لأن اسم إسرائيل لم يتردد كثيرا. وإذا كان ممكنًا للبعض من الذين خرجوا أن يجعل اليونان أو إيطاليا أو المغرب محطة في الطريق إلى إسرائيل، فالأغلبية سافرت إلى أميركا شمالاً وجنوبا، وجنوب أفريقيا، ولا يظن أحد أن هذه البلاد يمكن أن تكون محطات في الطريق إلى إسرائيل.. لكن لم يكن السكندريون أو بعضهم هم الذين استفادوا فقط

من خروج اليهود، فلقد اشترى عدد كبيـر مـن اليونـانيين والإيطاليين محلات وورشًا من اليهود، بل لعلهم اشتروا أكثر مما اشترى السكندريون.. لقد ساعدوهم على تهريب أموالهم خاصة تجار القطن من اليونانيين الذين كانوا يضعون أموال اليهود داخل بالات القطن المصدرة خارج البلاد. لقد حـول أغنياء اليهود أموالهم إلى عملات ورقية فئة المائة جنيه تـم تهريبها بسهولة داخل هذه البالات إلى أوروبا، كذلك حـدث تهريب كبير للعملات الأجنبية داخل علب الشاي المعبأ فـي مصر والمصدر إلى المغرب العربي. الحكومة كانت تعرف ذلك وتتركه يتم لتسهل لليهود طريق الخـروج وكـل هـذا يعرفه الناس ويتحدثون فيه..

رحيل اليهود كان يعنـي العربـي. يـذكره دائمـا بالخمسين جنيها التي تركتها له راشيل.

قالت له كاتينا اليوم:

- لو كنت عربي تزوجت راشـيل كـان زمانـك غني!

لم يكن العربي قد أخذ الخمسين جنيها بعد. تركهـا في مكانها فاحتفظت له بها كاتينا وقالت: "تستطيع أن تأخذها في اليوم الذي تقرر فيه ذلك". عادت تقول:

- راشيل كانت غنية.

تأملها العربي مبتسما ثم قال ببساطة.

- لم أحبها كاتينا.

قالت:

- كان ممكن يكون أقصر زواج في العالم. أسبوع أو اثنين بعدها تغادر راشيل البلاد.

ظل مبتسما وقال:

- كان ممكن جدا ألا تغادر راشـيل الـبلاد بعـد الزواج. كيف أعيش معها وهي عمرها خمسون سنة؟

سكتت كاتينا لحظة ثم قالت:

- أنت مجنون عربي. أنا سبق قلت لك ذلك. تترك واحدة غنية عندها خمسين سنة، وتحب واحدة فقيرة عندها خمسين سنة. الغنية كانت تحبـك والفقيـرة تعتبرك أخوها. أليس كذلك عربي؟

كان قد فتح عينه بشدة على معنى الأخوة الغريـب هذا واستمرت هي - أنت إذن مجنون. تماما مثـل ياناكيس زوجي.. ياناكيس عربي كـان شـيوعي. كان..

واندفع العربي قائلاً.

- خلاص كاتينا أنا أعرف كل شيء عن ياناكيس وأحبه مثلك تماما، الله يرحم ياناكيس كاتينا.

اتسعت عيناها تتأمله بدهشة بالغة ثم ابتمست ومشت من أمامه داخلة حجرتها لتعود ومعها بالطو أسود ثقيل قدمته إليه.

- بالطو ياناكيس عربي. ممكن تقبله هدية. مركون في الدولاب لأكثر من عشر سنين..

ارتاح قلب العربي لكاتينا كما يرتاح دائما حين تبدو ضعيفة أمامه. وضع البالطو على كتفيه وسأل نفسـه مـاذا يمكن أن يفعل الآن؟ هذه المرأة تربكه جدا. ليس عشيقًا لها، ولا توافق على الزواج منه، وهو يعرف أنها تطفيء غلتهـا الجنسية مع شباب يونانيين كثيرا ما يأتون الأتيليه آخر اليوم. يراهم، بل يفتح لهم الباب قبل أن يغادر المكان. كلهم أقارب

لها كما تقول دائما. رغم ذلك فلقد تركت نفسها له في بعض الليالي، خاصة ليالي الغارات في الحرب الأخيرة. لكنه حين حاول أن يفعل ذلك بعد الحرب، منعته وبدا كأنها لـم تفعـل ذلك معه من قبل. اليوم تعطيه بالطو ياناكيس الشيوعي فهل ستتركه يقوم بدور ياناكيس الزوج؟ لا يظن. يجب أن يفهـم طبيعة هذه المرأة. ما فائدة أن يفهم؟. لن يتغير شيء. فليظل قانعا كما هو راضيا كما هو! من أين اكتسب كل هذه القناعة وكل هذا الرضا؟ من والده عامل السكة الحديد الغلبان الـذي يتكلم مرة واحدة في الشهر حين يأتي براتبه يضعه بين يدي زوجته، أم العربي، من أمه هذه التي تظل تتلفت بعينيها فـي البيت طول النهار بحثًا عن شيء لا تعرفه، من أخته حسـنة الجميلة فارعة الطول الصابرة على العنوسة، من حسنة حقا رغم أنها الأصغر سنا!!

نظر إلى المرآة فرأى نفسه داخل البالطو مثل رجال العصابات الأميركية، المخبرين السريين أيضا. خلفه كانـت كاتينا تقف تنعكس صورة وجهها من فوق كتفه. لقطة بديعة في المرآة لو رآها محمود الملاح لقال إنها تصـلح إعلانًـا لأحد الأفلام. منحه البالطو شعورا بالفخر والاعتزاز. هذا هو

الوقت الذي ينفق فيه الخمسين جنيها. إنه ملك ولا أقل، حتى رغم أن البالطو لشيوعي ميت، والنقود ليهودية ضائعة.

تطلع إلى كاتينا وابتسم ثم قال:

- أفضل شيء أفعله بالبالطو الآن هو أن أخـرج أتمشى على الكورنيش.

تساءلت:

- الليلة؟

أجاب وهو يشير إلى البالطو.

- إنها ليلة مناسب جدا لاستعماله، مطر ونوة. إنها نوة "عوة" آخر نوة كاتينا، الريح تعوى كالذئاب.

قالت ضاحكة:

- تعرف عربي، كأس كونياك وبالطو، ممكن بعدها تمشي فوق جبال الألب.

- في اليونان؟

- في إيطاليا عربي.

- أنا أريد أن أمشي في جبال اليونان ولو عريان.

ضحكت كاتينا ببهجة طفلة ثم قبلته على فمه. دقائق بعد ذلك وكان العربي قد غادر شارع الكنيسـة الإنجيليكيـة

الصامت يقفز قفزات صغيرة قاطعا شارع الشيخ علي الليثي المغلقة محلاته على الأنتيكات الفخمة داخل شارع العطارين فخرجت عليه رائحة شواء الطيور من ميدان السوريين الذي تصعد منه بالنهار عادة رائحة كل ما هو قديم من أثاث وبطاطين وعدد وأجهزة لا يعرف من يشتريها لكنه سرعان ما قطع شارع العطارين الذي أغلقت محلاته مبكرا بسبب المطر، ودخل في شارع المحطة لتصعد إليه رائحة فلافل محل البغدادي الشهير، لما صار قريبا من المحل على الرصيف صعدت إليه حرارة القلى ذاتها، ورأى داخل المحل عددا قليلاً من الرجال يأكلون في صمت مهيب، "عيونهم زائغة وأفواههم تتحرك على مهل ويبدون لا يدركون أنهم بعد قليل سيضطرون للرحيل من هنا". بسرعة عبر شارع فؤاد ليدخل شارع شريف المغلقة محلاته أيضا ليصل بعد قليل أمام البورصة في المنشية.

الميدان الواسع لا يزال كما هو، يتوسطه محمد علي باشا فوق فرسه، لكن إحساس العربي بالمكان يبدو كما لو كان يراه لأول مرة. محلاته مغلقة، والأضواء من خلف نوافذ العمارات قليلة. لا صرافون للعملات ولا بورصة

بالليل. الجالسون "بمقهى الإسكندرية" لاذوا بالداخل ولم يجلسوا في الممر المحصور بين العمارتين. أضواء الميدان صارت أقل. ربما. وربما لم يعد أحد يعتني بواجهات العمارات فلم تعد تعكس الأضواء بالقدرة القديمة. لم تكف مياه الأمطار لغسلها. لعلها مياه الأمطار جعلتها ندية رطبة لا تعكس الأضواء. الأضواء قليلة على أية حال. لكن التمثال لا يزال يبدو قويا تحت المطر الخفيف الساقط تظهر خيوطه في الضوء. صوت البحر يقطع المسافة بطول الحديقة الفرنسية ويصل إليه. صوت الريح عارم. ورق كثير يطير في الطرقات وعلى الأرصفة يخشخش في الأرض.

لكن البرد لا ينفذ إليه. بالطو ياناكيس ثقيل ودافئ. عربة بنز يجرها حصان أسود قوي تأتي مسرعة من خلفه وفوقها شاب على رأسه طربوش لا يعرف كيف ثبته وسط هذا الجو ومع هذه السرعة، الشاب يلهب الحصان بالكرباج فيقطع الحصان الميدان في ثانية داخلا شارع فرنسا الصامت وصوت ضربات أقدام الحصان تظل تتردد في الميدان الفارغ. لكنه لم يأخذ طريقه إلى الكورنيش. أخذته قدماه إلى شارع المغاربة. ساكن مصمت فارغ، مغلقة محلاته أيضا، لا

صوت فيه. انعطف إلى زنقة الستات. واجهـات المحـلات الخشبية الملونة وقليل من المصابيح أمام المحلات الصـغيرة وهو يمشي بحرية. كيف حقا يتحمل هذا الزقاق زحام النساء بالنهار؟. كيف يبدو الآن وكأنه لا أحد يمشي في الإسكندرية غيره هو. لكن لماذا يسرع عابرا الميدان، وإلى أين يـذهب. روائح الجبنة والزيتون تصعد إليه من نهاية الميـدان بعـد "الحقانية". محلات البقالة المغلقة تنفذ مـن جـدرانها هـذه الروائح، مختلطة برائحة الرنجة والأسماك المدخنـة. إنهـا الروائح التي بعد أن أغلقت المحلات ظلت راكدة في الفضاء أمامها.

يكاد ينزلق على الأرض الزلقة وهو يتقدم مسـرعا دون هدف يبطئ فروائح أخرى تهل عليه، روائح مكتومـة لجدران مهملة، بيوت مهملة، وقمامة بـدأت تظهـر علـى الجانبين. أضوء خافتة مخنوقة تطل من بيوت لا تزيد علـى ثلاثة طوابق، قديمة، متساندة، وأرضية مبلاطة ببلاط عريض من البازلت ركنت المياه بينه ولم يكنسه أحد فصار زلقًا، إنه يمشي على رصيف ضيق لا يزيد على نصف متـر. لكـن الحارة تقريبا مظلمة والأبواب كلها تقريبا مغلقة عليها أقفـال

فوقها شحم مما يعني أنها ستغلق كثيرا. على الأقل عاما كما يفعلون مع أبواب الكبائن على البلاج. قطط وكلاب نائمة في الأركان. حوائط كالحة. كل هذا حدث في عدة أشهر. كيـف كان اليهود يعيشون هنا؟ لابد أنهم كانوا يعتنون بحارتهم. لقد دخل حارة اليهود إذن وهو لا يدري، لا يقصد. لكن محـلاً مضيئًا على يمينه الآن.. علبة سجائر هوليود مـن فضـلك. ناوله العلبة وأخذ الفلوس في صمت. لا يبدو يهوديا. بالحارة عدد قليل من المسلمين والمسيحيين يعدون علـى الأصـابع. لعلهم لم يهجروها أيضا. النوافذ معظمها مفتوحـة الشـيش مغلقة الزجاج، مما يعني أنـه لا أحـد فـي الـداخل، وأن أصحابها تركوها على عجل أو في إهمال. الزجاج كله مطلي بالأزرق. لم يفكر أحد في إزالة اللون بعد الحرب. لعله ظل كذلك منذ الحرب العالمية الأخيرة. لكنه يشم رائحـة شـواء عند نهاية الحارة. إنه محل تقديم السمان والعصافير الشـهير الذي يملكه الخواجة إيزاك. لطالما سمع عنه ولم يأكل فيـه. الآن سيأكل. جائع من البرد، ومعه خمسـون جنيهـا. لكـن الرجل الذي في المحل يحمل وجها مصريا. لـيس بالمحـل غير متر واحد للجلوس.

- هل لا يزال يأتي السمان؟

- آخر الأفواج. السمان الذي تخلف في الطريق، أو بعض ما يحتفظ به الصيادون.

كان يأكل وهو واقف وجهه على الحائط وأمامه على رخامة طويلة مثبتة في الحائط عرضها لا يزيد على ثلاثين سنتيمترا وضع طبق السمان وطبق الطحينة وطبق السلطة والمخلل والخبز.

- سمعت أنه يأتي من الصحراء، من مرسى مطروح.

ابتسم الرجل الذي كان يشوي عددا آخر من السمان ولا ينتظر ناحية العربي، قال الرجل:

- أكثر السمان يتم صيده في مرسى مطروح، وفي العريش أيضا، لكنه في الحقيقة يأتي من بلاد بعيدة.

وسكت قليلاً ثم قال وهو يضع واحدة أخرى أمام العربي:

- إنه يأتي من أوربا. من البرد باحثًا عن الدفء.

قال العربي:

- لكن هنا برد أيضا.

- هناك جليد يا أستاذ..

كان صوت أسنان العربي وهو يأكل السمان، لحمه بعظمه بدهنه، واضحا أكثر مما ينبغي وسط هذا الصـمت. هز العربي رأسه وقال:

مسكين هذا السمان يسافر كل هذه المسافات وفـي النهاية يأكله العربي!.

قال الرجل:

- من هو العربي. هل تعرفه؟

قال.

- أنا العربي.

- آه. ظننتك تتحدث عن شخص آخر اسمه العربي كان هنا يعمل في المحل وسافر مع الخواجة إيزاك.

ترك العربي الأكل وتأمل الرجل الذي في حـوالي الخمسين، أحمر الوجه بشكل غير عادي من أثر النار. سأله العربي.

- هل أنت قديم هنا؟

- أكثر من ربع قرن.

- تعرف واحدة اسمها راشيل.

سأله العربي مترددا، فقال الرجل:

- أية راشيل؟ راشيل ليفي، راشـيل إيـزاك، ولا راشيل شمعون.

راشيل التي سافرت إيطاليا أم التي سـافرت إلـى البرازيل أم التي لا يعرف أحد أين سافرت؟

قال العربي.

- راشيل البرازيل.

- هذه سافرت مع أخيها حاييم وأبيهـا الخواجـة إيزاك صاحب هذا المحل الذي تأكل الآن فيه. راشيل كانـت تسكن هنا في الدور الذي فوق رأسك.

اندهش العربي من المصادفة وتساءل الرجل:

- هل كنت تعرفها؟

- كنت سأتزوجها.

تأمله بدهشة. لابد أنه يقارن بين عمريهما. قال بعد تردد:

- ليتك فعلت ذلك. كـان معهـا فلـوس تشـتري إسكندرية. أخوها حاييم كان تاجر دخان كبير في العطارين. كان يسافر تركيا يحضر الدخان بنفسه - وسكت قليلاً - والله

الواحد زعلان. الشارع كله تقريبا سافر خارج مصر. إرادة ربنا.

وسكت قليلاً ثم عاد للحديث.

- هذا البيت كله صار خاليا، حتى القبطي الوحيـد الذي كان يسكن فيه وجد نفسه وحيدا مع أسرته فترك البيت وراح سكن في غربال. قبط كثير في غربال كما تعرف.

أشار إليه العربي أن يضع أمامه سـمانة رابعـة، ففعل.

- ألا يوجد بيرة أو نبيذ؟

تساءل العربي. فقال الرجل:

- لا. أنا منعت هذه المشروبات. لدينا بيبسي كولا وسباتس.

سكت العربي. لم يطلب شيئًا. قال الرجل:

- لقد سمعت أيضـا أن الطليانـة قـد يتركـون الإسكندرية.

- لماذا؟

- السياسة الجديدة، هذا الذي يسمونه التمصـير. الدولة تشتري أسهم كثيرة من الشركات والبنوك الأجنبيـة.

تعرف لو مشوا الطلاينة أزعل جدا، أنا ابنـي تـزوج مـن راقصة باليه إيطالية تعمل في كازينو الشاطبي.

قال العربي في نفسه" إذن سترحل أسمهان عاجلاً أو آجلا"

وتساءل:

- هذه كلها إشاعات وإلا كان اليونـانيون أيضـا يرحلون، إنهم أكثر من الطلاينة هنا ويملكون شركات كثيرة.

- لو ترك اليونانيون الإسكندرية تخرب يا أستاذ. نصف التجارة في أيديهم. ثم. ثم. إنهم هم الذين بنوا المدينة. الله .. الإسكندر كان رجلاً يونانيا.. الحق حق..

عقب العربي لنفسه " ونصف حياتي عندهم".

سكتا. طلب العربي زجاجة سباتس وراح يشـرب فيها على مهل مقلبا كلام الرجل في ذهنـه. عـاد الرجـل للحديث.

- أنا اشتريت البيت من الخواجة إيزاك بخمسـين جنيها. أي والله.

إيزاك كان بخيلاً. قلت له جالك اليـوم يـا إيـزاك أشوف الدموع في عينيك. قلت لنفسي أزيده خمسة جنيهـات

لكنه رفض. قال إن عنده فلوس كتيـر. العجيـب أن رغـم فلوسه الكثيرة أخذ الخمسين جنيها يا أستاذ.. لكن هل معقول كان يبكي لأنه سيترك مصر؟

- جائز.

- حقا كل شيء جائز. إيزاك مولود هنـا وأهلـه مدفونين هنا وأنا اشتغلت عنده ربع قرن لم أزعل منه. لكـن لماذا لم يبق؟ لم يطرده أحد.

لم يكن عند العربي رغبة في سماع شـيء آخـر. أعطى الرجل جنيهين كاملين مما دفع بالفرحة إلـى عينـي الرجل المندهش فاقترب منه وقال:

- بالهناء والشفاء. تحب قطعة حشيش. الدار أمان.

- لا شكرا.

أجاب العربي في ارتباك وأسرع تاركًا المكان كله. لكن الرجل أمسك بذراعه لحظة وقال:

- أحسن أنك لم تتزوج راشيل. غير معقول تـدفن شبابك...

أسرع العربي يخب فوق البلاط وبقايا الماء المتجمع في الشقوق ووصل إلى شارع التتويج فلمع شـريطا التـرام

وسط الظلام وسمع صوتًا يشق الفضاء لا يعـرف مصـدره بالضبط ولا من أية عمارة سقط فوقه يصرخ "السياسة وسخة يا جدعان فرقت الأحبة". لا يدري لماذا كـان يمشـي فـي طريقه إلى الأنفوشي. ماذا يريد من هناك؟ عنـد منعطـف شارع إسماعيل صبري انحرف إلى مقهى "فـاروق". كـان المطر قد بدأ يعود قويا وكثيفًا ويسمع صوت ارتطام قطراته بالأرض في زخات متتابعة فدخل المقهـى بسـرعة ليقابـل بالدفء الذي كان كمن يبحث عنه منذ عشرات السنين. كان المقهى غاصا بالرواد رغم البرد والمطر، وصوت الراديـو، يملأ الفضاء مع دخان الشيشة والسجائر، بالألفة والونس.

- أهلاً وسهلاً.. طلبات سعادتك؟

كان الجرسون قد وقف أمامه وهو لا يدري. صوت عبد الوهاب القادم من الراديو الفيليبس الكبير الموضوع على الرف العالي تصاحبه موسيقى أقرب إلى الموسيقى التي يرى اليونانيون يرقصون عليها في الحفلات الصغيرة التي تقيمها كاتينا في رأس السنة وبعض الأعياد في بيتها. فـي لحظـة واحدة لم يعـد العربـي يشـعر بـالمقهى ولا بـالرواد ولا بالجرسون الواقف أمامه.

طول عمري عليـك مشـغول
وقســاوتك مهمــا تطــول
يغلبني حناني وأقول ما يهونش

هل معقول سيترك الإيطاليون المدينة بعد اليهـود؟ هل صحيح سيتركها اليونانيون؟ إن كاتينا الآن بين ذراعيـه ويمشي راقصا بها بين المقاعد.

- طلباتك يا أستاذ؟

كل ما افرح يوم فـي حبـي
التقـــى أيـــام عـــذاب
وأنت يا سـاكن فـي قلبـي
تعمل إيـه لـو قلبـي داب.

لم يزل الجرسون واقفًا لا يدري به، ولم يزل هـو يرقص بكاتينا بين المقاعد، ورواد المقهى الذين انتبهوا إلـى الجرسون الواقف طويلاً أمام العربي بدأوا ينظرون إليهمـا. لكن العربي انتبه.

- سحاب.

- سلامتك يا أستاذ، أنت مازلت صغيرا على التوهان..

لم يرد العربي وإن أحس ببعض الضيق. التفت الجرسون موليا ظهره مبتسما لرواد المقهى. فكر العربي كيف حقا كان يرقص مع كاتينا منذ قليل. حضوره إلى حارة اليهود الليلة فأل سيئ.

ستخلو شوارع كثيرة من الأجانب في الإسكندرية في الأيام القادمة.

هذا ما يشعر به، ويكاد يراه بعد حديث بائع السمان التعس. نهض واقفًا في ضيق، ووضع على المنضدة ربع جنيه كاملاً، لم ينتظر عودة الجرسون ولا السحاب وخرج يواجه المطر والريح على الكورنيش وصوت الموج الغاضب. البالطو والسمان لا يزالان يشيعان الدفء في جسده لكن لا سبيل لتفادي المطر. ليس معه مظلة. فليقف تحت شرفات العمارة ساكنًا حتى يلتقطه تاكسي، كان وشيش النخيل السلطاني يملأ الفضاء فوق الشارع وهو يهتز بفعل الرياح. الموج أمامه يرتفع بهاماته البيضاء ثم يتراجع مخلفًا صوتًا هادرا، ولنشات متفرقة ترتفع مع الموج ثم تهبط فيبدو أنها

غرقت ثم تعود إلى الارتفاع  والظهور مـن جديـد. إنهـا قوارب الصيد الصغيرة التي يتركها أصحابها في الماء قرب الشاطئ مثبتة في الرمال "بالهلب" الموصل بكل منها بحبـل طويل. لحظات وتوقف تاكسي عـريض ماركـة سـتروين الفرنسية. اندفع داخلاً فيه.

ما كاد يجلس حتى جاءه صوت السائق الذي يضـع حول عنقه كوفية حمراء.

- إلى أين إن شاء الله؟

لم يكن قد فكر بحق إلى أين يـذهب. لا يمكـن أن يعود إلى كاتينا فهي لا تسمح له بالمبيت عندها الآن. وهو لا يريد العودة إلى البيت. البيت الذي إذا خرج منه في الصباح نسيه ولا يتذكره إلا عندما يراه بعد عودته في المساء.. سأل السائق..

- ما هو أحسن مكان يسهر حتى الصباح؟

- بلدي أم إفرنجي؟

- بلدي.

- ملهى عطيات حسين. ملهى ليلـى ولا ملهـى السفينة. أكيد حضرتك عارفه، الذي شكله بالضبط كالسفينة،

واسمه الحقيقي "كوت دازور" ناس قليلة هي التـي تعـرف الأسماء الحقيقية للملاهي في إسكندرية. هذه فائدة السواقة يا أستاذ. السفينة في سوتر وعطيات حسين فـي المزاريطـة، تعرف أن جمال عبد الناصر شخصيا يـأتي ويسـهر عنـد عطيات حسين.

كان العربي يجلس جواره يتأمل المطر الساقط على زجاج التاكسي الأمامي والمساحتين النشيطتين في طرده. قال في سخرية:

- عبد الناصر بنفسه؟

- بالضبط. كما كان الملك فـاروق يسـهر فـي السفينة.

سكت العربي تماما. أدرك أن طرق الحوار مسدودة مع السائق، أو على الأقل غير مفهومة. لكـن السـائق لـم يسكت..

- الملك فاروق كان لا يحب يسهر في إسـكندرية إلا في السفينة أو في الأوبيرج الأزرق. والاثنين في "سوتر" ما أكثر ما رأيته هناك. في إحدى المرات شاهدت الأميـرة فايزة مع واحد مهم جدا خارجين من السفينة، سألت هل هـو

أخوها؟ قالوا لي إنه سكرتير كبير في السـفارة الأميركيـة بالقاهرة، بعد ذلك كنت أراها كثيرا مع هذا السكرتير هناك.

وجد العربي نفسه يقول:

- وأكيد طبعا شفت عبد الناصـر بنفسـك عنـد عطيات حسين.

اندفع السائق يتكلم من جديد.

- طبعا.أنت لا تصدقني. طيب. ألم تفعل الثـورة كل شيء عكس الملك. كان فيه ملـك صـار فيـه رئـيس جمهورية، كان فيه إقطاع صار فيه إصلاح زراعي، كان فيه رأسمالية أجنبية صار فيه تمصير، كان الملـك يسـهر فـي السفينة إذن عبد الناصر يسهر عند عطيات حسين، السـفينة إفرنجي وعطيات بلدي، صح يا أستاذ؟ أقتنعت؟

كان العربي يفكر على نحو مجنون أن السائق وهو يتكلم قد تغير وجهه وصار يحمل وجها غريبا، وجه سـعيد إسكندر سفاح كرموز الذي تم إعدامه في سجن الحضرة منذ عشر سنوات.

لماذا فكر على هذا النحو؟ لا يعرف.

## ( ٢ )

أقيمت الأفراح في المساكن. اليوم زواج رشاد من فاطمة. مضى وقت طويل حتى شفى رشاد من أثر الرصاصة. لقد نجا من الموت المحقق وأمضى وقتًا طويلاً في النقاهة. لم يعد بعد كامل خطيب مشيرة، لا يزال مفقودا. ولم يعد محمود الملاح الذي تم تسريحه بعد وقت طويل من الجيش لكنه سافر إلى القاهرة يبحث عن ممول لفيلم كبير قال إنه يريد أن يصنعه عن بورسعيد.

اليوم سيتزوج رشاد ابن المفتش الوسيم فاطمة الرشيقة كعصفور، بنت موظف قسم الحركة القديم الذي لم ينجب غير فتاتين، تزوجت الأولى وانقطعت أخبارها وتأتي على مسافات زمنية متباعدة في عربة ملاكي فورد بيضاء. تزوجت شخصا عظيما على حد قول الناس. عشقت فاطمة رشاد فلم يشأ أبوها المثقف الذي لا يشاهد إلا والجرنال في يده أن يكسر بخاطرها. وافق على زواجها من عسكري البحرية الذي فتنت البنت ببدلته البيضاء وطوله الفارع. قال

في النهاية إن الولد طموح وفيه شهامة وهذا يعوض عن المال والمركز!

اختير للفرح مسرح شهرزاد بمحطة الرمل. استعدت معظم النساء للذهاب. ظهر أنه يمكن للنساء أن يخرجن ويذهبن بعيدا، أن يرتدين فساتين ملونة ضيقة الخصر واسعة الذيل ذات كرانيش، أن يضعن عطرا رخيصا، لكنه عطر، وأن يحملن حقائب من الجلد الصناعي! ساعدت أم الضابط الماشطة النساء على الزينة بالبودرة والأحمر الغزير والكحل الثقيل. لم تتضايق من رفض فاطمة أن تقوم هي "بتجهيزها" وذهابها من ثم إلى الكوافير في محرم بك فكانت بذلك أول فتاة تفعل ذلك هنا.

"فاطمة طول عمرها عايقة وأنا بأحبها من قلبي"

قالت ذلك أم الضابط لمن حولها. الحقيقة أن كل الناس هنا تحب فاطمة ولا يرون ضرورة لأن تكون لذلك ثمة أسباب. هي ليست في جمال حكمت أو الجوني. سمراء رشيقة القد شعرها أسود غزير، عيناها واسعتان وفمها صغير. هي إذن جميلة أيضا لكنها ليست شقراء مثلهما! كروان كان الرسول السري بينها وبين رشاد. لا تتركه إلا وقد احمر وجهه. طعم

قبلاتها الدافئة على خده لا يزال. في البداية كانـت تعطيـه البونبوني، صارت تعطيه البونبوني مشفوعا بقبلة على الخد. كروان فرحان مثل كل الناس، زعلان وحده حين يفكر فـي هذا الزواج لأنه لن يرى فاطمة بعد اليوم! البنات خلقهن الله ليخطفهن الرجال. يسمع أمه تقول ذلك دائما. أمه لم تـذهب إلى الفرح لثقل حركتها. أخذته شوقية معها. ذهب أبوه مـع الرجال..

لم تخرج البنات بشكل جماعي من زمان. ذلك اليوم الذي خرجن فيه معا وذهبن يتفرجن على جمال عبد الناصر وهو يخطب في المنشية بمناسبة جلاء الإنجليز عـن الـبلاد فكان "يوم أسود!". أطلق شخص الرصاص على جمال وساد هرج شديد فكدن يقعن تحت الأقدام لولا أن جمال نفسه راح يصرخ في الناس أن يقفوا صامدين "فإذا مات جمال فكلكـم جمال".. لكنهن في النهاية، وبعد أن ابتعدن كثيرا عن المنشية في طريق عودتهن، شملتهن البهجة بنجاة البطل الوسـيم ذي الصوت الجهوري الرنان وإن لم يزايل الفزع وجوههن بعد..

عبرن هذا المساء المعديـة ليـركبن التـرام إلـى المنشية، رآهن حبشي فوق المعدية ورأى الفضـاء يـتلألأ بضحكاتهن وثيابهن الملونة. نظر على بدرة وقال..

- شفت البنات يا بدرة؟!

- ما لهم؟!

لم يرد. فقالت بعد أن فهمت ما يقصد:

- بناتك أجمل ألف مرة.

كان اللقطاء من البنات أجمل من بنتي بدرة. قال:

- طبعا. ليس هناك أجمل من خلقتك وخلقة بناتك!

وخلع جلبابه ثم قفز في الماء باللباس وراح يسـبح كتمساح. نظرت البنات إلى الترعة حـين سـمعن صـوت ارتطام جسمه بالماء. أشحن بوجوههن وصعدن يركبن الترام مبتسمات.

الجو ربيعي اختفت منه سخونة الخماسين منذ أمس. في ميدان المنشية نزلن يمشين المسافة الباقية. حكمت تعرف الطريق إلى المسرح. في ميدان المنشية الواسع ذي العمارات العريضة الرابضة في جـلال بنوافـذها العاليـة وحلياتهـا الباذخة، وقفن يتفرجن على تمثال محمد علي باشا. كان ثمة

محلات مغلقة، وعدد من النساء اليونانيات العجائز يمشـين على الأرصفة، وكثير من الشحاذين وعـدد مـن الصـبية يجمعون أعقاب السجائر وآخرون يبيعون الفل والياسـمين. قال كروان الذي انتبهن إلى وجوده معهن:

- محمد علي باشا هو جد الملك فاروق.

قالت حسنة:

- الملك فاروق هايص في بلاد بره.

هتفت شوقية:

- هايص!؟ لقد طردته الثورة يا عبيطة. زمانه لا يص ودايخ دوخة البلجيكي..

لا تعرف أي منهن معنى دوخة البلجيكي، والحقيقة أنها مقولة أطلقها أحد الظرفاء على الترام الذي يتحرك فـي الإسكندرية في خط دائري فلا تعرف له بداية مـن نهايـة، والترام تملكه شركة بلجيكية...

جرين للحظات بعد أن تطلعن طويلاً إلـى التمثـال الذي يكاد يقفز من فوق قاعدته. حصان قوي فوقـه رجـل جبار! وأخذتهن حكمت إلى الكورنيش فاستقبلن هواء البحـر المنعش. مكان تمثال إسماعيل باشا لا يزال خاليا. يقـال إن

الثورة سترفع كل تماثيل أفراد أسرة محمد علي من البلاد. البعض قال إنه شاهد تمثال إسماعيل باشا ملقى في إهمال بحدائق انطونيادس. ستضع الثورة مكانه نصبا للجندي المجهول.

بدت الجوني في الفضاء الواسع مثل عروس البحر التي خرجت للتو تتلألأ من الماء. ازدادت طولاً وارتفعت في الفضاء كآلهة سحرية. طالت رقبتها ولمع شعرها الكهرماني وسطع النور من وجهها. بانت التقاسيم الدقيقة لوجه حسنة السمراء. لعلعت ضحكة البنت شوقية ولمعت عيناها العسليتان. لم يكن الضوء والهواء في جانب بدرية. بانت بحق مثل دجاجة بللها المطر، احمر وجهها وكادت أرنبة أنفها تشتعل. زواج فاطمة فأل حسن يفتح الطريق لزواجهن. قريبا جدا ستتزوج شوقية وبدرية. خطيب بدرية، الحلواني، عاد من الحرب سليما وسيذهب بها إلى ليبيا بعد الزواج. لا أحد يعرف لماذا يسافر إلى ليبيا. يقول أنه تعرف على أحد الليبيين المقيمين بحي الورديان، من الذين هربوا أيام عمر المختار من الطليان، وأن هذا الرجل قرر أن يعود إلى بلاده، وسيفتتح ضمن مشروعاته محل حلواني سيكون الأول في

بنغازي. حكمت أيضا ستتزوج قريبا. ربما تسـبق الجميـع، مشيرة تعثر حظها فكامل خطيبها لم يعد من الحرب، لم يقل أحد إنه استشهد، ولم يقل أحد إنه أسـير، هـو فـي عـداد المفقودين وهي تنتظره. رابطة مهببة!. تقول حسنة التي لـم يتقدم لها أحد. لا أحد يعرف هل تقصد مشيرة أم نفسها. نادية سلام تقول لهن دائما إنها لا تفكر أبدا بالزواج، تخفى قصـة حبها مع إبراهيم مرسي، وتحلم به أكثر من مرة في اليـوم الواحد. كما تحلم الجوني بخير الدين الذي لا يفتأ يجلس على سلالم الماكينة الحمراء يتابعها بعينيه كلمـا صـعدت إلـى السطح، أو يصعد على سطح بيته يتطلع إليها من بعيد، وفي كل الأحوال لا يتكلم خير الدين ولا يبدي أي إشارة.

ظهرت نادية سلام في هذا الفضـاء مثـل مهـرة حقيقية، هي أصغرهن لكنها أطولهن وأكثرهن غـزارة فـي الشعر. حكمت وحدها ظهرت مثل شعلة من لهيب فوق جبل بعيد كلما ابتسمت لمع في الفضاء شهاب واختفى!.

قالت حسنة:

- العقبى لكم يا بنات حتى تخرجن من المسـاكن إلى الدنيا الحقيقية.

قالت شوقية لحكمت:

- أكيد أنت يا حكمت سوف تسكنين هنا في محطة الرمل.

قالت حكمت:

- أنا قلت لخطيبي ألا يبتعد عن كرموز.

قالت شوقية:

- أنت يا حكمت غاوية فقر.

تساءلت بدرية:

- الواحدة بعد الزواج ألا تسكن في مكان أفضل؟

قالت حسنة:

- طبعا. لو معها فلوس للإيجار!

ابتسمت بدرية ثم قالت:

- أنا كنت فاكرة الشقة الجديدة شيء تابع للزواج؟

تساءلت حسنة:

- ماذا تقصدين بشيء تابع للزواج؟

- يعني لما الواحدة تتزوج المحافظة أو الدولة تعطيها شقة بإيجار رخيص.

نظرن إليها مندهشات. قالت حسنة:

- يقصف عمرك يا بدرية، أنت هبلة وعبيطـة لا تدري.

انطلقن جميعا في ضحك عال وأسرعن الخطى إلى محطة الرمل. الساعة حوالي الخامسة. النهار يفارق الـدنيا على مهل، البحر عند الأفق يلتهب بالشمس الذاهبة، وبعـض السحب السود تختلط بدم الشمس فيبدو الأفـق فـي حريـق حقيقي. نار ودخان. أنفاس الموج تصل إليهن، يرين بعيـدا هاماته البيضاء تترى خاف بعضها في كسل. سفن وزوارق حربية تقف في الميناء الشرقية متناثرة ما بين لسان السلسلة وقلعة قايتباي. ظلالها تترجرج فوق المـاء مـع حركتهـا الهادئة. البنات تمشين أسفل شرفات العمارات تهفو نفوسـهن على ركوب الحناطير التـي تتهـادى بالبنـات اليونانيـات والإيطاليات والشباب الأفرنجي، ويسمعن صـوت طرقـات أقدام الخيل على الأسفلت. يا أولاد الكلب. قالت حسنة فـي سرها وهي تتابع عربات الحنطور تحمل العشاق. لكن الذي خطف أبصارهن بحق كـان الزجـاج الأبـيض للمطـاعم والمقاهي. مقهى الكريستال، المقهى التجارية، مطعم نصار. المناضد البيضاء تتحرك بينها فتيات صـغيرات جمـيلات،

يونانيات وإيطاليات، ومصريات أيضا، في ثياب أنيقة، جوبات زرقاء ضيقة على الأرداف والسيقان، قمصان بيضاء وأربطة عنق زرقاء. جرسونات المقاهي وزيهن المميز، البنطلون الأسود والجاكيت الأبيض وكل منهم قد وضع يده في جيب الجاكيت يحرك القروش "الفكة" داخله في حركة لا إرادية..

رأين من بعيد أمام المسرح زحاما من الشباب والأولاد، يقفون في استعراض قوة يحدث عادة حين يتجمعون معا. تعودوا، شباب وصبية المساكن، على الذهاب إلى السينما في محطة الرمل دائما جماعة، يثيرون في طريقهم المشاغبات يفضى أكثرها إلى معارك طائشة مع الآخرين. نادرا ما يذهب أحدهم إلى السينما وحده، إذا حدث يبدو في ذهابه وغيابه حزينًا صامتًا لا يصدق من يراه أنه هو نفسه الذي يتحول إلى جني مع أصحابه. يعطيهم الفرح اليوم طاقة أكبر من التحفز. في الإسكندرية تنتهي الأفراح غالبا بمعارك. "سلو بلدنا!" هكذا يقولون.

كان واضحا أن الشباب قد كووا قمصانهم بالنشا، ووضعوا الفازلين أو الصابون على رءوسهم فثبت الشعر

ولمع! ولبسوا البنطلونات الووتر بروف ذات الوسط الساقط على طريقة جيمس دين!.

بالداخل كان العدد الذي وصل من الآباء، عمال السكة الحديد الذين لا ينزلون المدينة إلا في الأعياد، يجلسون في الصفوف الخلفية تاركين الصفوف الأولى للنساء والأطفال. لكن عددا منهم كان لا يزال قادما في الطريق بينهم حمزة. كان حمزة لا يزال يحكي حكايات غريبة عن الحرب التي انتهت منذ عام، خاصة عن الطائرات التي سقطت فوق المدينة، والتي شارك هو شخصيا في إسقاطها بعد أن تطوع في فرق الحرس الوطني، حيث تم توزيعه على بطارية مدفع مضاد للطائرات فوق جبل الطوبجية بكوم الشقافة. الموقع نفسه الذي كان فوقه مدفع انجليزي كبير، في الحرب العالمية الماضية ظلت طائرات الألمان لمدة عامين تحاول تدميره وتفشل حتى نجحت في ليلة كادت فيها تدمر الإسكندرية كلها.

لقد تغير الزمن وصار المدفع مصريا والطائرات إنجليزية! الإنجليز يعرفون الموقع جيدا لذلك حرصوا على تدمير المدفع منذ البداية، لكن كل الطائرات المغيرة تم

تدميرها في الفضاء. هكذا يقول حمزة، والناس جميعا تعرف أن عدد الطائرات التي سقطت فوق الإسكندرية لا يصل إلى خمس طائرات. لم تحدث غارة كبيرة إلا مرة واحدة من إحداها سقطت القنابل على مبنى البوستة في المنشية، وفي الثانية سقطت القنابل في مينا البصل، وفي الثالثة سقطت القنابل على بحيرة مريوط، طاشت يعني!.

اليوم دخل حمزة وخلفه الرجال الذين يقودهم إلى المسرح يشم في طريقه إلى الصف الأول رائحة بارفانات تطير العقل! المسرح واسع والأضواء الخافتة تنبعث من أعلى الجدران وفي الواجهة، على خشبة المسرح، إضاءة بيضاء قوية وكوشة محاطة بلمبات الفلورسنت البيضاء والزهور. كوشة شديدة الإضاءة داخلها مقعدان من المخمل الأحمر خاليان إذ لم يصل العريس وعروسه بعد.

جلس حمزة ومن معه في الصف الأول، ولأنهم يدخلون هذا المكان لأول مرة لم يحاولوا الالتفات والبحث عن زملائهم. في الحقيقة أسكرتهم روائح البارفانات. جلسوا في أدب كالأطفال غير مدركين الرجال والشباب الذين ينظرون إليهم. نساء جميلات معطرات شبه عاريات في

ملابس سهرة سوداء وحمراء وخضراء، ورجال ببدل سوداء ووجوه حمراء وبابيونات ملونة ومناديل في لون البابيونـات والكرافتات، وشباب نضر يصافحون الفتيات ويقبلونهن على الخلود، وأطفال يانعو البشرة نظيفو الثيـاب يمرحـون فـي الطرقات التي بين المقاعد. سمن على قشدة على لبن. هكـذا رأى حمزة النساء ولم ينتبه إلى المكان بعد!!

قال أبو عيد المشعور لحمزة:

- النسوان حلوة يا ولد.

فقال حمزة:

- هكذا الأفراح التي تقام في المسرح دائما.

تساءل أبو عيد المشعور.

- يعني هذه النسوان تابعة للمسرح.

طبعا، وتجدها في كل الأفراح.

هكذا أجاب حمزة واثقًا. لم يجد سببا لوجود النسـاء غير هذا، على الأقل حتى الآن.

بين الحين والحين يظهر من ينظر إليهم من بعيد ثم يمضي ليقف يتحدث مع شخص آخر سرعان ما يأتي ينظـر إليهم ثم يمضي وتظهر على الاثنين الدهشة والارتبـاك. لا

أحد يتقدم يسألهم، وهم الرجال الذين يرتدون الجلابيب البلدي والعمم أو البنطلونات الكاكي والجواكـت الرخيصـة، عـن هويتهم. ظنهم أهل العروس من أهل العريس الذين ظهـروا فجأة قادمين من الريف.

أهل العريس بدورهم ظنوا أنهم أهـل العـروس!. ظهرت امرأة طويلة قوية انحنت على طفلة صغيرة تحدثها، فأسرعت الطفلة حتى وصلت على حمزة وسألته:

- حضرتك من أهل العريس؟

اضطرب حمزة للحظة ثم قال:

- نعم كلنا أهل العريس:

نقلت الطفلة الرسالة إلى المرأة التي كشـرت عـن وجهها واحمر حتى كاد ينفجر وأسرعت تدخل إلـى غرفـة جانبية وتخرج منها في يدها امرأة أخرى قوية أيضا لكن أقل طولاً. خلفها راح رجل أنيق ينظر إلى حمزة وزملائه ويهز رأسه.

انتحت المرأة الطويلة بالأقل طولاً وراحتا تتكلمـان بحدة لكن بصوت غير مسموع. حمزة الذي كان يراقب ذلك أدرك أن شيئًا ما غير طبيعي يحدث حولهم، في الوقت الذي

سمعت فيه الطبول والدفوف وأصوات الزفة الإسكندراني داخلة من باب المسرح تحوط العريس والعروس فسكتت المرأتان وتابعتا المشهد لكن لم ينته غيظهما ولم يختف من على وجه كلتيهما. ما إن جلس العريس والعروس في الكوشة حتى قال حمزة:

- هذا ليس رشاد ولا هذه بفاطمة.

قال أبو عيد:

- الله يكسفك يا حمزة دخلت بنا مسرح غلط.. وأنا أقول الناس رايحة جاية تبص لنا ليه؟ وتقول لي النسوان لزوم المسرح يا فشار..

وقف حمزة ووقف الرجال واتجه بهم على الخارج لكن المرأة الطويلة كانت بدورها في الطريق إليهم ومعها المرأة القصيرة. قبل أن تتكلما تكلم حمزة:

- لا مؤاخذة يا مدام ظنناه فرح ابننا رشاد وبنتنا فاطمة. "هابي ماريدج" إن شاء الله..

أزالت الجملة الإنجليزية صخور الغضب وانحلت أسارير المرأتين.

قال أبو عيد:

- حقك علينا.. واضح أننا وسخنا الفرح...

نظرت المرأتان إليهم بإشفاق حقيقي. قالت الطويلة:

- بالعكس. حضوركم شرفنا جدا. هذا فرح توتـو وبيسة. كأنه فرحكم. نحن فقط لم نكن نعرفكم. سـامحونا إذا كنا تصرفنا تصرفًا غير لائق.

قال حمزة بهدوء وأداء تمثيلي:

- كلك ذوق يا مدام. اسمحي لنا بالانصراف.

- ليس قبل أن تأتوا معي.

قالت ذلك ومدت يدها أمسكت بيد حمزة الـذي لـم يصدق أن هناك في الكون يد امرأة بهذه النعومـة والـدفء فترك نفسه لها يمشي جوارها كالمأخوذ والرجال خلفه حتـى دخلت بهـم غرفـة واسـعة مليئـة بالتورتـات والجـاتوه والساندوتشات وفي وسطها يقف خادمان نوبيان. راحت هي بنفسها تعطي كلا منهم علبتين صغيرتين مغلقتـين بشـريط أخضر ووردة بيضاء بلاستيك عند عقدة كل شـريط. قـرأ حمزة كلمة "ديليس" على جوانب العلبـة فـابتهج وخرجـوا جميعا غير مصدقين. في الحقيقة كانوا محتاجين إلى هـواء البحر المشبع بالندى بعد أن كادوا يختنقون من الحرارة التي

ارتفعت في أبدانهم مرة بسبب الإحـراج وأخـرى بسـبب الابتهاج. وقال أبو الحسن:

- أكيد داخل هذه العلب بسطة.

فقال حمزة:

- داخلها جاتو يا حمار. البسطة هناك فـي غـيط العنب عند "الحلواني جزر" لكن هذه من عند ديلـيس فهـي جاتوه.

الإسكندرية كلها تعرف أنه لا فرق بـين البسـطة والجاتوه، لكن هكذا جرت العادة، يسـتخدم أهـل المنـاطق الجنوبية الفقراء كلمة "بسطة"، ويقول أهل الشـمال الغنـي "جاتوه"، والحقيقة أن الاثنين صنف واحد يبيعـه الحلـواني والكلمتان معا أصلهما أجنبي!!.

## ( ٣ )

أقيمت الأفراح. بدت الدنيا أوسع. الراديو يبث أحاديث الانتصار منذ أكثر من عام. الوحدة بين مصر وسوريا قد أعلنت، وصلى جمال عبد الناصر وشكري القوتلي، الرئيس السوري، معا في الجامع الأزهر... الناس عموما تستطيل قاماتها!

لم تعد حكايات اليهود وخروجهم الكبير تصل إلى المساكن، لقد خرج من خرج، وفاز من فاز، ومصائب قوم عند قوم فوائد، ثم ماذا يستفيد سكان المساكن من غنى" زعيط واختفاء معيط!". الدنيا بعيدا عنهم لا تصل إليهم ولا يصلون إليها..

أقيمت الأفراح بعد عام من التجهيز والاستعداد... رفض على زين العابدين إقامة فرح ابنته شوقية على عريسها التاجر في المسرح. "لا يجب شحططة الناس" هكذا قال. "سيقام السرادق في الشارع الوسطاني" هكذا قرر...

حضر عمال الفراشة والكهرباء من كرموز. تدلت المصابيح الملونة على واجهة المساكن المطلة على شارع

قنال المحمودية. تم توصيل الكهرباء بأعمدة نـور الشـارع العامة. الحكومة لا تأتي هنا إلا نادرا. امتدت الأنوار بطول الحائط فوق النوافذ فاشتعلت المساكن الممتدة لمسـافة تزيـد على الأربعين مترا وتحولت إلى ما يشـبه واجهـة مدينـة للملاهي... اشترك الصبية في تنظيف الشارع الوسـطاني، حبس الناس أغنامهم وماعزهم ذلك المساء. كذلك طيـورهم من بط وأوز ودجاج. شيئًا فشيئًا بدأت تظهر معالم السرادق لكن رائحة الماعز والأغنام والطيور وبول الأطفال كانت لا تزال ترتفع من أرض الشارع رغم أن الأولاد كنسوا الأرض ورشوها بالماء. الرائحة النفـاذة لعطـور النسـاء الرديئـة ستقضي على أية رائحة أخرى ساعة الفـرح، ثـم إن هـذه الرائحة التي قد لا يتحملها الغريب، يعيشون هم وسطها ليـل نهار!.

في البيت تجمعت البنات حول شوقية وأمها، أبلـة نرجس. منذ شهر كامل لم ينقطعن عـن السـهر، يجهـزن الملابس للعروسة ويغنين ويطبلن ويرقصن أيضا. لقد جهزت أبلة حكمت ابنتها أحسن تجهيز. وكل يوم تدهش البنات ممـا تشتريه أبلة حكمت لشوقية، حريـر برودريـة، وبروكـار

بالقصب لزوم الفساتين، وبيكة سادة ومشجرة للجلابيب وتيل حرير أطلس وتيل ملايات ألوان وجوبلان روميو وجولييت وأربع أطقم سرير كتان مشغول، وعشر فوط المحلة زهرة اللوتس، وثلاثة أطقم سفرة المحلة، وعشرة شرابات كاوتشوك أول سايز، وعشرة قمصان نوم رمش العين، وكمبينزونات شرميز وكمبينزونات ساتان جرسيه بدانتيللا، وثلاثة أطقم نوم نايلون شفاف ثلاثة قطع، وعشرين كيلوت بليسيه، وعشر سوتيانات، واثنين سجادة صلاة وغير ذلك كثير. عدن إلى البرنامج الإذاعي وعاد إليهم. تغيرت حظوظهن كثيرا بعد الحرب. صار حظ شوقية غالبا مع محمد فوزي ذي الصوت المبهج الرنان، تعب الهوى قلبي وشحات الغرام، ويلك ويلك يا مشتاق، وبعد بيتنا ببيت كمان حلو ساكن من زمان، ونسيت الحزن القديم مع أحلام وعبده السروجي وتفاءلت بالمستقبل. مع موسيقى وصوت محمد فوزي تنتعش البنات وترقصن وتغنين ولا يعرفن كيف يستطيع عم علي زين العابدين أن ينام في الحجرة الداخلية كل ليلة ولا يعترض ولا يحتج، بل يسمعن صوته أحيانًا وهو يشخر.. نزل عليهن الصمت فجأة ليلة جاءهن خبر زواج

حكمت. لم يبد قبل ذلك أي استعداد لذلك، ولم تبـد لهـن أي إشارة ولم يبد في ذلك اليوم أنها ستتزوج في آخره! لم تـدع أحدا إلى فرحها الذي أقيم في المسرح. كـان ذلـك شـرط العريس. لعلها لذلك أخفت الخبر عنهن. لا يصدقن أبدا أنهـا تنكرت لهن. لكن حسنة قالت غاضبة:

- الفلوس تعمي الناس. بياع سمك جربـوع أبـوه بالكتير كان يسرح بغلاق على رأسه بالقراميط الميتة أصـبح تاجراً ويفرض شروطه على البنت الغلبانة، حكمت التي هي أجمل من مريم فخر الدين ومارلين مونرو!.

وظلوا ساكتين. قالت بدرية:

- مسكينة حكمت. لابد أنهـا زعلانـة. إنهـا لا تستغني عنا أبدا.

لم تظهر نوال تلك الليلة فلم يغن أحد.. لكـن فـي الليلة الثانية اجتمعن مبتهجات. ما الذي يجعل النـاس هنـا سريعي النسيان للحزن والغضب؟ هل هو المكان البعيد عـن المدينة، هل هو الهواء القادم من المدينة، هل هـو الفضـاء الواسع حولهم. هل هو الصمت الذي لا يرتفـع فيـه غيـر أصوات الأطفال؟. هل هو التسليم والرضا بقضاء الله؟ لقـد

حملت إليهن الأنباء أن حكمت سكنت في شقة جميلة بكامب شيزار قرب سينما أوديون، بينما عدن إلى الطبل والرقص والغناء، ومنذ أيام لم يستطع كروان أن يكتم عن البنات ما سمعه من خير الدين الذي قال له كيف وهو خارج من سينما الهمبرا، وبعد أن أخذ يمشي في شارع صفية زغلول في اتجاه محطة مصر، كيف رأى حكمت وهي جالسة في "تافرنا" وحدها تدخن سيجارة. لقد رآها من خلف الزجاج وكانت أصابعها ترتعش رغم أنها ترتدي بالطو أخضر والجو في تافرنا مكيف ونحن في الربيع. رآها شاحبة جدا غارت عيناها الجميلتان كثيرا إلى الداخل حتى كاد لا يصدق أنها حكمت. سألته شوقية:

- هل قال لك ذلك بنفسه؟
- سمعته يقوله لسليمان.
- طيب عرفت يعني إيه تافرنا!!

هكذا تساءلت شوقية فضحكت نوال وقالت:

- كافيتريا اسمها تافرنا، مقهى أفرنجي يعني، أنا عارفاها.

تساءلت شوقية في دهشة:

- تعرفين المقاهي يا نوال؟

استمرت نوال تضحك ثم قالت:

- أنا يا بنت دخلت كـل كافتيريـات إسـكندرية، تريانون وديليس وعلـى كيفـك وإيلييـت وسـتريا حتـى المونسينور والوندسور وباسترودس وسانتا لوتشيا..

لم يكن جميعا يعرفن شيئًا من ذلك. قالـت حسـنة مندهشة:

- هل هذه أسماء مقاهي حقيقية؟ يهيـأ لـي أنهـا أسماء عفاريت!

انطلقن يضحكن وقالت نوال:

- لي صاحبة من المغنيين اللاتي أسعدهن الحـظ واشتغلوا في الإذاعة، تعزمني كثيرا في هذه المقاهي.

عادت حسنة تتساءل:

- وهل لابد للمغنية أن تعرف كل هذا؟

- للأسف اللقاءات الفنية والاتفاقات كلها تبدأ فـي المقاهي.

سكتن للحظات حتى قالت بدرية:

- ربنا ينصرك يا نوال وأسمع صوتك في ليبيا. ليبيا التي لا أعرف أين هي بالضبط!

ضحكن كثيرا تلك الليلة، هاهن اليوم سيودعن واحدة منهن، شوقية الجميلة بنت أبلة نرجس الطيبة.

ظهرت أم الضابط عند العصر وأخذت شوقية إلى الحجرة الداخلية.

اختفى علي زين العابدين ذلك اليوم. سيظهر في المساء في السرادق نفسه بعد أن تكون كل الاستعدادات قد انتهت من البيت. رأى كروان دمعة تمشي على خد أمه. "خلاص يا كروان شوقية ستتركنا". كان هو بعد أن اختفت فاطمة قد استوعب فكرة أن يترك الشخص مكانه وأهله بعد الزواج.

لكنه اليوم، الآن فقط، عاد كما كان غير قادر على استيعاب الفكرة. أخته التي كانت تصحبه إلى مدرسة الشيخ عبد الله بكفر عشري، تمشي به على طريق المحمودية المقطوع، وتعود به على الطريق نفسه بعد أن تكون قد انتظرته أربع ساعات أمام باب المدرسة. أخته التي ظلت تفعل ذلك ثلاث سنوات حتى انتقل العام الماضي فقط إلى

مدرسة القباري الابتدائية فراح يمشي مع مصـطفى وعبـده الأكبر منه بعامين، واللذان سينهيان دراستهما الابتدائية هـذا العام. كيف حقا تمضي أخته وتتركه.

رأى البيت كله في حالة حركة من أجل شوقية منذ أكثر من شهر. بالليل سهر مع البنات وحياكة ملابس شوقية، وبالنهار تخرج أمه مع شوقية أو مع أبيه لشراء أجزاء مـن "الشوار"، وأبوه كلما دخل إلى البيت نظر إلى شوقية مبتسما نصف ابتسامة ومسد شعرها بيده وقال "خلاص حنتحرم منك يا شوقية" وتطرق شوقية على الأرض حزينة بحـق، إلا أن وجهها يحمر من جديد وتبتسم وتبتهج حين تسمع أبوها يقول " إن شاء الله ستعيشين سعيدة مع زوجك" لكن غلالـة مـن الحزن رقيقة تظل دائما تغلف هذا الفرح فـي الأسـرة ولا تنجلي إلا في المساء مع حضور البنات.

بعد أن حضرت أم الضابط طلبت من كـروان أن يغادر البيت ليتابع أعمال الفراشة والكهرباء فـي الشـارع الوسطاني. وقف وسط العمال النشطين المعلقين على الأعمدة والواقفين على الأرض. الأطفال يختلطون بالكبار والسـعادة ترفرف فوق الجميع. ما هو سر سعادة كل هـؤلاء النـاس

بذهاب أخته بعيدا عنه إلى الأبد. أخته التي لم يبـد أن لهـا اهتماما في الحياة بغير راحته ومشاغبته بـالهزار الجميـل، أخته التي لم تكشر في وجهه أبدا، ولم تنم قبل أن ينام هـو وتغطيه، ولم تأكل قبل أن تعرف أنه أكل وشبع ولـم تبخـل عليه بالقروش، تعطيها له سرا ولم تتركه يخرج مرة واحـدة بثياب متسخة ولا قميص أو بنطلون غيـر مكـوي. غيـاب شوقية عن حياته ليس أبدا كغياب فاطمة من قبل..

أخذ طريقه عائدا إلى البيت ووقف ينظر على أمه.

- أريد أن أرى شوقية.
- كنت معها منذ قليل.
- أريد أن أراها.

لكنها بالداخل مع أم الضابط وعيب تدخل عليهما.

- لازم أشوفها.

كان الألم الحقيقي باديا على وجهه. البنات تـتطلعن إليه متأثرات. " ياعيني يا كروان"."زعـلان علشـان أختـه حتسيبه""روحه فيها". كانت أم الضابط بالحجرة الداخلية قـد استمعت إلى الأحاديث فجاء صوتها من الداخل.

- تعال ادخل يا كروان.

دخل فلم يصدق أن هذه الحمراء الوجه مثل عروسة المولد هي أخته لولا أن نادته ومدت له يدها. قالت بصـوت أجمل من صوت فاطمة ذلك اليوم.

- حتوحشني يا كروان.

صوتها المختنق جعل أم الضابط تحذرها.

- إياكي تبكي يا شوقية. تفسدي الزواق.

ثم تحدثت إلى كروان قائلة ما سمعه من أمه كثيرا.

- كل بنت مصيرها لزوجها يا كروان.

لكنه لم يكن يسمع شيئًا. لم يترك حتى ذكرى رؤيته لأم الضابط ذات مرة عارية تماما تقفز إلى ذهنه. كانت أمه قد أرسلته بجلباب خاطته لأم الضابط. وجـد بـاب العشـة مفتوحا فدخل دون أن يطرقه. وجد باب البيت مفتوحا فدخل خفيفًا ليرى أم الضابط تقف أمامه في الصالة وسط طشـت كبير عارية تماما. كانت عالية جدا فهـي امـرأة طويلـة، عريضة الجسم، ضخمة الثديين عظيمة الفخـذين، بيضـاء، مشوبة بالحمرة. وقف مبهورا أمام المشهد. تجمـدت عينـاه على الهضبة السوداء المليئة بالشعر الأسود بين فخـذيها وأم الضابط بدورها ابتسمت بفمها الكبير وبانت أسنانها الذهبية.

- ماذا تريد يا كروان؟

لكنه لم يجب بكلمة. كان جوار الطشـت النحـاس صفيحة مياه ساخنة كبيرة يرتفع منها بخار الماء، و" الجارية" خادمة أم الضابط التي تحمل هذا اللقب القادم مـن عصـور سحيقة ولا يعرف أحد كيف توصلت أم الضابط أو زوجهـا إليه، الجارية تقف في يدها كوز تسكب منه المـاء السـاخن على رأس أم الضابط التي كان شـعرها القصـير ملتصـقًا بوجهها.

انزعجت الجارية التي كانت ترتدي جلبابـا خفيفًـا جعله الماء المتطاير عليها يلصق بجسدها في أكثر من مكان. ضحكت أم الضابط وقالت:

- لا تخافي. كروان بعد صغير. وحتى لو كبيـر كروان ولد لطيف..

أسرعت الجارية وأخذت منه الجلبـاب ثـم دفعتـه أمامها إلى الخارج، وهو الذي لم يتكلم بعـد ظـل ممسـكًا بصورة الجسد الضخم المبتل تحيطه غلالـة مـن البخـار تتوسطه هضبة الشعر الأسود الغزير. كان أصعب شيء بعد هو ألا يقول ذلك لأحد، ولقد نجح.

مشهد كهذا كان يمكن، بل يجب، أن يقفز إلى ذاكرته وهو يرى أم الضابط مع أخته، خاصة أنه حدث منذ أقل من عام، لكنه لم يتذكره، اختفت أم الضابط تماما من المشهد أمامه. كان يتقدم من أخته شيئًا فشيئًا، وفي اللحظة التي همت فيها أن تأخذه إلى حضنها وتقبله هوى بكفه على صدغها فصرخت أم الضابط "يالهوي" وعضت شوقية شفتها وسكنت حزينة جامدة.

تركت اليد الصغيرة أثرها على البودرة التي على الخد بينما خرج كروان مسرعا. لمح وهو يلتفت عائدا الدمعة التي انفلتت من عين أخته، والتي ستفسد "الزواق"!

دخلت أمه والبنات لحظة خروجه من الحجرة. وقفن مندهشات بينما كان هو قد ابتعد كثيرا عن البيت وخرج من المساكن كلها ووقف على شاطئ ترعة المحمودية يتطلع إلى الصنادل القادمة من الميناء. يقولون إنها تبحر إلى الصعيد، وإن بين الإسكندرية والصعيد مئات الأميال، فكيف إذن تعود بسرعة إلى الإسكندرية. ليست هي التي تعود يا كروان. صنادل أخرى تأتي كل يوم. لكن الذي يغادر الإسكندرية يعود أيضا وإن بعد وقت طويل. لابد. الدنيا مليئة بالصنادل

والسفن والناس الذين يأتون ويذهبون. الدنيا كبيرة يا كروان لا يستطيع أحد أن يعرف أولها من آخرها!

انتهى فرح شوقية جميلاً حملها بعده زوجها التاجر إلى بلدته كفر الدوار.

غنت في الفرح أشهر فرق البياصة. حسان شـرارة وبدرية السيد المطربة الجديدة التي يذيع صـيتها الآن فـي الإسكندرية، ورقصت فرقة أولاد دياب النوبية ورأت النساء البنات عاريات إلا من ريش يغطي خصـورهن وأثـدائهن وتعجبن جدا من هذه الفرقة الجريئة، وهتف الرجال إعجابـا خاف بدرية السيد وهي تغني موالها الوحيد بصوتها القـوى العريض: طلعت فوق السطوح أسأل على طيـري، لقيـت طيري بيشرب من قنا غيري، سألت ليه يا طيري، قال لـي زمانك مضى، دور على غيري!!

وصعدت نوال تهدى لحبيبتها وصـديقتها أغنيـة. التهب الفرح بالحماس. وبدا الزهو على وجه حمـزة وهـو يجلس في الخطوط الخلفية مع الرجال. غنت أغنيـة نجـاة الصغيرة الجديدة "بان علي حبه من أول ما بـان" وودعـت البنات شوقية بالتصفيق خارج باب المساكن وهـي تركـب

العربة المرسيدس الكبيرة الجميلة المزينة مع زوجها وخلفهما أكثر من سيارة أجرة من الريف تقل أهله وأقاربه، وعدن إلى بيوتهن مرحات حتى انفردت كل واحـدة بنفسـها، وبكـت. أكثرهن بكاء كانت مشيرة التي لا تزال على أمل بعودة كامل المفقود في الحرب.

كن على موعد آخر بعد أيام مع سفر بدريـة مـع عريسها إلى ليبيا. حلت ليلة السفر واجتمعن. تـأملتهن أبلـة نرجس بدون حكمت وشوقية، ومشيرة المعتكفة حزنًا. غـدا ستلحق بدرية بالغائبات. العقد الجميل تنفرط حباته واحدة بعد الأخرى وإن بسبب الأفراح. تتألم فـي صـمت ولا تـتكلم. تعرف حكمة الزمان، بل تتمنى لهن جميعا أن يلحقن بشوقية وحكمت وبدرية بالفعل...

قالت الجوني:

- كل أغاني ما يطلبه المستمعون الليلة من أجـل بدرية، هدية منا.

قالت حسنة:

- الأغاني الحلوة فقط. أغاني النكد خليها لنا.

ضحكن، وأخرجت نوال من علبة قطيفـة صـغيرة زرقاء معها شيئًا ظهر أنه عقد من الكهرمـان بـرق فـي عيونهن.

- هذا الك يا بدرية كهرمان حر.

شهقت البنات. كان بريقه الأصفر لا يقاوم. قالـت نوال:

- شوفي.

وقربت العقد من قطعة من القصاقيص فعلقت بـه. قالت حسنة مندهشة:

- إنه يلقط كالمغناطيس.

- حر كما قلت لكم. ليس صناعيا. الكهرمان هـو أصل الكهرباء. العلماء عرفوا الكهرباء لما رأوا الكهرمـان يلقط. درستها في مادة الطبيعة.

هتفت حسنة:

- يخرب عقلك يا نوال. أنت إذن مثقفة ونحـن لا ندري.

- بالكاد الدبلوم. الثقافة لا.قطيعة!

كانت أبلة نرجس تتأملهن وتعمـل علـى الماكينـة وتبتسم. وكن أيضا يتحدثن وهن يعملن. ضحكت نادية سلام وقالت:

- شكلك زعلان من الثقافة يا نوال.
- معي دكتور فالق دماغي بالثقافة. كلما قرأ كتابا قال لي أن أقرأه، وأن الفنان لازم يكون مثقف!

قالت حسنة:

- هذا غير دكتور الغناء؟
- هذا شاب متخرج حديثًا، الثاني أستاذ.
- أنت إذن في مستشفى للمجانين يا نوال.

ضحكن بشدة. نبهتهن أبلة نرجس إلى أن عم علـي زين العابدين قد يحضر في أية لحظة من الخـارج والليلـة صيفية فتحت فيها نوافذ البيوت.

قالت نوال:

- يحدثني بكلام غريب عن الالتزام بمشاكل الناس وهمومهم في الغناء مثلما فعل سيد درويش.

قالت الجوني:

- من هو سيد درويش؟

قالت أبلة نرجس:

- أنا أعرفه. له أغنية جميلة هي "طلعت يا محلا نورها".

قالت نوال

- سيد درويش هو فنان الشعب.

سكتن. لم يفهمن معنى ذلك. انشغلن بالعمل. قالت نوال بعد لحظات:

- لم أكن أحفظ له شيئًا. حببني فيه الدكتور. قال لي على الأقل لأنه كان من الإسكندرية، من كوم الدكة.

قالت حسنة:

- طيب إذا كانت أغانيه جميلة غنى منها واحدة لبدرية.

أغمضت نوال عينيها وقالت:

- سأغني لكن دورا صعبا لكن جميل.

وسكتن. توقفن عن العمل. بدا أن نوال شردت تماما عنهن، ثم بدأ صوتها الجميل ينساب.

والله تستاهل يا قلبي

ليه تميل ما كنت خالي

أنـت أسـباب كـل كربـى
أنـت أسـباب مـا جرالـي.

ولم تنته من الأغنية إلا وهن جميعا يبكـين بحـق.
كان حزنهن غير عادى لفراق بدرية، إلا أبلة نـرجس هـي التي تماسكت. صحيح أن كل واحدة منهن تتمنى زوجا وبيتًا وأسرة، الغريزة والطبيعة تهفوان إلى ذلك، لكن محبتهن لهذه الجلسة حول أبلة نرجس أمر لا يمكن التخلي عنه بسـهولة. إنها الجلسة الأجمل في حياتهن، الوقـت الأجمـل، الحريـة الوحيدة المتاحة. إنه الزمن الخالي من الهموم التي ستشـتاق إليه كل واحدة منهن بعد ذلك. إنها بكارة اكتشاف الدنيا شيئًا فشيئًا. الدمعة الأولى للفرح أو للحزن، هنا تحليق الروح مع الآمال. هنا أبلة نرجس، هي أمهم ومركز الـدنيا ومحـور الآمال والأحلام.

هل يمكن حقا أن يصبح هذا اللقاء مجرد ذكـرى؟ هذا ما يحدث شيئًا فشيئًا. يا لأبلة نرجس كيف حقا تذهب إلى الفراغ العميق وحدها؟ لكن المرأة الحكيمة كانت تعرف كيف

تسكت وتطوى حزنها. ونوال صرخت، هتفت وهي تنطلـق بأغنية جديدة، ضحكت وابتهج وجهها بالسرور كله.

أنا مت يا ناس مرة في حبي،

جـم الملايكــة يحاسـبوني.

أول سـؤال سـألوني عليـه.

إيه السبب في لـوم العـزال.

أعادتهن على الضحك والبهجة. هذا كلام جميل لـم يسمعن مثله من قبل. كلام يبعث على المرح. عجيب سـيد درويش هذا حقا. كيف لم يعرفن به مـن قبـل وهـو ابـن مدينتهم. بعد أن انتهت نوال قالت نادية.

- نفسي أحضر فرح يغني فيه سيد درويش.

ضحكت نوال، وابتسمت أبلة نرجس. قالت نوال:

- سيد درويش مات من زمان، من قبل حتـى أن نولد جميعا. مات أيام سعد باشا زغلول.

لم يكن يعرفن شيئًا عن أيام سـعد باشـا زغلـول فسكتن، بدت الأسئلة بائخة. طلبن من نوال أن تسـتمر فـي

الغناء لفنان الشعب ابن كوم الدكة الإسكندراني البحبوح سيد درويش..

غنت نوال القلل القناوي، أنا عشقت، الدنيا ما لها يا زعبلاوي، أنا هويت وانتهيت. يخرب عقلك يا نوال كل هذه الأغاني تعرفينها؟ أعمل إيه في الدكتور عاشق سيد درويش. تعملي إيه يعني إيه يا بنت. تجوزيه وتخليـه يحـب فريـد الأطرش!. يضحكن بشدة. أيوه ويغني نجوم الليل تشهد على حالي. العمر قضيته حزين مظلوم.

يضحكن. تضحك أبلة نرجس بلا صـوت. تغنـي نوال "ما قال لي وقلت له، وجاني ورحت له، يـا عـوازل فلفلوا" لفريد. أغنية سريعة الإيقاع مبتهجة على غير العـادة في أغانيه. تقف نادية ترقص على إيقاع الأغنية ثـم تنهـي نوال الغناء بأغنية الحلوة دي قامت تعجن في البدرية...

عادت بهن نوال من الكهف المسحور الذي أخذتهن إليه لأكثر من ساعتين. لا واحدة منهن فكرت في شيء آخر غير هذه السعادة التي تنسكب علـيهن مـن صـوت نـوال الصافي. كيف حقا لا تغني في إذاعة الإسكندرية؟ كيـف لا تقبلها لجنة الاستماع للأصوات الجديدة؟ إنها جديرة بالغنـاء

في إذاعة القاهرة ذاتها، لكن بدرية كانت قد وقفت فأعادتهن إلى الحقيقة، حقيقة أن الليلة لوداعها.

- خلاص يا بدارة؟
- خلاص يا أبلتي.

وارتمت بدرية في حضن المرأة السمينة التي أرادت الوقوف فتأخرت، وبينما كانت بدرية تبكي على صدرها راحت هي تربت على ظهرها، إنها طفلتها الصغيرة الحمراء كالدجاجة ستسافر بالقطار إلى السلوم ثم تقطع الصحراء في سيارة إلى بني غازي. تعرف أبلة نرجس الطريق من كلام زوجها الذي يسافر كثيرا مع العمال لإصلاح خطوط السكك الحديدية بالصحراء. يا لها من رحلة على الدجاجة الصغيرة. لكن لا بأس إنه الزوج والزواج..

راحت بدرية تحضنهن واحدة بعد الأخرى. مسحت أبلة نرجس دمعة تسللت منها، كبحتها حتى لا تنفطر البنت في البكاء أكثر. لكنهن، البنات الصغيرات، لم يستطعن أن يتماسكن. شهقن واندفعن في البكاء خاصة حينما احتضنت بدرية نوال وقبلتها كثيرا وهي تشكرها على العقد الكهرمان وعلى الغناء الجميل الذي غنته من أجلها وخرجت مسرعة.

بقين واقفات في حيرة مفاجئة. صارت الدنيا أوسع من قدرتهن على الفهم أو الحركة فجأة.

قالت أبلة نرجس:

- بنات. الدنيا صغيرة. سيأتي يوم تقابل فيه كل واحدة منكن الأخرى، وأقابلكن أنا أيضا. أسألوني أنا التي أعرف الدنيا أكثر منكن. أسألوني يا بنات. أجل أنا أعرف...

ولم تستطع هذه المرة أن توقف دموعها. حاولت ولم تنجح. راحت تهتز أمامهن ثم انفرط منها البكاء لأول مرة أمام البنات. بناتها الصغيرات، نوال وحسنة وناديـة والجوني، ترى من عليها الدور في الغياب. من ستترك العقد الجميل وتمضي في الفراغ؟

# ( ٤ )

لا فائدة يا محمـود. كلاكيـت آخـر مـرة فـي الإسكندرية. في القاهرة. في الجمهورية العربية المتحدة كلها يا محمود! هاهم السينمائيون أولاد الأفاعي انطلقوا يضحكون منك كلما حدثتهم عن مشروعك. قالوا اكتبه، فكتبته. قـالوا لغتك ركيكة. ما لنا ومال اللغة يا سينمائيين يا محترمين!

السينما أحداث يا منتجين. تركوك وصنعوا فـيلمهم عن بورسعيد. الفيلم يكتسح السوق في لبنان الآن، وسيكتسح السوق في مصر قريبا. قتلوك ليعطوا الفرصة لعز الدين ذو الفقار. طبعا. أليس هو صانع فيلم رد قلبي عن الثورة. هـو مخرج الحكومة المدلل إذن!. لكن الأدهى من ذلك سـليمان المؤلف الناشئ، الذي لم ينشر أية قصة، المجنون مثل عمـه الذي يتحدث عنه كثيرا، والذي سينتهي مثله تماما، يطفـش إلى بلد مجهولة. سليمان أيضا لم يستمع إليك. عـدت مـن القاهرة يائسا، ما إن لامست قدماك أرض المسـاكن حتـى ارتفعت الآمال أمامك. فكرت أن تعيد الكرة ولجـأت إلـى سليمان.

- هل صحيح أنك تؤلف القصص يا سليمان؟

- بدأت أكتب في رواية كبيرة يا محمود. كتبـت عددا من القصص القصيرة لكنها لم تعجبني.

- يعني لو حدثتك عن قصة شعب بورسعيد هـل يمكنك تحويلها إلى رواية تصلح لعمل فيلم.

- طبعا .. لو عجبتني.

قال لك ذلك في خبث وتحملته.

- ما رأيك لو ابتعدنا عن هنا؟ نجلس عند كوبري التاريخ مثلاً وأحدثك عن القصة.

- فكرة ممتازة.

الجو صيف لكنها ساعة مغرب طرية. والناس الذين اعتادوا أن يستحموا في المحمودية ظهروا يسـتحمون فـي المحمودية! سرب من الطيور يرتفع في الفضاء محوما فوق الماء. صندل قديم يأتي من ناحية الميناء محملاً بـالجرارات الزراعية. قشر القصب يظهر على الأرض ويـزداد كثافـة كلما تقدما ناحية كفر عشري، يدوسان عليه فيتقصف تحـت أحذيتهما ويسمعان صوت تقصفه. على يسارهما الآن البـاب المفضي إلى أرصفة البضـائع وسـط السـكك الحديديـة. الرصيف القريب عادة هو الرصـيف الـذي تصـل إليـه

القطارات المحملة بالقصب تنقله السيارات بالنهار إلى جميع أنحاء المدينة. هنا أيضا على الشاطئ تقف الصنادل القادمـة من الصعيد محملة بالقصب وتفرغ شحناتها. الآن باب السكك الحديدية موصد، ولا صنادل تقف على الشاطئ، لكن قشـر قصب كثيرا جف تحت شمس النهار وراح يتقصـف تحـت الأقدام. دخلا شارع التجارة الأسود الرطب المزكوم بالرائحة المكتومة للغلال المخزونة بمخازن الشارع على النـاحيتين، رائحتها رائحة شيء قديم أكلته الحشرات، رائحة حشـرات تحترق. مدرسة عبد الله النديم وبيته علـى يسـارهما. مـن يصدق أن من هذا البيت خرج خطيب الثورة العرابية! قـال ذلك سليمان فلم يرد محمود. كل الكتب تتحدث عن القـاهرة ومقهى متاتيا والشيخ جمال الدين الأفغاني ولا أحد تكلم عـن بيت عبد الله النديم بكفر عشري. مسكين عبد الله النديم ينـام جسده الآن في تركيا بعيدا عن بيته وأهله بآلاف الأميال. هل يمكن أن يعيده أحد بسلام يا محمود؟ سأله سليمان ولم يـرد، يرتب أفكاره التي سيقولها. فجأة تساءل:

- ألا نشتري ورقًا وقلما لتكتب يا سليمان؟
- لا تخف. ذاكرتي حديد..

وصلا إلى كوبري التاريخ. في وسط الكوبري تماما توقفا، تحتهما مياه المحمودية صافية، أمامهما الأفق متسـع فوق الميناء أبيض تجلله سماء زرقاء كبيرة، علـى شـاطئ الترعة مساحات ضيقة مستطيلة مزروعـة بالخضـروات، جرجير وخس وطماطم وباذنجان وفجل بينها أكشاك صغيرة يعيش فيها أصحاب هذه الأراضي العشوائية. مجرد أربعـة أكشاك في كل شاطئ اثنان منها. وأمامهما بالمينـاء تظهـر أعالي السفن وأعالي الأوناش والشمس التي تغيب على مهل. خلفهما مرت ترام تتلكأ في سرعتها. كانت شبه خاليـة مـن الركاب.

- اسمع يا سليمان، أنا مظلوم ظلما بشعا في هـذه الحياة.

قال ذلك محمود بإيقاع هادئ مؤثر، أو رآه كـذلك فقال سليمان:

- ومن بالحياة ليس مظلوما يا محمـود؟ الحيـاة نفسها ظلم. لقد قال أبو العلاء: تعب كلها الحياة فما أعجـب إلا من راغب في ازدياد يا محمود..

فكر محمود قليلاً ثم قال:

- الكلاب والحمير ربما تكون مرتاحة أكثر مـن بني آدم...

- لكني لا أقصد ذلك يا محمود، الكـلاب أيضـا تتعذب وتمرض وتموت ميتة الكلاب! والحمير كمـا تـرى يعذبها بنو آدم أبشع تعذيب، إنما أقصد أشياء أعمق..

- أعمق!؟

تساءل محمود في دهشة... كان يود أن يكون كلامه مدخلاً مؤثرا لما سيحكيه لسليمان عن بورسعيد لكن...

- أجل ما أقصده أعمق جدا، يعني لو لم تكن أنت موجودا مثلاً هل كنت ستتألم من شيء؟

- لا؟

أجاب محمود في دهشة. الحقيقة أنه صار كالمأخوذ لا يفهم ولا يستطيع أن يرفض الإجابة على سليمان أو يحول الحديث إلى شيء آخر. قال سليمان:

- وجود الإنسان هو سبب ألمه. اضرب أي حائط بحجر أو حتى بالجزمة أو بالرصاص هل سيتألم؟

- لا.

- لأنه غير حي. جماد. حياتنا هي السبب. حياتنا هي الظلم الحقيقي لكننا لا نعـرف إلا الأسـباب العارضـة الساذجة..

انزعج محمود للغاية من الحديث وقال في يأس..

- يعني لو كان الواحد حيطة كان أفضل!؟
- طبعا. لكن الأفضل هو ألا يوجد من الأصل.
- يعني قصدك يموت!؟
- لا يوجد من الأصل يا محمود. هل تفهمني؟.وما دام هو غير موجود فلن يحيا ولن ويموت!؟

وسكتا. سليمان الذي يدرك أن هذه الأفكار السوداء تجتاحه منذ اختفاء جين، ومحمود الذي أصابه رعب حقيقي. لو لم يكن موجودا هل كان ذلك أفضل حقا؟ الله يخرب بيت أمك يا سليمان يابن ديك الكلاب! ماذا انتظر من فاشل يصطاد الضفادع ليبيعها للتلاميذ؟ ومرت من خلفهما ترام أخرى أكثر ثقلاً في الحركة فأحس محمود بصوت العجلات داخل رأسه، بل تدوس العجلات على مخه تبعثره. لقـد جـاء يسـتعين بسليمان فأسقط عليه جبلاً من عدم الفهم. إنه الحـظ السـيئ يطاردك، يا محمود، وإلا كان المنتجون قـد وافقـوا علـى

قصتك عن بورسعيد ولم يقولوا ركيكة. كانت ستكون خبطة كبيرة لو سبقت عز الدين ذو الفقار. لكنك قابلت في القـاهرة مجانين في مكاتب الإنتاج، ولجأت الآن إلى المجنون الأكبر الذي أردت أن تعطيه قصة ملؤها الحياة والقوة والتضـحية فأعطاك حديثًا عن الموت وانعدام الوجود. ويقولون إن عيـد هو المشعور!

- تعرف يا سليمان ماذا حدث لنا في بورسعيد؟
- قرأت في الصحف لكني جئت لأسمع حكايتـك التي ستكون أهم.
- لقد انهزمنا يا سليمان في بورسعيد شر هزيمـة ولا يجب أن نتذكر ذلك أبدا أبدا.. هيا نعود..

كلاكيت آخر مرة يا محمود.. لا يجـب أن تقـول قصتك لأحد. تذكرها ولا تنساها ولا تقلها لأحد.. أي أحد..

الخميسي، الطويل الضخم مثل باب يأخذنا بالليـل. يعبر بنا في الظلام من المطرية إلى بورسعيد عبـر بحيـرة المنزلة. نحمل صناديق الذخيرة. نمشـي بتـؤدة كالجمـال. الطائرات الإنجليزية والفرنسية تواصل الضرب. الضـرب يتركز على الشاطئ حيث المدافع المضادة. بروفـة إسـقاط

مظلي خبيث. ودمى بلاستيكية علـى هيئـة جنـود تسـقط بالمظلات. البنادق تنطلق في الفضاء من كل مكـان. أكثـر الرصاص يصعد من حي المناخ. لقطة مكبـرة مـن أعلـى للمدينة كلها وقد تحولت إلى أفواه تنفث النار إلـى السـماء. تنين بآلاف الأفواه. طائرات الأعداء تركز الضرب على حي المناخ. الحرائق تشتعل في الحي كله. الفقراء يدافعون عـن بورسعيد. الفقراء يموتون جملة تحت النار والأنقاض. المناخ حي الفقراء. صراخ بأن الحرائـق تشـتعل فـي الشـارع الثلاثيني. الناس تهرول إلى هناك. أرتال البشر تطفئ النـار في كل مكان. خراطيم وجرادل. رجال ونساء وأطفال. عويل وصراخ وبكاء ونداءات. إشـاعات تنطلـق بـأن مظـلات الإنجليز نزلت بحي الجميل. الناس تهرع بالمئات على حـي الجميل. القذائف تنزل من السماء وهي تجـري إلـى حـي الجميل. الإنجليز لم ينزلوا على حي الجميل. شباب يمـرون بالسيارات بين الناس يطلبون منهم ألا يستمعوا إلى الإشاعات التي يبثها الطابور الخامس.

من هؤلاء الشباب الذين يحاولون إرشاد الناس؟ إنهم الشيوعيون وجدوا لهم عملاً.. حوار يتطـاير فـي الفـيلم..

الشيوعيون يساعدوننا في توزيع صناديق السلاح بهدوء ونظام. رجال المحافظة يتعاونون معنا.

واحد من رجال المحافظة لا ينسى أن يكتب أسماء الشيوعيين الذين يتعاونون معنا في مفكرة صغيرة، لماذا يكتب أسماءكم يا هاجوج؟ أسمه هكذا هاجوج. ابراهيم هاجوج. لطيف ولا ينسى. نوبي الأصل. يقول لابد أنهم سيقبضون علينا بعد الحرب. ضحك. كلنا نضحك. منشورات تنزل من الطائرات. رجل مسن يقرأ المنشور "أين عبد الناصر وجيشه؟ لقد تركهم وحدكم للموت". الرجل يصرخ في الطائرات في السماء. أنا الجيش. نحن الجيش. الجميع يهتفون خلفه. نحن الجيش. الهتاف يتكرر مثل كرة من نار يصعد إلى السماء، يسمع قائدو الطائرات، يقول أحدهم.. إنهم مصممون على المقاومة سيدي الجنرال. اضرب بلا رحمة. يقول سيده الجنرال.. هدوء يعم المدينة. الحرائق خمدت أو في طريقها للخمود.

رائحة دخان وأثاث وحيوانات ولحم بشري يحترق. أطفال تبكي في الأزقة. نساء تبكي في الأركان. خروج جماعي بأقل متاع. اللنشات تنقل الناس عبر بحيرة المنزلة.

السيارات تجوب بورسعيد. أيها الناس لا تتركوا بلدكم، اصمدوا وقاوموا. النساء تهرع إلى وسط بورسعيد بقمصان النوم. الرجال في السراويل الداخلية. من يلبس جلبابا من الرجال يخلعه يلقى به للنساء. الخامس من نوفمبر. تاريخ يملأ الشاشة. لن ننسى. الإنزال الحقيقي. لقد استولوا على حي الجميل والرسوة والملاحة. يشعلون الحرائق في كل مكان يقابلهم. الخميسي يأتي إلينا بالأخبار في مكمننا. كلما رأيته تذكرت أبواب القلاع الأثرية. هكذا وسط الضرب. اكتشاف جاسوس. الناس تلقى به من الدور الخامس إلى الأرض. مشهد سيكون مرعبا. يحذف. يكفي إطلاق الرصاص. الإنجليز يمشطون المقاهي في شارع البحر. الضرب مستمر من الجو في سائر المدينة. الجثث تملأ الطرقات. مازلنا نحارب بالبنادق من أكثر من مكان. نغير أماكننا بسرعة. الخميسي يرشدنا إلى طرق سرية دائما. الدبابات الروسية البرمائية تظهر على شواطئ بورسعيد. إشاعة أطلقها الجواسيس. الناس تجري في جنون إلى البلاج. يمتدون بالآلاف على الأرصفة، لقد ملأوا الشاطئ ليقابلوا دبابات الأصدقاء. رقص وفرح وأناشيد. تخرج دبابتان من

الماء ترفعان العلم الروسي والعلم المصري. كلاكيت آخر مرة يا إنجلترا. آخر مرة يا إنسانية. المشهد صعب يا محمود ومؤثر ولابد أن يطول على الشاشة. العلم المصري يرفرف والعلم الروسي يرفرف. صوت رفرفة العلمين يرتفع ويزداد ارتفاعا في الفضاء. إنهم يصفقون معه، مع الصوت على الشاطئ. العلمان يرفرفان بشدة والناس تصفق في جنون. الله أكبر تملأ الفضاء من حناجرهم الفولاذية. الكاميرا ترتفع على السماء. تصوير من أعلى. السماء صافية فلا طائرات الآن، ولا سحب رغم أن الجو شتاء. طيور النورس تحلق فوق الدبابتين، طيور بيضاء ودباباتان صفراوان وعلمان تبرق ألوانهما البديعة في هذا اليوم الجميل. كل شيء يبدو على ما يرام، الدبابتان تتحركان بين جحافل الناس المجنونين بالفرح. هاهم الحلفاء الروس يأتون. احترقت المدينة لكنهم أتوا. الإنجليز انكمشوا في الأماكن التي احتلوها. لابد أنهم يستعدون الآن للهرب. هكذا يكون الإنذار الروسي. خروشوف رجل شهم. لا تنسى بولجانين صاحب الإنذار. أسماؤهم صعبة يا جدع لكن حلوة. روس. لكن فين روسيا دي يا بوعربي. روسيا؟! تقريبا في روسيا. أي والله. ها ها

ها.الضحكة تملأ الشاشة. كلاكيت آخر مرة. صوت القذيفـة يدوي في الفضاء. لقد تحركت ما سورة مـدفع الدبابـة أولاً ببطء شمالاً ويمينًا. إنها تستعرض البشر انطلاق المدفع ومعه القذائف السريعة من المدافع الرشاشـة. صـراخ. صـراخ. الناس تتكوم فوق بعضها بسرعة الطلقات. الدم يملأ الشاشة. الدم ينفجر في كل مكان. الدم يحفر أنهارا علـى الرمـال. يتلاقى في أكثر من موضع. تتلاقى أيدي القتلى تتماسك على الأرض بين الجثث. الدبابتان انجليزيتان. كلاكيت آخر مـرة للإنسانية. الناس تهرع في الشوارع في ذعر لم تره السـينما من قبل. أقفز أنا على دبابة. أرفع غطاءها. وألقـى داخلهـا قنبلة. تنفجر. يفعل ذلك جندي آخر. تتوقف الدبابتان. لكـن الموت يملأ الأرض بالجثـث والـدم. لا يـزال الصـراخ والعويل. الكاميرا تستعرض وجوه القتلى. كلهم يبتسـمون. كلهم شهداء وفي أفواههم جميعا زهور الياسمين. ليل حزين ينزل على المدينة. اجتماع ليلى لنا مع عـدد مـن رجـال المقاومة. كتاب وصحفيون جاءوا من القاهرة يشاركون فـي المقاومة. بينهم امرأة شابة تحظى باحترامهم. الزميلة أمينة. هكذا ينادونها. فتاة جميلة أخرى وسط رجال المقاومة. الفتاة

تقوم بإغراء ضابط انجليزي وتأتي به إلينا. يمشـي خلفهـا واحد من رجالنا. في زقاق معتم يقتل الإنجليزي.

لا. أشطب هذا المشهد يا محمود. مشهد قديم مـن أفلام قديمة. الزميلة أمينة تطلب توزيع السلاح على النسـاء أيضا. توزع الخناجر والمسدسات على البيوت معنا. الإنجليز والفرنسيون يستغلون حظر التجوال ويصعدون إلى البيـوت ليلاً ليغتصبوا النساء. امرأة تصرخ في الشرفة. خلفها جندي فرنسي يحاول جذبها. تلقى بنفسها من الشرفة. يسمع الـذين فتحوا النوافذ صوت ارتطامها بالأرض. تهتز عدة مـرات. قلبها يخفق من أجل أولادها وزوجها يا محمـود. يـا أيهـا السينمائيون الأغبياء لماذا لم يعجبكم مشروعي، لا يمكن أن يفعل عز الدين ذو الفقار فيلما على هذا المسـتوى. النسـاء يبكين خلف النوافذ. أصوات الرجال مـن بعـض النوافـذ: عاشت مصر. تسقط فرنسا وإنجلترا. تسقط إسرائيل.

النوافذ تتجاوب. الصوت يملأ الليل بالنهار. الليـل يصبح ضوءا أبيض.

الليل أبيض يضيئه صوت الناس. الصوت يطلع من الفم كأنه فتيل شمعة مضيء، تتلاقى الأصوات في الفضـاء

فتائل عديدة، بالآلاف، فتضيء الليل؛ لا يحتاج الأمـر إلـى أكثر من مهندس في الخـدع البصـرية أيهـا السـينمائيون المحترمون! لكن المرأة لا تزال على الأرض. لا يتقدم أحـد لسحبها إلى البيت لدفنها فيما بعد. أحد الشباب يخرج بهـدوء من باب المنزل يحاول اختراق حظر التجوال. يتلفـت فـي حذر يمينًا وشمالاً. يقف قليلاً فوق الرصيف. يعيد التلفـت. ينزل الشارع على مهل. الكاميرا تصور قدميه الواحدة بعـد الأخرى وهي تلتقي بالأرض. الكاميرا تسقط علـى بندقيـة جندي فرنسي خلف أحد السواتر الرملية البعيـدة. البندقيـة تتحرك في اتجاه الشاب. الشاب لا يزال يتلفت حواليه. قطـة تمشي أمامه بهدوء تنونو. يرتفع مواؤها. تبدو كمن أصـابها مس من الجنون. يظهر كلب ضخم قادما من نهاية الشـارع. إنه يطارد القطة التي راحت تجري. قطع على الشاب يقـف مرتبكًا، ثم قطع على فوهة البندقية تخرج منهـا رصاصـة ودخان. صوت الرصاصة يدوي في الصمت. الكاميرا تمشي ببطء. لابد أن المتفرجين الآن يتوقعون رؤية الشـاب ميتًـا، الكاميرا تقف فوق الكلب صريعا يقطر دما. قتـل الجنـدي الفرنسي الكلب. ابتلع الشاب ريقه واستمر في طريقـه إلـى

المرأة. الذعر على وجوه الناس خلـف النوافـذ المفتوحـة. ينحني الشاب الذي وصل إلى المرأة يحملها. يقـف وسـط الشارع يدور بها حول نفسه. الناس خاف النوافـذ تصـفق بجنون. يمشي حزيناً وهو يحملها بين ذراعيـه فـي اتجـاه المنزل الذي سقطت من شرفته. التصفيق لا ينقطع. قطـع. الكاميرا على فوهة البندقية تتحرك في اتجاه الشاب. الشـاب يمشي بهدوء. التصفيق يزداد كلما اقترب من المنزل. مسافة أمتار قليلة لكنها احتاجت إلى وقت طويل. الإحساس بالوقت لا يكون في مشهد كهذا إلا كذلك. وقت طويل لا يمر. يصعد الشاب الرصيف بالمرأة. يصل إلى الباب. تدوي الرصاصة، تصيبه في ظهره. يظهر الألم على وجهه. رصاصة أخرى. لا يترك المرأة. يمشي والتصفيق يزداد. لقد دخل إلى المنزل واختفى وازداد دوي الرصاص المتجه على المنزل. الكاميرا تنزل إلى أسفل من الباب. خيط من الدم يخرج منـه علـى الرصيف ويمشي فوقه على مهل. على مهل. علـى مهـل. كلاكيت آخر مرة يا محمود.لا الإسكندرية ولا القـاهرة ولا الجمهورية العربية المتحدة تصلح لك. لو ذهبت بفيلمك هـذا

إلى هوليوود لاشتروه منك. أجـل. هوليـوود ولا أقـل يـا محمود...

نهض واقفًا في حالة من الحزن الشـفيف. حـزن أقرب إلى الفرح. لا يعرف. خرج دون أن يكلم أحـدا مـن أسرته. سأل نفسه وهو يمر من أمام أبيه هل يعقل أن يظـل حتى هذه السن بلا عمل ثابت. هل يتفق أن يظل حتى هـذه العمر ينتظر ثمن السينمات من أبيه العامل المسكين؟ ما الذي قذف في قلبه حب السينما؟ ملعون أبو السينما. إنه لـم يجـد حتى الآن أية فرصة أبعد من كومبارس وسط المجاميع. هل يكفي كون أمه قد ورثت قيراطين في البلد يصلها عشـرون جنيها ريعا لهما كل عام ليصبح هو من العاطلين بالوراثة؟. لكن ماذا يفعل وقد فشل في كل عمل حاوله منذ أن اشـتغل مع يوسف شاهين في فيلم ابن النيل. منذ ذلك الوقـت وهـو يشعر بنفسه شخصا مختلفًا عن كل الناس. من الذي أتيحـت له أن يحمل شعلة ويجري بها وسط الظلام في الريف ساعة الفيضان مثله؟. يا لها من ليلة تم فيها التصوير. يا لـه مـن مخرج يوسف شاهين هذا الذي جعل ذلك كلـه يظهـر فـي السينما كأنه حدث في وقت واحد!. لن يتنازل محمود ويعمل

أي عمل آخر غير السينما. حتى لو ظل كومبارس، فسـيأتي اليوم الذي يسيطر هو فيه كمخرج على كل هـؤلاء الـذين أهانوه وسخروا منه.

أخذ طريقه إلى دكانة العنيبسي. كان الوقـت بعـد الظهر. نساء كثيرات يخرجن من القبو الآن بعد شراء السمك ويسرعن خوفًا من أن يدركهن الظـلام. محمـود القزعـة مشغول في إعداد صناديق السمك الذي سيشحن إلى المدينـة وتغطيتها بقطع الثلج الذي يقوم بتهشيمه بمطرقة خشبية، معه عماله الثلاثة الذين يقف وسطهم يمسك بيده "السنجة" الحديـد التي يسحب بها ألواح الثلج من الكشك الذي يملكه على رأس السلالم المؤدية إلى القبو ويحتفظ فيه بالثلج. كان الجالسـون الذين تعودوا ذلك كل يوم في مكانهم، بينهم تاجر البهار فـي حالة من الصمت العميق. مرت ثلاث نساء خارجـات مـن القبو صاعدات السلالم ثم أخذن طريقهن إلى اليمين في اتجاه المعدية. كن ملتفات بالملاءات، ويمشين على مهل، ويتمتعن بأرداف عالية ضخمة، عجيزة كل منهن قد انفلقـت فلقتـين عاليتين ترتفع الواحدة وتنخفض الأخرى أثناء المشـي فـي توقيع رتيب ومثير لمحمود القزعة الذي ظلت عيناه معلقتين

بالأرداف الصاعدة الهابطة فاتحا فمه عاجزا عـن التعليـق. انتفض فجأة لأن السيجارة التي بين أصبعيه كانت على وشك الانتهاء فأحرقته. نتر يده نافضا السيجارة بعيدا فضحك تاجر البهار ووقف عدد من العمال ينظرون إليه بدهشـة كـاتمين ضحكاتهم فهتف فيهم محمود القزعة "اشتغل يابن ديك الكلاب أنت وهو" وفوجئ محمود الملاح بتاجر البهار يوسع له مكانًا إلى جواره.

- تعال ياسي محمود، اجلس جواري، شايفك على غير ما يرام.

ما إن جلس محمود الملاح حتى باغته تاجر البهار.

- كم يكفيك لصنع فيلم يا سي محمود؟

ارتعشت شفتا محمود. ارتعشت أرنبة أنفه. أوشـك أن يسب تاجر البهار ظانًا أنه يسخر منه، لكن تاجر البهـار قال في سرعة:

- لا تزعل هكذا. لا تستصغر شأني.

عاد محمود إلى هدوئه وقال:

- أنت رجل طيب يا ....

-فلفل. اسمي فلفل. معقول إنك نسيت اسمي ياسي محمود. أهكذا يا سي محمود. لا تنس اسمي مرة أخرى بالله عليك، أنا أحبك وأحب طموحك. الفلفل أثمن البهارات في الشرق.

بدأ محمود يبتسم واستمر تاجر البهار يتحدث.

- كان لي صديق اسمه "البن". عمل مشكلة مع واحد جاره. أخذوه على قسم البوليس. هل تعرف ماذا فعلوا به؟.

- ضربوه طبعا.

- ياليت. طحنوه!!

ضحك محمود الملاح بشراسة ضحك تاجر البهار. ضحك الرجلان الجالسان لا يعرف أحد عنهما شيئًا. ضحك رجال محمود القزعة الذين لم يسمعوا الحوار! راح محمود القزعة يقاوم الضحك. لم يسمع شيئًا ويرى أن هؤلاء الجالسين بلا عمل يفسدون متعته في الفرجة على النساء.

كانت امرأتان تصعدان السلم، جذبتهما الضحكات، فالتفتتا ناحية تاجر البهار وابتسمتا.

- هيا. تعال معي يا سي محمود. الليلة منجة!

قال ذلك تاجر البهار وهو يقف يشد محمود الملاح من ذراعه فوقف ومشى معه كالمسحور.

- لاتتردد ولا تخذلني. مضـى شـهر الآن وأنـا أراقب هاتين المرأتين في حضورهما. لا يمـر أسـبوع إلا وتأتيان لشراء السمك. تفاهمت عيوننا على كل شيء. إنهمـا كما ترى بطتان حقيقيتان. أنظر إلى ظهر كل منهمـا كيـف أبدع الله في تقسيمه فما بالك لو انفتحت البطن أمامـك؟ ولا هند رستم يا سي محمود.

كانت المرأتان في طريقهما إلى المعديـة وخلفهمـا يسرع محمود الذي أمسك يده تاجر البهار!.

عند الفجر. وبعد أن عـاد محمـود المـلاح إلـى المساكن، لم يكن قادرا على تصديق ما جـرى. لـم يكـن يتصور أن لتاجر البهار هذه القدرة الساحرة على اصـطياد النساء. كان يعرف أن كل الجالسين جوار دكانـة العنيبسـي ضائعون يتحدثون كثيرا عن النساء، وحديثهم ليس إلا مـن قبيل الفشر الذي يلازم الفاشلين. لكن الليلة سقطت امرأتـان معا في فخ تاجر البهار الذي ظل ينصبه طيلة شهر كامل كما قال له. لقد ركبا معهما المعدية فبادرهما تاجر البهار بكلام لا

يذكره محمود، ولن ينسى كيف اتسعت عينا المرأتين بالفرح والدهشة والرغبة معا. لكن محمود كاد يضحك وهو يسمع تاجر البهار يقول لهما "شهر كامل أقول لنفسي يا واد يا فلفل لا تيأس من رحمة ربنا"..

لقد بدا أنهما تآلفا من قبل هذا اللقاء. مشوا جميعا إلى كوم الشقافة ثم عبروا الحي كله إلى شارع الرحمة. ياه. مشوار طويل. دا انتم كنتم اشتريتم سمك من باب عمر باشا أقرب!. ربنا قاسم تيجوا الملاحة ونقابلوكم.. قال تاجر البهار والمرأتان الصغيرتان لم تطلبا منهما نقودا ولا أي شيء آخر. محمود لا يعرف لماذا فكر في ريا وسكنية وهما يمشيان مع المرأتين في الأزقة الضيقة. ابتسم. ريا وسكينة لم تقتلا الرجال. دخلوا جميعا منزلا صغيرا منخفضا ظن محمود أنه جحر للأرانب لا أكثر. لكن في الداخل كانت هناك ثلاث غرف واسعة. انفرد هو بالأصغر في غرفة وانفرد تاجر البهار بالأكبر في غرفة ثانية، وكان محمود يسمع أصوات لهاث في الغرفة الثالثة التي رآها مغلقة الباب بقفل كبير فخاف أن يسأل وترك نفسه للمرأة الصغيرة المدهشة.

لقد أعطاه تاجر البهار شيئًا ملفوفًا في ورقة سيلوفان قبل أن يدخل بالمرأة الغرفة.

- ما هذا. بونبوني؟

- تركيبة سرية ستجعلك ترى ما لـم تـره فـي حياتك.

أخذها محمود مترددا. شجعته المرأة.

- خذها يا سي محمود، صاحبك عطار!

استحلبها محمود كما قال له فلفل، وشـرب بعـدها فنجانًا من القهوة المحوجة كما قال له فلفل أيضا، وصـار لا يسمع صوت السرير القديم وهو يئن من أثر الحركـة، بـل يسمع صوت البيت كله يئن، سـلالمه وجدرانـه ونوافـذه. وخشى أن تسمع البيوت الأخرى أنين البيت فتئن كل بيـوت الحي تعاطفًا ومشاركة للبيت في أنينه فيتجمع الناس ويـرون ما يفعلون وتكون فضيحة!. انتهى لكنه ظل منتعظـًا. كـرر النوم سبع مرات حتى ضجت المرأة وتعبت وكادت تمـوت بين يديه. رأى وجهها بالفعل يشحب وتزرق بشرتها فـارتفع عنها. خاف حقا أن تموت بين يديه وخرج مع تاجر البهـار

يمشيان منتعظين في الطريق الخالي بعـد منتصـف الليـل ويضحكان غير مصدقين.

- هل عرفت عنوان البيت؟

تساءل تاجر البهار فرد محمود..

- لا. هل عرفت أنت اسم المرأتين؟
- لا. لكنهما ستأتيان إلى الملاحة دائما..
- شيء عجيب.

قالا ذلك معا وعادا يضحكان وهما يمشـيان فـي المدينة الصامتة. اقتربا من جامع العمري ورأيا عـددا مـن الناس يتجهون إلى صلاة الفجر. قبل أن يتجه محمـود إلـى شارع عمود السواري داخلاً على كرموز قال.

- متى سينتهي أثر هذه التركيبة السحرية.
- لا أعرف.
- لا تعرف؟؟. هل سنظل هكذا أيضا بالنهار؟

ضحك تاجر البهار الذي لم يكن يعرف أن أثر هذه التركيبة سوف يمتد طويلاً هكذا. لقد اختلت منه المقادير فيما يبدو مع أنه يحفظ عن ظهر قلب كل وصفات كتاب"رجـوع الشيخ إلى صباه".

تركه محمود ومشى وحده منتعظًا في الشارع الطويل الذي تضيئه مصابيح البلدية العالية. على يساره سور المدافن وعلى يمينه المنازل البيضاء المنخفضة ومحلات القماش. معظمها محلات لبيع الأكفان وبعد أن اقترب من "سوق عداية" رأى سيارة شرطة..

لابد أنها حملة قوية على تجار المخدرات. تأكد أنه يحمل بطاقته الشخصية. لكن... ماذا يحدث لو شاهد الضابط إيره المنتعظ في البنطلون. مد يده داخل البنطلون محاولا وضعه بطريقة تقلل من ظهوره لكنه أخفق. ترك الأمر للحظ. وكان حظه هذه الليلة مختلفًا عن حظه في الحياة فلم يوقفه أحد من رجال البوليس ووصل على كوبري كرموز بسرعة. عبره وأخذ طريقه إلى المساكن. كان يسمع صوت صلاة الفجر لا يدري من أين يأتي. ولدهشته وجد سليمان جالسا على مقعد خيزران أمام المساكن. لماذا يسهر سليمان حتى هذا الوقت؟ لابد أن لديه ما يؤرقه. سيلقى عليه التحية ولا يتوقف. لا. لا يليق. لابد أن يتحدث.

- صباح الخير يا سليمان.
- صباح الخير يا أبو حنفي.

- هل تعرف ماذا حدث في بورسعيد يا سليمان؟

اندهش سليمان جدا. قبل أن يجيب قال محمود:

- انتصرنا على الدول الثلاث: إنجلترا وفرنسا وإسرائيل. كنسناهم.

لا. أكثر من هذا...

وقال الكلمة القبيحة وهو يشير على ذكره المنتعظ لا يزال...

## (٥)

لم يصدق سليمان وهو يمسك بالمظروف بين يديه أن العالم يمكن أن يكون صغيرا إلى هذا الحد، طيبا إلى هذا الحد.. رحيما..

ما المسافة بين مصر واستراليا؟. هي المسافة بين استراليا ومصر!. هي الذاكرة تنتصب في بئر النسيان. قالت إن الخطابات ستنقطع بين مصر وأوربا أو على الأقل ستراقب. لم ينتبه أحد إلى استراليا. البيروقراطية المصرية أحيانًا تكون مفيدة، أو لعل في الأمر خطأ ما، إهمالاً ما..

عزيزي سليمان:

مضى أكثر من عام لم تغب فيه عن ذاكرتي. لا يبدو أننا سنعود إلى مصر أبدا. أرسل لك هذا الخطاب ولا أعرف هل سيصلك أم لا. إذا وصلك سوف أكون محظوظة؛ لأنه سيؤكد لك أنني لم أنسك. أتمنى أن تكون قد التحقت بالجامعة، بالكلية التي تريدها. ليتك تقلع عن دراسة العلوم، وتلتحق بكلية للدراسات الإنسانية. هذا يقترب جدا من ميولك الأدبية. مصر بلد جميل لا يمكن أن أنساه. الإسكندرية أجمل مدينة في الدنيا. هكذا يقول لي أبي دائما واشعر أن ما يقوله

هو الصواب. لقد تزوجت من دبلوماسي نابه. أنـه يجلـس جواري وأنا أكتب لك هذا الخطاب. نحن في اسـتراليا الآن. إنه يندهش جدا أن لي صديقًا في مصر. يتصور أن مصـر بلد للتماسيح تسبح في النيل. مسكين لم يزر بلادكـم. إننـي أتابع أخباركم.

يحزنني جدا أن عـددا مـن الأجانـب، الطليـان واليونان، بدأوا يتركون الإسـكندرية. سياسـة التمصـير لا تعجبني. إن عبد الناصر زعيم وطني كبير ومخلص ما فـي ذلك شك، لكن بلادكم لا يمكن أن تعيش معزولة عن العـالم. موقعها وتاريخها. أنا أعرف أنكم تريدون أن تمسكوا ثرواتكم بأيديكم، لكن لابد من طريقة صحيحة.. طريقـة لا تسـبب الإزعاج لجيرانكم في أوربا التي هي الأقرب إليكم.. كـذلك أقرأ عن الوحدة التي تمت بين مصر وسوريا. هذا أمر مهم وخطير.

لو توصل العرب إلى نوع من الاتحاد، مثل الاتحاد الأميركي، أو البريطاني، سيكون مفيدا. لكن... على أية حال ننتظر الزمن. المهم أن تنتبه أنت لموهبتـك وتسـتمر فـي الاطلاع على الثقافات المختلفة، وإذا فكرت يوما في السـفر

إلى انجلترا أو إلينا هنا في اســتراليا فيمكننــي مســاعدتك كثيرا..

المخلصة

جين بانكروفت

لم ألتحق بالكلية التي أريدها يا جين. لقد تم تسريب الامتحانات قبل موعدها هذا العام. اكتشفت الدولة ذلك فـتم تأجيل الامتحانات لمدة شهر.

في ذلك الشهر أصابني رمد خبيث لم يعطني فرصة المراجعة. لكني لم أتخاف عن الامتحـان. صـممت علـى النجاح. تم توفير لجنة خاصة لي وتخصيص شخص يكتـب ما أمليه عليه من إجابات، في منتصف الامتحـان أصـابتني حمى لعينة فكان أخوتي يحملونني كل صـباح ملفوفًـا فـي بطانية صوف رغم الحر داخل تاكسي حتى لجنة الامتحـان. كان واضحا أن الرجل الذي أمليه لم يعد يكتب؛ لأنني كنـت أخرف بأي شيء، بل بأشياء غريبة لا علاقة لها بـالعلم ولا بمناهج الدرس.

هكذا قال لي مراقب اللجنة وهو يسـوق الأعـذار للرجل الذي تم تخصيصه ليكتب لي. كنت على يقين أنني لا

أخرف وإنما هو الرجل المخصص للكتابة يكتب غيـر مـا أمليه عليه. هكذا أحكمت المؤامرة ضدي من القدر والنـاس فرسبت. هذه هي المسألة ببساطة يا جين. هل أكتـب إليـك ذلك. ماذا يفيد؟

كنت بدأت أنسى، وأسلى الوقـت الجميـل الـذي أمضيته معك. أحاديثك الرائعة عن د.هـ. لورانس الذي لـم أكن تعرفت عليه. كيف حقا لم تقرأ د. هـ. لورانس؟ أحـب الوجوديين الفرنسيين. وهل الجنس ليس حالة وجودية؟ أنـا لست ضد التفسير الجنسي للحياة، لكن يبدو أنني لم أنتبه إلى أهمية ذلك. ألم يسبق لك الحب يا سليمان؟ للأسف لا. لماذا؟ لا أعرف. هذا سؤال لم يخطر ببالي. ربما انغماسـي فـي القراءة. الحب يحتاج إلى وقت. هي القراءة يا سليمان حقـا، لابد أنك أحببت قصص المحبين. هو كذلك بالضبط، تضحك وتلمع عيناها وتهز رأسها فيمرح شعرها فـي كـل اتجـاه. أحببت رواية آلة الزمن جدا، إنها أيضا أقرب إلى مشاعرك الوجودية. ربما.. من الصعب جدا أن يجد الإنسان نفسه في عصر آخر وبين ناس آخرين.. شـعور بالغربـة عميـق، والدهشة أيضا. أصعب منه أن يكون كذلك في عصره وبين

أهله. أفكارك تميل إلى التشاؤم يا سليمان. ربما هـو عمـى الكاتب الفاشل الذي ترك البلاد بحثًـا عـن سـراب اسـمه الإمبراطورية المصرية في أفريقيا. يا إلهي يا عزيزتي جين. لقد أيقظت في الحياة.. إنني عاكف علـى كتابـة مسـودات روايتي الكبيرة عن الإسكندرية التي تحبينها. أجمع لها المادة من الصحف. مادة عشوائية لكنها تعكس روح العصر. فمثلاً أهتم جدا بخبر مثل احتفال جريس كيلي بعيد المـيلاد الأول لطفلتها كارولين، وبالرقصة الجديدة التي أطلقت عليها نعيمة عاكف اسم "حسن" في فيلمها الجديد "أحبك يا حسن" كـذلك بازدياد المبيعات من الملابس الداخلية ماركة النبلة للجنسين، وبعرض سينما ريالتو بشارع صفية زغلول لفـيلم "الأميـر والراقصة" لمارلين مونرو ولورانس أوليفييه، وظهور أعظم فيلم سينمائي مصري بعنوان رد قلبي بـالألوان الطبيعيـة، وكيف قتلت سيارة الرفق بالحيوان طفلاً في محرم بك حـين انفصل الجرار عن السيارة وصعد على الرصيف فقتل الطفل وأصاب أربعة من المارة، وكيـف بلغـت أسـعار الـذهب أربعمائة وستين قرشًا للجنيه عيار أربعة وعشرين قيراطـًا، وحادث التسمم الفظيع لسكان القاهرة بسبب الخبز والـتحفظ

على الدقيق المستخدم وفتح جميع المستشـفيات العسـكرية للمصابين، وطلب إمام اليمن الانضمام إلى الوحدة بين مصر وسوريا، ولقد شاهدت فيلم "ستشرق الشمس أيضا" المـأخوذ عن رواية هيمنجواي البديعة التي أحبها جدا والتي مثلت فيه أفاجاردنر مع تايرون باور. لقـد عرضـته سـينما متـرو بالإسكندرية وكلفني الفـيلم ربـع جنيـه كـاملاً، التـذكرة والمواصلات والكوكاكولا التي شربتها وسندويشات السـجق التي اشتريتها من المحل اليوناني المقابل للسينما وسيجارتين وينجز لزوم المنظرة أمام السينما، وتلميع الحذاء في محـل لأول مرة في حياتي أنا الذي أفعل ذلك دائماً بنفسي، وشراء مجلة "آخر ساعة" في عودتي بالليل وجلوسي عند بائع البليلة بالمكسرات الشهير في أول شارع عمر بن الخطـاب مـن ناحية محطة مصر! إيزنهاور يجري عاريا بـين الولايـات الأمريكية. وأسجل من أجل هذه الرواية التي أخطط لها كيف رأى مجلس الدولة أن رقصة الروك آند رول هـي رقصـة خليعة وجنس صاخب، ذلك أن محافظة القاهرة كانـت قـد طلبت من المجلس الفصل في إباحة هذه الرقصة من عدمـه في الملاهي، وجاء في مذكرة المحافظة، تمثل هذه الرقصـة

كأنما يستولي الرجل بقوته على المـرأة بضـعفها فيحملهـا ويدور بها وهي مستسلمة له خاضـعة لإرادتـه ولا يـزال يسيطر عليها بقوته حتى تتهالك بـين يديـه وتبـدي مـن الأصوات والحركات ما يشعره باستسلامها إليـه، وعنـدما تصل المرأة إلى هذه الحالة تكون حركاتها قد كشـفت عـن ساقيها - وتفاصيل دقيقة في كلام المحافظـة لـم تـذكرها الصحف- ويتجمع من ذلك لدى النظارة فكـرة الاستسـلام الواقعي من المرأة إلى الرجل، ولا يمكن القـول بـأن كـل المتفرجين قد استعد حياؤهم لتقبل هذا التعبير الملتوي عـن الصلة الجنسية بين الرجل والمرأة، حتى لو لم يكن في هـذا العمل جريمة من الناحية القانونية فلا أقل من اعتباره مغايرا لتقاليدنا وما يتمسك به ذوو الأخلاق من مقـاييس اجتماعيـة للأدب بعامة. وقد جاء في فتوى مجلس الدولة أنه تلاحظ أن هذه الرقصة لا يقوم بها المحترفون فحسب، بل يشاركهم فيها رواد الملاهي، الأمر الذي يستدعي سـرعة إيجـاد عـلاج للحيلولة دون التردي في مهاوي الفسق الذي قد تدفع إليه هذه الرقصة، ولما كان موضوع هذه الرقصة يقوم علـى فكـرة التعبير الملتوي عن اللذة الجنسية بين الرجل والمرأة، وإنهـا

تدفع إلى استثمار الغرائز البهيمية؛ لذا نرى أنه يجب على الإدارة أن تمنع هذه الرقصة بالطريق الإداري حرصا على الآداب العامة، في الوقت نفسه بدأ عرض فيلم الملاك الصغير للممثلة الجديدة الجميلة ذات العينين الفاتنتين زبيدة ثروت، واشتعلت الأزمة على الحدود بين مصر والسودان في الجنوب، وارتطمت طائرة مصر للطيران القادمة من بيروت بتل من الرمال جوار المهبط فاشتعلت فيها النيران، ولحسن الحظ ساعدت الرمال على إطفاء الحريق، لكن مساعد الطيار فتح نافذة الهبوط الاضطراري وقذف بنفسه منها فجذبه الهواء نحو محرك الطائرة الذي كان لا يزال دائرا فقضى عليه في الحال بينما نجا جميع الركاب وبقية الملاحين، وهاجمت قوات من البوليس السري الأميركي في ولاية فيلادلفيا دارين للعرض السينمائي تعرضان فيلم "وخلق الله المرأة" لبريجيت باردو لما تضمنه من مشاهد خليعة.

ولا أنسى يا جين أن أسجل أحوالنا هنا. فلقد مر بالمنطقة مجنون جديد طويل جدا حتى يظنه المرء يمشي على شجرتين وليس ساقين. إنه يأتي من ناحية كرموز - عكس مجنون الغناء الذي عادة يأتي من ناحية كفر عشري -

ويمشي على مهل على الأرض الترابية للشاطئ ولا يمشـي في الشارع الأسفلتي أبداً ولا يظهر أكثر من يوم واحد فـي الأسبوع، ويمشي عاريا تماما، على عكس مجنـون الغنـاء الذي يرتدي جلبابا نظيفًا ولو كان ممزقًا من الخلف بسـبب الاحتكاك بالجدران وصار يظهر كثيرا. المجنون الجديـد لا يعترضه أحد أبدا، ولا يحتج على عريه، وحين يقترب مـن المساكن يتخلى عن بطء حركته ويسرع جاريا كالريح فـلا يكون هناك من سبيل للأولاد لإيقافه ولا يقذفونه بالحجـارة كما يتوقع منهم في مثل هذه الحالات، ولا يعرف أحد السبب في توقفهم عن متابعته في كل مرة، لكنه قبل أن يسرع جاريا يكون قد فرد علما إنجليزيا صغيرا يحمله عادة مطويا علـى عصا قصيرة ويجري رافعا العصا والعلـم، ولقـد سـميناه مجنون العلم. يقول محمود الملاح إنه كان لدينا مجنون واحد هو مجنون الغناء الذي كان في الأصل عصفورا ثم سـخطه الله ليكون بني آدم لذلك يحن للغناء، والآن صار لدينا مجنون آخر قادم من الحرب العالمية الثانية، من معركـة العلمـين بالتحديد، يتصور أن الإنجليز لا يزالـون ينتصـرون فـي الحروب ولا يعرف أننا نكحناهم فـي بورسـعيد!! معـذرة

ياجين!! تشرشل العجوز جالس فوق ضفدعة فوق ساعة بيج بن. وظهر عامل جديد في محل العنيبسي اســمه مرعــي، أحول، أو أعور، على عينه الشمال نقطة بيضــاء والســلام فيبدو دائما كأنما في كدر أو غضب حتى وهو يضــحك، لا يمر يوم إلا والعنيبسي ينهره ويزجره ويسبه؛ لأنه ما إن تبدأ الإذاعة في بث أغنية أم كلثوم في الساعة الرابعــة عصــرا حتى يترك كل عمل في يده، وأكثر ما يكون إعجابــه بــأم كلثوم وهي تغني رباعيات الخيام رغم أن مرعــى هــذا لا يعرف القراءة ولا الكتابة ولا يفهم معاني الرباعيــات. أمــا تاجر البهار فقد اختفى هذه الأيام بسبب وصفة جديدة صنعها لمحمود القزعة. من قبل قدم له وصفة جعلته ينتعظ لعدة أيام حتى كاد يفقد صوابه خوفًا وخجلاً. هذه المرة قال لــه إنهــا وصفة عادية ستنفعه لمدة ســاعة لا أكثــر إلا أن محمــود القزعة جاء في اليوم الثالث شاهرا سيفًا قــديما يحــتفظ بــه عنده، وحافيا على غير العادة - قال فيما بعد إنــه تعمــد أن يكون حافيا حتى يلحق بتاجر البهار إذا فكر وجرى أمامه - وسأل أين ابن ديك الكلاب الجبان فلفل مطحون؟ لكن فلفل لم يظهر ذلك اليوم ولا يزال رغم مضي شــهر كامــل علــى

الواقعة. ماذا جرى يا معلم محمود، والمعلم محمود القزعة لا يتكلم ويقسم أن يقطع فلفل مطحون إربا إربا ويرميه للقطـط الضالة بدلاً من السمك.

تسببت الوصفة في ارتخاء القزعة الذي ظل يجاهد يومين كاملين وينتظر مفعولها، والآن جاء في اليوم الثالـث ليقتل تاجر البهار خاصة أن الانكماش الذي أصـابه يـزداد ساعة بعد ساعة وهو كلما تبول مد يده يبحث عـن حيوانـه فيجده قد تراجع إلى الخلف كثيرا حتى صار الرأس لصـق البطن، ابن ديك الكلب الجبان تاجر البهار، يشـتم القزعـة ويضرب رأسه بيده، ولا يعرف ماذا سـيحدث غـدا وأيـن سيذهب الرأس بعد ذلك وهل يمكن أن يختفـي ذكـره إلـى الأبد؟.

قال ذلك في ثورة غضبه، وكان أولى به أن يداري بلواه كما رأى العنيبسي، ولا يعرف أحد مـا الـذي جعـل مرعى، العامل الجديد الأعور عند العنيبسي، يقول إنه سـمع أن رجلاً دخل المستشفى الأميري منذ أسـابيع تـم تحويلـه بعملية جراحية إلى امرأة، وأن هذا الرجل كان قد لاحـظ أن

ذكره يتراجع إلى الخلف يوما بعد يوم.. تماما يا معلم محمود مثل حالتك وربنا يستر!!

كان مرعي يتحدث جادا محاولاً تنبيه القزعة للخطر وللبحث عن تاجر البهار فلفل مطحون الذي يمكن أن يقدم له وصفة جديدة مضادة تنقذه، أو على الأقل يعرض نفسه على طبيب قبل أن يتفاقم الأمر، لكن القزعة كان آخر من يمكـن أن يفهم هذا القصد لمرعي. قفز ومسك بخناقه، ورغم طول مرعي، إلا أنه فوجئ تماما وشُلت حركتـه، وراح القزعـة يكيل له اللكمات في وجهه واستطاع أن يتعلق في رقبته بيديه ويسقطه على الأرض، ثم جرى يمسك بالسيف الذي كان قد ركنه على جدار كشك الثلج وعاد ليهوي به على مرعى..

لكن ذلك لم يحدث. وقف خلق كثيـرون بينهمـا لا يعرف أحد من أين ظهروا، توسط هـؤلاء الخلـق جميعـا، حبشى وأولاده الصغار الذين عجز الناس عن إحصائهم. هز حبشي رأسه وطوح شعر رأسه الناعم يمينًا ويسارا ثم هتف:

- علي الطلاق من بدرة لأكون قاتلـك يـا معلـم محمود لو لمست هذا الرجل المسكين، هـل لأنـه وحـداني تفتري عليه؟ هل لأنه فقير؟

جن جنون محمود القزعة فهجم بالسيف على حبشي الذي انحنى بسرعة حاملاً القزعة على ظهره ملقيا به خلفـه على الأرض كجوال فـارغ. صـفق الأولاد جميعـا. أولاد حبشي وأولاد المساكن. ووقفنا جميعا نتفرج علـى القزعـة الذي جلس على الأرض مكسور الخاطر والسيف ساقط بعيدا عنه وعن حبشي الذي وقف غاضبا يقول:

- تريد تغلبني يا قزعة؟ تغلب طـرزان! عمـرك شفت طرزان انهزم في السينما؟

وهز رأسه ومشى على الكشك وأولاده حوله عـراة إلا من سراويل قديمة أو شورتات ممزقة ثم قفز الجميع فـي الترعة يسبحون، هو وهم خلفه بنات وصبيان. ليس في هـذا الصيف جديد، غير رسوبي الذي حدثتك عنه يا جين، ونجاح خير الدين وحصوله على الدبلوم التجاري وبدء بحثه عـن عمل، ونجاح نسيم في التوجيهية والتحاقه بمعهد زراعي في بلدة تسمى مشتهر قرب بلدة أكبر تسمى طوخ. أسماء جديدة تدخل حياتنا هنا. لقد أقمنـا لنسـيم احتفـالاً كبيـرا علـى المحمودية، سهرنا معه الليلة الأخيرة بالصيف قبل سفره لبدء الدراسة. قال إنه بعد أن ينتهي من سنوات المعهد سيسـافر

إلى كندا في هجرة نهائية. الهجرة هي حلم حياته الآن. وفي الإسكندرية ليس هناك من جديد أسجله لك، وللرواية التي أجهز لها، غير هذه المشاريع الكبرى التي تجري بسرعة لشق طريق كبير من محطة الركاب بالميناء إلى ميدان المنشية، هذا الطريق الذي أطلق عليه شارع النصر، والذي يتم بناؤه على الطراز الأميركي. تلك العمارات العالية المستقيمة الصامتة الواجهات بلا حليات أو كرانيش أو زخرفة مما يتناقض مع جمال العمارة الكلاسيكية الأقرب إلى الباروك، بميدان المنشية.

كذلك يجري العمل بسرعة لشق طريق سريع واسع فوق ترعة الفرخة يحمل اسم طريق قناة السويس يبدأ من الشاطبي وينتهي عند كوبري محرم بك، وتقيم المحافظة على الضفة الشرقية منه مساكن شعبية بينما على الضفة الغربية العمارات القديمة لحي الرصافة الجميل، كما تتم في الإسكندرية الآن إزالة تلال كوم الدكة وفتح طريق صفية زغلول ليصل امتداده إلى محطة سكك حديد مصر. إنهم يتحدثون عن آثار يونانية أو رومانية ستظهر تحت التلال. وأنا لم أعد قادرا على المشي في محطة الرمل أو المنشية

كثيرا كما كنت أفعل من قبل إذ أتذكرك دائما ويأخذني الأسى من كل جانب، ففكرت في أن أساعد نفسي على النسيان، لا تؤاخذيني، وكلما ذهبت إلى ميدان المنشية، لا أجد فيه الضوء القديم الغامر، ولا الاتساع الكبير. المحلات معظمها مغلق معظم الوقت، والصيارفة ينكمشون على أقصى مدى، ويزداد الأولاد جامعي أعقاب السجائر ويقل باعة الفل والياسمين والمحلات الأجنبية في شارع شريف تتحول واحدة بعد الأخرى على محلات قماش أو أحذية مصرية وتفقد للأسف كثيرا من نظافتها وبهجتها، أقول للأسف لأننا كنا جديرين بما هو أجمل من ذلك. لقد أخذنا ما نريد واسترحنا، أو اعتبرنا ذلك هو الهدف في ذاته. ليتك ما صحبتيني للمحلات الأجنبية بهذا الشارع حتى لا أدرك الفرق. لكن لعل ذلك يكون مؤقتًا. المؤسف أن كل الناس في المدينة تتحدث عن الإهمال والقذارة التي تصيب المحلات التي تركها الأجانب للمصريين، بمن فيهم المصريون أنفسهم الذين يديرون هذه المحلات!؟

عزيزتي جين: لقد لاحظنا غياب الديب، فعلى طول الصيف لم نلمحه عائدا من أسفاره. يبدو أنه صار يخبئ نفسه

عنا، ولم يعد يسعدنا بحكاياته الخرافية. طبعا أنت لا تعرفين الديب وأنا لم أحدثك عنه... وأعلنت الصحف عن حضـور المخرج الإيطالي السندريني جوفريدو لإخراج أوبرا عايـدة على سفح أبي الهول، والسندريني هو زوج الممثلة المشهورة آنا مانياني وهو مولود في مصر في العمـارة رقـم أربعـة بميدان التوفيقية، ومعنى اسمه بالإيطالية "أمان الله السكندري" هكذا كتبت الصحف وأنا للأسف لا أعرف الإيطالية لاستوثق من ذلك، لإلسندريني عمارة يملكها في شـارع المرعشـلي بالزمالك كتبها باسم زوجته السابقة أنامانياني التي لا يستطيع أن يطلقها؛ لأنه تزوجها زواجا كاثوليكيا. المدهش أنه تزوج من امرأة أخرى وله منها بنتان. والأكثر إدهاشًا هو أن أنـا مانياني بدورها من مواليد الإسكندرية وأبوها مصري ولقـد فازت بالأوسكار هذا العام، كما لابد أنك تعرفين، عن دورها في فيلم "وشم الوردة" التي مثلته مـع بيـرت فنكسـتر ذي الابتسامة العريضة التي تغيظ! مارلون براندو يخلع سـروال جيمس دين!.

كما ترين يا جين لا أتوقف كثيرا عند السياسة، تلك العاهرة التي أبعدتك عني. ربما أسجلها، لكني لا أحـب أن

أذكرها الآن وأنا أتحدث إليك. ويستهويني الخبر العجيب عن استعداد أهالي البحرين لاستقبال أحد مواطنيهم بعـد أن فُقـد ثلاثًا وثلاثين سنة. إنه ناصر بن علي بن عمران، هذا اسمه، خرج يوما لصيد اللؤلؤ عام ١٩٢٥ ولم يعد. لم يفكر أحد أبدا أنه قد يكون على قيد الحياة بعد أن خـرج الصـيادون فـي رحلات كثيرة يبحثون عنه إلى أن تلقى عمدة بلدته، واسمها السر، وفيها من اسمها سر، تلقى برقيـة مـن أحـد زوارق الصيد تعلن أنه تم العثور على الحاج ناصر في إحدى الجزر الصغيرة المهجورة حيث كان يعيش على الأعشاب والأسماك التي يصيدها بشبكة صنعها من الأعشاب. بالضبط كما كـان يفعل روبنسون كروزو في الرواية الشهيرة. تم العثور عليه عاريا يغطي جسمه كله شعره الطويل من رأسه حتى قدميه. قال إنه طوال هذه السنين كان يرى السفن لكنه لم يستطع أن يلفت انتباهها إليه! أي عذاب هذا الذي عاشه الحاج ناصـر كما أطلقوا عليه. يرى السفن أكثر من ثلاثين سنة ولا تلتفت إليه.

يا للمأساة التي كتب على الإنسان أن يعيشها على الأرض. إن سوء التفاهم الذي يسود بين البشر، والوجود ذاته، ثم عدم الالتفات هذا، أقسى ما يدمر حياة البشرية.

هي أقانيم القسوة غير المبررة. وأنا على يقين من اكتشافي لأقانيم جديدة للعذاب البشري. لا تؤاخذيني ياجين. إنني مندهش من مضي الحياة، فهناك كل يوم جديد. ففي السينما المصرية تم اكتشاف وجهين جديدين في قمة الجمال، نادية لطفي وليلى طاهر، وبدأ العمل في تصوير فيلم جميلة بو حريد بإخراج يوسف شاهين الذي كان وراء حب محمود الملاح للسينما ومأساته أيضا، ونشرت الصحف أول صورة لزعماء الثورة الجزائرية في اجتماع سري بالجبال بعد إعلان الحكومة المؤقتة. إنهم يحاربون فرنسا التي حاربتنا لأننا دعمناهم. يا لها من لعبة. وإليزابيث تايلور أرملة هوليود تعود إلى سرقة الأزواج، فلقد سرقت زوج ديبي رينولدز التي بكت وقالت إن ليز سرقت قلبها، وردت ليز، طبعا، قائلة أن زوج ديبي هو الذي سرق قلبها فماذا تفعل. ليز لم تتجاوز السادسة والعشرين وتزوجت ثلاث مرات حتى الآن. وشادية تلتقى مع طليقها عماد حمدي لأول مرة بعد

الطلاق في فيلم ارحم حبي، وزوجها الجديد يمنعها فتطالب الطلاق وتصر على الفيلم!. هذا الحب للحياة يحيرني يا جين، لعلني المخطئ. لقد حزنت جدا لوفاة تايرون باور الذي شاهدت له منذ أشهر فيلم الشمس تشرق أيضا كما قلت لك، والذي أعشق فيلمه القديم "دماء ورمال"، وأتوقف عن ذلك التسجيل الذي يبدو أنه لن ينتهي يا جين. إنني على يقين أنه سيعطي الرواية التي أخطط لها طعما جديدا.. يا إلهي لقد كتبت ذلك كله بالعربية. هل أترجمه الآن إلى الإنجليزية، وأية رسالة هذه التي ستصل إلى استراليا في كل هذه الصفحات، ومن يضمن لي أن جهة أمنية ما، لن تفتح الخطاب، وتقرأه، وتعتبر كل ما كتبته معلومات خطيرة، ما كان يجب أن أفضي بها لفتاة أجنبية يعمل أبوها في الخارجية الإنجليزية؟ وابتسم من هذه العبارات العجيبة التي تتسال منه وتتناثر وسط الكلام ولا يعرف معنى لها.

نحن نقترب من نهاية العام الميلادي الآن. سيكون مناسبا أن أرسل لجين كارتًا به صورة للإسكندرية وعليه تهنئة بمناسبة العام الجديد. لاشك أن الوقت الذي سيستغرقه سفر الكارت سيكون طويلاً وسيصل قريبا من نهاية العام

وليس في الكارت من ضرر. أما آخر ما أسـجله الآن فهـو أنني بالليل أمس كنت جالسا وحدي على رصيف الشارع كما تعودت عند فجر كل ليلة، عادة واظبت عليها منذ بداية هـذا الصيف. ساعة من الصفاء نادرة تشبعني بالمشاعر وتهديني إلى أفكار جديدة لروايتي. كنت أفكر تلك الليلة في أمر خير الدين الذي أصابه فجأة سعال شديد لعدة أيام احتاج بعده إلى الانتقال إلى مستشفى الصدر بكوم الشقافة لتظهـر الحقيقـة المؤلمة. خير الدين مصاب بالسل. كـان خيـر الـدين قـد صارحني بحبه المكتوم للجوني التي يجلس بالنهار دائما عند الماكينة الحمراء منتظرا صعودها على السطح ليراها. فقـط ليراها. وحدثني عن رغبته بعد العمل أن يتقدم لخطبتها.

لم يحصل خير الدين على عمل بعـد وسـقط فـي المرض اللعين. كنت أفكر في هذه المفارقات التي لا تنتهـي للحياة العجيبة التي يتصارع من أجلها الناس وبينما أنا جالس شاهدت عربة تاكسي تقف أمام باب المساكن وينـزل منهـا لطفي السائح، ليس على عكازين هذه المرة، فقد شفيت ساقاه، ولكن بدا واضحا أن ذراعه اليسرى قد وضعت في الجـبس

وإلا ما هذا البياض الذي يشق الظلام حول ذراعه المعلقة إلى صدره؟

( ٦ )

منذ بداية العام الدراسي، وكروان كلما توافر لديه قرش صاغ اشترى الجورنال، الآن هو تلميذ في مدرسة طاهر بك الإعدادية بالورديان، يقطع المسافة القديمة بين السكك الحديدية حتى يصل إلى القباري، ومن هناك يستقل الترام حتى المدرسة. يمشي وحده الآن في الذهاب وفي الإياب. عيد انقطعت علاقته بالتعليم تماما، مصطفى الذي كان يسبقه بعامين التحق بمدرسة كوم الشقافة الإعدادية، عبده انقطع عن التعليم والتحق بشركة ستيا بالحضرة عاملاً على ماكينة نسيج. إبراهيم بلك الذي نجح في امتحانات القبول للمرحلة الإعدادية مثله، لم يوافق على الانضمام لمدرسة طاهر بك.. اختار مدرسة كوم الشقافة الإعدادية التي سبقه إليها مصطفى، وفعل ذلك أيضا "زبيبة" أخو مصطفى. كروان لا يضايقه أن يذهب وحده إلى المدرسة. لقد لاحظ أنه

يمشي مستمتعا فوق "رصيف الباشا" الذي تأتي إليه البضـائع وتحت ظلام السقف الجمالوني. هذا الاتساع في الكون يجعله يفكر في أشياء كثيرة جميلة، وكثيرا ما كان يراجع مادة اللغة الإنجليزية وهو في الطريق ويضحك؛ لأنه دائما يردد ما جاء في درس الحريق "رجال الحريق يضـعون السـلالم علـى الحائط ويصعدون عليها لإطفاء الحريق" يكرر هذه العبـارة ويحفظها عن ظهر قلب، وكلما ابتعد عنها عاد إليهـا وهـو مندهش من ذلك، ولم تنجح الدروس الأخرى التي يراجعهـا في الطريق أن تنسيه العودة إلى هذه العبارة العجيبة..

في المدرسة الإعدادية الكبيرة الواسعة استمع لأول مرة إلى خطب سياسية في طابور الصباح من مدرسي اللغة العربية. يشجعون كل يوم شـعب الجزائـر فـي ثورتـه، ويهاجمون النظام الحاكم في العراق. بل لقد خرج لأول مرة في مظاهرة كبيرة قادتها مدرسة الورديان الثانوية ومشت في شارع المكس تنضم إليها كل المدارس، والمعهد الديني الذي كان طلابه مميزين بين المتظاهرين بالجبة والقفطان والعمـة والطربوش الصغير، ومن شارع المكس انحدروا إلى شارع السبع بنات ثم المنشية وهم ينددون بالاسـتعمار البلجيكـي

ويحيون لومومبا. المدرسة الإعدادية جعلت العالم أكثر اتساعا بالنسبة لكروان، خاصة أن هناك حصتين دراسيتين مخصصتين للقراءة الحرة. يدخل مكتبة المدرسة ويتركه المدرس يختار الكتب التي يميل إليها. انجذب كروان نحو قراءة الروايات. كثيرا ما كان يستمع إلى عازف الربابة الجوال الذي يأتي إلى المساكن بين الحين والحين. ثم إنه يحب السينما، ويحب القصص العجيبة للأفلام، وينتظر مع الأولاد عودة الديب ليحكي لهم حكاية جديدة.. كان طبيعيا بعد ذلك أن يشتري كروان الجورنال كلما توفر معه قرش صاغ.

كل يوم تقريبا تكون هناك حصة خالية غاب عنها مدرسها. يتجمع التلاميذ حوله يقرأون معه الجورنال. أثناء الدرس لا يستطيع كروان أن يمنع نفسه عن فتح الدرج والنظر إلى الجريدة ليقرأ جملة أو جملتين، يرفع طرف الصفحة التي تقابله ويقرأ ما يظهر في الصفحة التي تعلوها. هكذا دون ترتيب وكيفما اتفق. اليوم رفع طرف الصفحة فقرأ "انتقل إلى الأمجاد السماوية المقدس بشارة غطاس منقريوس ويقام القداس بكنيسة المرعشلي بالزمالك". "الذكرى السنوية

لشهيد الشباب على على على من أعيان نجع حماد" ترك الجريدة للحظات وانتبه إلى درس اللغة العربية. بعد لحظات عاد إلى الجريدة. أخذته أصابعه إلى صفحة الوفيات مرة ثانية. كان قد لمح صورة لامرأة جميلة ويريد أن يعرف هل ماتت هي الأخرى. تسمرت عيناه على الصورة الجميلة "بنتي جلفدان، اختطفك الموت في ريعان الشباب ولن ننساك أبدا. لعل الله يعوضك بعريس من الجنة. أمك وأبوك وأخواتك شهرت ورجاء وثروت".

أغلق الدرج ولم يعد قادرا على الانتباه لدرس اللغة العربية اليوم. أحس بحزن حقيقي من أجل صاحبة الصورة. أحس أنه يعرفها وتعرفه. عاد إليها من جديد يتأملها في دهشة وعدم تصديق.وجهها مضيء وعيناها جميلتان. إنها فتاة حية وليست أبدا ميتة.. ولمح السطر الذي فوقه الصورة بقليل وقرأه. أخذته عيناه إليه. انتقل إلى رحمة الله على زين العابدين وستشيع الجنازة اليوم من جامع كخيا بعد صلاة الظهر. تغمد الله الفقيد برحمته ومنح أهله الصبر والسلوان..

عاد يقرأ الخبر مرة إثر مرة. الدم يرتفع إلى وجهه وتحمر عيناه إذ تصعد إليها دمـوع حارقـة لا يسـتطيع أن يقاومها.. ثم.. انفجر بالبكاء..

- ما لك يا إسماعيل؟

في المدرسة لا يعرفون اسم كروان الذي لقبه الناس به في المساكن. لم يستطع أن يتوقف عن البكاء. راح ينشج بصوت جريح بعد أن أخرج الجريدة من الدرج وأشار إلـى زميله وإلى الخبر. زميله هو الولـد عيسـى الـذي يحـب الموسيقى ويعزف على العود في فريق الموسيقى. قرأ عيسى الخبر ورأى الدموع في عيني إسماعيل فطفرت الدموع مـن عينيه أيضا. كان المدرس يكتب على السـبورة، وشـعر أن شيئًا غير طبيعي يحدث خلفه فلم يهتم حتـى ازداد صـوت البكاء فالتفت إليهم مندهشًا.

- مالك يا ولد أنت وهو؟

كان التلاميذ في الفصل كله ينظرون إلـى كـروان وعيسى متأثرين. تماسك عيسى وقال وهـو ينشـج نشـيجا متقطعا.

- إسماعيل يا أستاذ أبوه مات.

اتسعت عينا المدرس من الدهشة. سكت لحظة ثـم قال:

- مات؟.طيب لماذا حضرت اليوم يا إسماعيل؟
- لم أكن أعرف.

ارتبك المدرس، وبدت الدهشة على وجوه التلاميـذ جميعا.

- طيب هل أتى أحد وأخبرك بذلك؟

أشار عيسى إلى الجريدة التي وضعها الآن فـوق التختة وقال:

- مكتوب في الجورنال، في صفحة الميتين!.
- ناولني الجريدة.

قال المدرس، فانتقلت الجريدة من يد إلـى أخـرى حتى وصلت إلى يد المدرس الذي تأمل الخبر وابتسم.

- قم يا إسماعيل واغسل وشك أبوك لا مـات ولا حاجة.

رد عيسى بلهفة:

- كيف يا أستاذ. اسمه في الجورنال؟

راح التلاميذ يرددون نظراتهم بين المدرس وكروان وعيسى غير فاهمين ومرتبكين. قال المدرس:

- متى رأيت أباك آخر مرة يا إسماعيل؟
- اليوم صباحا.
- هذا الجورنال الذي يصلكم في الإسكندرية في الصباح يطبع ويوزع في القاهرة بالليل. إذن الجورنال صدر وأنتم تأكلون أرزا مع الملايكة. يعني الجورنال صدر وأبوك نايم يا إسماعيل.

بدأ كروان يشعر بشيء من الطمأنينة، وبدأت عيون التلاميذ تتسع بالابتهاج ثم تساءل المدرس.

- ماذا يعمل أبوك يا كروان؟
- عامل في السكة الحديد.
- طيب يا كروان بذمتك هل هناك عامل في السكة الحديد يستطيع أهله دفع ثمن إعلان عن وفاته في الجورنال. الإعلان هذا اسمه نعي والسطر فيه بجنيه كامل في جريدة الأهرام هذه. يعني النعي بمرتب أبيك كله.

ضحك الأولاد بصوت عال وضحك كروان لكن عيسى قال:

- طيب والاسم المكتوب يا أستاذ؟

على الفور قال المدرس:

- تشابه أسماء يا حمار. ثم إن الجنـازة سـتخرج اليوم من جامع كخيا، وجامع كخيا هذا في القاهرة. ثم أنت يا عيسى لماذا تبكي؟ إسماعيل يبكي أباه وأنت لماذا تبكي حقا. مشاركة؟ أم لأنك موسيقار حساس فاكر نفسك عبـد الحلـيم حافظ؟..

ازداد ضحك الأولاد وضحك عيسى والمدرس الذي قال:

- علي أية حال هذه فرصة أكلمكم فيها اليوم عـن الصحافة ومهنة الصحافة، من يدري ربما يصـبح أحـدكم صحفيا يوما ما..

إلى أية بحار مسحورة أخذهم هذا المدرس العجيب. قصير لكن معلوماته غزيرة جدا، فقير لكن هندامه نظيـف، يلقى بالمعلومات المهمة فيجعلها كالطعام الشهي لا يريـدون أن ينتهوا منه أبدا.

جعل زمن الحصة يمر كأنه ثانيـة.. لـم يشـعروا بالأسف أبدا على انتهاء الدرس كما حدث اليوم. اكتشفوا أن

للصحافة تاريخًا من النضال الوطني والإصلاح الاجتماعي، واستمعوا إلى كلمات جديدة لن تزول من عقولهم الخضراء!، وعرفوا أسماء رجال ونساء عظام مثل رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك ولطفي السيد وقاسم أمين ومصطفى كامل وسلامة موسى وطه حسين والعقاد ومصطفى أمين وعلي أمين وخالد محمد خالد ومحمد زكي عبد القادر وهدى شعراوي وروز اليوسف وفاطمة رشدي، وعرفوا أسماء صحف لم يعرفوا بها من قبل مثل المسامير والمنار والمقطم وكوكب الشرق والفجر الجديد والبعكوكة والزمان والأهالي، واستمعوا إلى قصص وحكايات ونوادر من حياة الصحفيين والممثلين والحكام، ومن أسماهم المدرس نجوم المجتمع. ثم فجأة توقف المدرس وقال "مشكلة جرائد اليوم إنها كلها تتحدث بصوت واحد وعلى لحن واحد وبعازف واحد، فهي جرائد لا لون ولا طعم لها ولا رائحة وأفضل صفحاتها هي صفحة الوفيات".

التلاميذ الذين لم يفهموا معنى هذا الكلام ضحكوا متأثرين بحماس المدرس الذي حين جمع أوراقه وخرج اشتاقوا إليه، وكأنه كان يعرف، التفت إليهم وقال، الحصة

القادمة نكمل الدرس وغمز لهم بعينه وتركهم سعداء. أحـب كروان القراءة وكان طبيعيا أن ينجذب إلى سليمان الذي يذيع صيته في المساكن كقارئ ومثقف. رأى معه سـليمان مـرة كتابا؛ فسأله عن عنوانه. قال كروان:

- إنها مسرحية الملك الضليل لمحمود تيمور.

- ها.إنها عن امريء القيس أشهر شعراء العرب.

وقف كروان مرتبكًا. إنه لم يقرأ المسرحية بعد. قال سليمان:

- أنها مأساة حقيقية. الشاعر الغريب في القبيلـة، المهمش، والهامشي، اللاهي، العابث، الذي يموت غريبا كما كان دائما.

ظل كروان واقفًا وقد ازداد ارتباكه. قال سليمان:

- مادمت تحب القراءة فابحث عن المعنى العميق لما تقرأ، إن لم تستطع الآن ففيما بعد يا كروان.

شيئًا فشيئًا لم يعد أحد يرى كروان فـي الشـارع. ربما يوم الخميس فقط والجمعة. اندهشت أمـه وأبـوه مـن اعتكافه في البيت دائما للقراءة، لكنهما وجدا ذلك أفضل مـن الشارع، وبلغ من تركيزه على القراءة أنه صار يقرأ وسـط

البنات وهن جالسات حول أمه في المساء يتحدثن ويستمعن للراديو أو يغنين. كان الحديث في الأيام الأخيرة كله عن خير الدين، الأسمر الجميل، الذي أصابه السل فجأة. لقد راحت الجوني في هزال يوما بعد يوم. لا تأكل وبالكاد تشرب، حزنًا على خير الدين. الجميع يعرفون إنه يحبها في صمت، لكن أحدا لم يقل إنها تحبه.

منذ أيام وقبل وصول البنات كلهن سمعها تقول لأمه:

- هل سيشفى يا أبلتي؟.
- طبعا يا جوني، وغيره شفى.
- أمي تقول إنه لن يشفى. وإذا شفي هذه المرة سيعود المرض إليه. أمي تقول إنه نوع غريب من السل ينتقل بالوراثة. سل عائلي. وتقول إن أخواله ماتوا جميعا بالسل.
- ....
- ساعديني يا أبلتي، أنا أحب خير الدين.

أمه لم ترد. نظرت إليه هو وقالت:

- كروان. إياك كلمة مما سمعته تقولها لأحد.

الجوني تحت وطأة الحزن لم تفكـر فـي وجـود كروان. لحسن الحظ لم يغب خير الدين أكثر مـن أسـبوع. حالته بسيطة يمكن شفاؤها. هكذا قيل. عادت الجـوني إلـى الأكل بشراهة. ظهرت على السطح أكثر من مرة في اليـوم الواحد، خير الدين صار في الصباح يصـعد إلـى السـطح يتأملها من بعيد وفي العصر يجلس جوار الماكينة الحمـراء ينتظر صعودها ويبتسم لها وتبتسم هي أيضا، لكـن الأولاد صاروا يبتعدون عن خير الدين. السل مرض معـد. هكـذا عرف الجميع. لم يعد يقترب منه غير سـليمان وكـروان.. خير الدين بدوره صار يبتعد عن الكبار والصغار معا.

خير الدين من هواة السينما الكبار، لكنه منذ صغره لا يتردد على السينمات الشعبية، يدخر من مصروفه ليـدخل سينمات الدرجة الثانية. سينما ركس أو كونكورديا أو الشرق بالمنشية أو سينما لاهمبرا أو بارك أو ماجيستيك أو ريتز في محطة الرمل. كذلك سينما فؤاد وسينما بلازا بشارع فـؤاد. راح يرشد كروان إلى الأفلام الجميلة منذ أن رآه يقرأ رواية الوسادة الخالية "لإحسان عبد القدوس". قال لـه إن قصـص إحسان عبد القدوس كلها تتحول إلى أفلام، وكذلك قصـص

معظم الكتاب الكبار. وقال له إن معظم الأفلام الأجنبية أيضا أصلها قصص عظيمة مثل "ذهب مع الريح". يعني تستطيع أن تعرف من أفيش الفيلم، أو المقدمة السينمائية، اسم الرواية وتبحث عنها وتقرؤها فتكون قرأت أحسن القصص العالمية..

وجدها كروان فكرة ممتازة، فاندفع يشاهد الأفلام الأجنبية ويبحث عن ترجمات للروايات، وكثيرا ما وفق في الوصول إلى الروايات المترجمة. قرأ وداعا للسلاح ولمن تدق الأجراس لهمنجواي بعد أنه شاهد الفيلمين. وقرأ ديفيد كوبرفيلد كذلك. كان يتمنى لو عثر على رواية موبي ديك بعد أن شاهد الفيلم لكنه لم يجد ترجمة لها، وهو لا يستطيع أن يقرأ بالإنجليزية جيدا، فهو من الجيل الذي دخل المدرسة بعد الثورة مع سياسة التعريب التي جعلت اللغة الإنجليزية لغة ثانوية. سيجعل من أهدافه فيما بعد تعلم الإنجليزية.. فاجأه خير الدين بدعوته للذهاب معه للفرجة على فيلم دراكيولا المعروض بسينما محرم بك والذي تتحدث عنه الإسكندرية كلها كفيلم للرعب أصاب أكثر من شخص بأزمة قلبية.

- المهم يا كروان في هذا الفيلم أن تمسك أعصابك.

طوال الفيلم كان كلاهما يحبس أنفاسه. انتهى الفيلم وأضيئت السينما فرأى كلاهما الآخر شاحب الوجه من الفزع. خرجا إلى الشارع المضاء كمن يخرج إلى الدنيا من قبو عميق. أطلق كروان ضحكة في الفضاء، كذلك فعل خير الدين ذو الصوت الأجش القوي، أسرعا بالمشي إلى محطة مصر.

- لابد من طبق بليلة بعد هذا الرعب.

قال خير الدين، فابتسم كروان وهما يسرعان..

جوار عربة البليلة البيضاء، وفي الزقاق الصغير من أول شارع عمر بن الخطاب من ناحية المحطة، جلسا وسط عدد من الشباب أمام المناضد الصغيرة فوقها أطباق البليلة يصعد بخارها إلى وجهيهما حاملا معه رائحة السكر والذبيب واللوز والفستق والبندق وجوز الهند والسمن البلدي. قال خير الدين إنه اليوم أسعد واحد في الدنيا لأنه تسلم خطابا بالعمل في شركة الحديد والصلب بحلوان، وأنه حزين لاضطراره لمغادرة الإسكندرية لكنه سيعود دائما في

الأجازات، ومن يدري قد تفتح الشـركة فرعـا لهـا فـي الإسكندرية يوما ما. إنه يعرف أن حلوان بعيدة، لكن جوهـا جاف ومناسب جدا لصحته، ثم إن بها آبارا للمياه الكبريتيـة تعالج من أمراض كثيرة. ثم سكت قليلاً وقال:

- هل تظن يا كروان أن الجوني توافق تتزوجني..

كان كروان لا يزال في دهشة من فكرة عمل خيـر الدين في بلد بعيد عن الإسكندرية ففاجأه خير الدين بالسؤال، وهو سؤال كبير بالنسبة لكروان، ففيه يعترف له خير الـدين بحبه الجوني، وهذا يعني أنه يعتبره على الأقل صديقًا وفيا. تردد كروان الذي لم يجد إجابة بسرعة فقال خير الدين:

- منذ صغري وأنا أحب الجوني. حب أفلاطـوني والله يا كروان. تصدق أنه جاءتني فرص كتير أبوسها ولـم أفعل. عارف يا كروان الجوني بالنسبة لي مثـل الشـمس. الدنيا تنور ليس لما تطلع الشمس في الصباح، لا، لكن لمـا الجوني تطلع على السطح. ويا سلام يا كروان لما الجـوني تطلع على السطح بعد انقطاع المطر، تشعر وأنت جالس عند الماكينة الحمراء بالدفء. لا تشعر ببرد أبدا. نظرة منها في الشتاء تخليك دفيان، ونظرة في الصيف تصبح كأنك شـربت

سطل خروب كاملاً من عند باب شرق، الجوني يا كـروان هي البلسم. تعرف لماذا أنا شفيت بسرعة. لأني أحبها. الحب نجاني من المرض. الحب قال لي قم يـاخير الـدين أقهـر المرض وتزوج الجوني. والجوني صوتها جميل. طبعا أنت عارف أكتر مني لأنك جارها. البحة التي في صوتها شـيء نادر في الستات ويا سلام لو شفتها وهي زعلانة، تصـعب عليك يا كروان وتحس إنك لازم تكسر الدنيا حتى تسـعدها. تعرف يا كروان أني لما أشوفها أشعر بأن لا أنـا ولا هـي مكاننا على الأرض. أجل. الجوني لازم يكون مكانهـا فـي السما مع الملائكة وأنا معاها. ياسلام. الحب فعلاً جميل يـا كروان..

كان كروان يستمع إليه بأدب جم، وبدهشة بالغـة. للحظة رأى دراكيولا يقفز في الظلام فاتحا شفتيه مبديا نابيه المخضبين بالدم، إلا أنه بسرعة طرد هذه الصورة العجيبـة التي لا محل لها أمام كلام خير الدين.

- لم تجب عن سؤالي. هل توافق الجـوني علـى الزواج مني؟.

اندفع كروان يقول:

- طبعا.إنها أيضا تحبك. سمعتها تقول لأمي ذلك..

عض شفته السفلى. لقد أفشى سرا وعـد أمـه ألا يفشيه. أدرك خير الدين ورطته فقال وقد غمرته السعادة:

- لا تتضايق. كأنك لم تقل شيئًا لي. أنـا أيضـا أعترف لك بحبي لأني أعرف أنك رجل. يقول لي سـليمان أنك تقرأ كتبا مهمة. هذا يعني أنك عاقل عن الآخـرين. ثـم دعني أفشي لك سرا آخر. إبراهيم مرسي يحب نادية سلام.. أجل. لا تندهش. إبراهيم نفسه حـدثني بـذلك حـين جـاء يزورني بالمستشفى. قـال إن دخـولي المستشـفى عطـل لقاءاتهما.

هل تعرف أين كانا يتقابلان؟ أمام حديقة المستشفى. إنه المكان الآمن؛ لأن أحدا من المساكن لن يزور أحدا مـن المرضى. إبراهيم مرسي طول عمره لئيم - كـان كـروان يضحك غير مصدق - وأنا وعدت إبراهيم ألا أفشي سـره، ولا شك أنك ستفعل ذلك أيضا. لكن أنا عنـدي إحسـاس إن قصة إبراهيم ونادية ستفشل.

- لماذا؟

- لا أعرف. ربما لأن أهل نادية صعايدة وأهـل إبراهيم فلاحين، ربما لأن إبراهيم نفسه غير واضح.

- لقد وجد عملاً بكفر الزيات.

- أجل. بالدبلوم مثلي تماما. كان معي ثلاثة أعوام في مدرسة تجارة محرم بك وأعرفه جيدا. يحـب مصـلحته فقط.

- أقصد إن العمل قد يسهل له الزواج.

- طبعا. مرتب تسعة جنيهات ليس بالقليل. أكثـر من مرتب أب أي واحد فينا.

فكر كروان قليلاً ثم قال:

- صحيح..

قال خير الدين:

- أنت والدك شاطر يعمل بالتجارة ويكسب لكـن الباقين ميزيرابل!

- نعم؟!

- ميزيرابل، بؤساء يعني. ألم تشاهد فيلم البؤساء؟

- ولا مرة.

- إذا عرض مرة أخرى في أية سينما لا تجعلـه يفوتك. رواية مشهورة أيضا لازم تقرؤها، وممثـل الفـيلم رهيب اسمه جان جابان -وضحك خير الدين - ويقوم بدور البطل الهارب من السجن الذي اسمه جان فالجان.

بدا كروان مرتبكًا لا يدري ماذا يقصد بالضبط.

- يبدو أن اسم جان منتشر في فرنسا.

سكتنا لحظات طويلة. كانا قد انتهيا من أكل البليلـة الساخنة الحلوة وقال خير الدين:

- أنا مندهش من المنطقة التي نعيش فيها. كلنا فينا شيء غير طبيعي. مجانين مثل عيد أو عندنا أحلام لا تتحقق مثل محمود الملاح وسليمان أو غامضين مثـل العربـي أو معرضين للآلام مثل لطفي السائح.

كذلك الناس الذين يـأتون يجلسـون عنـد دكانـة العنيبسي لا تعرف من أين يأتون، يخيل إلي إننا نعيش فـي مركز الأرض، ويأتي الصباح فنخرج كالنمل إلى كل جهة ثم نعود بالليل. العجيب أننا بمجرد عودتنا إلى المساكن لا نفكر أبدا أن هناك دنيا أخرى أبعد.

لم يجد كروان شيئًا يقوله. نهضا ليعودا مشيا. طوال الطريق كان صوت أم كلثوم يسري في الليل مجروحا حزينًا وهي تردد:

سـ ـ ـ ـهران لوحـ ـ ـ ـ ـدي
أنـ ـاجي طيفـ ـك السـ ـاجي
سـ ــابح فـ ــي وجـ ــدي
ودمعي على الخـ ـدود سـ ـاري

العجيب أنه لم يكن هناك مقهى واحد سـهران فـي الطريق أو دكان، لكن الصوت كان يمشي معهما باستمرار..

( ٧ )

من جديد عاد إبراهيم مرسي ونادية سلام إلى اللقاء في الحديقة أمام مستشفى الصدر. أخبرهـا إبـراهيم بعملـه الجديد كمحاسب بشركة الزيوت والصابون بكفـر الزيـات. كانت تعرف. لقد انتشر الخبر في المساكن. لكن وجهها كان

أصفر شاحبا، قال إنه لم يجد عملاً في الإسكندرية، قد يجد عملاً مستقبلاً. وإنه ليس الوحيد الذي فشل في أن يجد عملاً في الإسكندرية، خير الدين أيضا لم يجد عملاً إلا في حلوان.

شركة الزيوت لها فرع بالإسكندرية قد ينجح أن ينتقل إليه بعد عام. ثم أن المسافة من الإسكندرية حتى كفر الزيات ليست بعيدة. كفر الزيات أقرب من حلوان. نصف المسافة تقريبا. القطار يحمله في ساعة ونصف إلى عمله. القطار العادي، القشاش، وليس الاكسبريس. يذهب ويعود كل يوم ولا يحتاج للبقاء في كفر الزيات مثلما يحتاج خير الدين للبقاء في حلوان. ثم إن ذلك أيضا لا يكلفه شيئًا، فالشركة تدفع قيمة الاشتراك السنوي في القطار. الأمور إذن تمضي كلها بشكل طيب.

- إذن لماذا لا تتقدم لخطبتي؟ متى نعلن حبنا على الناس؟

أرادت أن تقول متى يمشيان في مناطق أكثر نظافة وهواء أكثر نقاء بعيدا عن هذه المنطقة القريبة من المرضى.

- أحتاج أن أدخر شيئًا من المال. لقد وجدت عملاً وهذه هي البداية، لن نتأخر يا نادية، لا تقلقي.

- لكن خير الدين سيتقدم على الجوني قريبا وليس معه شيء. كل الناس الآن تعرف حب خير الدين للجوني.

- أنا لست مثل خير الدين.

- أنت تخفى عني شيئًا يا إبراهيم..

كانت تفكر في شخصيته التي يشوبها كثير من التردد والخوف. كثيرا ما يبدو مضطربا يتلفت حوله في الطريق. دائما لا يشارك الشباب ولا الصبية في أي لعب. لم تره مرة جالسا مع من هم في مثل عمره مثل خير الدين وسليمان ونسيم، ولا مع من هم أكبر منه مثل العربي أو محمود الملاح أو رشاد قبل أن يتزوج من فاطمة، كما لم تره جالسا مع من هم أصغر منه مثل كروان أو مصطفى أو بلك أو عبده. إنه لا يجلس مع أحد. يمشي دائما يتلفت كهارب من شيء. يلقى التحية مسرعا ولا ينتظر حتى الرد عليها. وجهه دائما أصفر بلا سبب.

- أمي بدأت تلاحظ الأمر. ترتاب في خروجي المتكرر. في صعودي على السطح بسبب وبلا سبب. أخاف أن تصعد خلفي مرة فتراني أكلمك أو تمشي ورائي مرة فترانا هنا. وأنا لا أستطيع أن أحافظ على سرنا أكثر من

ذلك. أحتاج إلى أن أعلن حبنا، أحتاج أن أفرح. أخـاف أن يتقدم لي أحد من أبناء عمي في الصعيد. ساعتها ولا كلمـة. سيحملونني إلى الحر والذباب والفقـر، إلـى بيـت ملـيء بالأطفال والنساء والرجال. سأموت يا إبراهيم.

لم يستطع أن يصارحها بأنه تحدث مع أهله بالفعـل في أمر خطبته لها. لقد رفض أبوه وأمه. لا قبل لهما بعائلـة نادية. كيف؟ الأفضل أن تتزوج فتاة فلاحة من بلدنا. بنـات العائلة كثير وأهل بحري طيبون منكسرون، أمـا الصـعايدة فشيء آخر، أهل الجنوب قلوبهم صخر. لكني أحـب ناديـة وسوف أتزوج نادية وليس أهلها. نادية جميلة حقا. طيبة حقا. تبدو أحيانًا عبيطة من فرط الطيبة، لكن الإنسان لا يسـتطيع أن يعيش مع زوجته ويقاطع أهلها. أخو نادية، سلامة، شرس ومجرم لا يعرف أحد له عملاً، يخرج في الصباح الباكر ولا يعود إلا في منتصف الليل. له علاقات مشبوهة مـع تجـار المخدرات بجبل ناعسة بكرموز. يجلس طول النهار بمقهـى سلامة الغلق. صحيح أن أحدا لم يتأكد من ذلك، لكن لا دخان دون نار..

لم ييأس إبراهيم. قال إنه يحتاج لبعض الوقت فقـد يلين والديه، خاصة حين يجدونه قد ادخر ما يكفي للـزواج. كيف يشرح لنادية ذلك. لابد أنها تفقد فيـه الثقـة الآن. لـو حزنت نادية سيصبح الثور نفسه أمامها مثل دجاجة صغيرة!! ووجد نفسه يسألها:

- لو فرضنا أنني تقدمت إليك يا ناديـة ورفـض أهلك؟

- سأشرب دي.دي.تي.

- ولو فرض أن أهلي لم يوافقوا؟

نظرت إليه صامتة. بدا أنها فهمت المغـزى مـن السؤال. عيناها قالتا ذلك. يا لحماقته.

أمسك بيدها وهو يرى وجهها يكاد يشتعل بـالتوتر والضيق. قال مبتسما:

- ساعتها سأشرب أنا الدي. دي.تي.

لكنها لم تبتسم. فكرت في حوادث الانتحار بالـدي. دي.تي التي كثرت في الإسكندرية. حوادث أغلب ضـحاياها فتيات فشلن في الحب وأكرهن على الزواج، ونساء تـركهن الرجال مع أطفالهن يعانين البؤس والفقر وذهبوا يبحثون عن

نزواتهم. لكن الحادثة التي روعت المدينة كانت انتحار الولد والبنت من راغب. لقد رفض أهل كل منهما زواجهما بعـد قصة حب عنيفة. جاء الخبر أن الولد انتحر بتنـاول مائـة برشامة ريفو، فخرجت البنت جارية من البيـت وأمـام أول ترام قادمة من سيدي كريم ألقت بنفسـها تحـت عجلاتهـا. مزقتها الترام التي حين توقفت كانت قد عبرتها. رآها الناس، جسدا ممزقًا يرتعش علـى الأرض. صـرخوا، صـرخت الفتيات والنساء على الرصيفين. أغمى على أكثرهن، وفـي الشرفات لم ينقطع العويل، من بعيد كان يأتي جاريا، الولـد، الذي قيل إنه انتحر. لم يكن انتحر ولا يعرف أحد من الـذي سرب للبنت الإشاعة.

واحد من أهلها، قيل ذلك فيما بعد!. واحد غبي أراد لها أن تنساه فقرر أن يفجعها فيه. واحد لا دين ولا رحمـة عنده ولا أخلاق. واحد قاسي القلب جبان. هكذا قال النـاس في المدينة بعد ذلك. أتى الولد مسرعا ووقف أمـام البنـت مذهولاً تسقط دموعه كالمطر. لم يكن أحـد مـن الـواقفين يعرف أنه حبيبها الذي انتحرت من أجله. فقط حين صرخت فيه أمها "أنت السبب" وتعلقت بصدره تكيل لـه الضـربات.

فقط لحظتها عرف الناس أن البنت كانت تحبه. والأم التـي كانت تضرب بكفيها صدره انهارت على الأرض. انسـحب الولد صاعدا العمارة التي خلفه مباشرة. لم يكن أحـد واقفًـا بالسلم ليسأله إلى أين يصعد. الجميع يقفون بالشرفات. لو أن شخصا واحدا قابله على السلم ما استطاع الولد الصعود إلى السطح الذي وقف عليه وسمع الناس صوته وهـو يصـرخ كطائر خرافي "سناء سناء" وجروا إلى كل ناحية لأنه كـان يهوي إلى الأرض. اهتز رجفتين وسكت إلى الأبـد. صـار الشارع كله جنازا ولا يعرف أحد كيف انصرف الناس بعـد ذلك. لقد تصالحت العائلتان ودفن الولد والبنت في قبر واحد. كانت جنازتهما فرحا حقيقيا تسبقها الموسيقى والورود، وحين واروهما القبر انطلقت الزغاريد من عشرات النساء ووزعوا على المعزين الشربات والملبس والبسطة وأحضروا مأذونًـا عقد قرانهما وكان أب الولد وكيلاً له وأب البنت وكيلاً لهـا، ولما عرف المأذون أن الولد والبنت قد انتحرا انسحب بعد أن دعا للجميع بالصبر والرحمة، ولملم أوراقـه ومشـى غيـر مصدق. يا للإسكندرية ولأهل الإسكندرية المجانين.

كانت نادية تبكي وتهتز ولا تستطيع أن تسيطر على نفسها. اندهش إبراهيم وارتبك وتلعثم في الكلام.

- لا تقلقي يا نادية. أرجوك. قريبا جـدا سأحسـم الموقف. أجل. لابد أن تثقي بي.

بدا جادا، ونجح في إخراجهـا مـن حالـة البكـاء المفاجئ هذه. كان هو قد قرر لو فشل في إقناع أهله تمامـا أن يهرب بها. لكن هل توافقه هي على ذلـك؟ لـم يشـأ أن يسألها. ليؤجل ذلك. ليحدثها عن أي شيء آخر لـيس غيـر القطار العجيب الذي يستقله كل يوم إلى كفر الزيات. حكايات ومشاهد، يمكن أن تدهشها، أن تجذبها بعيدا عن هذا الحـزن المباغت.... "القطار الذي أركبه يا نادية كل يـوم غريـب وعجيب، ولا ألف ليلة وليلة. زحام من ناس فقراء متعبـين، وجوههم ممصوصة، ذقونهم في العادة غير محلوقة، عيونهم بعيدة داخل رءوسهم غائرة بشكل غريب، مليئة بالعمـاص، حمراء وحولها ورم خفيف. وكمية العاهات التي بين النـاس يندر أن يراها أي شخص حتى ولو في مستشفى للمعـوقين. ناس كتع وعور وعرجان وبرصان. أي والله يـا ناديـة... كانت هي تود لو تصرخ فيه أن يكف. كادت تتناثر قطعا من

الضيق. ضربت الأرض بقدميها، وهو لا يزال يتكلم غيـر منتبه لحالتها. شردت عنه وتركته يتكلم في الفضاء. فكـرت في الفيلم الجديد لعبد الحليم حافظ. فيلم حكاية حـب، الـذي تعرضه سينما ركس. لقد أخذتها نوال سرا إليه. شاهدته يوم الأربعاء الماضي في حفلة السـاعة الواحـدة ظهـرا التـي تخصصها السينما للنساء فقط كل أسبوع، رأت الإسعاف تقف أمام باب السينما لتحمل الفتيات والنساء اللاتي يغشى عليهن. لقد تم عرض الفيلم لأول مرة منذ شهرين بسـينما فريـال. كانت الإسعاف تقف هناك تنقل النساء والفتيات إلى مستشفى الأميري القريبة. نوال قالت إن قسم الاستقبال كان يسـتقبل على الأقل عشرين حالة كل يوم من جميع الحفلات. أكثـر الإغماءات تكون عندما يقف عبد الحليم يغني أغنيـة نـار. كذلك حين يعرف أنه مصاب بمرض خطير سوف يميته بعد عام واحد. لكن حين يغني عبد الحليم "في يوم. في شهر. في سنة" قبل نهاية الفيلم لا يستطيع أحد السيطرة على الفتيـات المغمى عليهن. لقد شاهدت نادية الفيلم ولم يغم عليها، لكنها بكت بشدة، ورأت المناديل البيضاء تتحرك في الظلام أمـام كل النساء والفتيات. لقد تحولت السينما إلى مناحة وهو يغني

الأغنية الأخيرة. وشاهدت عمال السينما يجرون في الظلام بأكثر من فتاة حامليها إلى الإسعاف. وإبراهيم لا يزال يتكلم عن هؤلاء الناس الذين بينهم أكبر نسبة من العور، ومن العميان الذين عادة تسحبهم صبايا جميلات فقيرات وفي كل محطة يصعد بشر غريب وينزل بشر عجيب، أما عدد الشحاذين فلا يمحكن حصره، وكلهم ذوو عاهات، عددهم من الضخامة إلى درجة أن الواحد يتصور أنه هو الوحيد السليم في هذا القطار، بل في الشعب المصري كله. واحد مجبس ذراعه وآخر مجبس رجله، وثالث مجبس صدره كله أو عنقه، وغيره رابط رأسه بشاش مغموس بدم وكلهم نصابون والناس تعرف ذلك، لكنهم يعطفون عليهم بمليم أو نكلة أو حتى "برونزه" ونادرا ما يدفع أحد قرش تعريفة كاملاً. أغرب واحد ِشفته رجل ثبت في صدره بطرمان به مياه ويخرج من غطائه خرطوم رفيع يصل إلى فتحة أنف الرجل الذي كلما تنفس تحرك الماء. الرجل يمشي في اتجاه ثابت لا يلتفت ولا يتحرك يمينًا أو يسارا حيث إن هناك جبسا حول عنقه. لا أحد يعرف حكاية البطرمان والتنفس من خلال المياه هذه لكنه رجل شاحب الوجه مريض بحق يكاد يكون

جلدا على عظم، وفي حزام بنطلونه ثبت حصالة من الصفيح يضع له الناس فيها الفلوس... وكانت نادية تفكر كيف حقا لا توجد بنت سعيدة في المساكن. شوقية التي تزوجت تاجرا حملها إلى كفر الدوار تأتي الأخبار بأنه يضربها كل يوم هو وأهله وتغضب عند أمها أكثر الوقت، لكن أباها يعيدها إلى زوجها صابرا يقول ليس في سلو بلادنا بنات تغضب وتترك بيتها!، وأبلة نرجس في نار لا تخمد من أجل ابنتها المرحة الجميلة التي لم تعد تعرف المرح ولا يشفع لها الولد الجميل الذي أسمته باسم جده على، عند زوجها وأهله. وحكمت المسكينة جاءت لأول مرة منذ أسبوع تزور أهلها. رآها الناس تنزل من سيارة بيضاء كبيرة ودخلت المساكن تسبقها زفة من الأطفال راحت توزع عليهم البونبوني وتضحك. بعض النساء اللاتي رأينها تحسرن على شبابها، وبعضهن بكين بالفعل. أتت في المساء عند أبلة نرجس. دخلت من الباب وألقت بنفسها في حضن الأبلة. رأيناها وتأكدنا مما سمعناه في الصباح عند دخولها المساكن. سامحيني يا أبلتي. سامحيني. كانت تقول ذلك لأبلة نرجس وتبكي ولا تزال في حضنها بينما رأينا نحن كيف شحبت البنت الجميلة وغارت

عيناها وذبلتا، وكيف طال أنفها الصغير الجميل مـن فـرط النحافة التي أصابت وجهها، وأعجب ما رأينا هذا الانتفـاخ تحت جفنيها السفليين، وهذه الهالة السوداء حـول عينيهـا. وأخرجت حكمت من شنطتها جلد الثعبان منـديلاً حريريـا ملونًا فخرجت علينا معه رائحة بارفان آسر وراحت تمسـح دموعها. أنت بنتي يا حكمت كيف أزعـل منـك، وعـلام أسامحك؟.

واستدارت حكمت إلـيهن. سـامحيني يـا نـوال. سامحيني يا نادية. سامحيني يا جـوني. سـامحوني كلكـم. شوقية كيف حالها، أسمع أخبارا سـيئة.. كيـف تعـرفين؟. أخوتي يعرفون من الناس. لا شيء يمكن إخفاؤه هنا. قالـت أبلة نرجس وهي تعض شفتها أسفًا. ودخلت حسنة فزغردت. تعلقت بها حكمت وتعلقت هي بها. وأخبـار بدريـة. هـل صحيح سافرت ليبيا. وأنت يا حسنة متى يأتيك ابن الحلال؟. يبدو أن أبناء الحلال انتهوا من الإسكندرية. يضحكن ثم لـو كان الزواج سيجعلني مثلك يا حكمت أو مثـل شـوقية فـلا داعي أبدا. يتذكرن مشيرة. لا تزال على أمـل فـي عـودة كامل. أبوها أقسم أن يزوجها لأول رجل يخطبهـا. مشـيرة

صارت "كالسلاية" من الحزن. لا تأكل ولا تشـرب. مـاذا جرى لنا يا بنات. تشربي شاي يا حكمت، قهوة. قهـوة يـا أبلتي قهوة سادة. عاملة إيه مع جوزك. أدينـا بنخـبط فـي بعض. نفسي أدخن سيجارة يا أبلتي.

وأخرجت سيجارة (كنت) من العلبة التي أخرجتهـا من الحقيبة وأخذت نفسا طويلاً في صدرها ثم نفثته بهـدوء. ياه يا حكمت. أنت بتدخني ولا أجدع كييف. قالـت حسـنة. هزت حكمت رأسها. أنا أيضا تمنيت لو دخنت سيجارة يـا إبراهيم. لقد طالت قصتنا ولا يبدو أنها ستنتهي كما ينبغـي. إبراهيم لا يزال يتحدث عن الباعة الذين هم سيرك وحـدهم، يصعد بائع الشيكولاته ينادي القطعـة بقـرش تعريفـة ولا يشتري أحد، الجميع يعرفون اللعبة، فهو يفعلها كـل يـوم، ويعرف أنهم يعرفون لكنه يعود ليفعلها. ينـادي بعـد ذلـك الثلاث قطع بتعريفة ولا يشتري أحد، ثم الأربعة ثم الخمسـة حتى يصل إلى العشرة فتشتري النساء ويوزعن ما يشـترين على الأطفال الذين في صحبتهن.

لقد اشتريت مرة هذه الشيكولاته، فلـم تكـن غيـر بسكويت مغموس بالشيكولاته، لا، ولا حتى بسكويت، كانت

شيئًا لا أستطيع أن أحدده بالضبط. لقد أصابتني بإسهال لمدة يومين ولم أعد إلى شرائها، لكن الباعة لا يزالون يصـعدون والنساء والأطفال لا يزالون يشترون ويأكلون ولا أحد اشتكى من الإسهال. أما باعة البرتقال واليوسفي فهم فيلم آخر. نادية لا تزال سابحة في أفكارها تحاول ما استطاعت ألا تسـتمع إليه. لكن صوته اخترق الحجاب الذي صـنعته لمشـاعرها وتيار أفكارها...

تمنيت لو دخنت سيجارة وأحسست بالمتعـة مـن التدخين وأن رأسي صار متزنًا ومزاجي صـار منسـجما، وتمنيت لو أفعل ذلك وحدي على شاطئ البحر في ليلة شتوية أو على السطح في المساء ولا يراني أحد، ليس خوفًا، لكـن كي أتنهد بعمق، وألقى بالدنيا خلف ظهري. وقلت التـدخين حلو يا حكمت؟ قالت سلوتي الوحيدة يا نادية، وباعة البرتقال واليوسفي يحمل الواحد منهم قفصاً به برتقال ويوسفي يضعه على الأرض في الطرقة بين المقاعد وينادي الخمسة بشـلن، ولا أحد يشتري، ثم الستة والسبعة وهكذا حتى يصـل إلـى العشرة ولا أحد يشتري، طيب خمستاشر آخر كلام، لكن لـم نعد نرى زوجك في الملاحة كثيرا.افتتح محل سمك كبيـرا

بالميدان بالمنشية، ويقف البائع عند هذا الرقم لا يتزحزح، لا تحدثوني الليلة عن زوجي. أريد أن أستمع إليكم. نادية مالك نحيفة هكذا؟. ألا تأكلي؟. لا أرد. طيب عشرين آخر كـلام بشلن.، ويبدأ الناس في الشراء ويقفز البائع على الرصـيف بالقفص الذي صار فارغًا فيصعد بائع آخر بقفص آخر، أنـا مضطرة أمشي، ولا أستطيع أن أسهر معكـم البيـت بعيـد والسائق لابد أنه قلقان. عندك سائق يا حكمـت؟. قطيعـة! سائق وجاسوس، بعد باعة البرتقال يصـعد باعـة ألعـاب الأطفال، طيب ألا تسمعي أغنية من نوال. يا ريت متى يـا نوال نراك مع شادية وفايزة ونجاة في حفل أضواء المدينة؟ الدكتور أحمد يقول إنه سيساعدني كثيرا في الوصـول إلـى الإذاعة، يزداد اهتمامه بي هذه الأيام. يا بختـك يـا نـوال، ولعب الأطفال إما صفارات أو زمامير ومراوح مـن ورق، يا ريت تغني لي حاجة لأسمهان يا نوال. أهوى مثلاً. لأنـك تشربي قهوة يا حكمت؟. تقول حسنة. نضحك. طيب ناوليني الفنجان تمسك به نوال. هكذا كانت تمسك به أسـمهان فـي الفيلم.

لقد ماتت قبل أن تنهيه. أي فيلم يا نوال؟ فيلم "غرام وانتقام" ووقفت نوال في آخر الصالة الصغيرة وتقدمت نحونا وارتفع صوتها الجميل.

قهـ ـ ـ ـ ـ ـ ـوة. قهـ ـ ـ ـ ـ ـ ـوة.
يا مين يقـ ـول لـ ـي أهـ ـوى.
أسـ ـقيه بأيـ ـدي قهـ ـوة.
أنــا. أنــا. أنــا، أهــوى..

ولابد من قيام معركة كل يوم بين واحد من الركاب وكمساري القطار، فضلاً عن الذين يصعدون فـ ـوق القطار ويتعرضون لحوادث.

أهوى القمر يسـ ـكرني ضـ ـياه
أهوى أقضي طول الليل وياه.
يخلــى قلبــي فــي نشــوة
والـ ـ ـدنيا همـ ـ ـس ونجـ ـ ـوى

وكثيرا ما يتم إيقاف القطار في المحطـ ـات لإنـ ـزال هؤلاء الركاب الذين يستقلون سطح القطار ويتم القبض على

أكثرهم. أننا نسمع أصوات أحـذيتهم وهـم يجـرون فـوق القطارات خاصة، غالبيتهم من عساكر الجيش يرتدون أحذية ثقيلة نشعر بها تدق على دماغنا.

يا للي تبـات الليـل سـهران
من إيدي لو تشرب فنجـان
راح تلقـى فيـه السـلوى
والـدنيا تصـبح حلـوة

لكن لا تخافي يا نادية. لو حدث أنك سافرت معـي مرة لن أتركك أبداً تركبين هذا القطار، سـأحجز لـك فـي البولمان ديوانًا خاصا. كثيرا ما أشاهد البولمان يمر بسـرعة جوار قطارنا القشاش. ألمح وجوه الناس النظيفـة السـمينة وملابسهم الغالية، والنساء الأجنبيات يضحكن. بسعادة وأحيانًا أشاهد رجالاً تقبل النساء أي والله.

أبعد همومـك عـن روحـك
إيه تجني منها غيـر نوحـك
والـدنيا دي إيـه تسـوى
وإيـه تفيـد الشـكوى

- كفاية يا إبراهيم.

قالت ذلك بهدوء. لقد تفصد عرق كثير على وجهها وجبينها رغم أننا في نوفمبر والجو بارد. هتف إبراهيم قلقًا.

- نادية. أنت تعبانة؟

- عد بي إلى البيت بسرعة.

ووقفت لكنها لم تستطع أن تتقدم خطـوة واحـدة. سقطت على المقعد مغشيا عليها، صرخ هو، نادية. نادية. يا نهار أسود. وجرى إلى سيدة تجلس بعيدا وحدها تمسك فـي يدها بسلسلة بها كلب كانيش، كانت قد سبقته وأخرجت مـن حقيبتها زجاجة بارفان صغيرة قدمتها إليه. عاد مسرعا يضع الزجاجة التي فتحها تحت أنف نادية التي عادت إلى الـوعي لكنها حين رأته صرخت صرخة طويلة كطائر يتم ذبحه في الفضاء السحيق..

( ٨ )

استقلت نوال الترام رقم (٥) وهي لا تصدق أنهـا تفعل ذلك بنفسها. لكنها هي وليس أحد آخر من يجلس فـي الترام المتجه إلى المنشية الآن.

- أنا لم أفعل ذلك من قبل يا دكتور أحمد!..
- أعرف، ولن تفعلي أي شيء غلط.
- أنا لا أغني في الأفراح ولا في الحفلات..
- هذا ليس فرحا ولا حفلة.
- احتفال برأس السنة يا دكتور أحمد ماذا تسميه؟
- احتفال خاص جدا مع مجموعة من الأصدقاء.

ناس ستحبينهم للغاية. إنهم لا يصدقونني حين أحـدثهم عـن صوتك وسوف يصدقونني اليوم، وبالمناسـبة بيـنهم نـاس مهمون، صحيح لا يعملون في الإذاعة لكن يمكنهم الوصول للإذاعة، ومن يدري قد تصبح الإذاعة كلها لهم في يوم مـا، ولنا أيضا!

ماذا كان يقصد بذلك؟ هل سيشترون الإذاعة مثلاً؟. هناك شيء غامض في هذا المشوار كان عليهـا أن تتبينـه.

سبق السيف العزل. لقد نزلت في المنشية الصغرى الآن ولا معنى للعودة. وماذا يمكن أن يحدث؟ ليس لـديها أي شـيء لتخسره. في العمارة المجاورة للعمارة التي بها محل رمضان شحاته أشهر بائع شنط في الإسكندرية دخلت، تطلعـت فـي البداية إلى النوافذ العالية المغلقة.. هذه العمارة الجميلة فـي الميدان الصغير لم تنتبه إلى جمـال زخارفهـا وشـرفاتها ونوافذها من قبل؟ إنها، مع هذا المطر الخفيف الذي بدأ، كمن يقف وسط ميدان في أوروبا، فرنسـا مـثلاً أو إيطاليـا. لا ينقصها إلا مظلة جميلة ترفعها، وجوانتي في لون المظلـة، وبالطو فرو،، ومصور سـينمائي، ليصـنع فيلمـا أجنبيـا. ابتسمت. فكرت كيف أن هواء هذه المدينة الطـري يجعـل الإنسان يدخل في بعضه وينام وهو يقظان. المحلات كلهـا مغلقة، فضل أصحابها الإغلاق مبكرا للإعداد للاحتفال بليلة رأس السنة. لا أحد يتأخر في الإسكندرية الليلة. يا ويله مـن يأتي عليه منتصف الليل وهو في الطريق. يسقط فوقه كل ما هو قديم في بيوت الإسكندرية. زجاجات، أكواب، قلل، أرجل مقاعد، أطباق صيني. كل ما يحدث صـوتًا حـين يـرتطم بالأرض. وداع خاص للعام الذي انتهى، واستقبال فريد للعام

الجديد. يقولون إنها عادة طليانية. ربما. الإيطاليون مجانين. رأت صوفا لورين وجينا لولو بريجيدا وآنـا مانيـاني فـي السينما. إنهن مجانين بالفعل خاصة حين يتحـدثن. لا أحـد يلحق بهن. ولماذا تذهب بعيدا. معهن راهبات من المستشفى الإيطالي، يشفى المرضى خوفًا من الكلام معهـن!. لكنهـا، نوال، لم تحتفل من قبل قط بليلة رأس السنة. تكـون لـديها نوبتجية بالمستشفى لاستقبال حالات التسمم الكحولي والتخمة وإصابات الطريق، أو تمضي الليلة لدى أبلة نـرجس مـع البنات يشوين أبو فروة - الكستناء كما عرفت مـن إحـدى المجلات - ويقزقزن اللب. في العام الماضي جلست تغنـي لزميلاتها في حجرة الممرضات. كانت هناك عملية كبيـرة لاستئصال رحم تعفن فيه الجنين لأم مريضة بالسكر!. كـان الموت المحقق يرفرف في سقف غرفة العمليات، والجـراح الكبير المجنون شديد الثقة بنجاح العملية طلب منها أن تغني أغنية عبد الوهاب "لست أدري".

ظلت تردد "جئت لا أعلم من أيـن لكنـي أتيـت. أبصرت قدامي طريقًا فمشيت. كيف جئت كيـف أبصـرت طريقي لست أدري..".

انتهت من الأغنية وكررتها، تعبت ولم يتعب الجراح. أشار إليها بالصمت. لم يعد هناك غير همساته للأطباء الشبان حوله والممرضات. انتهى في الساعة الثانية عشرة تماما وكان قد بدأ في الساعة الثامنة. نجحت العملية الخطيرة وقفز الأطباء الشبان يهنئونه ويقبلونه لكنه تقدم ناحيتها وقال لها باسما وقد بدا عليه الإرهاق الشديد: "نصف نجاح العملية بفضل صوتك الملائكي" نامت بعدها ساعة في غرفة الممرضات. انصرف الأطباء على عجل يلحقون بسهراتهم في الخارج. زميلاتها أيقظنها.

- ونحن يا نوال أليس لنا نصيب في الاحتفال؟
- أنا تعبانة يا بنات من الغناء في غرفة العمليات.
- إنها ليلة في السنة يا نوال!
- طيب. أغنيتين أو ثلاث...

لكن واحدة منهن أشارت إليهن بالسكوت. كن ثلاث ممرضات ونوال ثم قالت:

- أنا عندي فكرة مجنونة، نحتفل مع المرضى بليلة رأس السنة.

ضحكت نوال وقالت:

- يعني من مطربة العمليات إلى مطربة المستشفى. ترقية على أية حال!

ضحكن. قالت صاحبة الاقتراح:

- أحسن ثواب نعمله في المرضى هو هذه الحفلة. لا أظن أنهم سينسون هذه الليلة أبدا.

بدا أنها موافقة، وفكرن من أي عنبر يبدأن. عنبر الباطنة نام نزلاؤه مبكرا متعبين. عنبر العمليات كذلك. في قسم الأطفال نام الأطفال. ليس من يقظان الآن غير مرضى العظام، هؤلاء لا ينامون بسهولة من طول رقدتهم، ولا يتألمون مثل مرضى الحروق، وهم في ضيق دائم من الجبس وأوضاعهم غير المريحة ويحتاجون لشيء من البهجة.

فوجئ المرضى بهن. العنبر الطويل كان نزلاؤه جميعا يقظين. سيقان مرفوعة في الجبس مشدودة إلى أثقال من حديد، أذرع مرفوعة على وسائد. أعناق مشرئبة محاطة بالجبس لا تلتفت، وغير هؤلاء جلوس لا يستطعن النوم؛ لأن قمصانًا من الجبس تحيط بصدورهم. ضحكت إحدى الممرضات وقالت:

- ربنا يستر ولا ينكسر صوتك الليلة، يا نوال..

انطلقن جميعا يضحكن. عرف المرضى بالمهمة فصفروا وصفق سالمو الأذرع وخبط الباقون بأرجلهم على الأسرة. ضحك واهتزاز محسوب وألم خفيف يظهر على الوجوه.

- ماذا تطلبون الليلة؟

توالت أسماء المطربين والمطربات وفي النهاية قال المرضى:

- اختاري أنت سستر نوال ونحن موافقون على كل ما تغني.

غنت نوال إيه ذنبي إيه، ولا يق عليك الخال، ثم تخونوه لعبد الحليم، انتقلت إلى ألحان خفيفة فغنت لشادية "خمسة في ستة بثلاثين يوم" ويا حسن يا خولي الجنينة" ثم "تعب الهوى قلبي" لمحمد فوزي التي راح العنبر كله يغنيها معها فأشارت إليهم بالهدوء، وعند الفجر، كانت قد تعبت، والمرضى أيضا كانوا متعبين، لكنهم أصروا أن تستمر وهي بدورها اختارت أغنية" أول همسة" الطويلة لفريد الأطرش وما انتهت منها حتى كانت زميلاتها تبكين وعدد من المرضى يبكون أيضا في صمت، لكن في النهاية ضحك

الجميع، ظل المستشفى لأيام بعد ذلك يتحدث عن حسن حظ قسم العظام الذي أمضى ليلة من أجمل ليالي العمر حتى إن بعضهم قال إن الكسور التأمت بسرعة بسبب المتعة التي انسكبت في روحهم تلك الليلة، كان يوم خروج بعضهم من المستشفى محزنًا للغاية. لقد أحبوا المكان ولم يغادر واحد منهم المستشفى قبل المرور على سستر نوال وتقديم الشكر الجزيل لها، تقدم أكثر من واحد منهم لخطبتها وكانت دهشة زميلاتها كبيرة من رفضها لهؤلاء الخطاب الذين كان بينهم موظفون محترمون وأبناء عائلات ومتعلمون.. لكنها قالت أنها حددت هدفها، الغناء في الإذاعة أولاً، وهي لم تيأس حتى الآن من الحصول على فرصة حقيقية..

استقلت نوال المصعد الأشبه بالقفص المعدني، لا تعرف لماذا تركت يدها تمشي على جدرانه الملساء. انتعشت من ملمسه الناعم البارد. تركته في الدور الخامس، تماما كما قال لها الدكتور أحمد. أمام الباب الطويل القوي البني اللامع تتوسطه شراعة صغيرة من الحديد والزجاج القاتم خلفها ستارة رمادية لامعة، أمام هذا الباب المهيب الذي يرتفع لمترين ونصف على الأقل ترددت قليلاً. كيف تثق في

الدكتور أحمد كل هذه الثقة فتأتي إلى شقة لا تعـرف مـاذا ينتظرها داخلها؟. لكنها قرأت اسم صاحب الشقة. نادر نعـيم مفتش أول لغة فرنسية. هذا هو الاسم الـذي طلـب منهـا الدكتور أحمد أن تحفظه. ضـغطت زر الجـرس. سـمعت صوت الجرس قويا كأنما يدوي في فراغ. لابد أنهـا شـقة واسعة. قالت لنفسها. في بيتنا كل شيء مكتوم حتى صـوت الدجاج، قالت ذلك أيضا. وفتح الباب وأطل من خلفه رجـل طويل مهيب، ذو وجه أحمر وشعر أبيض. رجل في حوالي الخمسين من العمر، يرتدي روب دي شامبر مـن الحريـر. الروب بداية غير مشجعة. لكنه قال:

- نوال هانم.. تفضلي.

ابتهجت واتسعت عيناها. الرجل المهيـب يـدعوها بالهانم. دخلت خجلي تشعر كأن نملا يجري في جسمها كله. أمامها رأت صالة واسعة بها صالون كبير مذهب أنيق عليه رسوم لروميو وجولييت. إنها تعرف ذلك. الصـالة عاليـة، جدرانها من الورق الجميل، رمادي تتوسـطه ورودورديـة صغيرة حولها مربعات ذهبية الإطار، أشغال كانفـاه معلقـة على الحائط ولوحات فنية. تماثيل كثيرة في الأركان، علـى

الأرض، على مناضد صغيرة دائرية متفرقة في الصالة مـن الأبنوس الأسود اللامع. رفعت عينيها إلى النجفة الضـخمة التي تتلألأ فيها الأضواء، وللمناضد الدائرية اللامعة مذهبـة الحواف فوقها فازات صينية وبلجيكية وتماثيل شعبية، وعلى الأرض كان السجاد عميقًا تكاد تغوص فيه عليه رسوم أطفال بين الحدائق وطيور تحلق حولهم. توقفت شبه خائفـة. هـل يحق لها أن تمشي فوق هذا السجاد؟

- نوال هانم لازم تعتبر نفسها صاحبة بيت.

لم ترد. نظرت إليه نظرة توسل أن يتركها تعود قبل أن تقع مغميا عليها. راحت عيناها تدوران مـع الجـدران.. قال:

- آه.. التابلوهات. هل تحبين الفن التشكيلي. غناء ورسم. أنت نعمة إلهية مدموازيل نوال.

لأول مرة تشعر بالشجاعة. كادت تبتسم. ماذا تقول لهذا الرجل المعتوه الطيب الوسيم الذي يبدو كإله نازل مـن فوق جبل!.

- هذه لوحات غير أصلية. مجرد بوسترز. لكنـي اشتريتها من باريس. طباعة ممتازة. هذه لوحة لديجا. ديجـا

كان مشهورا كما تعرفين برسوم راقصـات الباليـه. وهـذه لجوجان - كانت لامرأتين عاريتين في حمام قديم فأغمضت نوال عينيها واستمر هو يتحدث - كذلك هذه لرينوار أيضا - كانت لامرأتين نضرتين تمشيان رافعتين المظلة في الحقـول الشاسعة وجذب انتباهها بشدة جمال ونضارة النساء - أمـا هذا الحذاء فهو حذاء فان جوخ الشهير، وهذه اللوحة الكبيرة هي الغذاء على العشب التي دشن بها مانيه الحركة التأثيرية - كانت قد أشاحت بوجهها بعيدا عن المرأة العاريـة علـى العشب مع الرجال - كل هؤلاء كانوا في فرنسا. الحقيقة أنا من عشاق المدرسة التأثيرية، لكن لا بأس أيضا مـن أدهـم وانلي، هذه لوحة حقيقية له، باليرينا على طريقة ديجا. أدهم وسيف وانلي بلدياتنا..

أخيرا ظهر الدكتور أحمد قادما من إحدى الغـرف. بدا كمنقذ حقيقي لها..

- طبعا الزميل نادر لازم يعطيك دروسه الرائعـة في الفن التشكيلي. .

- أهلاً دكتور أحمد.

قالت ذلك وهي في شبه إغماءة، لكنها كانت تفكـر كيف يقول الدكتور أحمد عنه إنه زميل.. وقال أحمد:

- تفضلي.

أخذها من يدها. في الحقيقة لم تشعر بيده. دخل من باب إلى حجرة واسعة بها مقاعد وثيرة عالية الظهر، وبهـا عدد لا يقل عن عشرة أشخاص، كلهـم مـا بـين الثلاثـين والأربعين باستثناء رجل واحد يبدو أكبر من نـادر نعـيم. أحست بخجل حقيقي حيث لا توجد امرأة بينهم. كأنما كـان أحمد يقرأ أفكارها قال:

- ستأتي بريجيت. لن تكوني وحدك، وبالمناسـبة هي ليست بريجيت باردو.

دخل الرجل المهيب، الزميل نادر كما دعاه أحمـد، يقول:

- هذا المقعد الخالي الذي يتوسط الجلسة تركنـاه لك، تعتبرين نفسك اليوم الملكة ونحن الشعب..

ما هذه المعاملة يا ربي التي تلقاها من هؤلاء الناس النظيفين جدا، الذين يرتدون بدلاً أنيقة ثقيلة من الصوف الهاد الإنجليزي وعلقوا معاطفهم على الشماعات الأبنوسية الثلاث

في الأركان! جلست وهي تنظر إلى التايير البسيط الرخيص الذي ترتديه، وإلى أصابعها الخالية إلا من خاتم ذهب صغير ولأنها شمت رائحة البارفانات التي تكاد تفقدها قوتها تذكرت كيف أنها لا تستخدم إلا كولونيا الياسمين الخفيفة التي تنتهي رائحتها بعد خروجها من المنزل حـين تقابلهـا أول نسـمة هواء.. تمنت ألا تأتي بريجيت. إنها تتحمل أن يكون الرجال أكثر أناقة أو حتى وسامة، لكنها لا تتحمل ذلك مـن امـرأة حتى لو كانت بريجيت هذه التي ينتظرونها.. قـال الـدكتور أحمد الذي كان يرتدي البنطلون والقميص فوقه بـول أوفـر صوف..

- أفضل طريقة للتعـرف علـى الـزملاء هـي التلقائية، لا بأس بسرعة أن أخبرك بأسمائهم، لكن لا ترهقي نفسك بحفظها، أثناء السهرة ستترسخ الأسماء في ذاكرتك.

قال أحد الجالسين:

- يا سيدي لو حفظت أسماء خمسة اليوم يكفـي. المرات القادمة كثيرة..

إذن هناك مرات قادمة؟. قالت ذلك لنفسها. وتذكرت أنها لم تر الدكتور أحمد أبدا مرتديا بدلة كاملة. دائما بنطلون

وقميص ويأتي الشتاء فيضع فوقهما بول أوفـر. رأت مـن بينهم شابا في عمر الدكتور أحمد يرتـدي أيضـا بنطلونـًا وقميصا فوقهما بول أوفر أقل قيمة مما يرتديه أحمد. أحست ببعض الطمأنينة. ورأت أحمد بسرعة خارجا وهـو يقـول "دقيقة واحدة" ثم يعود بسرعة وفي يده زجاجة شمبانيا فـي جردل أخضر صغير مليء بالثلج. وضعها بينهم على منضدة صغيرة، وجاء بعده نادر نعيم يحمل صينية عليهـا كئـوس صغيرة كريستال.

- نبدأ أولاً بالشمبانيا.
- قل نبدأ بالتعارف.

هذه الخفة والنعومة في الجو حولها شيء يكاد يبدد روحها. كأنما دخلت في فيلم يعرض أمامها علـى الشاشـة وصارت فردا من أفراده. دخلت منومة لا تشعر بما تفعـل. سمعت أحمد يتلو أسماء الزملاء. لم تلتقط اسما واحدا وهـي تهز رأسها مع كل اسم! هطل مطر شديد في الخارج. زخات قوية كأنما انفتحت أبواب السماء على مصاريعها ودق جرس الباب..

- برجيت!.

هتف نادر نعيم وتهللت أساريره.

- بريجيت والمطر! ياله من غيث..

قال ذلك وهو يسرع ناحية الباب. لحظات وكانـت بريجيت واقفة أمامهم عند مـدخل الغرفـة تسـلط عينيهـا الزرقاوين وفمها المفتوح على نوال. نوال وليس أحد آخـر بينما كان نعيم يخلع عنها البالطو الأنيق من الخلف.

- هذه مهمتي لا أتنازل عنها أبدا..

كانت نوال تفكر أنها لا ترى أمامها امـرأة شـابة جميلة، إنما مهرة حقيقية جامحة لا سبيل لأحد إلى ترويضها. يا له من جمال هذا الذي يتجسد أمامها واقفًا، من أية سـماء أقبل وأي خالق هذا الذي نحت؟.

نهض الرجال واقفـين ومـرت علـيهم بريجيـت تصافحهم وتقبلهم ويقبلونها الواحد بعد الآخر حتى إذا قبلـت الدكتور أحمد أغمضت نوال عينيها، لكنها لم تعط هذا الضيق فرصة الظهور على وجهها.

أدركت نوال أن بين الجالسين ثلاثة من الأجانـب، عرفت اليوناني والإيطالي أما الثالث فلم تعرف جنسيته. لـم ترهق نفسها بذلك.

كانت تفكر كيف تترك امرأة نفسها يقبلها كل هؤلاء الناس، لكنها فجأة لم تشعر بأي عيب. كانت رائحـة عطـر بريجيت قد غزت المكان كله بالانتعاش والشبق. كل شـيء حول نوال الآن يبدو منتعشًا منتشـيا غيـر مسـتقر حتـى الجدران. في الخارج كان لا يزال المطر يزداد لكن صـوت زخاته صار يتداخل فيها صوت الريح. في لحظـة ينقطـع صوت المطر ثم يعود مرتطما بالأرض. إنها لحظـة تطيـر فيها الريح الهائجة الأمطار هنا وهناك ثـم تنقطـع الـريح فيستقيم سقوط المطر وصوت ضرباته في الأرض والأسطح. معركة من نوع غريب، فيها جنون، لكن هنا، داخـل شـقة الزميل نادر نعيم، كل شيء هادئ، نـاعم، والمـدفأة التـي بالصالة تنشر الدفء في الشقة كلها، وكان لابد أن تصـافح بريجيت نوال.

- بريجيت فنانة تشكيلية. نوال مطربة المستقبل.

قال الدكتور أحمد. فانتعشت نوال، أدركت أنها رأت بالصالة صورة زيتية جميلة للزميل نادر نعيم في ركن منها توقيع برجيت رشيقًا. حركت بريجيت قدميها كالأطفال وهي تضربهما في الأرض وتساءلت:

- أين أجلس؟

أشار نادر نعيم إلى مقعد في مواجهة نوال وقال.

- هنا أيتها الملكة.

ضحك أحد الجالسين وقال:

- صار لدينا ملكتان اليوم، هل بعد كل الذي فعلناه لمقاومة الملكية يصبح لدينا اثنتان مرة واحدة؟

ضحكوا، لكن نعيم قال:

- النساء الجميلات لا يصلحن إلا ملكات واسأل الشاعر. ما رأي عصمت مفتاح؟..

أشار إلى الشاب الذي يرتدي البنطلون والقميص والبلوفر الذي بدا شاردا ناظرا إلى الأرض. رفع رأسه ودار بعينيه عليهم. ابتسم لنوال وقال:

- النساء ملكات على عروش قلوب الرجال.

الله. الله. الله. صفقوا جميعا، ونوال في دهشة وسعادة. قالت برجيت:

- لابد أنك كتبت شيئًا جديدا يا عصمت.

سكت لحظات ثم قال:

- قصيدة لم تكتمل.

- ممكن نسمعها؟

- لكننا جئنا الليلة لنسمع الآنسة نوال.

وجدت نوال نفسها تقول:

- أنا يسعدني جدا أن أسـتمع إليـك يـا أسـتاذ عصمت.

- الله. الله. الله. معجبوك يزيدون يا أستاذ.

قال نادر نعيم. وأحست نوال بخجـل حقيقـي، وإذا بعصمت مفتاح يقف يتهيأ ليتلو شعرا..

عرش قلبي تجلس عليه خلاسية من زنزبار

عرش قلبي تجلس عليه غجرية من سمرقند.

عرش قلبي طريق لنساء أمريكا اللاتينية.

لا ينافسهن فيه إلا امرأة من الهند وامـرأة تهـوي كالبرق من فوق جبال أرارات

تصفيق وآهات وكلمات استحسان وإعجاب ونـوال في حيرة حتى اقترب منها الدكتور أحمد وقال:

- كوني قوية ولا تخافي، إنهم ناس طيبون جـدا، ستكونين أنت الملكة في النهاية، وستفهمين كل شيء..

طلبوا جميعا من عصمت أن يكمل القصيدة. فـتح نادر نعيم زجاجة الشمبانيا فرأت نـوال أن الصـوت الـذي يصدر حين يطير الغطاء حقيقي وليس تمثـيلاً كمـا كانـت تتصور حين ترى ذلك يحدث فـي الأفـلام. رأت الرجـل المهيب يقفز بالشمبانيا وهي تفور ويضع منها بسـرعة فـي كئوس الزملاء. تركته يملأ كأسها. لم تشرب من قبل، لكنها رفعت ذراعها معهم في صحة عصـمت مفتـاح.. "لا.. لا. يسينين".

"ولماذا لا يكون ماياكوفسكي".

"أفضل أن أكون رامبو. على الأقل لبعض الوقت".

كان الحوار حولها لا تفهم منه شيئًا لكن تشعر أنـه صادق وجميل..

وراح عصمت مفتاح يلقى قصيدته.

المرأة التي تجلس على عرش قلبي

انتهت لتوها من صنع الثورة

إنها تشوي بصلاً على الفحم

وتشرب النبيذ مع الفراشات.

وتوزع الخبز على جنود النهار.

راان على الجميع صمت مهيب. بدا عصمت مفتاح وقد شرد عنهم، راح يلقى شعره للبعيد البعيد..

إن ديلا كروا الذي انتهى للتو

من رسم الحرية وهي تقود الشعب

قد خرج يجري في الحدائق.

فرأى المرأة التي انتهت لتوها من صنع الثورة

فبكى بين يديها أن تنتظر

فالحرية الحقة لم يرسمها بعد..

هنا لم يستطيعوا السكوت. ضجوا كالأطفال معجبين. رأت نوال بريجيت تأكل عصمت مفتاح بعينيها.

من أنت أيتها المرأة اللغز؟

قالت أنا التي اعتصر جويا حليبي

وقام مجنونًا ليرسم فريق الإعدام

ويجري في الشوارع مع الثيران.

يا رفاق..

وأشار إليهم أن يسكتوا عن الصياح وواصل بصوت جهوري عال.

يا رفاق...

الثيران عرفت جويا وأوسعت له الطريق ووصـل جويا إلى حافة النهر فرحان

هيا نصلي جميعا وراء جويا

جويا الذي وصل إلى حافة النهر.

فوجد المرأة التي اعتصر حليبها

تغسل شعرها عارية

ولا تنزل إلى الماء

لماذا لا تنزلين أيتها المرأة إلى الماء

لأن جويا عض مفاتني في نزق

لأن جويا ترك ألوانه على جسدي

إنها المرأة شديدة الذكاء والعبقرية

التي انتهت للتو من صنع الثورة

فارتاحت على عرش قلبي.

هنا. هنا في الإسكندرية

التي ينزل عليها المطر يغسلها

لترى السماء وجهها في الأرض.

أي مدينتي العبقرية

مدينة النزق والجنون والاستشهاد
كيف دخلتك الخيول العجوز
محملة بكل هذا الغبار والتراب
كيف فتحت أبوابك للبرابرة
وتبعثرت فيك النساء.
هبينا مدينتي القدرة على الثورة
أطلقي مدينتي أسر المرأة الذكية
دعيها تصنع الثورات
وتشوى بصلاً على الفحم
وتشرب النبيذ مع الفراشات
وتوزع الخبز على جنود النهار.

صفقوا بجنون، طلبوا الويسكي في صحة الشـاعر، قامت بريجيت وقبلت عصمت وهو شارد يكاد لا يشعر. لقد تفصد العرق من جبينه واحمرت عيناه، ونوال التي لم تفهـم شيئًا أحست بالنار تشتعل في جسدها كله. من هو عصـمت مفتاح هذا وماذا يكون؟ إنه أشبه بكرة النار التي سقطت من الفضاء أمامها. أنها لا تحيل عينيها عنه.

يعود ويجلس مطرقًا إلى الأرض، يتنـاول كـأس الويسكي ويشرب منه بهدوء. والدكتور أحمد مشغول بوضع المزات أمامهم على أكثر من منضـدة منخفضـة. جمبـري وسردين مقلي وجبن حلوم وجبن رومي وكاليماري وجـبن فلمنك وزبادي وخيار.. يا إلهي.. أشياء كثيرة يا نوال فـي الدنيا لن ينقلك إليها إلا أن يواتيك الحظ في الطرب. لكنها لن تشرب الويسكي ولا السجائر التي يقدمها إليها أحـدهم بـين الحين والحين. لن تندفع في هذا الطريق، ولن تأتي هنا مرة أخرى. أجل. سيقتلها هؤلاء الناس. هـذا الشـاعر الحـزين وجهه شاحب مثل سيدنا عيسى عليه السلام.. عيناه واسعتان وأهدابه طويلة مثل سيدنا عيسى عليه السلام. ذقنه قصـيرة مدببة مثل سيدنا عيسى عليه السلام. إنها تحتاج أن تأخذه في صدرها مثل ستنا مريم!

- الساعة الآن العاشرة. نريد أن نسمع نوال قبـل أن ينتهي العام.

ضحكوا. العام سينتهي بعد ساعتين حقـا. فلتغنـي نوال كما لم تغني أبدا. لقد أشعل فيهم الشاعر النار، أما هي

فستطير بهم في السموات العلى. ستجعلهم لا ينسونها أبدا بعد ذلك، ولن تأتي هنا مرة أخرى. لن تستطيع.

( ٩ )

جلست كاتينا مع العربي وحدهما الليلة. ذلـك لـم يحدث من قبل في أي عام.

- عربي. أنا غير مبسوطة هذا العام.

- لماذا كاتينا. الأتيلييه لا يـزال يعمـل، وأنـت تزدادين جمالاً. لماذا لم تقيمي حفلة مثل العام الماضي؟

- كنت تريد حفلة عربي؟

- لنفسي لا.هكذا أفضل. أنا وأنت نشرب الميتاكسا الفاخر، لكن الحفلة من أجلك أنت..

- الجالية اليونانية كلها غير مبسـوطة عربـي.. الكلام في أي سهرة كله سياسة في سياسة.

لكن ليلة رأس السنة مناسبة جميلة فيها الناس يمكن أن تنسى السياسة.

- لا عربي السياسة الآن صعبة. لا أحد يعـرف مصر رايحة فين! كل يوم تمصير بنوك وشركات. الأجانب الآن يبحثون عن طريقة لتهريب الأموال.

- لكن الجرائد كلهـا تقـول إن التمصـير مفيـد وضروري لمصر.

سكتت كاتينا قليلاً ثم قالت:

- الحقيقة عربي أن التمصير مفيد لمصر، لو كان ياناكيس موجود كان زمانه مبسوط. كان ممكن يقول يعـيش جمال عبد الناصر.

- طيب ليه زعلانين كاتينا؟

- لأن بعد سنة بـالكثير مصـر ستصـبح دولـة شيوعية. رأسمال مصري ممنوع. رأسمال أجنبـي ممنـوع جدا.

- غريبة!. يانـاكيس فقـط كـان ممكـن يحـب التمصير؟

- تمام عربي. ياناكيس كان يساري. يساري يعني شيوعي. يعني لا يحب الملك..

- أعرف. أعرف كاتينا خلينا نشرب أحسن.

جلسا صامتين لدقائق يشربان الميتاكسـا ويمـزان بالمورتاديللا.

قالت كاتينا:

- التمصير حلو لكن ثمنه غالي عربي. ثمنـه أن الأجانب كلهم يتركون إسكندرية. وطبعا كل مصر.

شرد العربي وقال لنفسه:

"وأولاد البلد يشترون محلاتهم ويأخـذون شـققهم وكذلك يفعل ضباط في الجيش والبوليس. كثيـرون اشـتروا بيوتًا بثمن بخس".

قالت كاتينا:

- أنت واحد مجنون عربي. ضـيعت الخمسـين جنيها في البارات. راشيل تركتها لك لتشتري شـيئًا مفيـدا لكنك مجنون. أنا أحبك لأنك مجنون. شـوف الآن محـلات البقالة في المزاريطة وكامب شيزار والإبراهيميـة بعـد أن اشتروها أولاد البلد. شوف حالها يغم. زمان كان لا يمكـن تشوف دبانه في الدكان. ليس زمان. أمس فقط عربـي. أنـا ساعات يتهيأ لي أن الجبنة الحلوم لونها تغير إلى أسود.

يضحكان بشراسة. كان واضحا أن الخمـر بـدأت تلعب برأسها.

- يخرب عقلك كاتينا. أنت بنت نكتة ولا أعرف.

- أنا مصرية عربي. بابا كان يشتغل في تجـارة القطن. وبابا بابا كمان!

- جدك يعني.

- مضبوط عربي.

رفعت كأسها وقالت.

- اشرب عربي في صحة إسكندرية. من يعـرف عربي.. يمكن انتم تخاوها أحسن. يمكن عربي.

شرب معها صامتًا وتناول شـرائح المورتـاديللا. العام الماضي كانت المائدة عامرة بالروزبيف والكبد وأسماك البربوني والجمبري والكاليماري والزيتون اليوناني. الشـقة كانت عامرة باليونانيين، والطليان أيضا، ومـا كـاد الليـل ينتصف حتى كان كل يقبل فتاته في ركن من الأركان. كانت اسمهان موجودة تلك الليلة، وقبلته قبلة طويلة أمام الناس.

كانت تقبله كثيرا بلا سبب تلـك الليلـة، وجـاءت جورجيت وزوجها، لكنهما انصـرفا بعـد منتصـف الليـل مباشرة. الباقون استمروا حتـى الصـباح، انصـرف مـن انصرف ونام الآخرون في كل مكان علـى الأرض. كانـت الأرض مفروشة بالرجال والنسـاء والطعـام والزجاجـات الفارغة من الخمور والمشروبات الغازية. كان يخيل إليه أن هؤلاء الناس يعيشون ليومهم الأخير في الدنيا. لكـن الـدنيا تغيرت بسرعة خلال هذا العام. يعرف ذلك كلما ذهب إلـى

المنشية لأمر ما. يقل عدد الأجانـب فـي الطرقـات أمـا الصيارفة فقد اختفوا تماما الآن. لم يعـد مسـموحا بتـداول العملات الأجنبية إلا في البنوك ووفق نظم صارمة لكن مـا لكاتينا وما يحدث في الاقتصاد في مصر. أنه لا يفهـم هـذه المرأة. لابد أن لها أسهما في بعض الشركات خسرتها فـي البورصة، وإلا أين تذهب فلوسها التي تكسبها في الأتيليـه؟ ليس من المعقول أن ترسلها كلها إلى ابنتها في اليونان!

- ما رأيك كاتينا أن ننزل إلـى بياصـة الشـوام نتعشى، أكيد هناك ناس سهرانة الآن.

- في هذا المطر وهذه الرياح؟ مستحيل عربي.

- نجرب كاتينا. عندك بالطو فرو وعندي بـالطو ياناكيس ثم إننا شربنا ميتاكسا مثل النار.

تركته لدقائق وعادت بعد أن غيرت ثيابهـا، بـدت وسط البالطو الثري نضرة الوجه كزهـرة عبـاد الشـمس. أمسكت بمظلة صغيرة. أخذ هو المظلـة ووضـعها فـوق المنضدة القريبة.

- بياصة الشوام على بعد خطوات!

خرجا من باب البيت فقابلتهما ريح باردة وشديدة فرفع كلاهما ياقة البالطو حول عنقه ثم أسرعا تحت البلكونات، خاصة وقد هطلت زخة مطر مفاجئة. "أنت مجنون عربي .. أكيد مجنون" وتركا شارع الكنيسة الإنجيلية وعبرا شارع الليثي. كل شيء مغلق حولهما وصامت، في شارع مسجد العطارين كان الظلام والصمت على الناحيتين.

في بياصة الشوام كان مصباح شحيح الضوء على الحائط يضيء الساحة لكن لا أحد. لا بائع السمان والعصافير المشوية ولا باعة الفستق والكستناء.

ظلام وماء بين بلاط الأرض ورائحة الملابس والبضائع القديمة التي تفرش البياصة بالنهار تتسلل من خلاف أبواب المحلات المغلقة والمخزونة فيها. انطلقت تضحك وهي تقف وحيدة معه وضحك هو.

- أنت واحد مجنون كبير عربي وأنا أحبك لهذا السبب.

وأخذته في حضنها وقبلته قبلة طويلة وهو في ذهول.

إنها تغدق عليه من مشاعرها هذه الأيام وهذا ينـذر بنهاية مخيفة. تشجع وأسندها إلى الحائط تحـت المصـباح، الحائط البارد. إنه يضع يديه عليه، لكنها دافئـة. فـتح كـل منهما بالطو الآخر وتركا جسميهما يلتقيان.

- أنت ستسافرين قريباً كاتينا.
- من قال ذلك عربي؟
- كل هذا الحب.
- أنا طول عمري أحبك وأنت واحد حمار.
- إذن هيا نعود إلى الشقة.
- لا. خلينا هنا في البرد.
- البرد يمكن أن يؤذيك كاتينا.
- أنا كنت أحب ياناكيس في الجبال فـي اليونـان فوق الجليد. تعرف عربي ياريت روميو وجولييت ماتا بالبرد وليس بالسم والخنجر.

اندهش من الكلام، لكنه لم يتوقف عن تقبيل عنقهـا وصدرها وتذكر أنه شاهد فيلما أجنبيا مات فيه البطل والبطلة في الجليد فقال في نفسه "حقا الموت في البرد أفضل من أي موت" وقفز قط كبير صارخًا بجواره لا يعرف من أين أتـى

الآن فدخلت في صدره أكثر وفجأة انطفأ المصباح ثـم عـاد فأضاء ثم إنطفأ ثم أضاء وارتبك العربي ثم هتف في فزع.

- كاتينا لازم نجري، الساعة الثانية عشرة..

كانت النوافذ المغلقة في الأدوار العالية قـد فتحـت وانطلقت منها أضواء غمرت الدنيا من كل اتجاه مع المطـر الذي بانت خطوطه في النور. من خلف النوافذ راح النـاس يلقون بكل قديم عندهم فتداخلت أصوات الأطبـاق الصـيني وهي ترتطم بالأرض بأصوات الزجاج والأخشاب، ولمـح بعض الشباب العربي وكاتينـا يهـرولان فصـوبوا إليهمـا قذائفهم. أصابت العربي قطعة خشب اصطدمت بالأرض ثـم ارتفعت لتصطدم بساقه. يابن الكلب!!

أصوات الضحكات تأتي إليهما من الأدوار العاليـة، انتبهت كاتينا إلى أن خطرا حقيقيا يحدق بهما فهرولت أكثـر رافعة ذراعيها فوق رأسها وعند باب البيت بالضبط أصـيب العربي في رأسه وسقط علـى الأرض. صـرخت كاتينـا، عربي، لكنها سمعته يقول أدخلي أنت بسـرعة. ولـم يكـن ممكنًا لها أن تدخل وهو ملقى على الأرض، توقفت واتجهت بوجهها على النوافذ العالية وهتفت "عيب وقلـة أدب ممكـن

الرجل يموت وأنا أعرف قليل الأدب الـذي قـذفنا، وبكـره الصبح لازم أبلغ البوليس. بكره تشوفوا ماذا تفعل كاتينا".

توقف القذف. الحقيقة أنه عادة لا يستمر أكثر مـن دقائق، كان العربي قد نهض ووضع ذراعـه علـى كتفيهـا وصعدا معاً السلالم. كان الدم الساخن ينزل من رأسه وشعر به، لكنه لم يكن غزيرا..

داخل الشقة شعر العربي بالراحة. تنفس نفسا طويلاً ثم زفر زفرة أطول. كانت كاتينا قد أحضرت بطرمان الـبن الذي راحت تكبس الجرح به بعد أن نظفته بالقطن والميتاكسا فليس لديها مطرهات من أي نوع. ضحك العربي وهو يشعر بحرقة في الجرح. قالت:

- عجيب أنت عربي تضحك وكأنك مبسوط.
- أبدا كاتينا. أنا فقط حاسس أن الميتاكسا يعبر من رأسي إلى فمي. هل يحدث شيء إذا نفذ الميتاكسا إلى المخ؟
- أنت لذيذ الليلة عربي.
- هل أنام الليلة عندك كاتينا؟

تساءل متفائلاً للغاية لكنها قالت:

- بعد أن ترتاح سأتصل بصـديق يحملـك فـي سيارته حبيبي إلى البيت.

وخزه الألم، لكن كان هناك وقت كي تعطيه درسـا في الحب يحمل تجربة كل هذه السنين التي عاشتها زوجـة وأرملة طروب. ولا يعرف عربي لماذا سألها قائلاً:

- لماذا لم تتزوجي بعد ياناكيس كاتينا؟

قالت ضاحكة:

- الزواج يعطيك رجلاً واحدا أما من غيـر زواج فأمامك عشرات الرجال.

ثم نهضت تطلب بالتليفون أحد اصـدقائها ليحمـل عربي إلى بيته.

***

كان ذلك هو الوقت الذي نهضت فيه نـوال طالبـة العودة، والوقت نفسه الذي بدأ فيه محمود الملاح العودة إلى البيت. لم يكن في المساكن من يحتفـل بليلـة رأس السـنة بالخارج غيرهم.

قال محمود الملاح لسائق التاكسي حين وصل بـه إلى كوبري كرموز أن يعبر الكوبري ويأخذ يمينه في اتجـاه

كفر عشري. المساكن تقع في منتصف الطريق لكن السـائق رفض. قال الطريق مقطوع بعد ذلك، وعند مخازن سـلفاجو كثيرا ما يوجد لصوص وقطاع طريق. ابتسم محمود وقال:

- سلفاجو. سلفاجو من يا رجـل؟ سـلفاجو راح وراحت أيامه. أرض المخازن الآن صارت مدرسة ابتدائيـة كبيرة.

قال السائق:

- أنا لم آت هنا منذ عام. لا تؤاخذني.

- معك حـق تقـول سـلفاجو. مصـر رجعـت للمصريين يا أسطى.

سكت السائق قليلاً ثم قال:

- هو سلفاجو غير مصري؟

- يوناني..

- كنت أظنه مصريا، لكن لا تزال شركات كثيرة ملكه.

- ليست كاملة. التمصير رجع على الأقل نصـف الشركات للشعب.

- لا تؤاخذني يا أخ لن أستطيع توصيلك. لازلت خائفًا.

ترك محمود التاكسي ونزل وهو يقول لنفسه ما فائدة الكلام مع حمار؟ لا داعي لأن أفسد على نفسي متعة هذه الليلة المباركة. لقد اقترب النهار، ولا أظن قاطع طريق ينتظرني وسط هذا البرد وبعد هذا المطر! ثم إن القمر هلال كبير تخفيه السحب حيناً ثم تمشي فيظهر ويضيء الطريق ولو للحظات، فهاهي المياه تلمع بين حين وحين. ترعة المحمودية ساكنة، لا حركة ولا سفن، هجع اللصوص في أماكن بعيدة، ثم إنه يحتاج حقا أن يمشي الليلة ويفكر ما دامت الأمطار قد انقطعت، في هذه القدرات الخارقة التي يمتلكها فلفل مطحون تاجر البهار العجيب. ماهو سر "التحويجة" التي يقدمها لي في كل مرة يكونان فيها على موعد مع المرأتين. لقد عاد تاجر البهار وظهر بعد أيام من واقعة محمود القزعة الذي كان قد عاد على حالته الطبيعية ونسى الانتقام ومنذ عودته وهو يغامر مع النساء مصطحبا محمود معه.

- إذا وفقت أول مرة توفـق دائمـاً ونحـن الآن موفقون والحمد لله.

ولم يشأ أن يخبره أبدا بالوصفة السحرية.

- لا تقلق. إذا مت سـأترك لـك الوصـفة فـي وصيتي..

تقدم محمود في الفسق فدخن الحشـيش الـذي لـم يجربه من قبل قط، ورفض شرب الخمر. قال إنه كان يحبه زمان حتى رأى في محل عند كوبري راغـب كيـف يـتم تحضير الخمير والبوظة، وشاهد كميات الذباب التـي فـوق الطشوت التي يتم التحضير فيها قبل أن يـدلقوا الخميـر أو البوظة في الجرار. منذ هذا اليوم أقسم ألا يعود إليه. لا بأس فقط أن يدخن الحشيش في السجائر. لكن المـرأتين وضـعتا لهما الحشيش في كنكة القهوة، فدخل محمود عالما سحريا لا يكف فيه الناس عن الضحك، ودعمه فلفل بالتحويجـة فبـدا بعدها الكون كله كأنه فرج امرأة وما هو إلا ذكر يحمل الكرة الأرضية على رأسه ويقوم بتلقيح كل هـذا الكـون. صـار يضحك في كل وقت، حتى وهو فوق المرأة.

- يخيل إلي أنك لست بفلفل مطحـون ولا تـاجر البهار.

- من أكون إذن يا سي محمود؟

- أنت شيطان ولا أقل من شيطان. أنت الشـيطان الأصلي الذي قال له ربنا اسجد لآدم ولم يسجد.

رأى عيني فلفل حمراوين يكاد يطل منهمـا شـرر فأصابه رعب أخفاه بجهد وقال فلفل:

- ياسي محمود العطارة أسرار من ملك أسرارها ملك الدنيا والملكوت.

- لكنك لم تقل لي أبدا لماذا تركت العطارة؟

- هذا أيضا من الأسرار.

تركه ونهض إلى المرأة التي تنتظره في الغرفـة، كذلك فعل محمود، وبعد قليل التقيا بالصالة فتسـاءل تـاجر البهار.

- شبعت؟

- لا. لكن يمكن أن أكتفي اليوم.

- لا تكتف إلا حين تشبع. هل تضمن صحتك غدا أو بعد غد..

- لكني سمعت الكبار دائمـا ينصـحون بتـوفير الصحة ليوم نحتاجها فيه.

- طيب، وإذا ضربك ترماي ومت فماذا كسبت؟

سكتا. قال محمود في نفسه، صحيح، ثم فكر كيـف أنه الآن لا عمل له إلا الجري وراء النساء، وحـده أو مـع فلفل، وكيف أن العالم كله يكون بين يديه حين يمتلك المرأة، أية امرأة.. واكتشف في نفسه قدرات هائلة علـى الإمتـاع الجنسي، وبعض النساء سهلن لـه الحصـول علـى نسـاء أخريات، وهكذا لم يعدم من تقدم إليه بعض المال. في البداية تضايق ثم تعود ثم صار يطلبه في بعض الأحيان. بـالجنس صار لديه ما يفعله، وصار مفيدا! لكن يظل في نفسه غصـة أنه لو وفق في إخراج الفيلم، أي فيلم، لكان الآن يذوق طعم نساء أجمل. كلاكيت آخر مرة يا محمـود. لا تعـد علـى الحديث عن السينما. أنت الآن ذكر، حيوان، عضـو، إيـر. وليس أي شيء آخر..

وسمع تاجر البهار يقول له:

- لا تنتظر لي يا فتى. أنا أكتفى بسـرعة. أنـت شاب. انهض لبى نداء الدنيا والدين!

تأمله محمود بدهشة. قال:

- ما دخل الدين هنا ونحن ذاهبان إلـى جهـنم لا محالة؟

أجاب فلفل:

- من الذي وضع فينا هذه الغريزة اللعينة؟

- ربنا.

- إذن لابد من استعمالها وإلا نكون ناكرين لفضل ربنا!

وهنا هتف محمود بانفعال:

- استعمالها في الحلال يا فلفل يابن ديك الكلاب لا تزين لي الحرام. هذا الذي نفعله حرام. لا تضللني. تسـألني إذن لماذا أفعله أقول لك إنني طامع في عفو الحليم الجبـار، والآن لا تفسد علي متعتي بهذه المرأة الشرموطة.

ضحك تاجر البهار، وبعد أن اختفى محمـود فـي الغرفة قال تاجر البهار بصوت عال..

- جهنم ياسي محمود وقودها الناس والحجارة. أنا الناس وأنت الحجارة.

لكن محمود كان قد انشغل عنه فلم يهتم. قبل الفجر خرج معه ومشيا في طريقهما إلى المدرسة التليانيـة. بعـد المدرسة التليانية وقفا عند أول شارع باب سـدرة. الشـارع المزدحم بالنهار بباعة الملابس يبدو خاليـا تمامـا. أبوابـه الخشبية مغلقة بأقفال ضخمة. لكن أعلـى الأبـواب تـرك أصحاب المحلات لمبات مضيئة تحت وفوق وحول اللافتات.

معظم التجار هنا أقباط. فوق المحلات عبارات لها مغزى. اللهم لا تدخلنا في تجربة. إذا أعطـاك الـرب فـلا تخشى أحدا... قال فلفل:

- أنا ساكن قريبا من هنا في شارع البرنسيسـات، اسمه هكذا رغم أنه مجرد زقاق ضيق وقذر.

ثم بعد لحظة قال:

- لقد عرفت بيتي ياسي محمـود. عرفـت شـيئًا عني. وستعرف الكثير فيما بعد..

كانت الأرض حولهما مليئة ببقايا المـاء ونفايـات الصيني والزجاج والفخار الذي حطمه السكان عندما انتصف الليل. صافح محمود تاجر البهار وانفلت عائدا داخـلاً فـي شارع عامود السواري متجها إلى كوبري كرموز. لا تـرام

الآن. يمكن أن يمشي لكن هاتفًا باطنيا جعله يعود يتطلع في الظلام إلى تاجر البهار الذي صار بعيدا في شارع باب سدرة.

فجأة توقف تاجر البهار وعاد. رآه محمود يعود إليه فظل واقفًا في مكانه.

- ما الذي أعادك؟

- أود أن أصحبك حتى الكوبري على الأقل. وأنت لماذا توقفت؟

- في الحقيقة كدت ألحق بك. لم أشأ أن أتركك وحدك الآن.

ابتسم تاجر البهار وربت على كتف محمود وقال:

- أعظم صداقة هي الصداقة بين الرجال يا محمود.

وأخرج من جيبه زجاجة عطر صغيرة.

- هذا عنبر. إنه عطر الأمراء.

ابتسم محمود وهو يمسك الزجاجة الصغيرة جدا في يده ويشم رائحتها الجميلة.

قال تاجر البهار:

- في جدودي مجانين من نوع خاص. أحدهم كان مجنون العنبر. أمضى حياته كلها بين عمان وزنزبار يتاجر في العنبر، كان لديه أحسن فريق من الغواصين يـأتون لـه بالعنبر من أعماق المحيط الهندي. سمع يوما أن هناك عنبرا قيما يقوم بإفرازه طائر خرافي في جزر المالديف فذهب إلى جزر المالديف وبنى بيتًا هناك وبحث عن الطائر الخرافـي لكنه لم يصل إلى شيء حتى جاء صباح رأى فيه دويا فـي الفضاء وصوت ضربات جبارة كأنها طبول من فوق الجبال، فتطلع من شرفة البيت فرآها، الرياح الأربع، قادمـة علـى البيت، كان قصرا في الحقيقة عاليا قويا، واقتلعـت الـريح القصر ومشت به أمامها في الفضاء. تركتـه واقفًـا وحـده وحملت القصر سليما كما هو من حوله، وارتفعت بـه إلـى الفضاء، لم تعده مرة أخرى. ظل جدى هذا واقفًا يوما كاملاً في العراء، لا أحد يمر به ولا أحد يراه، وفي المساء مشـى حزينًا إلى الشاطيء فوجد زورقًا في انتظاره حملـه علـى سفينة حملته إلى عمان. وانتهى صيادا للحيتان، حوت العنبر بالذات، لكنه مات في البحر قبل أن يصطاد حوتًا واحدا.

وسكتا، راح محمود يتأمله بوداعة فائقة. قال:

- يعلم الله كم أحبك يا فلفل مطحون.

- إذن دعني أصحبك حتى الكوبري.

ظهر تاكسي قادما من عند المدرسة التليانية فأشار إليه محمود بالوقوف وقال:

- لقد أظهر كل منا نيته الطيبة إزاء الآخر وهذا يكفي. أنت بيتك قريب وأنا بعيد دعني أوصلك بالتاكسي وأعد إلى البيت.

- في هذه الحالة دعني أعد على قدمي. إنها بضعة أمتار يا صديقي وصافحه بقوة، وأخذه في صدره وقبله، أمام دهشة سائق التاكسي، هذا السائق الحمار الذي لم يوافق أن يكمل بمحمود الطريق. ومحمود الآن وصل بسرعة مذهلة إلى المساكن. كان ذهنه مشغولاً بصديقه العجيب تاجر البهار، وكان مندهشًا من فكرة أن يكون هو إيرا والكون كله فرح كبير، فكان يقفز أحيانًا برأسه يتفادى برك المياه على الأرض، لكنه يهز رأسه ويدور بها في قلب الفضاء يحكها في شيء. يحس الآن كأن عقله يتشقق، ويحتاج للجلوس على شاطئ ترعة المحمودية رغم البرد والظلام يشجعه الهلال الذي يطل بين لحظة وأخرى من السماء.

ببرودة سلالم الماكينة الحمراء نشعت من البنطلـون إلى إليتيه وساقيه حين جلس. في ذلك الوقت سـمع صـوت هدير سيارة صغيرة سرعان ما ظهرت تمشي علـى مهـل وتتوقف عند بوابة المساكن. كان بها سـائق شـاب وفتـاة سرعان ما تحقق أنها نوال. نوال! قال في نفسـه مندهشًـا. ازدادت دهشته حين رأى السائق الذي كان شابا صغيرا ينزل من السيارة ويقابل نوال التي نزلت من الناحيـة الأخـرى، ويصافحها ثم يقبلها قبل أن تتركه وتدخل من البوابة. لم تنس نوال أن تلتفت وتهز ذراعها للسائق مودعة من بعيد. ياإلهي إنها نوال ولا أحد آخر. لكنه لاحظ أن فتـاة أخـرى كانـت تجلس بالمقعد الخلفي نزلت وقبلت نوال أيضا ثـم جلسـت مكانها في المقعد الأمامي.

استدارت السيارة عائدة على مهل. رؤيتـه للفتـاة الأخرى جعلته يفكر ربما هي والشاب من أقارب نوال لكنـه سرعان ما استبعد الفكرة. ثم مط شفتيه. مـاذا يهـم؟ فقـال لنفسه: إنها ليلة مباركة على أية حال. لكن صوت سيارة آخر أعلى هديرا سرعان ما ملأ الظلام. توقفت هي الأخرى عند البوابة ونزل منها العربي. أنه لا يخطئه. كانت هناك امـرأة

أيضا في السيارة تجلس جوار السائق، كـان العربـي هـو الجالس في الخلف. لدهشة محمود الكبـرى تركـت المـرأة السيارة ووقفت وسط الشارع تصافح العربي ثم قبلته وعادت إلى السيارة التي قفلت راجعة. ما الذي يحدث هذه الليلة يـا محمود؟ يا له من استقبال للعام الجديد.

( ١٠ )

لم يكن صوت الرعد الذي زلزل الاسكندرية عنـد الفجر هو الذي أيقظ سليمان هذه الليلة الأخيرة الطويلة مـن العام. كان حلما عجيبا رأي فيه الإسكندرية وهي تنقلب على ظهرها ويتساقط الناس من نوافذ مبانيها وأبوابها وأسـطحها، وشخص طويل ضخم يقف على ظهر المدينة التي صـارت كسلحفاة ويمسك بيده مكنسة طويلة من مكانس عمال البلديـة ويعمل في صمت.. انتبه فسمع صوت أبيه يصلي الفجر في الصالة ويتردد صوته الخفيض في الظـلام. لكـن ضـوء المصباح الهادئ الموجود عند الحمام كـان يكفـي ليخـرج سليمان إلى "العشة" الخارجية ويجلس وحده. لقد أقام لنفسـه

ركنًا محكما لا يزيد على متر في مترين وضع فيـه كنبـة ومكتبا صغيرا ومقعدا. كان سقف العشة على غيـر عـادة العمال هنا من خشب وأسمنت بينها أفـرخ مـن الكرتـون والخيش المغمور بالزفت بحيث لا تستطيع الميـاه اختراقـه بسهولة. ومع ذلك كان هناك "سرسوب" رفيع يتسال من أحد الأركان. لقد لمحه أبوه وهو يعبر الصالة خارجا إلى العشـة فرفع صوته في الصلاة، فقال سليمان "سوف أذاكر" وأغلـق باب البيت الذي يفضي إلى العشة خلفه حتى لا يصل إليه أي صوت من الداخل.

جلس إلى مكتبه الصغير، لاحظ أن الراديـو فـي مكانه لم يحركه أحد من أخوته. فكر ألا يشعله ثم مـد يـده وأشعله وبسرعة وجد محطة الموسيقى التي لا يعرف مكانها في الدنيا والتي تظل تبث الموسيقى في النصف الأخير مـن الليل. أخرج كراسة وأمسك بالقلم. يحتاج إذن أن يكتب. هذا ما أيقظه وليست الرؤيا العجيبة. إن فكرة تاريخ الإسـكندرية في القرن العشرين من خلال حياة مغنية لا تزال، وقد خايلته في الأيام السابقة كثيرا، هي الأصلح لتقوم عليها روايته التي يخطط لها ويجمع من أجلها المعلومات. لكن المشكلة أنه كلما

وضع المغنية أمام الجمهور لم يخرج منها صوت. الأحداث تمر خلفها في شريط سينمائي، ويظهر مغنون عظام مثل سيد درويش وسلامه حجازي وأم كلثوم وكلهم يغنون ويسـمعهم الناس، لكن الناس حين يذهبون إلى مغنيته وقفـت وفتحـت صوتها فلم يخرج منه صوت ونزلت دموعها. الجوقة خلفها أيضا كبيرة، تزيد على المائة موسـيقي وبهـا كـل الآلات الشرقية والغربية المناسبة، وكلهم يعزفون لكـن لا صـوت للموسيقى، والجمهور الذي نزع المقاعد من الصالة الكبيـرة وملأ الصالة واقفًا يصفق ويصفر ويضرب الأرض بأقدامـه ولا صوت يخرج. لا صوت يا سليمان. لا صوت لشيء.

أرقته هذه الفكرة أياما وأسابيع، وجـد أن الروايـة هكذا انتهت قبل أن تبدأ، ففكر أن يكتب عن مغنية حقيقيـة، ولتكن أم كلثوم مثلاً، ومن خلال حياتها يعرض تطور الحياة المصرية من السياسة إلى الذوق، لكن ذلك يحتاج منه إلـى جهد كبير، والحل المفتوح أمامه، وربما هـو الـذي أيقظـه اليوم. هو أن يلغي فكرة المغنية الحقيقية والخيالية ويكتب ما حوله هنا. لقد سجل كثيرا مما يحدث فلماذا حقا لا يكون ذلك مادته الحقيقية.

وجد نفسه يكتب في الصفحة الأولى عنوانًا كبيـرا يقول " وقائع اليوم الأخير في العام قبل الأخير".

ماذا سيحدث لو طالت الرواية أعوامـا أخـرى؟ لا بأس. يغير العنوان. " ثلاث حوادث كبرى اليوم قبل، ومـع هبوط الظلام. صباحا هاجم البوليس عصابة حميـدو فـي ترعة المحمودية. إنها العصابة التي دأبت على سرقة السفن. رأيت المخبرين وهم يطلقون الرصاص على حميـدو فـي الماء. لكنه، وكما يحدث في الأفلام، كان يغوص أسفل الماء ويظهر بعيدا. لم يفكر واحد من المخبرين في النزول وراءه. لقد لاذوا بالشاطئ وإطلاق الرصاص وقبضوا على ثلاثة من رجال حميدو خرجوا مستسلمين من الترعة. إنهالوا علـيهم ضربا وألقوا بهم في العربة البوكس حسب تعليمات الضابط الشاب، لكن حميدو لم يخرج. يطول وقت اختفائه ثم يظهـر ليشير إليه الأطفال فيصوب نحوه المخبرون، لكنه أسرع من الجميع يكون قد غطس. إن حميـدو يمشـي تحـت المـاء والمخبرون وجنود الشرطة يمشون على الشاطئين في تصميم على الإمساك به حتى لو في نهاية الترعة حين تتصل بالنيل. الأطفال الذين لا أعرف كيف ازدادت أعدادهم على هذا الحد

يمشون وراء المخبرين والجنود. حبشي منـع أطفالـه مـن المشاركة، ومشى هو جوار الضابط. كان طويلاً جدا حبشي وهو يمشي حافيا في جلباب قصير جوار الضابط الذي بـدا قصيرا للغاية. صباح عجيب لليوم الأخير في العام الميلادي. حميدو هذا ليس هو فتوة المنشية القديم، لكنه رجل مسـكين من غيط العنب، كان تعيسا شقيا من يومه، شارك في قتـل الإنجليز وسرقتهم أثناء الحرب الماضية، وكثيرا مـا قـبض عليه البوليس وأرسله إلى معتقل "الطور" الـذي بـه أعتـى المجرمين، وأمه امرأة سمينة لا يعرف أحد كيف تنهض عن الأرض تبيع الخضراوات عند مدخل البيت في غيط العنب، وقد تزوجت في الحرب العالمية الماضية رجلاً هزيلاً قصيرا كان جنديا في الجيش المرابط، يرابط معهـا طـول النهـار وتستخدمه في قضاء المشاوير! لا يعرف أحد لمـاذا انقلـب حميدو إلى زعيم عصابة. هل هو الإجرام بالسليقة كما يقول لومبروزو، أم هو المجتمع كما يقول جان جاك روسو؟. هذا هو الكلام المباشر في الفن يا سليمان فاحترس... جمال عبد الناصر يلعب الكرة الشراب مع أم كلثوم!.

عند كـوبري كرمـوز جـرت الواقعـة. انهمـر الرصاص من الشاطئين كثيفًا إلى درجة أبقت حميدو طويلاً تحت الماء حتى كاد يختنق. وعندما ظهرت يد واحدة له فوق الماء صارت ذراعا مهتزا عرفوا أنه يطلب الاستسلام. خرج إلى البر يقطر ماء من لباسه القصير. كان قد خلع ثيابه كلها في الماء وكان يرفعها لهم وهو غطسان فيصوبون نحوهـا الرصاص بتهور، ويضحك الأطفال حين يكتشفون الخدعـة، ويجن جنون الضابط الشاب ويصمم على إنجاز مهمته. وقف حميدو عاريا وسط البرد، لكنه كان قويا وشامخًا، لـم يقـع والضرب ينهال عليه بـأكف المخبـرين الغليظـة. كـانوا يضربونه خائفين. بعضهم في الحقيقة يعرفه، فهـو يسـرق السفن منذ سنوات ويعطيهم ممـا يسـرقه. لكـن الضـابط الصغير تقدم منه وهوى بكفه على صدغه، فصـوب إليـه حميدو نظرة حادة كادت تفقد الضـابط صـوابه، فتراجـع وخطف عصا خيزران من يد أحد المخبرين وعـاد ناحيـة حميدو وقال مهددا:

- امسكوه ابن القحبة واعطوني ظهره.

كان واضحا ما يريـد أن يفعلـه بالعصـا. تـردد المخبرون للحظة وتقدم حبشي بسرعة خالعا جلبابه القصـير ووضعه فوق حميدو وهو يقول بصوت هادئ للضابط:

- لا يا حضرة الضابط. هذا حميدو.. حميـدو لا يهان..

المدهش أن الضابط الشـاب لان واقتنـع. أشـار بالكلبش فوضع في يدي حميدو الذي مشى معهم صامتًا إلـى قسم البوليس بينما عاد حبشي إلى مقره بالفانلـة واللبـاس.. سيظهر حميدو مرة أخرى بعد أيام ويمارس نشاطه، وسيعود الضابط بعد وقت ليقبض على حميدو من جديد. إنهـا لعبـة العسكر والحرامية التي نشاهدها مسـتمتعين. كيـف يعمـل العسكر إذا اختفى اللصوص؟.كيلوت بريجيت باردو أحمـر ومقطوع...!!

إن أحداث الشهور الأخيرة لهذا العام مهمة، فالأمير فهد بن عبد العزيز آل سعود تزوج فتاة مصرية هي صافيناز نور، وسيأتي اليوم ويصبح الأمير ملكًا. كما ظهرت الترجمة العربية الكاملة لكتاب في سبيل الحق أو قصة حيـاتي بقلـم المهاتما غاندي، وظهر العدد الأول من مجلة جديدة هي مجلة

العربي، من الكويت، صدرت في مائة وأربع وستين صفحة ومائة وخمسين صورة ورسما وعشرين لوحة بسعر خمسـة قروش، وأعلنت محلات الكافيار عـن أن سـعر البطـارخ الطازجة الممتـازة بثلاثـة جنيهـات، وانتشـرت رياضـة الهولاهوب حتى صار أعضاء برلمان ألمانيا الغربية السمان يتدربون عليها في بدروم البرلمان، وأستطيع أن أكتب أحداثًا أخرى أكثر أهمية لكني أرجئها الآن وأعود إلى ما جرى في المساء قبل المغيب النهائي للشمس، وأم كلثوم تغني شـمس الأصيل من راديو العنيبسي ومرعي يستمع إليها زعلان من الانسجام!. وقعت الواقعة الثانية. في الحقيقة الثالثـة اليـوم لكني أجلت الثانية للنهاية؛ لأنه بعدها قد تسقط الأعمدة التـي تحمل السموات وينهار الكون. ومازلت أحتاج بعض دقـائق للحياة، رغم أني على يقين من سوء الحظ الذي سـيلازمني كما لازم عمي الموجود الآن مع القرود منذ عشر سـنوات، وكما لازم إسماعيل أدهم فانتحر في البحر، وفخـري أبـو السعود فانتحر في الحديقة.الأول فيلسوف والثـاني أديـب. فقدت الإسكندرية عقلها وقلبها منذ ذلك الوقت.

كانت الفلائك تمر عائدة بعد التنزه إلى كفر عشري عليها بنات جميلات وشباب، فوقف أولاد السـكن يقـذفونهم بالحجارة طالبين ضريبة عبـور. لا الـذين فـي الفلائـك سيصعدون ليـدفعوا ضـريبة لأحـد، ولا الأولاد يريـدون ضريبة، لكن هكذا جرت الأمور. كان عيد المشعور هو الذي قاد الأولاد.

دائما نعتبر سكان كفر عشري أصدقاء لنا، ليس من فرط الأدب الذي نتحلى به هنا، لكن لأنهم الأقرب في الجيرة إلينا، إلا النسوان فلا يسلمن من معاكسة الصـيع الجالسـين جوار دكانة العنيبسي طول النهار. في الجو ريـح حملـت الأحجار إلى أجساد البنات الثلاث والشباب الثلاثة وابتعـدوا وأطبق الظلام على الدنيا. عند صلاة العشـاء فـي الجـامع فوجئ الرجال بأربعة رجال في زي المخبـرين، الجلبـاب البلدي والبالطو والكوفية والخيزرانة، يدخلون الجامع.

- السلام عليكم.
- عليكم السلام ورحمة الله.
- نحن مخبرون من قسم بوليس كفـر عشـري.

أولادكم ضربوا أولاد كفر عشري وأصابوا البنات والصبيان

إصابات صعبة وتقدم إلينا أكثر من شخص بشـكوى ضـد أولادكم..

ارتبك الرجال. كنت أنا بالصـدفة خـارج البيـت فشاهدت الرجال الأربعة المخبرين، بـل إننـي أنـا الـذي صحبتهم إلى المسجد الصغير بالشارع الوسطاني.

ارتبك الرجال، نظروا إلى بعضهم في حيرة حقيقية. إنهم في العادة طيبون. تشعر أن الله وضعهم هنا فـي هـذا المكان وأنهم لا يعرفون من الدنيا غيره. ورغم ما يحدث بين النساء أحيانًا من شجار، فالرجال لا يتشاجرون فمـا الـذي جعل أولادهم أشرارا؟ قال المخبرون:

- يمكن أن تتصالحوا معهم لـو قـدمتم ترضـية مناسبة واعتذارا. سوف نساعدكم. المهم أن تحضروا معنـا إلى القسم لإنهاء المحضر. وجدت نفسي أقول:

- هل الشكوى ضد شخص بعينه؟

حدجني أحدهم بنظرة ثاقبة وقال:

- ضد سكان المساكن كلهم. ما رأيك.؟

بدا يتحداني. الحقيقة أني وجـدت نفسـي أسـكت. ارتبت فيهم للحظة لكني لم أستمر في الارتياب. تطوع عـدد

من الرجال للذهاب معهم. سبعة رجال مشهود لهم بالهيبة وحسن الحوار. علي زين العابدين والد كروان، وعلي عمران والد "بلك"، وعلي الشافعي الذي بلا أولاد، وعلي المعناوي، والد عيد المشعور، وعلي ضيف والد بدرية، وعلي السائح والد لطفي ومشيرة، وحمزة والد نوال.. الحقيقة أن الوحيد الذي يحمل اسم علي فيهم هو علي زين العابدين؛ لكني غيرت أسماءهم جريا على عادة الكتاب وأبقيت حمزة كما هو.. حمزة هو أقلهم صحة وقوة لكنه أكثرهم لباقة ودربة على الكلام. حتى الحادية عشرة لم يعد الرجال. اضطر وفد آخر في الذهاب بعد ضغط النساء اللاتي لم يتأخر أزواجهن كذلك من قبل. كان المطر شديدا، وصحبت الوفد غير مستريح البال. شكوك كثيرة بدأت تأكلني. لكن ماذا يمكن أن يحدث. لم أصل إلى إجابة. لذلك لم أستجب للشكوك.

عند كوبري كفر عشري، ووسط الظلام والمطر والبرد، رأينا الرجال وسمعنا أصواتهم.كان هناك مصباح وحيد على سور السكة الحديد عند باب الدخول إلى

الأرصفة، والباب مغلق بالليل ولا يوجد عمل ولا حراسة ولا حتى شخص تأخر في الطريق! .

كان الرجال مربوطين بأعمدة نور ملتصقة بسور الكوبري المعدني، وقد عروهم من ثيابهم إلا السراويل، بانت أثار الضرب بالسياط والأحزمة الجلدية ظاهرة على أجسادهم. لم يكن المخبرون مخبرين إذن. هذا ما كان ينهش صدري من شك ولم أفهم. لقد حطموا المصابيح التي فوق رءوس الرجال ولم ينتبهوا إلى مصباح السور الخافت. كان الرجال مشرفين على الموت. مشهد غريب كمشاهد الأفلام الرومانية حين يصلبون العبيد ويرفعونهم على أعمدة في الطريق. لم يخطر ببالي أن أرى شيئًا قريبا من ذلك وفي البدر وتحت المطر. قمنا بسرعة بفك قيد الرجال، خلع الرجال الذين صحبتهم جلابيبهم ووضعوها فوق العراة وعادوا بالفانلات والسراويل. لقد انتقم أهل كفر عشري منا شر انتقام.

ما كدنا نصل إلى الجامع حتى بدأ الأصحاء التفكير في خطة للهجوم على كفر عشري وحرقه على من فيه. صحبت النساء رجالهن المتعبين، ما كاد الأصحاء يخلون إلى

بعضهم في الجامع حتى انفجروا جميعـا ضـاحكين. كنـت أعرف أنهم لن ينتقموا.الناس هنا ودعـاء مسـالمون. لقـد ضرب أبناؤنا أبناءهم وهم ضربونا. علقة بعلقة والمسـامح كريم. قلت بانفعال:

- لكن لا يجب أن نسمح لهم أبدا بـالمرور أمـام المساكن من الترعة.. قالوا:

- في هذه نحن معك.

بعد لحظات أدركت أن أهل كفر عشري أنفسهم لن يجرءوا على المرور بالترعة، على الأقل حتى ينسى النـاس الإهانة، وإلى وقت طويل.. خروشوف يجلس علـى حجـر مارلين مونروا!..

بين الحادثتين وجد السيد خليل السيد الأعـرج فـي دكانته محترقًا ومتفحما دون أثر للنار في أي مكان ولا أثـر لاعتداء. منذ أيام والسيد الأعرج يجلس طويلاً إلـى السـيد خليل في دكانته. ذلك لم يحدث أبدا عبر السنين الطويلة التي لا يعرف أحد عددها، فكل الناس جاءت هنا فوجدت الدكاكين الثلاثة، دكانة أحمد العنيبسي، ودكانة السيد خليل، ثم دكانـة السيد الأعرج. أحبس أنفاسك أيها القارئ فالقصـة مؤلمـة.

السيد الأعرج بائع فاكهة وخضار لا يشتري منه أحد ولا يكف عن البيع. السيد خليل وأحمد العنيبسي يبيعان البقالة وكل شيء عدا الخضر والفاكهة، آخر الليل يغلقان الدكانتين وينصرفان وأولادهما وعمالهما إلى بيوتهم. السيد الأعرج ينام في دكانته، فلا زوجة له ولا ولد. يعيش السيد الأعرج على ما يشتريه بعض المارة من الغرباء. السكان هنا لا يشترون منه أبدا منذ ضبط يلوط طفلاً من الأطفال. لا يذكر أحد متى وقعت هذه الحادثة لكنها كل يوم تزداد تأكيدا. السيد الأعرج أعرج بالفعل لديه التواء غريب، أصله شلل أطفال، في ساقه اليسرى. يرتدي جلبابا قاتما قذرا على الدوام، وجهه طويل ضخم ولا يتكلم معه أحد. لم أر يوما أحدا يتكلم معه واقفًا أو جالسا. لابد أن السيد الأعرج حين ينفرد بنفسه بالليل يتكلم كثيرا مع الجدران. ليس من السهل أن يمنع الإنسان من الكلام كل هذا العمر لذلك كان غريبا أن يرى جالسا مع السيد خليل كل يوم ومنذ أكثر من شهر. والسيد خليل الذي هو في حوالي السبعين، يزيد عشرين عاما على الأقل على السيد الأعرج، وأيضا يمضي اليوم في الدكان لا يكلم أحدا، يتابع أعمال ولديه والعاملين اللذين معهما وينتظر الموت.

فيما كان يتكلمان؟ ذلك ما قاله السيد خليل اليوم للضابط أمام الناس..

" السيد الأعرج أصيب بلوثة في الأسابيع الأخيرة. كان كل يوم يحكي لي حكايته مع صبي جميل أحبه. أنا لم أشاهد أبدا هذا الصبي الذي حدثني عنه كل يوم. كان أحياناً يبكي ويقول إنه خائف من انتقام الله. لقد مر الولد الجميل أمام دكانة السيد الأعرج أكثر من مرة في أول يوم يراه فيه. كان ينظر كثيرا إلى البرتقال والموز. أشار إليه الأعرج ببرتقالة وموزة فتقدم الولد ليأخذها. جلس يأكل كمن لم يأكل منذ سنة. الأعرج قال إن الولد كان جميل الطلعة. عيناه سوداوان واسعتان وبشرته بيضاء نضرة، ووجهه مستدير كالبدر، وجلبابه نظيف، وفي قدميه كاوتش أبيض نظيف، ومن جسمه تفوح رائحة المسك. كيف حقا يكون مثل هذا الولد فقيرا لا يأكل البرتقال والموز؟

قال الولد إنه كان يعيش في حجرة واحدة صغيرة مع أمه وأبيه في حي القباري. أبوه كان حمالاً في شركة "درايكو" التي تقوم بتجفيف الخضر والفاكهة. أصبح صباح خرج فيه الأب ولم يعد. الولد ذهب مع أمه يسألان عن الأب

في الشركة فقالوا لهم إنه لا يوجد شخص في الشركة بهـذا الاسم. في صباح اليوم التالي لم يجد الولد الأم.. خرج يبحث عنها في الشارع فلم يجدها. عاد فوجد الغرفة مغلقة عليهـا قفل قديم صدىء، وقال الجيران إن أحدا لم يسكن هذه الغرفة منذ عشرين سنة حين اكتشفوا بها قتيلا تحت البلاط. مشـى الولد هائما حتى وصل إلى الملاحة فنام في إحدى الفلائـك الصغيرة المركونة في البحيرة. عطـف عليـه الصـيادون فألحقوه بالعمل معهم، وفي المساء ينام في الفلائك، يـنهض في الصباح وجلبابه القذر قد صار نظيفًا، غسـلته الملائكـة وهو نائم بالليل، أدرك الصيادون أن العناية الإلهية تكتنـف الغلام الجميل فلم يأذوه، قالوا من يدري، غلام تغسل الملائكة ثيابه بالليل فيها سر..

كان السيد الأعرج يحكي لي ذلك ويبكي كل يـوم، يقول السيد خليل لضابط البوليس، وفتح السيد الأعرج الدكانة للولد ينام فيها كل مساء، وأجزل له في الفواكه والطعام..

كل يوم بالليل ينام الغلام ويظل الأعرج جالسا ينظر إلى النور الذي يشع من وجهه ويترك الدموع تنـزل علـى خديه، حتى جاءت اللحظة التي مد فيها الأعرج يده يلمس خد

الغلام المشرق الطري فسرت اللـذة العجيبـة فـي جسـده وكهربته ياسيدي الضابط. كانت لذة لا توصف حتـى إنـه اندفع بعدها يبكي طول الليل. كان خائفًا أن يقترب منه أكثر، لكنه لم يعد قادرا على تحمل طغيان هذا الجمال ولا تلك اللذة تحمله إلى السموات العلى. "أطاعني الغلام وليته ما أطاعني" كان يقول ذلك لي ويبكي.

يخرج الولد جميلاً كل يوم إلـى العمـل بالملاحـة ويعود أجمل مما خرج في المساء، ولم يخبر أحدا أين ينـام وإلا حذروه فسمعة الأعرج تسري في كل مكان، وربما أخبر الناس لكن لم ينتبه أحد.

رتب القدر كل شيء فيما يبدو، ولم يعـد الأعـرج قادرا على الانتظار. قرر أن يفوز بلذة الموت. أنزل يده من فوق خد الغلام الذي كان أحمر مثل وردة وأبيض مثل القمر ودافئًا مثل المخمل، وترك أصابعه تمشي مضطربة إلى عنق الولد، لقد جرت النار من أصابع الأعرج إلى جسده فكـادت تفتته، فقلب الولد النائم على ظهره لينام على بطنه وانقلـب فوقه.

لا تؤاخذني ياسيدي الضابط هذا مـا كـان يقولـه الأعرج لي كل يوم ويبكي وأنا لا أصدق؛ لأني لم أر هـذا الغلام أبدا مع أن الدكان ملاصق للدكان. لقد سقط الأعـرج فوق ظهر الغلام مثل مركب حملها الموج الغاضب عاليا ثم تركها تهوي في الماء. برك فوقه مثل بهيمة. ولما فرد الغلام ذراعيه فرد الأعرج أيضاً ذراعيه وأحكم الإمساك بـذراعي الغلام الذي كان يتململ تحته ويئن. كان الأعرج يغيب عـن الوعي وهو يحكي لي كيف ظهرت بين ذراعي الولد وجانبيه أضلاع من ريش قوى، وكيف اسـتطاع الولـد أن يـنهض بنصفه الأعلى، وكيف التصقت ساقاه وتحول نصفه الأسـفل إلى ذيل سمكة مصمت مليء بالقشور. "كاد يرفعني معه، بل رفعني عن الأرض وهو ينهض بجناحيـه وتركنـي أسـقط كالحالم الذي استيقظ ورأيته أمامي يرتفع في فضاء الـدكان المظلم الذي أضاءه فجأة نور عجيب، وهبت ريح قوية فتحت باب الدكان فاندفع الغلام طائرا بجناحين مرفرقًا فـي ظـلام الكون الذي كان يضيء أمامه كلما اندفع فيـه عاليـا. لقـد خرجت كالمجنون ووقفت بالباب ورأيته هناك في الأعـالي

فوق كوم الشقافة يحلق طائرا وسط المطر متجها إلى نجـم بعيد احترق قبل أن يصل إليه"

هذه هي القصة العجيبة التي حكاهـا لـي السـيد الأعرج، والتي ظل طيلة شهر كامل يحكيها لي ويزداد خوفه يوما بعد يوم من انتقام السماء.

سأموت في مكاني يا معلم سيد. كان يقول ويرتعش ويبكي. ورطني الغلام بجماله وأطاعني! قلت لـه إن هـذه أضغاث أحلام يا رجل، فلم يصدقني. قلت له مادام قد احترق في الفضاء فهو إذن جني والجن نسل الشياطين فـلا جنـاح عليه، لكنه كان دائما لا يصدقني، واحترت معه فقلت له أنت رجل قليل الأدب ابن كلب وأنا مش فاضي لتخـاريف آخـر زمن هذه، ومنعته من الجلوس معي حتى جاء اليوم فوجدناه محترقًا متفحما كما ترى وكل شيء من حوله سليم، غير ذلك لا نعرف عن هذا الرجل المسكين شيئًا، ولا نعرف حتى لـه أهلاً ولا أقارب ولا أولادا..

حملت الإسعاف الجثة المتفحمة. لم يكلف أحد نفسه بالذهاب معها لدفنها إلى أي مكان، وسيغلق الدكان إلى الأبد.

انتهى هذا العام بأحداثه الكبرى والصغرى، ففازت جميلة أبو حريد المناضلة الجزائرية بلقب أهـم امـرأة فـي العام، كما فاز بوريس باسترناك بجائزة نوبل وتـم إرغامـه على رفضها. سأبحث عن روايته الفذة هذه ديكتور جيفـاجو وأقرؤها. كما أهدى جمال عبد الناصر أرفع وسام في الدولة لتوفيق الحكيم تقديرا للفن والأدب.، وقتلت بنت لانا تيرنـر عشيق أمها. وحكمت محكمة الأمور المستعجلة في القـاهرة برفض فرض الحراسة على أموال مسيحي تزوج من اثنتين، وقالت الإنجيل ليس فيه نص يمنع تعدد الزوجـات، ومـات فريق السلاح المصري كله في حادث طائرة، وكذلك حـدث مع فريق الكرة البريطاني. وازداد استخدام الدي. دي. تـي كموضة في الانتحار. وغنت أم كلثوم قصيدة "ثورة الشـك" وتم تمصير تسعمائة مؤسسة وشركة أجنبية فـي مصـر. وأعلنت مديرية الصحة أن عدد المواليد في الإسكندرية بلـغ ألفي مولود هذا العام بينهم ثلاثون من الأجانب، وأن تعـداد المدينة بلغ أربعمائة وخمسة وسبعين ألفًـا بسـبب ازديـاد الهجرة من الريف إلى المدينة، في الوقت الذي سجلت فيـه تناقص أعداد الأجانب إلى خمسين ألفًا بعد خـروج اليهـود

والإنجليز والفرنسيين وعدد من الجالية اليونانية والإيطاليـة أضرت بهم إجراءات التمصير، كما سجلت الرحلات البحرية نشاطًا أكبر من كل عام.

وترك سليمان القلم وتمطى وهو يحس كأنه عائد من كهف مسحور.

راح يقرأ ما كتب. أدهشته العبارات التي تنزلق منه دون تمهيد لا تزال.. وظلت لذة الكتابة تبث النشوة في دمه. إن لديه هنا أشخاصا وحياة وثراء ليس له نظير.. إن محطة الموسيقى تعاني من ارتباك في الأثير كأنما هنـاك محطـة أخرى تزاحمها في الفضاء، فهناك كـلام يريـد أن ينبعـث وهناك موسيقى تريد أن تستمر. لقد أصبح الصباح وكثـرت محطات الإرسال في العالم، والفضاء الرحيب لم يعد كافيـا لما يرسله بنو الإنسان. مد يده يحرك المؤشر ليضبط المحطة فاندفع الكلام واضحا وغابت الموسيقى، وسمع اسم مصـر، والجمهورية العربية المتحدة. سياسة في الفجر! لكنـه لـم يستطع الابتعاد بالمؤشر. كان الكلام يتضح والـذهول يفـتح عيني سليمان معه إلى نهايتيهما. الآن تكون قوات البـوليس المصرية قد انتهت من مداهمة الآف الأسر وقبضـت علـى

آلاف المثقفين والمفكرين والأدباء والصحفيين الشـيوعيين، الذين تمتلئ بهم الآن مديريات الأمن تمهيدا لنقلهم إلى سجون أبي زعبل وطره وأسيوط ومعتقل الوادي الجديد. لقد وصـل الصدام بين الشيوعيين والنظام إلى نقطة اللاعودة بعد خلاف القيادة السياسية مع النظام في العـراق الـذي تحـالف مـع الشيوعيين.

وهكذا يكون النظام الحاكم في مصر قد اعتقل أهـم القوى الوطنية المصرية، فالأخوان المسلمون لا يزالون فـي المعتقلات وسينضم إليهم اليساريون، ولن يبقـى إلا عمـلاء النظام الذي يتحدث عن الديموقراطية كل يوم ويسجن الـبلاد والعباد... إذاعة صوت مصر الحرة.. إذاعة صوت مصـر المستقلة...

*****

# القسم الثالث

( ١ )

كيف لم تكتب الصحف أي شيء عن القبض علـى الشيوعيين. شهر كامل مضى الآن على الليلة الأخيرة مـن العام، وفي كل يوم يشتري في طريقه إلى المدرسة صـحيفة "الأهـرام" فـلا يجـد أي خبـر، ولا فـي "الأخبـار"، أو "الجمهورية"، اشترى في الليل صحيفة "المسـاء" واشـترى المجلات الأسبوعية ولا خبر، والإذاعة التي التقط منها الخبر لم تستمر.. تداخلت فيها أصوات إذاعات أخرى فلم يسمع إلا وشيشًا مزعجا. لم يستطع العثور على هذه المحطة الإذاعية مرة أخرى. كأنما كانت مخصصة لبث هذا الخبر لـه هـو بالذات، لا لأحد آخر. لم يجد أحدا يتحدث فـي الموضـوع فلماذا يشغل باله حقا؟ وما علاقته هو بالشيوعيين؟ لم يقـرأ شيئًا في الشيوعية، مرت عليه بعض الصفات السيئة لها في معرض التنديد بفظائعها، بعد أن دخـل الجـيش السـوفيتي المجر أواخر عام ١٩٥٦.يذكر أن كتابا صدر عـام ١٩٥٧ لونه أحمر وعلى غلافه دبابة ودخان وقتلى وعنوانه بالأسود "عندما تدخل الشيوعية بلدا" لكنه لم يشتر الكتاب ولم يهـتم.

ضحك من نفسه كيف حقا يهتم بخبر القبض على الآلاف من المثقفين بتهمة الشيوعية. ربما لأنهم مثقفون، ولم يستطع أن يتخلص من رغبته أن يعرف شيئًا عن المسألة، وظل يقلب في الصحف.. اكتشاف مؤامرة لاغتيال صائب سلام رئيس وزراء لبنان الأسبق عند عودته من القاهرة، وظهرت رواية "في بيتنا رجل" لإحسان عبد القدوس، اشتراها والتهمها في يوم وليلة، رواية بسيطة عن الوطنية والحب، اندهش من المدرس الذي انتحل صفة طبيب في إحدى المدارس الثانوية للبنات، لم تذكر الصحف اسم المدرسة رغم أن الجميع يعرفون أنها مدرسة المعلمات بالورديان، وراح يكشف على البنات بحجة أنه طبيب ويعبث بيده، طبعا، فيما يستطيع أن يصل إليه من أجسادهن. دب الفزع في مدارس البنات وامتنع الأهالي عن إرسال بناتهن للمدارس لعدة أيام ثم عاد كل شيء كما كان، وأصيبت البيجوم أغاخان بإنفلونزا حادة فاعتكفت في فندق شبرد. أهدت ملكة انجلترا لقب سير للممثل إليك جينس عن دوره في فيلم "جسر على نهر كواي" الذي سيعرض قريبا في القاهرة، لكن لا خبر عن القبض على المثقفين بتهمة الشيوعية، وبلغت جملة ما بيع من رواية

" دكتور جيفاجو "، التي يبحث عنها بشدة، في لندن وحدها، ثمانمائة وخمسين ألف دولار ستوضع في أحد بنوك سويسرا حتى يحصل عليها باسترناك يوما ما. إذن لقد ترجمت الرواية إلى الإنجليزية والأمل كبير أن تصل مصر ويقرؤها، وأقام الأرمن بالإسكندرية حفلاً موسيقيا جميلاً في القاعة الرخامية الكبرى بقصر رأس التين - هذه إحدى فوائد الثورة، فهو يستطيع إذا أراد أن يذهب إلى القصر - وعزفوا فيها موسيقى خاتشا دوريان وفولكلور من أرمينيا.. لماذا حقا لم يحاول فهم الموسيقى. إنه يحب الأغاني، لكنه يحتاج أن يفهم الموسيقى، خاصة الكلاسيك، كيف يعد نفسه ليكون كاتبا دون أن يفهم الموسيقى. وأرسل خروشوف رسالة إلى عبد الناصر يقول فيها إن التعاون بيننا مثال رائع للتعايش السلمي، ورد عبد الناصر بأن الصداقة سوف تزداد بين شعبينا مع الأيام. وخروشوف هذا رئيس وزراء دولة شيوعية فهل يعقل أن يقبض عبد الناصر على آلاف المثقفين بتهمة الشيوعية ثم يتبادل مع خروشوف هذه الرسائل الودية؟!

كان الاتحاد السوفيتي هو النصير الأول لمصر أيام العدوان الثلاثي العام قبل الماضي، والاتحاد السـوفيتي الآن يعد الخطة لبناء مشروع السد العالي الذي سحب البنك الدولي تمويله عام ١٩٥٦، مما دعا عبد الناصر لتأميم القناة فكانت الحرب! إذن هذه الإذاعة التي استمع إليها كاذبة مغرضة!

الأهم هو لماذا يصر على البحث عن الحقيقة حول شيء لا يهم؟ يضحك ويبتسم من نفسه ويشـتري الصـحف ويقرأ المجلات. انتصار جديد للشيوعية في كوبا.. كاسـترو يدخل هافانا بعد جهاد عامين ونصف ضد الديكتاتور باتيستا. باتيستا هرب من البلاد، ولأول مرة تلتحق أربع فتيات مـن خريجات كلية الحقوق بسلك النيابة في مصر، نيابة إداريـة لكنها نيابة. ودعوة فرقة المسرح القومي لتسافر إلى الكويت فتحدث مشاكل هناك، تيار كبير لا يريد لها أن تمثـل علـى المسرح الذي لم يحدث أن مثلت عليه امرأة من قبل، والفرقة القومية المصرية بها نساء، لكن الصحافة المسـتنيرة تقـاوم التخلف وتكتب "الفرقة يجب أن تحضر، ويجـب أن تمثـل، والشمس ستظل تدور حول الأرض، ولـن تقـوم القيامـة". طالب جامعي يفتتح مطعما في القاهرة يقدم فيه المـأكولات

وهو يرقص الهولاهوب، الحدث الذي هز الدنيا هو إطلاق الاتحاد السوفيتي قمرا صناعيا إلى الفضاء، سيقوم بنشر قاعدة ومحطة أرصاد فوق القمر مما دعا بريطانيا إلى القلق أن يتمسك الاتحاد السوفيتي بملكية القمر. وبدأت سيناريو عرض فيلم أنا حرة للممثلة الجميلة السمراء لبنى عبد العزيز، كذلك بدأ عرض فيلم غزاة الشمال، الفايكنج، بطولة كيرك دوجلاس وتوني كيرتس وجانيت لي في القاهرة، ولابد أن جميع الأولاد في المساكن سيذهبون لرؤيته حين يعرض بالإسكندرية، فهم يعشقون كيرك دوجلاس، ولقد تم اكتشاف موقع الإذاعة السرية التي بثت الأفكار السامة ضد مصر، إنها تأتي من القاعدة الأمريكية في أطنة في تركيا، إذن لا توجد مشكلة مع الشيوعيين في مصر، ولم تقبض الدولة على أحد، فلا توجد أية إشارة لذلك في الصحف، إلا ما كتبته صحيفة الأخبار في صفحتها الأولى في شكل خبر صغير يقول تم نقل مجموعة من الحيوانات إلى مكان أمين، ولم يعرف أحد لماذا يكتب خبر الحيوانات في الصفحة الأولى، ومن المؤكد أنها لا تقصد الشيوعيين، والإذاعة انكشفت فهي معادية للوطن، وعليه أن يرتاح من عناء البحث

في شيء لا يهمه من الأساس!! لينتبه إلى ما يحدث حولـه. إنه يسمع زفة أطفال قادمة من القبـو، يضـحك ويضـحك الجالسون محمود الملاح وتاجر البهـار ومحمـود القزعـة وعماله والذين لا يعرف أحد من أين أتوا!.. اليوم هو موعد وصول جدي خميس الجمال إلى المساكن. الأطفـال جميعـا يمشون وراء علي زين العابدين وهو يقطع المسافة الطويلـة من المساكن حتى مقلب الزبالة على حدود البحيرة وجنـوب منطقة القباري حيث خلاء كبير تلقى فيه القريـة فضـلاتها، هناك أقام خميس الجمال حظيرة خنازير ومنزلاً له ولأسرته. جوار حظيرة الخنازير أقام حظيرة أخرى للماعز والأغنـام والجمال. في الحقيقة ليس لديه غير جمل واحد لكن يبدو أنه كان تاجرا قديما في الجمال. قال مرة إن أهلـه البـدو مـن الصحراء الغربية كانت لهم رحلة سنوية يحضـرون فيهـا الجمال من ليبيا لبيعها وذبحها في الإسكندرية.

يمشي الأطفال المسافة وراء علي زيـن العابـدين، وكروان دائما مع أبيه في هذه الرحلة. حاول اليوم أن يعتذر لكن أباه الذي ابتسم قال له: " لا تكبر على أبيـك يـا ولـد. تعالى معي فلقد تعودت عليك" يعبر الأطفال القبو خاف علي

زين العابدين ويمشون في الخلاء حتى يصلوا إلـى مقلـب الزبالة، ثم يعودوا خلفه أيضا، لكن هذه المرة سحب الجـدي بحبل قصير أعطاه لكروان في الحقيقة. يعلق حزمة برسـيم صغيرة في رأس الكـبش المسـكين، والأطفـال يصـفقون ويضحكون. هو إذن كبش وليس مجرد جـدي، لـه قرنـان كبيران معقوفان إلى الخلف، ورأس صغير ناشـف وخطـم رفيع مدبب، وجسم قوي ضخم، لكنه كما يقـول النـاس لا يصلح للأكل، أي لا يمكن ذبحه. لماذا؟ لأن له عملاً واحـداً يقوم به وهو تعشير إناث الماعز لذلك فلحمه متفسخ مهري.. هرهر.. يقول علي زين العابدين الأطفال. يضحكون.. شي.. حا.. يبالغون كأنه حمار.. أصعب مرحلة هي عبـور القبـو المظلم دائما بسبب "زبيبة" الذي كلما جـاء عمـال البلديـة ووضعوا اللمبات دخل بعدهم وكسرها جميعا.. شر مجاني.. شيطنة صبيان ربانية! والكبش الذي سبق له العبور مـرات عديدة في كل مرة يحرن ويتلكأ ويحاول التراجع ويثغو، مـا يكاد يخرج من الظلام حتى ينظر إليهم مندهشًا، تتسع عينـاه ويقفز في الهواء فرحا، ويكاد يتكلم.. يجري كروان المسافة الباقية مستغلا حالة الفرح التي فيها الكبش، وهاهو يجري به

الآن والأطفال يضحكون وعم على لا يستطيع الجري، يمـد الخطى ويتابع الموقف من بعيد. لقد عبـروا جميعـا أمـام الجالسين على السلالم المؤدية للقبو، الذين لم يتوقفـوا عـن الضحك، وبدأ عم علي يطلب من الأولاد الرجوع بصـوت عال، فالكبش يقترب من بوابة المساكن وبعدها سيختفي فـي البيوت. عند البوابة تفـرق الأطفـال علـى شـارع قنـال المحمودية وشاطئها والأرض الواسعة أمام وابـور النـور. رحلة الكبش بعد ذلك معروفة. سيبدأ من البيت الثالث، بيـت محمود عمران فالبيت الأول الذي يسكنه صالح والبيت الثاني الذي يسكنه محمد علي زوج أم الضابط لا يربيان المـاعز، ولا حتى طيورا من أي نوع، يمضي الكبش قرابة شـهرين بالمساكن، يبيت ليلة عند كل عائلة، ينتقل من عشة إلى عشة حتى ينتهي من تعشير كل الماعز، ويحصل خميس الجمـال على شلن عن كل عنزة. يوم خروجه لا تقل فيه زفة الأطفال عن يوم دخوله. لكنه لا يستطيع يوم خروجه الجري، يبـدو منهكًا مطرقًا إلى الأرض مضطربا من النور الـذي يغمـر الكون بعد شهرين قضاهما في عشش مظلمة. بالراحـة يـا أولاد الكبش تعبان. يترنح بالفعل ويكاد يقع. في هذه المرة لا

يذهب به عم علي إلى خميس الجمال. يأتي خميس بنفسه ليأخذ الكبش. مشوار العودة متعب وعم علي يدرك ذلك. لكن في لحظة تدب القوة في الكبش ويبدو مختالاً بالفعل بما فعله. لقد قام بتعشير أكثر من مائة ماعز، رقم بطولي لأي فحل. لكنه سرعان ما يتكاسل، ويمشي متعبا ذليلاً غير قادر على المضي للأمام. تمر أيام قليلة ثم يشاهد خميس الجمال خارجا من القبو ساحبا في يده الكبش تنتظره سيارة نصف نقل في الشارع يصعد إليها مع الكبش الذي سيقوم بتوصيله إلى جهة أخرى في الإسكندرية في الأماكن العشوائية التي تنمو في الشرق والغرب، لقد استرد الكبش عافيته بسرعة وعاد للعمل.

- ما رأيك في عمل فيلم عن الكبش يا محمود؟!

تساءل سليمان، فنظر إليه محمود في غيظ.. لكن سليمان قال:

- أنا لا أهزر.. فيلم ولو قصير جدا.. لقطتان فقط، الأولى وهو يدخل قويا حوله الأطفال ينظر إليهم في شموخ رافعا رأسه، والثانية وهو يخرج ذائغ النظرات لا

يستطيع أن يرفع رأسه عن الأرض يمشي فتحسـبه يمشـي على ساقيه الأماميتين فقط إذ يكاد ينكب على وجهه.

هنا ضحك محمود الملاح.. ضحك حتى كاد يستلقى على قفاه لولا أن خلفه جدار دكانة العنيبسي.. وقـال تـاجر البهار:

- والله فكرة الأستاذ سليمان جديدة، ويمكن توسيع القصة فتجعل الكبش يدور في الأحياء الشعبية ثم يصل إلـى القرى القريبة من الإسكندرية، كفر الدوار مثلاً ورشيد مـن الشرق، والدخيلة والعامرية من الغرب.

قال محمود ساخرا:

- ويسافر بالقطار بالدرجة الأولى في الديوان!

هنا هتف سليمان قائلاً:

- ولم لا؟ يلبس جاكت، وتعلق في عنقـه بـابيون أبيض أو أحمر، وينزل في المحطات ويكون فـي انتظـاره العمد والأعيان وأفراد الشعب.

أضاف تاجر البهار:

- ولا مانع طبعا من السفر، مـادام هـو يركـب القطارات، إلى أسوان والعودة إلى مرسى مطروح، وهكـذا يمر على كل البلاد..

قال محمود الملاح:

- ويفضل لو علمناه ركوب الطائرات.

فقال سليمان:

- في هذه الحالة سيقوم بالدور اللازم في كل الأمة العربية..

كان محمود القزعة يتابع هـذا الحـوار العجيـب والسيجارة بين أصبعيه لا ينتبه إليها. انتهت وحرقته فنترهـا بشكل مضحك، وضحكوا هم بدورهم، كان ضـحكهم أكثـر على هذه الأفكار العجيبة التي انطلقت مـن أفـواههم بـلا ترتيب، وبعد أن سكتوا بدا الغم الحقيقي على محمود الملاح. لقد ذكروه بالسينما التي حذفها مـن حياتـه فقـام بهـدوء وانصرف دون حتى أن يلقى السلام.. سكتوا هم بـدورهم.. أدركوا سر حزنه وانصرافه.

في اليوم التالي لخروج الكبش من البلاد، كما يحلو لسليمان أن يقول في كل مرة، عاد العمـال آخـر النهـار،

وعرجوا في طريق العودة إلى المرعى التي يتركـون فيهـا الماعز في الصباح، فلم يجدوا الماعز. كل الماعز.. وقفـوا غير مصدقين. هل عادت الماعز وحدها؟ هي حقا تسـتطيع ذلك لكنها لم تفعله من قبل قط. شيء ما غير طبيعي حـدث اليوم. هل صادرتها المصلحة؟ لا يمكن. للأسطوات وللمفتش ولموظفي الحركة، ماعز بينها. لا يمكن خروج المـاعز إلا من طريقين، إما من أمام الشرطي القابع عند بوابة المساكن الخلفية التي تفضي إلى السكك الحديديـة، أو مـن البوابـة الكبيرة لمنطقة السكك الحديدية كلها التي تفضي على سـيدي كريم بغيط العنب. الطريق إلى المساكن أقصر.. وربما تكون الماعز قد عادت وحدها ولا مع أحد، وأنها لم تصـادر مـن قبل المصلحة وإلا لكان هو أول العارفين، ولابد أن المصلحة كانت تستعين به في أمر كهذا. إذن لقد سرقت الماعز! أخذها لص يعرف مواعيد خروجهم وعودتهم. سرقها وقت القيلولة حين يعودون إلى بيوتهم لمدة ساعة أو ينامون فـي أمـاكن أعمالهم. لكن هل يسرق كل هذه الماعز شخص واحد؟ أكثر من مائة عنزة قام كبش خميس الجمـال بتعشـيرها خـلال شهرين كاملين وكانت ستلد جميعا بعد شهور. خسارة فادحة

وسارق ليس غريبا عنهم. يمكن أن يساعده لصوص من أماكن بعيدة، لكن السارق الأصلي الكبير، شخص من المساكن. ترى من يستطيع أن يفعل ذلك؟

اجتمع الرجال في الجامع الصغير، زاوية هو في الحقيقة، الذي يتوسط المنازل ويفتح بابه على الشارع الوسطاني. فكروا في سلامة سلام. قيل إنه سافر إلى الصعيد منذ أسبوعين. فكروا في أحمد حجازي فوجدوه محجوزا في قسم البوليس منذ يومين بسبب محاولته سرقة أجزاء من قطار سكة حديد قديم واقف في ورش منطقة الزيتون. وليس حبشي بسارق، فهو لا يغامر بعداوتهم، ثم إنه رجل يعيش على هامش الترعة من زمان، صديق للبوليس وللصوص المراكب معا، يعيش على ما يقدمه له هؤلاء وأولئك، ولقد عثر منذ أيام على لقيط جديد فضمه إلى فريق اللقطاء وأرسل بنتًا من بناته تطلب شيئًا من لبن الماعز لهذا اللقيط الجديد. حبشي لا يمكن أن يسرقهم. واليوم ليس جمعة، موعد سوق الأغنام والماعز بجبل الطوبجية بكوم الشقافة. السارق إذن أخذها على سوق آخر. اكتشفوا أنهم لا يعرفون في الاسكندرية سوقًا آخر! كانت ليلة سوداء بحق! أطفئت فيها

المصابيح مبكرا ونام الأهالي مغمـومين! الثـروة القوميـة ضاعت كما قال مصطفى، وعليه العوض في ثورة يوليـو! لكن الرجال ظلوا يتقلبون في مخادعهم طول الليل. أجهد كل منهم ذهنه في محاولة الوصول إلى إجابـة السـؤال، مـن السارق؟ وأين ذهب بالماعز؟ كانوا قد توصلوا في اجتماعهم بالجامع إلى إرسال شخص في الصباح إلى العامرية وآخـر إلى الضهرية وثالث إلى كفر الدوار ورابع إلى الدخيلة. هكذا يكونون قد بحثوا في الاسكندرية والقرى القريبة منها شـرقًا وغربا، ثم إن حضور سوق كوم الشقافة بعـد ثلاثـة أيـام سيفيدهم. اختفاء مائة عنزة وبيعها أمر سيمر ببعض التجـار بالتأكيد.

ضحك محمود الملاح بشراسة وهو يجلس مع تاجر البهار يتأملان محمود القزعة الذي يتأمل صـعود وهبـوط أرداف النساء في نزولهن السلالم التي تؤدي إلى القبو فـي الطريق لشراء السمك، كان الوقت كالعادة مغربـا، وحركـة النساء قليلة، والهدوء يلف الكون، لولا صخب الأولاد الـذين يلعبون الكرة الشراب قريبا من الشارع. أخذ محمود القزعة نفسا طويلاً من السيجارة التي بين يديه ونفثه على مهل فـي

الفضاء. كان واضحا أنه مشغول بتأمل عميق. نظـر إلـى محمود الملاح وتاجر البهار وسليمان الذي انضم إليهم منـذ قليل وقال:

- ألم تجد لي حلاً بعد يا أستاذ سليمان؟
- فيم يا معلم محمود؟
- هل هناك موضوع آخر عنـدي؟ اليـوم الـذي صمته وضاع مني.

ابتسم سليمان.. هاهو محمود القزعـة يعـود إلـى موضوع قديم ظن سليمان أنه قد نسيه تماما. ولم يجد كلامـا يقوله هذه المرة، فقال محمود القزعة:

- تعرف مثلاً أن الماعز يمكن أن تعود لكن ذلـك اليوم الذي صمته لن يعود.

هز سليمان رأسه وقال:

- طبعا طبعا.. هذه مسألة أخرى. كل شيء يذهب يمكن أن يعود إلا الزمن يا معلم محمود.

هز محمود القزعة رأسه بالموافقـة، لكـن كـان واضحا عليه الاستياء المكتوم. دخل محمود الملاح في الكلام فقال:

- تعرف يا معلم محمود إنه منذ أن صمت أنـت هذا اليوم والبلد كلها في كرب.

نظر إليه القزعة في استخفاف وقال:

- ماذا تقصد يا ملاح؟

- يعني مثلاً خذ عندك عبد الحليم حافظ، مريض، أجرى عملية جراحية جديدة في السر، رغم أنه لـم يمـض عامان على العملية السابقة، وعندك جمـال عبـد الناصـر، تعبان جداً، كل يوم مـؤامرة لاغتيالـه، واليهـود طفشـوا، والطلاينة واليونانيون بـدأوا يطفشـون، ولـن يبقـى فـي الاسكندرية غير ثلاثة محلات فول لليوغسـلاف، وخمسـة محلات تصوير للأرمن، وخمارتين للسكارى من القبارصة، وأهم من هذا كله أن الماعز قد سرقت كلها والناس في غم.

انطلقوا جميعا يضحكون باستثناء محمـود القزعـة الذي يحاول كتمان رغبته في الضحك من هذا الكلام العجيب الذي لم يخطر بباله، وبعد أن فرغ من تأمل ردفـي امـرأة تمشي خارجة إلى الشارع، وكانوا هم قد سـكتوا وراحـوا يتأملونه بدورهم في صمت حتى يعطـوه فرصـة الفرجـة كاملة، بعد ذلك قال:

- لكن أنا شفت صورة عبد الناصر في الجرنـال اليوم باسم الله ما شاء الله.

- صورة قديمة.. لعلمك عبد الناصر عيان جـدا، لكن هذا سر من أسرار الدولة.

وهنا تأمله محمود القزعة قليلاً ثم قال:

- وطبعا حضرتك عارف؟

- طبعا.

يعني حضرتك تركت السينما واشتغلت بالسياسـة، تصدق بالله أنت وهو وهو، هذه البلد لن ينصلح حالها إلا إذا مات كل الرجال وخصوصا العواطلية أمثالكم، ولم يتبق بهـا غيري أنا والنسوان، ضحكوا بشدة واستمر هو يتكلم، وأنا لن أرتاح ولن ينام لي جف إلا بعد أن أسرق كل نسوان البلـد، تماما مثل ابن القحبة الذي سرق المعيز!

هنا قال تاجر البهار بهدوء وأداء تمثيلي رفيع:

- هذا حقك يا معلم محمود.. أنت على أية حـال لست أقل من كبش خميس الجمال.

المدهش أنه لم يعد موجودا في مكانه بمجرد انتهائه من الكلام. قفز قفزة كبيرة، وقبل أن يستوعب محمود القزعة

المعنى كان تاجر البهار يقف ضاحكًا بعيدا قرب المعديـة..
ضحك محمود الملاح وقام يضرب كفيه غير مصدق تاركًـا المكان، كذلك ضحك سليمان ومشى يهتز جسده من الضحك، وقف القزعة وحده يتأمل تاجر البهار الذي يقف بعيـدا فـي غيظ، في الحقيقة كان بوده لو ضحك، لكنه لم يستطع.كـان من قبل قد أشعل سيجارة جديدة نسى أنهـا بـين أصـبعيه. وكانت كالعادة قد انتهت، فاحرقته فنترها بعيدا، قفز فوقهـا بحذائه هذه المرة ودهشها في الأرض.

تفرق رجال المساكن في الأيام التالية شرقًا وغربـا ولم يصلوا إلى نتيجة. في سوق كوم الشقافة لم يصدقهم أحد من التجار، صاروا يضحكون منهم حينًا، وحينًا يرثون لهم.. عند المغرب، ومعظمهم يجلسون في حيرة يقلبون الأمر الذي استحال إلى لغز حقيقي. ظهر الديب عائدا، صـخب الأولاد المجتمعون عند الماكينة الحمراء ينادون عليه. هتف الديب.

- عندي حكاية مهمة، لكن الأهم الآن هو أن أرشد أهاليكم عن مكان الماعز.

سرعان ما تجمع حوله الرجال وجلس هو صـامتًا لحظات ثم قال:

- الماعز في طنطا.

- ماذا تقول يا ديب؟

- هذه هي الحقيقة، ولقد تم التضحية بمعظمها أمام مسجد سيدي أحمد البدوي.

- لكن كيف عرفت أن الماعز سرقت مـن هنـا أصلاً؟

- حدث أن القطار الذي أحرسه دخل المخزن في طنطا لمدة يومين لتبديل بعض العربات، رحت أتسكع داخل المدينة، وأصلي الوقت بوقته في الجامع الأحمدي. وصل إلى أذني بأحد المقاهي حديث بين تاجرين يتناقشان في سعر مائة عنزة مسروقة من الإسكندرية. سمعت أحدهم يقول إنها ملك لعمال السكة الحديد، قلت إذن هي ماعز المسـاكن، كـانوا يختلفون على السعر، المشتري يريد أن يدفع جنيها لكل رأس كبير في صغير، والبائع يريد مـائتين. انتهيـا إلـى مائـة وخمسين.

استمر الديب يشرح لهم ما سمعه من البائع الـذي سافر بالماعز مشيا إلى طنطا خلال يومين كاملين ليلاً بنهار، لم يسترح إلا ساعات، وقال إنه اختار طنطا لبعدها؛ ولأنهـا

لن تخطر على بال أحد ولسرعة تصـريف المـاعز أمـام المسجد الأحمدي. قال الديب: إنه يعرف شكل التاجر واللص وأن ذلك يحتاج أن يعود بهم بسرعة إلى طنطا مع وفد قوى.

سافر معه على زين العابـدين ومحمـود عمـران وحمزة الذي ضحك وقال: لعلهم لا يحبسونا هناك ويضربونا كما فعل رجال كفر عشري.. في الساعة الأولى لوصـولهم التقوا باللص في المقهى.. استدرجوه إلى خلاء قريـب مـن ورش السكة الحديد وهم يحدثونه عن رغبتهم في بيع عـدد كبير من الماعز والشياه، وفي وسط الخلاء ضربه محمـود عمران "مقصا" بقدمه فأسقطه على الأرض وجلـس الثلاثـة حوله وأمسكوا به من خناقه فكاد يموت بين أيديهم.

- أين التاجر الذي بعت له المائة عنزة؟
- لا أعرف.
- إذن سنقتلك هنا أيها اللص، لا من شاف ولا من دري.
- لماذا تقتلونني؟ أنا لست لصا، لقد اشتريتها مـن واحد من أولادكم.
- أولادنا!

- أجل.
- من هو؟
- لا أعرف اسمه. لكن لا أنسى شكله. ولـد فيـه شيء لله.
- فيه شيء لله؟
- أجل .. شعره أسود وحافي، كان أثنـاء الكـلام كلما مرت أمامنا امرأة تركني ومشي حتى لحق بها ونظـر في عينيها وعاد، مجنون يعني.

نظر الرجال الثلاثة إلى بعضهم، ثم انطلقوا يضحكون. لقد فعلها عيد المشعور وهذا آخر ما كان يخطـر ببـال أحد.

- بكم اشتريتها منه؟
- بخمسين جنيها.

انهالوا عليه ضربا، فهو اللص الحقيقي الذي غـرر بالولد الطيب، كاد يموت في أيديهم بالفعل فقال إنه يعـرف التاجر الذي اشتراها، لكن المشكلة أنه أيضا باع منها عـددا كبيرا للفلاحين ذبحوها كنذور أمام المسجد، من ناحية أخرى، لم يتبق معه من المائة والخمسين جنيها التـي باعهـا غيـر

خمسين جنيها، لكنه يستطيع أن يدبر لهم خمسين جنيها أخرى فيما بعد، حتى لو سافر بها إليهم في الإسكندرية.

- هيا معنا إلى التاجر الذي اشترى.

ظهر أن التاجر الذي اشترى الماعز سبق له أن تعامل مع على زين العابدين في تجارة البطاطين والأحرمة الصوف. اعتذر لهم بشدة، قال إنه باعها كلها، ما ذبح منها، وما لم يذبح، لعدد كثير لا يذكره من المشترين، وأن ما تجمع لديه من البيع هو مائتي جنيه، إذا أخذ منها المائة والخمسين التي دفعها للص يتبقى خمسون جنيها هي ربحه ويستطيع أن يدفعها إليهم.

تجمع معهم مائة جنيه، ثم أضاف إليها التاجر خمسين أخرى وقال إنه يعرف كيف يأخذها من التاجر، اللص، الذي باع له الماعز. قال حمزة في نفسه: "الاثنان لصان كبيران يلعبان بنا لكن لا بأس" ثم قال بصوت مسموع.

- لو عدنا بسرعة ولحقنا بعيد قد نجد معه الخمسين جنيها فتكون خسارتنا بسيطة.

لكن عيد الذي اجتمعوا حوله في اليوم نفسه تركهم يفتشون جيب قفطانه باسما، لم يجدوا شيئًا ولم يكف هو عن الابتسام. لم يكن عيد وحده، كان معه شخصان معتوهان لا يعرف أحد من أين أتى بهما ولا إلى أين يذهب معهما. أمسكوه من ذراعيه يهزونه بعنف.. أين الفلوس ثمن الماعز يا عيد؟ لكن امرأة جميلة ظهرت في الطريق وجهها يشتعل تحت ضوء الشمس الأخير، وعيناها تشعان نورا، حاول هو أن يفلت من أيديهم، لكنهم تشبثوا به حتى ابتعدت المرأة كثيراً في اتجاه كفر عشري، وفي لحظة خاطفة هبط عيد إلى الأرض وجرى خارجا من القفطان الذي كانوا يتشبثون به من الكمين. لذهولهم وجدوا القفطان في أيديهم وسمعوا ضحكات الأطفال التي انفجرت من كل مكان يقفون فيه بينما كان عيد يسرع في تصميم عجيب نحو المرأة وليس فوقه غير الفانلة واللباس.

## ( ٢ )

دبت الحركة فجأة في بيت الجوني. هي وأمها وأختها الكبيرة المتزوجة التي تعيش في محرم بك يعملن بهمة في تنظيف البيت. يصعدن إلى السطح بالمراتب والحشايا ويرششن الفنيك في الأركان وفي الحمام وعند عتبة البيت وينظفن النوافذ والأبواب.. زائر هام سيزور البيت اليوم.

الأولاد في إجازة بمناسبة الذكرى الأولى للوحدة بين مصر وسوريا، شارع المحمودية منذ الصباح ممتلئ بهم، وبعضهم ذهب إلى الملاحة لصيد السمك، البنات الصغيرات لم تخرجن بعد، وإن كن يهيئن أنفسهن للخروج عصرا للعب الهولاهوب بالأطواق، اليوم سيخطب خير الدين الجوني.. ففي بيت خير الدين كانت الزغاريد ترتفع من وقت لآخر.

السؤال المكتوم على وجوه الناس قالته أبلة نرجس لزوجها، هل يصلح خير الدين للجوني؟ هو بدوره أجاب بإيجاز، ولم لا؟ سكتت أبلة نرجس التي لم ترتح للإجابة.

فكرت أن تعلق ولو بكلمة، لكنها سكتت من جديد. منذ العلقة العجيبة التي نالها مع الرجال فوق الكوبري وقد تغير حالـه. في صمت يأكل، في صمت يخرج، في صمت يـدخل، فـي صمت يتكلم! لقد رتب نفسه وحده على الانتقام، تردد عليـه محمود عمران، كيف يحدث أننا نسكت، لا كنا رجـالاً مـن الصعيد ولا كان الصعيد، قال له دعني أرتب المسألة. تعلقت هي به، أمسكت برقبته وتوسلت أن ينسى لما رأتـه يجهـز الحبال والأجولة التي سيضع فيها الرجال، وسـمعته يقـول لمحمود عمران أن ينقل بالليل عددا من الأحجـار، يفرقهـا على شاطئ الترعة تحت الكوبري بحيث لا تلفت انتباه أحد. كان واضحا أنه قرر إغراق رجال كفر عشري فـي ترعـة المحمودية وإلى الأبد. سافر إلى الصعيد وعاد. سيصل بعـد أسبوع عشرة رجال. قال لمحمود عمران الذي قال بـدوره، وأنا توصلت لعناوين الرجال الذين ادعوا أنهم مخبرون ولمن شارك معهم.. ولا يعرف أحد من الذي كان وراء الحضـور الجماعي لعدد كبير من رجال كفر عشري، فجأة وبلا موعد إلى المساكن.. جاءوا معهم بالجناة وأوقفوهم أمـام رجـال المساكن.

"ها هم.. اقتلوهم لو شئتم.. ها هي العصى لضربهم وها هي السكاكين لذبحهم، وها هـي المسدسـات لضـربهم بالنار" إذن لقد فسد الترتيب كله. من الذي أخبر أهـل كفـر عشري بما يجهز لهم. وهل يمكن أن يتم هذا بالصدفة؟ قـال كبيرهم لعلي زين العابدين لقد سمعت باسمك بـين الرجـال الذين أهينوا، فلم يغمض لي جفن حتى أتيت إليـك بالجنـاة. كان تاجرا مشهورا هناك، كره على زيـن العابـدين هـذه التجارة التي تجعل له أصدقاء في كل مكان. كان لها أثرهـا الإيجابي يوم سرقت الماعز، أما هذه المـرة فقـد أفسـدت الانتقام.

كما يحدث في مثل هذه الحالات لم يعاقبوا الجنـاة، الذين بدورهم أخرجوا ثلاثمائة جنيه، كان كبار الحـي قـد حكموا عليهم بها. لكن أهل المساكن أيضا لم يقبلوا الفلـوس، فاشتروا أربع بقرات سمان ذبحوا اثنتين منها في المسـاكن، ووزعوا لحمها على الناس، ثم ذبحوا الأخريين بكفر عشري. انتهت القصة بدم لكن حلال! وظل علي زين العابدين علـى حالته. معبأ بالصمت في كل وقت.

كانت الجوني في البيت هي الأكثر حركة. صـوتها يعلو وهي تنادي أختها، أو ترد على أمها، وكثيرا ما تشـرد وهي تعمل فتبتسم أختها في مكر.. لم تكن الجوني سعيدة ولم تكن حزينة بالطبع. كان قلق غير مفهوم يسكن عينيها ويتسع في صدرها. ذهبت إلى أبلة نرجس بعد أن تم ترتيب البيت، وقبل أن تستحم، تطلب منها بعض البارفان الغالي الـذي لا يوجد إلا عندها حيث تشتريه من محل لمبروزو بالمنشية.

- بسم الله ما شاء الله.. وردة يا جـوني.. النـار طالعة من وجهك تحرق كل عدو وحساد.

قالت أبلة نرجس وهي تبتسم في فرحـة حقيقيـة.. وأعطتها زجاجة البارفان كاملة:

- شانيل يا جوني.. عطـر فرنسـاوي غـالي لا يخرج إلا للغاليين - وهمست في أذنها - الشـمة الواحـدة تدوخ أجدع رجل.

ابتسمت الجوني واحمر وجهها ولم تستطع أن تمنع نفسها من المزاح فقالت:

- خير الدين دائخ طبيعي يا أبلتي، ربنـا يسـتر عليه.

ضحكت أبلة نرجس، وتأملتها في دهشة ثم قالت:

- اسمعي يا جوني، ما دمت تحبينه لا تتراجعي.
- حاضر يا أبلة.

قالت الجوني في رضـا جميـل، وأضـافت أبلـة نرجس:

- ثم ما دام أبوك وأمك موافقين لا يهمك شيء.
- أبي موافق.. أمي مترددة.. موافقة من أجلـي.. أنا موافقة لكن خائفة.. ساعات أقول لأ وساعات أقـول آه.. لنفسي يعني. غير معقول إنه يخرج من المستشفى دون شفاء يا أبلتي.. لابد أنه شفي تماما، لابد أنه سليم.. أليس كذلك؟

على الجانب الآخر كان خير الدين يجلس في البيت مع سليمان وكروان سعيدا. لا يكاد يجلس إلا لينهض ينظـر في المرآة.. سليمان يبتسم ثم يضحك.. جميل يا خير الـدين آخر جمال! كروان صامت أغلب الوقت.. هو أصغر من أن يتحدث في مثل هذه المناسبات، خير الدين يحبه وهو يحـب خير الدين. ربط خير الدين الكرافتة وارتدى جاكـت البدلـة ووقف أمام سليمان وكروان مبتسما.

- ما رأي صديقي؟

بدا جميلاً بحق. أسمر لامع وجهه، عيناه العسليتان تشعان لمعانًا آسرا، وضع الفازلين على شعره فازداد بريقًا، دعك أسنانه بعناية منذ فتـرة فصـارت بيضـاء مشـرقة، والجزمة السوداء في قدميه بيضاء الجانبين لها بوز جميـل، يتناسب بياضها وسوادها مع البدلة الشـارك سـكين التـي يرتديها، البنطلون الأسود فوقه الجاكت الأبيض تحته القميص اللينوه السماوي الفاخر. صفر سليمان واتسعت عيناه إعجابا.

- من أين حصلت على هذه الثياب الجميلة؟ مـن أي مكوجي أجرتها؟

ضحكوا، وضحكت معهم أم خير الـدين القصـيرة البيضاء وأبوه الأسمر النحيل الناشف وقال خير الدين:

- وضعت فيها كل مدخراتي في الشهور الماضية. عشرة جنيهات كاملة. ثم أمسك ببخاخة عطور أشبه ببخاخة المزين لكن أصغر وراح يطلق منها الكولونيا علـى رأسـه ووجهه ثم استدار وأطلق منها على وجـه ورأس كـل مـن سليمان وكروان. اتسع صدر كليهما، واتسعت بـه الغرفـة وأحس بالبهجة تسكبها الكولونيا في روحه وقال خير الدين:

- ما رأيكما أن تأتيا معي؟

- إلى هنا وتذهب وحدك. سننتظرك لنحتفل بك بعد الخطوبة.

اقترب خير الدين منهما وقال:

- بعد الخطوبة سآخذ الجوني إلى السينما. هناك فيلم جميل في سينما فريال.. - ثم همس لهما قائلاً - فيلم "قبلني في الظلام".. فيلم جديد لهند رستم وشكري سرحان.

ضحك سليمان وكروان، وتركاه ليذهب مع أهله للخطوبة. لم يطل الوقت. كانت الساعة حوالي الرابعة بعد الظهر. تحدث أبو خير الدين واستمع أبو الجوني، قدمت لهم الجوني صينية فوقها أكواب الشربات. وافق أبو الجوني على الخطوبة من خير الدين الهادئ المثقف المكافح، ولم تتكلم أم الجوني، بينما زغردت أختها وأم خير الدين. سمعت أبلة نرجس الزغاريد فنهضت ومشت على مهلها ودخلت من الباب المفتوح تبارك للجميع، خلفها تقاطرت النساء والبنات وسرعان ما امتلأ البيت بالجيران، فانشغلت أم الجوني وأختها بتوزيع الشربات واضطرت أم الجوني أن تهتف في الجميع قائلة:

- اليوم قراءة فاتحة فقط.. الخطوبة بعد ثلاثة أشهر.

- إذن لا توجد بسطة

- بعد ثلاثة أشهر.. اليوم شربات فقط.

ضحكت النساء وانصرفن ومعهن أولادهن ووقف خير الدين يستأذن في الخروج مع الجوني.

كان اليوم أبيض رائقًا. يوم سكندري حقيقي.. وفي الخارج كانت الشمس التي ذهبت للمغيب لا تزال تترك نورها الأبيض على الأرض حول الأولاد والبنات الصغيرات. الأولاد يلعبون الكرة والبنات ينتشرن بطوق الهولاهوب، وسليمان الذي أحضر كرسيا من بيته بعد أن ترك خير الدين جلس على الرصيف يتأمل الأطفال. يتأمل البنات في الحقيقة.. يتأمل من بينهن بنتًا لم تظهر من قبل. ظهرت الجوني خارجة من بوابة المساكن تتأبط ذراع خير الدين يسبقها عطرها العجيب الذي لم يشم أحد مثله من قبل في المنطقة، وترتدي جوب أزرق سماوي فوقه بلوزة صفراء بديعة لها ياقة بيضاء، وفوق البلوزة جاكت أزرق سماوي بلون الجوب. إنه "تايير" كامل، لم يحدث هنا أن

ارتدت بنت أو امرأة تاييرا كاملاً إلا حكمت. لقـد اشـترته للجوني أمها من هانو، وطلبت منها أن تحافظ عليه ولا تلبسه إلا في المناسبات الكبيرة!

ظهرت الجوني طويلة ممشـوقة القـوام، شـعرها الأصفر الغزير خلفها يعطيها جمالاً أخاذًا.. في قدميها حذاء بكعب عالٍ تمشي به في ثقة كمن تدربت عليه من قبل كثيرا. جعلها الحذاء من الخلف تبدو مثل مـارلين مـونرو بديعـة التقسيم مكورة الردفين تلمع ربلتي سـاقيها تحـت الجـوب القصير نوعا ما.. هكذا رآها سليمان وهي تمر مـن أمامـه فوقف يحييها هي وخير الدين بينما صفق الأولاد جميعا الذين في الشارع، وتوقف اللاعبون عن اللعـب ليصـفقوا أيضـا للعريس والعروسة "ابنا الحتة" فهز خير الدين رأسـه ممتنًـا وهو يتمتم شكرا.. شكرا. لقد تصرف كما يليق برجل حقيقي رشيد بينما ابتسمت الجوني خجلى وتهللت عيناهـا بـالفرح وأحست بالثقة في النفس، وأن أهل المساكن جميعـا أهلهـا وأولادهم أخوتها، وحينما رآهما حبشى وهما يركبان المعدية تعبر بهما إلى البر الثاني ليستقلا الترام قال لبدرة:

- هذه هي النعمة الإلهية التي يعطيها الله لـبعض الناس يا بدرة. الجوني هي النعمة الإلهية وخير الدين الطيب هو الذي قسم له الله أن ينعم بها. ادعى له بالشفاء يا امرأة.

عاد سليمان يتأمل البنت التي لم تظهر مـن قبـل، والتي ظهرت اليوم تلعب الهولاهوب في الشارع. كان يعرف أن أسرة جديدة نزلت بالبيت المقابل لبيت أسرته. سمع حركة نقل الأثاث بالليل أمس.. وفي الصباح شاهد رب هذه الأسرة الجديدة وهو خارج إلى العمل. رجل نحيل للغايـة أسـمر، متوسط الطول، له وجه بـريء كوجـوه الأطفـال، ورأى زوجته تقف بالباب لحظات بعد خروجـه، بيضـاء جميلـة مستديرة الوجه، ولدهشته كان لكل من الرجل وزوجته عينان خضراوان. رأى آخر النهار الأطفال وهم يخرجـون مـن البيت إلى الشارع. ثلاث بنات وثلاثة صبيان أكبـرهم فـي حوالي الثالثة عشرة، أسمر كأبيه، وبقية الأولاد بيض كأمهم، الجميع عيونهم خضراء. أسرة كاملة عيونهم خضراء شـيء لم يحدث من قبل هنا. لاحظ أن أكبر البنـات فـي حـوالي العاشرة، أجملهن على الإطلاق، شعرها، على غير أخواتها، تركته الأم غزيرا طويلاً خلفها. شـقراء بريئـة فـي لعبـة

الهولاهوب العجيبة. تذكر حكمت التي كانت فائقة الجمـال، كيف ذبل جمالها بسرعة بعد الزواج. تابع النظر على البنت الجديدة وقال في نفسه الجمال يحل محل الجمـال، ومـازال هناك أمل في هذا العالم!

كانت سفينة كبيرة تمر خلف الجميع بالمحموديـة، شراعها مفتوح على آخره لنسمة الشتاء المسائية، شـراعها أبيض عريض جاذب للنظر وهو معبأ بالهواء. وقفت البنـت تتأمل المشهد العجيب للسفينة التي لم تر مثلها من قبل. وكان رجل قد لف وسطه بالحبل المربوط بصاري الشراع، ويمشي على الشاطيء يشد السفينة يساعد شـراعها. بـدا عملاقًـا أسطوريا بصدره العريض وصداره الممزق ولباسه الخشـن الواسع. بدا كما لو كان إلها من آلهة الإغريق التـي تخـرج فجأة في الأفلام تعترض طريق الأبطال. بوزايدون إله البحر الذي خرج لبحارة السفينة الأرجون من قلـب المـاء. هـذه الأساطير التي يقرؤها سليمان ويحبها وتتركـه فـي دهشـة مفتوحا رأسه للهواء من كل ناحية!.. ظهـر تشـكيل مـن عصافير المساء يطير فوق الرءوس. هذه الطيور تأتي دائما في الأماسي الجميلة، اليوم جميل يا سليمان، ألـيس كـذلك؟

العصافير مبتهجة في الفضاء رغم أن أحدا لا يعرف من أين تأتي ولا أين تذهب حين يحل الظلام.. ليس في المدى القريب أشجار ولا جبال. الطيور الجميلة انخفضت كثيرا ورفرفت بأجنحتها بقوة. الجميع رفعوا أبصارهم إليها.. البنت السعيدة الرشيقة تركت الطوق يدور في وسطها ورفعت بصرها تتابع تشكيلات الطيور التي انضمت إليها أسراب أخرى شكلت دائرة كبيرة في الفضاء هبطت قليلاً لتقترب من رأس البنت ثم وقفت لترفرف بقوة وترتفع بشموخ.. الله.. الله.. الله.. هتف أكثر من ولد، وقف اللاعبون منهم وهتفوا فرحانين، أما الجالسون عند السلالم المؤدية إلى القبو فقد وقفوا مبهورين وهم يهمون بترك أماكنهم والعودة إلى منازلهم التي لا يعرفها أحد. لقد أوشك الظلام أن يتملك الدنيا بعد قليل، وسليمان الذي كان جالسا وقف وهو يشعر بقلبه يرفرف مع الطيور.. لقد رأى البنت تخرج من الطوق، وتعود إلى البيت وخلفها أخواتها الأصغر. مرت أمامه وابتسمت له فلم ينتبه إلى مرورها إذ ظن ذاك الذي ابتسم له طيف يعبر الفضاء.

توقف الأولاد عن لعب الكرة، وجلسوا على سـلالم الماكينة الحمراء كعادتهم ونزل الظلام وقال إبراهيم بلك:

- لقد نزلت بالمساكن عائلة جديدة.

قال مصطفى:

- نعرف.. بيتهم أمام بيتنا.

قال بلك:

- لا.. لا أقصد هذه العائلة البيضاء، أتكلـم عـن عائلة أخرى سوداء تماما، كل أفرادهـا سـود نزلـت فـي شارعنا.. واضح أنها عائلة كبيرة.. نظروا إليه جميعا، وإلى سواده اللامع في الغبش وقال مصطفى ضاحكًا:

- ماذا تقصد بعائلة كبيرة.. هل يعني هـذا أنكـم صرتم أغلبية؟ يعني أغلبية في مجلس الأمة!

ضحكوا جميعا، ملأ ضحكهم الفضاء، تذكروا مـا يقوله الخواجه بطسو لإبراهيم بلك كلما رآه. أنت يا ولد أسود رغم أن أمك بيضاء، كان حقك تطلع لأمك مش لأبوك! خـد يا ولد اشتري لي بيضتين أوعى تلمسهم لحسن يسودوا. ظلوا يتكلمون وسليمان لا يبرح مكانه فوق المقعد على الرصـيف تصل إليه أصواتهم لكن لا يميز ما يقولون. مر مـن أمامـه

تاكسي توقف عند بوابة المساكن. لقد عاد خير الدين والجوني. كانت الساعة حوالي العاشرة. رأى الجوني تسبق خير الدين في الدخول بسرعة على البوابة. هذه أول مرة تتأخر فيها في الخارج، وربما هذه أول مرة تتأخر فيها بنت من المساكن، باستثناء نوال التي تستدعي ظروف عملها ذلك. لكن ما أدراك يا سليمان؟ وهل تجلس هنا كل يوم وترى المتأخرين والمتأخرات، وهل يعرف أحد غير الله ماذا يحدث في هذه البيوت المتكومة على بعضها بالليل. وما يدريك فقد تنتظر البنات كل ليلة حتى ينام الأهل ثم يفتحن الأبواب في هدوء ليقابلن الصبيان في الظلام. يا له من مشهد سوريالي. البنات الصغيرات والكبيرات معا. يقابلن الصبيان الكبار والصغار، ويمارس الجميع الجنس على تراب الشارع الوسطاني بعد منتصف الليل والمطر يهطل فوقهم بلا انقطاع. وتناهت إليه ضحكات الأولاد الذين كان مصطفى يحكي لهم حكاية "فول السوداني" الذي كان يخفيه مع عبده وكروان خلف "وابور النور" من ناحية السكة الحديد أيام كانوا يذهبون معا إلى مدرسة القباري الابتدائية. كانوا يأخذونه من قطارات البضاعة المتوقفة بإزاء الأرصفة،

ويخبئونه في مكان سري جوار سور "وابور النور" أو شركة توليد الكهرباء التي تغذي السكك الحديدية بالنور. ذات يـوم تركهم عبده عند عودتهم من المدرسة. قال إنه ذاهـب إلـى "حناطة" في الغيط بأرض الموز بالقباري. كـان مصـطفى يعرف أن عبده كذاب، فحناطة صاحب الغيط طـرده منـذ أسبوع، قال الكروان "إن هناك شيئًا سيفعله عبده لا نعرفـه ولا يريدنا أن نستفيد منه معه. سنأخذ السوداني كله ونبيعـه لأي مقلاة وإذا سألك قل إن الشرطي ضبطنا وصادر الكمية كلها". بالفعل ذهب عبده في اليوم التالي إلى المخزن السري، الذي كان حفرة كبيرة في الأرض جوار السور، فلـم يجـد السوداني. ضحكوا وسأل مصطفى عبده. حقا لماذا طـردك حناطة يا عبده؟.

ضحك الجميع من سؤال مصطفى لأنهـم يعرفـون الإجابة. كان هناك اتفاق بين عبده وحناطة صـاحب الغـيط الكبير بأرض الموز بمقتضاه ينصب عبده عيدان" المخـيط" التي هي عيدان قصيرة من الجريد مغموسة في صمغ خاص ويطلق عليها هذا الاسم المشتق من "المخـاط"، لقـوام هـذا الصمغ المخاطي، إن لم يكن للشكل المنفر أيضـا. ينصـب

عبده عيدان المخيط بين أفرع الأشجار بغيط حناطة. آخـر النهار يجمعها بما يكون قد لصق بها مـن عصـافير ويـتم اقتسام الكمية مناصفة. في أحد الأيام هرب عبده بالعصـافير كلها مبكرا وجاء في اليوم التالي إلى حناطة بلا مليم معـه. كانت العادة أن يبيع العصافير في بار بالفراهدة ثم يعود إلى حناطة بثمنها. قال إنه لم يصطد أي عصفورة أمـس. كـان حناطة يعرف أنه اصطاد خمسـين عصـفورة إذ رآه أحـد رجاله يبيعها في بار صغير بالمنشية. لقد غير عبده مكـان البيع لكن هكذا شاء سوء حظه. صفع حناطة عبده وضـربه بالشلوت وأخذ حذاءه وتركه يعود حافياً وأقسـم إن رآه فـي الغيط لأخذ ملابسه أيضا وفعل فيه الفاحشة.. ضحك عبـده وهو يتذكر وقائع ذلك اليوم وقال:

- الجزمة كانت قديمة تركتها له وجريـت. فـي طريقي رأيت سباطة موز كان قطعها من الشجرة، حملتهـا وهربت بها. كاد يلحق بي لولا أنني وصـلت إلـى السـور الفاصل بين الغيطان والسكك الحديدية ونفذت من فتحة فيه. وجدت قطار بضاعة فتعلقت بالسبنسة، صعدت إليها بعد أن نجحت في وضع السباطة من فتحة الباب فوق سلم السبنسة.

حناطة لا يعرف القفز إلى القطارات ولا منها مثلنـا. وقـف يائسا ورحت أشير إليه بأصبع يدي الوسطاني في الفضاء.

ضحكوا وراحوا يتذكرون الحكايات الكثيرة لعبـده الذي دائما ما يخون أي شخص يتعاون معه - في العـادة لا يكفون عن التعاون معه - فإذا ذهـب معـه أحـد لصـيد العصافير هرب عبده بالعصافير كلها، وإذا ذهب أحد معـه لصيد السمك يفعل ذلك أيضا، أما إذا ذهبـوا إلـى السـينما فيقطع لهم التذاكر بعد أن يجمع ثمنها منهم، ثم يقف يبيعهـا في السوق السوداء وهم حوله مندهشون. "معلهـش. معـي تذاكر أخرى. انتظروا" وما يكاد يفرغ من البيع حتى يعيـد لكل منهم ثمن تذكرته ويجري بما كسبه ولا يـدخل معهـم السينما!.

- كانت أياما جميلة أيام مدرسة القباري الابتدائية.

قال مصطفى الذي هو في الإعداديـة الآن. فقـال عبده:

- كنا نصطاد العصافير في طريقنا ونسرق الفول السوداني والقصب وحتى البصل كنا نبيعه للتلاميذ. أي والله. كانوا يستخدمون البصل مع ساندوتشات الفول.

ضحكوا وقال مصطفى:

- هل نسيت صياد اليمام الذي أعطى كروان يمامة مرة وكنت تريد أن تأخذها منه.

كروان الأصغر، في السنة الأولى الإعداديـة الآن، قال:

- مازلت أمشي وحدي في نفس الطريق ومـازال صياد اليمام يصطاد اليمام لكنه يبدو دائما شاردا وكأنـه لـم يعرفني من قبل.

- هل مازالت الدبابات تـأتي مـن المينـا إلـى القطارات يا كروان؟

- الدبابات والمدافع والعربات العسكرية تأتي الآن أكثر من أي وقت.

إنني أحب الفرجة عليها جدا..

ضحك مصطفى وقال:

- طيب بالذمة هل هذا طريـق مدرسـة؟ يعنـي الواحد يذهب إلى المدرسة وسط معدات حربية! طيب كيـف يذهب إلى الحرب، بالكراسات.. عليه العـوض فـي ثـورة يوليو.

انطلقوا يضحكون، وزادت جلبتهم وهـم ينهضـون ليدخلوا بيوتهم، كان سليمان قد سبقهم في العودة إلى البيـت حيث ازدادت لسعة البرد والحقيقة أنه كان يريـد أن يكتـب شيئًا، أي شيء، لقد فجر فيه جمال البنت الصغيرة رغبة في التعبير عن شيء لا يعرفه. ربما يعرفه حين يمسك بالقلم.

كان حبشي وبدرة، داخل الكشك القريب جـدا مـن الماكينة الحمراء يسمعان أصوات الأولاد ويأتنسون بها. قالت بدرة:

- العجيب في أولاد المساكن أنهم دائما مبسوطون، لا يعرفون الحزن أبدا.

نظر إليها حبشي في استنكار وقال:

- ستحسدينهم يا بدرة؟

قالت باسمة:

- لا والله. أنا أحبهم جدا..

- تحبينهم. كيف؟

ارتبكت.. ضحكت ولم ترد.. اقتربت منه ودخلـت في صدره. فكر هو في معنى هذه الفكرة التي تتسلط عليـه منذ الصباح بأن بدرة يمكن أن تختفي كما اختفـت المـرأة

السابقة. كانت أصوات وضحكات الأولاد التي تصل إليهما تساعد في إبعاد هذه الفكرة السوداء عن رأسه. لقد سمع صوت الأولاد يجرون ضاحكين إلى منازلهم، وسمع صوت المطر الخفيف الذي هطل فجأة. قال لبدرة إنه يحلم بيوم يأخذها فيه في مركب جميل يجري بهما جنوبا صاعدين الريف والخضرة حتى يصلا إلى السودان فيعيشان هناك مع الطبيعة وعلى الطبيعة والأولاد حولهما، أولاده الحقيقيون وأولاده اللقطاء الذين أضاف إليهم واحدا منذ أسابيع أطلق عليه اسم "أتيلا الجبار" لأنه أول ما حمله عن الأرض ونظر في وجهه صفعه الولد على وجهه، وكانت قوة الصفعة شيئاً لم يتوقعه، قالت بدرة:

- نعيش على الطبيعة يعني عريانين؟
- على الأكثر قطعة قماش تسترنا مثل طرزان.
- طرزان؟.دائما تذكر اسمه، وتطلق اسمه على الأولاد. من طرزان هذا يا حبشي؟
- ياه يا بدرة. هذا موضوع طويل.

قالت في كسل:

- هل هو أطول من الليل؟

- لا طبعا.

- إذن أحكي لي قصته.

دخلت في حضنه أكثر فقال مستسلما:

- طرزان يا بدرة شاب ولد في الغابات، فقد أهله فقامت الحيوانات بتربيته فكبر صديقًا لها يعيش بينها ويقفز فوق الأشجار مثل القرود التي أرضعته وعلمته، ويصرخ كالأفيال صرخة جبارة تعرفها جميع الحيوانات، من الأسود إلى النمور إلى الفيلة والغزلان، وحتى وحيد القرن، وكلها تجري عليه لترى ماذا يريد منها.

- وحيد القرن هذا حيوان؟

- طبعا. هل تظنينه إنسانًا. حيوان شكله غبي وضخم مثل الجاموسة وله قرن واحد لو دخل في أي حيوان آخر يقتله على الفور. حيوان شرس يا بدرة الله يخرب عقلك أنا لا أعرف لماذا تسألينني هذه الأسئلة الليلة.

- طيب يا حبشي ربنا يسامحك. قل لي بعد صرخة طرزان هل كل الحيوانات تسمع كلامه حتى الأسد؟

- واللبؤة أيضا يا بدرة.

ضحكت. فهمت مغزى كلامه. قالت:

- طيب. أكمل يا حبشي.

- طرزان معه قردة لطيفة اسـمها شـيتا، طبعـا عارفاها، شيتا هذه تخلصه من كل المشاكل التي يقع فيها.

قالت:

- إخص عليك يا حبشي دائما تشبهني بشيتا. يعني أنا قردة؟

- يا وليه وهل يختلف القرد عن بني آدم. القـرد ليس إلا بني آدم ربنا سخطه لما مسح طيزه باللبن. وعلـى فكرة، ممكن ربنا يسخطنا بدون مسح لا باللبن ولا بالشاي.

ضحكت بدرة بصوت عال هذه المرة واهتزت فـي صدره، وضحك هو وأشعل سيجارة. واستمر يتحدث:

- طبعا. ربنا قادر على كل شيء ورأيت بنفسك ما جرى للسيد الأعرج. حرقه بدون نار، ولازم تأخذي عظة..

- إخص عليك يا حبشي، لماذا آخذ عظة؟ هل أنا غلطانة في شيء؟

- لا طبعا لكن الإنسان لابد يأخذ الموعظة في كل وقت.

وسكتا لحظات ابتسمت فيها بدرة وقالت:

- تعرف يا حبشي ربنا لو سخطني سيسخطك أنت أيضا.

قال ضاحكًا وهو يضمها بشدة..

- ما دمنا معا لا يهمني شيء..

- وإذا سخطنا سيسخطنا حجرين.

- الأحسن يا بدرة يسخطنا تمثالين. أجل. حبشي وبدرة. شيء مثل حسن ونعيمة مثلاً. وتأتي الناس تتفرج علينا، ويدفعون ثمن التذاكر للفرجة كما يفعلون عند دخولهم منطقة عمود السواري. المهم أن البادية تضرب حوالينا سورا وتعلق يافطة "منطقة أثرية".

- يا ليت يا حبشي، نصبح أغنياء بحق وحقيق.

أمسك بوجهها ووضع في فمها السيجارة لتأخذ نفسا وقال:

- الفلوس ستأخذها الدولة يا امرأة. سنصبح حجرين ألا تفهمين؟

نظرت على عينيه طويلاً وتساءلت:

- كيف تعرف كل هذه الأشياء يا حبشي؟

- من الدنيا. من الزمن. من السينما أيضا.

- خذني يا حبشي للسينما.

- سآخذك لكن مرة واحدة. السينما يمكن أن تلحس مخك.

ضحكت ثم قالت بعد لحظات صمت:

- أنا عرفت لماذا تحب طرزان يا حبشي. لأنه يتيم مثلك.

- ومثلك أنت أيضا.

- صحيح، ومثل الأولاد المساكين النائمين حولنا الآن.

- تعالي يا بدرة في حضني وبطلي كلام خلي الليلة تمر بسلام.

وما كادت تدخل في حضنه أكثر حتى فكرت أنه من الممكن أيضا أن يسخطهما الله حجرا واحدا لكن له رأسان. تشبثت به في فزع..

## ( ٣ )

غدا. أجل. غدا سيكون في شاطئ ستانلي أجمل شواطئ الإسكندرية. أكثر من عام تصحبه كاتبنا معها إلى الشاطئ. فرجة سنوية على اللحم الأجنبي النضير. البكيني، المايوه الذي لا تجرؤ مصرية على ارتدائه. موجود بكثرة هنا. أجسام كغصن البان، كالبوص الأخضر في البحيرات تتمايل مع الهواء. الكبائن، الأدوار الثلاثة المميزة من الكبائن أمامها العجائز يتأملن اتساع المياه، ورحابة الأفق، والسماء التي دائما زرقاء لا تشوبها سحب في شم النسيم، والغبار الذي أحيانًا يهب على المدينة من الصحراء لا يصل إلى ستانلي، يحجزه حاجز من هواء غير مرئي، كما تحجز الصخور الأمواج عن الدخول إلى الشاطئ. شاطئ ستانلي هو الأكثر نظافة إذن، والأكثر ملاءمة للأطفال يلعبون في الماء بلا خوف، في البحيرة الصغيرة التي على اليسار من الشاطئ الذي قسمته الصخور إلى نصفين. في شاطئ ستانلي يستطيع العجائز تأمل الأطفال بالضبط كما يتأملن الأفق البعيد. إنه الزمن في الحقيقة الذي تتأمله العجائز، الماضي

الذي انصرم بلا عودة واستكن هناك عند الأفق، والمسـتقبل الذي يمرح بين يدي الأطفال وضحكاتهم. إن إدراك الـزوال شيء صعب جدا، فكيف يقوى العجائز على تحمل فكرة إنهن قريبا جدا سيمتن؟.

ليس لكاتينا كابينة هناك، لكن لعائلة أسمهان كابينـة جميلة في الطابق الأخير اشتراها أبوها من رجل انجليـزي رحل بعد عام ١٩٥٦. أمام الكابينة يقـف العربـي يشـوي اللحم.. وتكون أسمهان في الماء مـع صـديقها الإيطـالي " ماسيمو كافاريللي" يا له من اسم صعب، لا يحب العربي هذا الماسيمو كافاريللي الذي ما يفتأ ينظر إلى العربي ويضـحك بلا سبب. لقد اشتكى مرة لأسمهان ففوجئ بها تقول له:

- لا تشغل بالك بماسيمو فهو أبله.

اندهش كيف حقا تصادق هذا الأبله كما تقول لكنـه لم يتلق إجابة. في الحقيقة هو لم يسأل. للأجانب أحوال. قال لنفسه وسكت. لكن ماسيمو لم يظهر في شم النسـيم العـام الماضي. قضى العربي معظم اليوم مع أسمهان وكاتينا فـي الماء. أخذهما فوق الديليسوار واندفع بهمـا عميقًـا وهـن يصرخن كالأطفال، كاتينا في مايوه أسـود قطعـة واحـدة

وأسمهان في مايوه أخضر قطعتين. تستطيع كاتينا أن تشتري البكيني وترتديه، لكن الجسم هو الذي يحدد نوع المايوه. لحم كاتينا ترهل عند الفخذين، أحمر مائل إلى السواد كلما اقترب من التقاء الفخذين. أسمهان لا يلتصق فخذاها. كل فخذ هـو عمود قوي متسق نحيل لكن من لحم منظوم، أبيض مائل إلى الحمرة الحقيقية. ربع قرن على الأقل يفصـل بـين كاتينـا وأسمهان، لكنهما تمرحان كطفلتين وهو يحب كاتينا ولا يحب أسمهان وإن كان يتمنى لو نالها مرة. حبـه لكاتينـا يجعلـه يخاص في علاقته مع أسمهان. وهل الإخلاص في العلاقـة يعني أن تخلو من الجنس؟. لا يعرف لكن هكذا يفهم الأمور هو المصري الشرقي ابن الناس الفقـراء الـذين إذا قامـت القيامة اليوم سينسونهم في أماكنهم ولن ينتبه لوجودهم أحـد، شيطان أو ملاك!.

سقطت كاتينا في الماء أكثر من مرة، وكذلك سقطت أسمهان، كل منهما تسبح بسرعة مدهشة، كاتينا فوق الماء أو تحته بقليل مثل فرس البحر القوي، أسمهان مثـل الـدرفيل الصغير اللاهي.

يجيد السباحة لكنهما يسـبقانه باسـتمرار فيتوقـف ويعود إلى الديليسوار الذي يكون الموج قد قربه إليه. تغطس كاتينا وأسمهان ولا تظهران، وفجأة تصعدان من تحت الماء على جانبي الديليسوار الذي يكون هو قـد ركبـه، ويقلبـان الديليسوار فيسقط العربي في الماء. يبتسم ويندهش من نفسه لماذا حقا لا يستطيع اللهو كالأطفال.

- عربي: هذا يوم جميل. أنت لازم تلعب.
- عربي أنت واقف على طـول مثـل عسـكري البوليس. غير معقول عربي لازم تكون في الماء مجنون!

في الغداء لا يستطيع العربي أن يأكل بشـراهتهما. ولا بشراهة أبي أسمهان البغل صاحب المطبعـة والكـرش الضخمة والرأس الأصلع الكبير والوجه الأحمر يكاد "يبـك" منه الدم. أول إيطالي بكرش يراه العربي في مصر، وكذلك لا يستطيع أن يجاري شراهة انطونيو أخي اسمهان ولا البنت الجميلة أوفيليا التي لا تتركه. طول النهار في حضنه، ترفـع وجهها إليه تقبله قبلات أشبه بالماء في نداوتها وبساطتها، وأم انطونيو تتابعهما في دهشة وصمت وفجأة تندفع في الكـلام. يبدو الإيطاليون للعربي لا يتوقفون عن الكلام ولا يلتقطـون

أنفاسهم وهم يتكلمون، إنهم كالمطر الذي ينهمر فجأة علـى الإسكندرية بالليل. يندفع أنطونيو بدوره في كلام ويضـحك أبوه ويقهقه ويقول كلمة أو اثنتين وتظل سحابة مـن قتامـة وجه الفتاة التي ما تلبث أن تبتسم في النهاية وتدخل من جديد في حضن انطونيو وتقبله قبلات ندية كالماء.

العربي لا يستطيع أن يأكل أو يشرب جيدا إلا مـع كاتينا وحدهما وفي البيت كما هو الآن يستعد معها للاستماع إلى حفلة شم النسيم الموسيقية من الإذاعـة يحييهـا فريـد الأطرش الذي سيغني كما هو معتاد أغنية الربيع ثم يتبعهـا بأغنية أول همسة.. كانت أسمهان هنا فـي الأتيليـه حتـى الساعة السادسة، وطوال اليوم ليس لها من حـديث إلا عـن أخيها أنطونيو الذي هرب من البلاد..

- ولماذا هرب انطونيو من البلاد؟

- هرب قبل أن يقبضوا عليه بيوم واحد. انطونيو شيوعي..

سكت العربي الذي تحيره هذه المسائل. عبد الناصر الذي يتبنى سياسة التمصير ويتهمه الأجانب بالشيوعية يقبض على الشيوعيين!

قالت كاتينا:

- لقد قبضوا على خمسة يونانيين في رأس السـنة الماضية، هل عادوا يقبضون على الشيوعيين من جديد؟

- أجل. حملة اعتقالات جديدة منذ أيام. الصـحافة الشيوعية في إيطاليا تهاجم مصر كثيرا.

- أنطونيو شاطر لأنه هرب.

- أنطونيو من أول السنة وهو يجهز للهروب ولا يتحدث معنا في شيء..

نطق العربي فجأة وقال:

- ألم يشارك أنطونيو في مقاومة الإنجليـز فـي بورسعيد؟

- شارك مع عدد من زملائه ومع يونانيين أيضا.

- إذن كان يجب أن يبقى هنا في مصر ويثبت لهم أنه وطني يحب مصر بدليل مشاركته فـي المقاومـة فـي بورسعيد.

- هل كانوا سيتركونه؟

تساءلت كاتينا فأجاب العربي:

- لا أظن أنهم يقبضون عليه.

للحظات تحدثت أسمهان بالإيطالية لكاتينا التي ردت باليونانية وفهمت كل منهما الأخرى فلازم العربي الصـمت. يعرف كلمات قليلة من اليونانية وأقل من الإيطاليـة لكنهمـا تتكلمان بسرعة. سكتوا جميعا لوقت طويل حتـى عـاودت أسمهان بالعربية..

- جاء البوليس وفتش بيتنا. ضابط طويـل جـدا وقوي جدا قال لأبي "سامع خواجة فياللي، نحن نعرف أنـك تعمل في مطبعة الخواجة بوتشيني في شارع عبـد المـنعم وإنك شريك في رأس المال أيضا، وابنك أنطونيو على علاقة قديمة بالشيوعيين المصريين. يحضر إليهم منشـورات مـن الخارج كلما سافر إيطاليا ويهرب لهم مقـالات تنشـر فـي الخارج..وضحكت أسمهان وهي تواصل القصة:

- أبي قال إنه ربى انطونيو ليكبر بتاع بنات وليس بتاع سياسة، وأن أنطونيو لا يمكن أن يكون شـيوعيا. ولـم يصدقوا أبي فأخذوه من بيتنا ونحن نرتعش أنا وأختي روزانا ونبكي. قال الضابط لا تخافوا، نحن لا نريد والـدكم. يـوم واحد وسيعود. فكرنا نتصل بالسفارة الإيطالية. قال أبي لنـا أن نفعل ذلك إذا غاب أكثر من يـوم واحـد. قـال ذلـك

بالإيطالية فابتسم الضابط وقال لا تخف فياللي ربما تعود بعد أقل من يوم. عاد أبي في اليوم التالي ليقول إنهم سألوه عـن أصحاب أنطونيو فقال لهم إنه لا يعرف له أصـدقاء، وأنـه يراه مع بنات كثيرات، وأعطاهم أسماء بنـات رحلـن مـع عائلاتهن في العام الأخير، وقال إن صديقه الوحيـد الـذي يعرفه من الرجال هو روسيليني عازف الجيتار في الكـوفي شوب الخاص بفندق الوندسور وهـذا لا يمكـن أن يكـون شيوعيا فهو يعزف للسكارى والعشاق ويغني لهـم أغـاني فرانك سيناترا وإيف مونتان وموريس شيفاليه. كـذلك كـان لأنطونيو صديقه باولو برتيني لاعب الكرة بالنادي الإيطالي، وهو أيضا طبيب أطفال في المستشفى الإيطالي، وباولو هذا ميوله ملكية مثل أبيه الذي كان في حـرس الملـك فيكتـور عمانويل الأول قبل الحرب العالمية الثانية، والأهم من ذلـك أن باولو نفسه سافر ليلعب في نادي نابولي!. أنطونيو ابنـي لا يمكن أن يكون شيوعيا..

قالت أسمهان إنهم بعد أن أطلقوا سراح أبيها قبل أن يمر يوم كامل فعلاً، كان منتعشًا ومزهـوا يشـعر بـالفخر والانتصار، لكنه فجأة بعد اليوم الثالث عاف الطعـام، وراح

يشرب الويسكي بشراهة ويدخن باستمرار. "كنا سنقوم بترحيلك سنيور فياللي لكن ثبت لنا أن أنطونيو لم يستخدم مطبعتك أبدا. لا تقل لنا إنه ليس شيوعيا، نحن نعرف أكثر منك. أنت أيضا لم تشترك معه في أي نشاط. هذا هو ما يهمنا، لكن أبلغ ابنك أننا سنصل إليه ولو اختبأ في ثقب إبرة في إيطاليا، وبلغه أنه من الآن على القائمة السوداء، يعني ممنوع من دخول مصر إلى الأبد".

قالت أسمهان إن أباها، بعد أن ظهر عليه الهزال وكاد يموت أكل وقال:

- لقد ولت أيام العز بالنسبة لنا ولكل الأجانب في مصر.

من يومها وفكرة الرحيل تراود أبي، ولا أظن أنه سيبقى هنا أكثر من عام.

- سترحلين معه؟

تساءل العربي.. ابتسمت وقالت:

- طبعا. هل أبقى في مصر وحدي..

ابتسمت كاتينا بمكر وهي تنظر إلى كل منهما مرة، لكنها لم تتكلم. قال العربي في نفسه هل يكون معقولاً أن

تدعوني لزواجها؟ لا أظن. أنها مجرد إجابة عن سـؤالي لا تعني شيئًا.. قالت له كاتينا بعد أن غادرت أسمهان الأتيليه..

- حاذر من أسمهان عربي.. أنها تغير الرجال كما تغير ملابسها الداخلية..

- ماذا تقصدين كاتينا؟

- أسمهان الآن على وشك الرحيل، ذاقت الكثيرين من الأجانب؛ إيطاليين ويونانيين وأرمن وقبارصـة وحتـى شباب من سويسرا ومن الشام، لكنها الآن تحـب أن تـذوق واحد مصري. وليس أفضل من حمار مسالم مثلك...

- أشكرك كاتينا على هذه الإهانة.

قال ذلك في صمت ولا مبالاة، فاقتربت منه ودخلت في حضنه وراحت تقبله قبلات هادئة لطيفة طازجة حقا لكنها أبدا ليست كالماء. لقد أدرك العربي الآن فقط ولأول مرة أن كاتينا تجاوزت في العمر الخمسين. وقال:

- إذن لن يكون هناك شم نسيم غدا مـع أسـمهان وأسرتها مثل كل عام. ابتسمت وقالت:

- سنذهب معا. لا تخف. نحن الأجانب لا يعطلنـا شيء عن حب الحياة. غدا أجازة شم النسيم في مصر كلهـا

ولابد أن نستمتع بها. سنذهب وسنرى أن أسمهان تنتظرنـا بشغف أكثر من أي وقت...

في الصباح أيقظ العربي كاتينا في وقـت مبكـر. يريدان الانطلاق إلى ستانلي قبل أن تزدحم المدينة أو تصفر من العواصف الرملية..

عندما عاد آخر النهار متعبا، لم يكن يفكر كثيرا في المسافات التي قطعها سباحة مع أسمهان أكثر مما قطعه مـع كاتينا، ولا في كثرة أعداد المسنين من الأجانب التي فاقـت كل الأعوام الماضية. كانت الأحاديث الطائرة حوله..

- الشباب يتركون مصر الآن.
- المغامرة برأس المال لم تعد مضمونة.
- العجائز سيرحلون قريبا أيضا.
- مصر تبتعد يوما بعد يوم عن البحر المتوسط.
- إنها تقترب أكثر من الاتحاد السوفيتي.
- مشروع السد العالى لم يستطع الغرب الغبي أن يفوز به.
- هل تظن أن إسرائيل وراء ذلك؟
- عبد الناصر يبحث عن دور تاريخي.

- عبد الناصر سيذهب بمصر في ستين داهية.
- من يدري. ربما يحدث العكس. الناس تحبه بجنون.
- هناك أحاديث عن تخطيط في الصناعة وعن خطة خمسية.
- تماما على طريقة الشيوعية في روسيا..
- هذا الشاطئ لم يعد شاطئنا..
- لقد كثرت فيه أعداد أولاد البلد..
- إنهم ينظرون إلينا بتحد..
- وربما بخوف، فأكثرهم يأتي إلى هنا أول مرة.
- الحقيقة نحن لم نهتم بهذا البلد قدر اهتمامنا بأنفسنا..
- من تقصد بنحن. أنتم الإيطاليون طبعا؟
- واليونانيون وكل المال. كل همنا هو أن نجمع الدولارات نرسلها إلى بنوكنا في بلادنا ونصيف بها في الريفييرا وكان وماربيلا.
- لو سمعك عبد الناصر لضمك لوزارته.
- هذا كلام الشيوعيين.

- إذن سيقبض عليك.. ها. ها. ها.

كان أحيانًا يلتقط المعنى بقليل من المفردات اليونانية أو الإيطالية التي يعرفها، وأحيانًا تترجم له كاتينا أو أسمهان وكان يسأل بشغف عن الأثر الذي يتركه ظهور الشباب من أولاد البلد على البلاج. قالت له أسمهان لما سألها عن ذلك أكثر من مرة.

- الآن صار الشاطيء طبيعيا، فيه الأجانب وفيه المصريون، مثل أي حديقة حيوانات بها الغزلان والقرود..

ابتلع الإهانة، لكنه لم يستطع أن يمحو أثرها عن وجهه. لقد اربد وجهه بحق وأحس بغيظ شديد..

- لا تزعل عربي.. لا تزعل حبيبي.

وقبلته بسرعة لكن القبلة كانت على شفتيه ولاحظ أنها عضت شفته السفلى بأسنانها المدربة.. تذكر على الفور حديث كاتينا. لعلها تعمدت تضايقني لتقترب مني بقوة. ما محبة إلا بعد عداوة يا عربي. وسحبته وراءها كثيرا في البحر، وقبلها كثيرا تحت الماء وفوقه.. لم يدرك قط أن اليوم شم النسيم إلا آخر النهار عند العودة. رأى زحام المدينة بينما كان النهار كله في جنة حقيقية. ارتفعت رائحة السردين

والفسيخ والرنجة من بعض الكبائن التي آلت للمصريين بينما ظلت الكبائن الأخرى تتضح بروائح فواكه البحر واللحوم المشوية والأسماك، والخمور وزجاجات البيرة كانت تبرق على المناضد أمام كبائن الأجانب، وكذلك كانت أمام كبائن المصريين.

عاد وسط زحام المدينة في تاكسي ومعه كاتينا. كان التاكسي يمشي ببطء على الكورنيش من فرط الزحام، فالمدينة اليوم مفتوحة منذ الصباح للقادمين من القاهرة والريف من الأعيان ويعودون الآن ولسوف تظل ملاهي الكورنيش عامرة حتى الصباح رغم تعب النهار، ولن ينقطع صوت الموسيقى على طول الشاطئ، وكانت المسافة من المنشية حتى العطارين هي الأصعب، فأفواج المشاة العائدين إلى الأحياء الشعبية الجنوبية أشبه بالطوفان وأصواتهم العالية تملأ الفضاء بالضحكات والنكات ودقات الطبول والدفوف والصاجات التي يشبكها عدد من الصبية والشباب في أصابعهم على طريقة الراقصات.. كانوا رجالاً متوسطي العمر ونساء وشبابا وشابات وصبية وبنات وأطفالاً بملابس من كل نوع، جلابيب وفساتين، شورتات، بنطلونات،

وقمصان، قفاطين، بيجامـات، حفـاة، بصـنادل، بجـزم، بشباشب، بيض وسود وخمري، عيون سـوداء، خضـراء، زرقاء، وعسلية، شعر أسود، أصفر، بني، أحمـر، أبـيض، رمادي. طـوال وقصـار، نحيفـون وسـمان، مسـرعون ومتمهلون، خليط عجيب وفوضى لا نهاية لهـا والسـيارات الأجرة والملاكي ترتفع أصوات أبواقهـا وتتحـرك بيـنهم تحرك السلحفاة، وميدان المنشية أشبه بيوم الحشر، أعـداد لا حصر لها فوق نجيل الحديقة الفرنسية يقفـزون ويتقـافزون وينطون الحبل ويغنون رغـم انصـرام النهـار، وميـدان التحرير، يشهد زحاما أكثر، وبين الزحام عشرات من باعـة الزهور، الفل والياسمين والقرنفل، وعشرات من المتسـولين الصغار، وجامعي أعقاب السجائر، وتملأ الجو رائحة الفسيخ والسردين الذي أكل بالنهار، وسلال المهملات قد امتلأت عن آخرها بالمخلفات التي فاضت مـن حواليهـا علـى الأرض العشبية وأخذتها الأقدام هنا وهناك فامتلأت الحديقة بـالورق المهمل والقاذورات، وحول تمثال محمد على تجمع العديدون يلتقطون الصور التذكارية، وبعض الصبية غامر بالصـعود على قاعدة التمثال والوقوف جوار الحصـان ولمـا حـاول

البعض الصعود أعلى الحصان منعه بعض الآخرين. عيب. لا يصح. إنه تمثال مدينتنا، لكن أحد المحاولين لـم يخضـع وحاول الصعود فانزلق من فوق ساق الحصان إلى القاعـدة العالية ثم سقط إلى الأرض بين ضحكات الواقفين وبينهم هم الذين حاولوا منعه. قالت كاتينا.

- شفت إسكندرية يا عربي؟

- شفت يا كاتينا..

كاد يقول كما قالت أسمهان صـارت غابـة بهـا الغزلان والقرود، لكن كيف يقول ذلك. ثم ماذا يهمـه مـن الإسكندرية التي لم تفطن إليه حتى الآن، فما هـو إلا تـابع صغير الشأن لامرأة ليست مصرية. فلتذهب الإسكندرية إلى الجحيم، وليذهب الأجانب وعبد الناصر والشيوعيون، كمـا ذهب اليهود والإنجليز والفرنسيون وكما يذهب كـل شـيء، فالأيام دول، وأيامه لا تزال ضائعة في قلب الزمان...

( ٤ )

هذه ليلة تحرص كل منهن ألا تفوتهـا. ليلـة شـم النسيم. يقل عددهن حقا لكن البهجة التـي تثيرهـا الحفلـة الإذاعية تجعل الدنيا حولهن متسعا مـن السـعادة. كـروان جالس بالقرب منهن يقرأ في كتاب صغير. سألته نوال.

- ماذا تقرأ يا كروان. قصة؟

- إنها قصة روبنسون كروزو الشهيرة..

ضحكت حسنة وقالت:

- من روبنسون كروزو ومن أين الشهرة إذا كنت أنا لا أعرفه.

ضحكت نوال وابتسم كروان وقال:

- هذه قصة مبسطة وليست الأصلية ويمكن بعد أن أنتهى منها أن تقرئيها..

- تاني يا كروان. أنا تركت المدارس فـي سـنة ثانية ابتدائي. قراءة تاني. طيب.. بدل الكتـاب هـات لـي عريس..

ارتفعت الضحكات تملأ الحجرة ثم قالت حسنة:

- إذا كانت قصة حب أحكيها لنا..

قالت أبلة نرجس مبتسمة:

- حسنة. اتركي كروان في حاله.. الولد صغير..

- صغير!. والنبي تلاقيه مقطع السمكة وذيلها.

هكذا أجابت حسنة، فضحك الجميع وأحس كـروان بالخجل وقالت نوال:

- صحيح يا كروان ما هي حكايـة أمينـة بنـت الأسطى البياع؟

ابتسم كروان واندفع يتكلم ببساطة وبراءة..

- هي في مدرسة المعلمـات الثانويـة. مدرسـة المعلمات بجوار مدرستنا، مدرسة طـاهر بـك الإعداديـة. السور بينهم واحد. في حصة الألعاب طـارت كـرة القـدم ونزلت في مدرستها. المدرس طلب مني أقفـز مـن فـوق السور. شالني زملائي وطلعت فوق السور. كان فيه بنـات كتير في الحوش. كان وقت الفسحة في المدرستين.. شاورت لواحدة منهم تحضر لي الكرة.. كانت أمينة. عرفتهـا لمـا قربت من السور وضحكت لي. قذفت الكرة ونزلت أنا.

- وبعد ...؟

تساءلت حسنة ضاحكة:

- خلاص .. لم أرها بعد ذلك. العصر لاقيت أمها تشتكي لأمي وتقول أني أطلع على سور المدرسة أعاكسـها. طيب كيف أعاكسها، وهي أكبر مني. ثم هل لأنهـا حلـوة أعاكسها. البنات الحلوين كتير. مدرسة المعلمات فيها بنـات كتير أحلى من أمينة ومع ذلك لا أعاكسـهن، أنـا لا أحـب ذلك..

كن في غاية الدهشة من حديث كروان الذي أدركن الآن أنه كبر بحق ودخل في طور الشـباب. قالـت حسـنة بهدوء ودهشة:

- يخرب عقلك يا كروان. كل هذا يطلع منك.

ابتسم وعاد يقرأ. كانت الموسيقى تنبعث من الإذاعة حيث لم تبدأ الحفلة الغنائية لفريد بعد، والمذيعة تتحدث عـن الربيع والزهور والحب فقالت نوال:

- دائما يتكلمون عن الربيع رغم أنه ليس أحسـن فصول السنة في مصر.

- كيف يا نوال؟

تساءلت نادية سلام.

- بسبب رياح الخامسين. إنها تفسد فصل الربيع كله..

- صحيح.

قال كروان مؤكدا على كلام نوال التي استطردت.

- أحسن فصول السنة في مصر هو الخريف، لكنه حزين.

- كيف؟

تساءلت حسنة. فقالت نوال بألم حقيقي:

- فيه تسقط أوراق الشجر وتذبل الزهور. ألا تسمعينهم يقولون خريف العمر. يعني فيه تشعرين بالنهاية تقترب. لكنه جميل لأن الجو فيه صاف ونقي وأمطاره خفيفة وحرارته معتدلة..

- والنبي إنت كلامك يحير يا نوال، كل شيء صار محيرا هذه الأيام..

قالت نوال بصوت خفيض كأنها تحدث نفسها:

- صحيح..

سكت الجميع ولم يعد في الغرفـة غيـر الصـمت والموسيقى الهادئة، حتى المذيعة سكتت الآن. تساءلت أبلـة نرجس:

- من أول السنة لم تسهري معنا يا نوال. كل من رآك قال إنك لست كالمعتاد. أمك تقول أنك سـرحانة علـى طول وشايلة الهم ولا تتحدثين مع أحد في شيء..

- والله يا أبلتي أنا في مشـكلة كبيـرة.. تعرفـت بجماعة شغلوا وقتي وعقلي.

- جماعة مطربين؟

تساءلت حسنة:

- ياليت .. فنانين وسياسيين.

- الشر بره وبعيد، الشر بره وبعيد.. أنت يا بنت مجنونة.

قالت ذلك حسنة بسرعة. وتأملتهـا الجـوني فـي استغراب. أما نادية فقد بدا على وجهها الخوف. كروان فقط هو الذي رفع رأسه عن الكتاب وأرهـف أذنيـه ليسـمع.. وتساءلت أبلة نرجس بهدوء:

- وكيف تعرفت عليهم؟

- عن طريق الدكتور أحمد الذي حدثتكن عنه من قبل وفي ليلة رأس السنة الأخيرة..

سكتن قليلاً. كن يفكرن في شيء واحد. قالت نادية:

- يعني الإشاعة التي سمعناها بأنك رجعت ليلـة رأس السنة سكرانة عند الفجر كانت صحيحة.

- سكرانة لا .. عند الفجر نعم.. أنا لـم اشـرب. الشرب يضر صوتي، غير أنه حرام.

ظهرت الدموع في عينيها فقالت أبلة نرجس:

- تكلمي يا نوال. فضفضي..

- أنا خائفة يا أبلتي. خايفة موت.. الدكتور أحمـد الذي حدثتكن عنه من قبل صارحني بحبه.

- وهل هذا يخيفك يا عبيطة. أنت هكذا تكون قـد انفتحت لك طاقة القدر.

- أنا فرحت لقد صارحني بحبه بعد تلك الليلة التي عرفني فيها بناس محترمين جدا. فنانين وسياسيين كما قلت. في البداية قلت ربما لا يحبني بقدر ما يحب صوتي، ثم قلت لنفسي ليكن.. وربما أيضا يستطيع واحد من هـؤلاء النـاس المحترمين أن يساعدني للدخول إلى الإذاعة. لقـد أعجبـوا

بصوتي. ذهلوا، لكن المشكلة أنه تم القبض عليهم جميعا تلك الليلة بعد أن تركتهم بقليل.

- يا لهوي.

هتفن جميعا، وضربن صدورهن بأيديهن بينما فتحت عينا كروان إلى أقصى مدى، وجف ريق أبلة نرجس وتساءلت بصوت مخنوق:

- كيف حدث ذلك؟

- كانوا معظم الوقت يشتمون في سياسة الدولة، الوحدة بالذات. كانوا يتكلمون بإعجاب عن التمصير، تمصير الشركات الأجنبية يعني وبيعها للمصريين، وأحيانًا يمدحون عبد الناصر على ذلك، ثم يعودون يشتمونه بسبب إلغاء الأحزاب وانعدام الديمقراطية. قالوا الوحدة غلط لأنها بين حكومات وليست بين شعوب حرة تملك أمر نفسها. وقالوا إن أية معارضة سياسية تنتهي على السجن. وقالوا إن طرد اليهود من مصر غلط لأنه أدى إلى ذهاب الكثيرين منهم إلى إسرائيل، التي عادت تتحدث عن مأساة اليهود وتدعو العالم إلى التبرع من أجلها. قالوا كلاما كبيرا كثيرا تلك الليلة بين الأغنيات..

كن يستمعن إليها بشغف غريب، رغم أن كثيرا مما قالته بدا غير مفهوم لهن، لم يقاطعنها، يردن سماع ما هـو أكثر، ظل كروان يستمع إليها في شغف. وعادت هـي إلـى الحديث:

- كانوا يتكلمون كلاما جميلاً في الفنـون والأدب والسينما والفن التشكيلي، الرسم يعني، وكـان بيـنهم فنانـة جميلة جدا. إيطالية من ناحية الأم اسمها بريجيت، وشـاعر اسمه عصمت مفتاح.. هل تعرفه يا كروان.

هل قرأت له شعرا..

- لا.

انتبه كروان على السؤال وأجاب فـي اضـطراب. استمرت هي في الكلام..

- عصمت مفتاح هذا شاب صغير، يبـدو فقيـرا وسط هؤلاء الناس، لكنه إذا ألقى بشعره بـدا كأنـه مـارد عملاق، أستغفر الله العظيم، بدا كأنه إله.. أي والله. رغم أني لم أفهم ولا كلمة من شعره. وكدت في لحظة أنهض مثلمـا فعلت بريجيت الفنانة وأقبله.. لا تؤاخذوني. هـؤلاء النـاس بسطاء جدا في علاقاتهم. وبريجيت هذه قد دعتني لأزورهـا

في مرسمها بقرية أبيس. ذهبت إليها فوجدتها مكتئبـة جـدا وحزينة. ذهبت إليها بعد تلك الليلة بأسبوع. وجدت عندها في المرسم لوحات كثيرة، غريبة الشكل، كلها نقط ملونة تخفـي وجوها متعبة وتقول لي هؤلاء هم الفلاحون، وأنه لازم أقرأ بعض الشيء في الفن التشكيلي، ضـحكت وقلـت لهـا إن الدكتور أحمد طلب مني أقرأ في تاريخ مصر، وأن الأسـتاذ نادر نعيم - وهو أهم شخص فيهم - طلب مني أقرأ قليلاً من الأدب، وضحكت وقلت لها إني التحقت بمدرسة التمـريض هربا من القراءة، وكذلك لأن والدي لا يستطيع الإنفاق على تعليمي.. آه. نسيت أقول لكم أنهم تلك الليلة تحدثوا كثيرا عن اليوم الذي سيأتي يسيطر فيه الشعب، والعمال بالذات، علـى الحكم، وعلى الاقتصاد، وذلك اليوم هو الذي سـينتهي فيـه الظلم. كان كلامهم أحيانًا يبدو لي مقنعا وجميلاً خاصة حين يتكلمون عن الشعب الذي يعيش أغلبيته تحت خط الفقر، لكن كلامهم في السياسة لم أفهمه، لكني كنت اندهش من ملابسهم الغالية جدا والأنيقة، والبارفان الذي يعطرون أنفسـهم بـه، والشقة التي نجلس فيها والتي لا تقل فخامة عن شقق أفـلام الباشوات، وكيف يحبون الفقراء هكذا. المهم. بريجيت ذلـك

اليوم بدأت ترسمني. أمضيت النهار كله معها وهي ترسمني، وقالت لي إنه بعد لقاء طويل آخر سننتهي من اللوحة التـي حين نظرت إليها وجدت تشبهني الخالق الناطق لكن يتبقـى مناطق تحتاج إلى تلوين ورتوش خفيفة كمـا قالـت وفجـأة وجدتها تبكي. مالك يا بريجيت. قالت. خسارة أن الزملاء لن يروا هذه اللوحة. ارتبكت أنا وأدركـت أن هنـاك شـيئًا لا أعرفه، رأتني مرتبكة خائفة فقالت لي لا أحد يعـرف متـى سيعودون. تجرأت وسألتها، وأين ذهب الزملاء؟ كنت أعرف أنها تقصد أولئك الرجال العظماء الذين قـابلتهم ليلـة رأس السنة. قالت "إلى المعتقلات" امتقع وجهي وارتعشـت بحـق فسألتني. " ألا تعرفين" قلت لها لا. اندهشت جدا كيـف لـم يخبرني الدكتور أحمد بذلك.. قالت صحيح أنت لست عضوة في الحزب ولم تقابليهم غير مرة واحدة لكن ممكن جـدا أن تتعرضي لاستجواب من أي نوع. ظهر على وجهـي فيمـا يبدو أنني أريد أن أسألها كيف لم تتعرض هي لذلك فقالت" لا تقلقي الدولة تتردد كثيراً في اعتقال النساء لكن لا أظـن أن هذا التردد سيطول لذلك لا تتأخري في الحضور لتنتهي هذه اللوحة"..

- وهل ذهبت إليها بعد ذلك؟

تساءلت حسنة في فزع.. فانهمرت الدموع من نوال وقالت.

- لم أذهب، وحتى الآن لم أذهب. حاولت في المستشفى أن أبتعد عن الدكتور أحمد قدر المستطاع، لكن قلبي لم يطاوعني، ووجدت نفسي أحب الغناء في المستشفى بالليل للمرضى أكثر من كل وقت، ولم أعد أتضايق حين يطلب مني كبير الجراحين أن أغني في غرفة العمليات. انتظرت أن يخبرني أحمد بشيء مما قالت لي بريجيت فلم يفعل. كان كل يوم يمر أطول من الدهر كله؛ لأني أخشى ألا أرى أحمد في اليوم التالي، لكني كنت أراه، ومازلت، وأحمد الله على ذلك، وأطلب منه السترة وأن يتزوجني أحمد كما فعل الدكتور سمير مع الممرضة سميحة التي صارت الآن ست بيت محترمة وقعدت من الشغل، لكن أحمد لا يتحدث معي في أمر الزواج، ولاحظت أنه هو الذي يبتعد عني. ماذا أفعل يا أبلتي أنا محتارة..؟

حط الصمت ثقيلاً هذه المرة. كان فريد الأطرش قد بدأ يغني أغنية الموسم الشهيرة "الربيع"، ووصل إلى الكوبليه الحزين.

وادي الشتا يا طول لياليـه
علـى اللـي فاتـه حبيبـه
ينـادي طيفـه ويناجيـه
ويشـكي للكـون تعذيبـه

قالت حسنة:

- اطفئ الراديو يا كروان. الحكاية مـش ناقصـة غم.

انتبهن إلى أن كروان جالس لا يزال. قالـت أبلـة نرجس:

- الدكتور أحمد يحبك يا نوال وبعده عنك حتى لا يعرضك للخطر.

فجأة اندفعت الجوني باكية وهي تقول:

- لكن الحكايات دي صعبة علينا قوي يا أبلتي..

اندفعت نادية سلام تتساءل:

- ولماذا قبضوا على هؤلاء النـاس.. مـا هـي التهمة؟

قالت نوال بهدوء:

- الشيوعية.

ضربت حسنة صدرها بيدها هاتفة في فزع..

- الشيوعية. يا مصيبتي. دي مصيبة كبيرة..

تأملتها نوال في دهشة:

- أنت تعرفين شيئًا عنها يا حسنة؟

- أبداً. لكن ظاهر من اسمها..

وهنا ضحكن، اختلطت الدموع بالضحات، ضـحك كروان ونهض تاركًا البيت. يحتاج إلى بعض الهواء الطازج على المحمودية خاصة والليلة نسيمها عليل.. قالت حسنة:

- أحسن شيء فعلاً الآن هو أن تغني يا نوال..

قالت نوال وهي تجفف دموعها بقطعة قماش مهملة.

- لا. سامحيني الليلة..

- إذن ترقص الجوني.. هيا يا بنت..

ووقفت الجوني تاركة حسنة تحزمها بشـريط مـن القماش. وقفت وسطهن كالملكة وراحت تتمايل على مهـل، بلا رغبة في الحقيقة، فقالت نادية سلام:

- أين أنت يا بدرية الآن؟ لقـد رقصـت العـام الماضي رقصا كالنار.

قالت حسنة:

- زمانها ماشية سارحة وراء الغنم في الصحراء..

ضحكن، ولم يبد أن الجـوني ستسـتطيع الـرقص بشهية، أدركت نوال أنها لم تقل لهن كل الحكايـة، وأن مـا أخفته كان أعظم، بينما فكرت نادية سلام في هذه القصـص العجيبة للحب التي تنمو وسط الدمار، فالجوني تحـب خيـر الدين المعرض للموت، ونوال تحب سياسيا معرضا للسجن، وهي أحبت إبراهيم مرسي غير المعرض لأي شـيء لكنـه يختار أماكن للموت والمرض..

كان كروان ذلك الوقت قـد وقـف علـى شـاطئ المحمودية وفوجئ بسليمان يقف هناك أيضا. لم يتحدث معه في أي شيء مما سمعه. لقد أدرك خطورته.. وجد سـليمان يأخذ نفسا عميقًا ويطلقه بهدوء وعلى مهل وفي وقت طويل..

- لماذا تفعل ذلك.؟

- يوجا. أحد التمارين الجميلة في اليوجا. يشعرك بالراحة والسعادة..

راح كروان يقلده لكنه لم يشعر بشيء فابتسم وقـال سليمان:

- هل تعرف ما هو إحساس إنسان حين يقف هنـا وحده بالليل وكل شيء حوله نائم من الجماد والبشر والطير والحيوان.؟

سكت كروان مرتبكًا قليلاً واستطرد سليمان:

- يشعر بالعظمة. بالألوهية. بأنه شيء أقرب إلى الآلهة.. بأنه إله حقيقي لهذا الكون الساكن حوله. ويمكن جدا أن يشعر بالتفاهة. بأنه لا يساوي شيئًا؛ لأنه لا يوجد من يقف حتى ليكلمه. بأنه لا أحد. فاقد الوجود والماهية معا!

لم يعلق كروان الذي كـان يعجـب دائمـا بكـلام سليمان. وإذا كان لهذا الكلام معان أكبر من قدرته على الفهم فسوف يكبر يوما ويدرس الفلسفة ويفهم. لـن يفعـل مثـل سليمان ويلتحق بأقسام العلوم؟ سيلتحق في المدرسة الثانويـة

بأقسام الآداب، وسيكون هدفه في هذه الحياة هو كلية الآداب والعلوم الإنسانية..

كانت البنات قد انصرفن بعد أن نبهت عليهن أبلـة نرجس ألا يتحدثن فيما قالت نوال حتى لأهاليهن، ورأين أن وجه المرأة البسيم لم يعد كما كان من قبل أبدا. في الحقيقة لم تكن خائفة. كانت فقط تدرك بحسها البسيط أن كارثة كبيرة ستحل بالمساكن. أن شيئًا لم يخطر ببال أحد سوف يقع. ولم يمر وقت طويل. في الصباح التالي، يوم شم النسـيم الـذي يخرج فيه الناس جميعا إلى الشواطئ والحدائق، كانت نـوال بالمستشفى بالنهار، إنه أحد أيام الطوارئ الخطيـرة خـلال العام. حالات التسمم بالفسيخ وحوادث الطريق والمشاجرات بسبب معاكسة البنات كلها تنتهي إلى المستشـفيات. كانـت تعرف أن الدكتور أحمد سيشاركها العمل اليوم لكنه لم يأت. في الساعات الأولى للصباح يبدو كـل شـيء هادئـا فـي المستشفى. المرضـى فـي أسـرتهم، والممرضـات فـي حجراتهن، وقسم الاستقبال لم يستقبل غير حادثة أو اثنتـين. كانت هي تفكر في اللقاء الذي لم يتكرر مع أحمد بعد ليلـة

رأس السنة، اللقاء الوحيد الذي تم بينهما خارج العمـل منـذ أسبوع في تريانون..

- لم أشأ أن أخبرك بما جرى للـزملاء حتـى لا أسبب لك أي ارتباك في حياتك.

- كان من المفروض ألا تتركني. لقد عرفت مـن بريجيت وانتظرت أن تكلمني في ذلك كل هذا الوقت.

- لقد حاولت الابتعاد عنك قدر الإمكان حتى تمر عدة أسابيع هي عادة الوقت الأكثر خطرا. لقد حدثت ضربة أخرى في مارس الماضي لعدد آخر من الشـيوعيين، ولقـد مضت عدة أسابيع على ذلك أيضـا الآن، ومـا دامـوا قـد أخطأوني في الضربتين، وحتى هذا الوقت فاحتمال أن يمـر الأمر بسلام يكاد يكون مائة في المائة.

- لذلك طلبت مقابلتي وهنا في العلن؟

- بالضبط.

- هل تحبني كل هذا الحب؟

- وأكثر. ستكونين مغنية الثورة القادمة.

سكتت. ترتبك كثيرا أمام هذه الأحاديث. قال:

- في كل حركة سرية يا نوال توجد امرأة تخفـي الرفاق، كنت ومازلت أحلم أنك هذه المرأة.

تذكرت قصيدة عصمت مفتاح العجيبة، بدأت تدرك شيئًا من معناها. هل يمكن أن تكون هي منذورة حقا لشـيء من ذلك؟ تساءلت..

- وبريجيت؟

- سافرت. استطاعت الخروج من مصـر. إنهـم يسهلون لمثل بريجيت الخروج. فهي من ناحية امرأة، ومـن ناحية أخرى فنانة، والأهم أن لها أصولاً أجنبية وحبسها في مصر خسارة للدولة أكثر من كونه مكسبا.

- لذلك لم يقبضوا على الرجال الأجانـب الـذين كانوا موجودين تلك الليلة.

- قبضوا على كل الموجودين، لقد أنقذنا خروجنـا أنا وبريجيت لتوصيلك إلى المنزل قبل أن تنفض الجلسة.

في صباح اليوم التالي لهذا اللقاء خرجا معـا مـن المستشفى فصحبها في سيارة تاكسي إلى شارع جانبي مـن شارع الرصافة بمحرم بك. أعجبها شارع الرصافة بنظافتـه وقوة مبانيه العصرية وشرفاتها الواسعة، كذلك بدا الشـارع

الجانبي نظيفًا للغاية. تركها في السيارة ودلف إلى إحدى العمارات الصغيرة ليعود بعد قليل ومعه كيس قماش أبيض بداخله لفة كبيرة صلبة. أعطى السائق جنيها كاملاً وقال له أن يعود بها على منزلها في كرموز.

كانت المدينة تستيقظ حولها، والشابورة تشف شيئًا فشيئًا والناس تظهر خارجة من الأزقة في سرعة كمن انتظر سنينًا طويلة خلف الأبواب في الظلام حتى لاح له النور وفتح له الباب. ازدادت الحركة في شارع محرم بك، وسمع صوت صرير الترام، وعند ميدان الجمهورية، عند محطة مصر، كان المسافرون يهرولون داخلين إلى المحطة، وعربجيو الحناطير يقدمون العلف لخيولهم. لماذا لا يبدو بين المسافرين الداخلين إلى المحطة نساء؟. لاحظت ذلك وتساءلت في نفسها. كان التاكسي يمشي بطيئًا كأنما يطلعها على هذه المدينة الغريبة، ودخل بها في شارع الخديوي ثم انحرف عند المدرسة التليانية إلى شارع عمود السواري داخلاً قلب كرموز. بسرعة كان قد عبر الكوبري، لم يكن في شارع عمود السواري شيء يمكن ملاحظته غير سور المقابر المصمت والعمارات الصامتة على الناحية الأخرى

ومحلات القماش التي لم تفتح أبوابها بعـد. اقتربـت مـن المساكن بعد أن قطع بها التاكسي الطريق الموازي لترعـة المحمودية ورأت عددا من الرجال يخرجون على أعمـالهم. لقد تعودوا أن يروها عائدة من المستشفى في الصباح الباكر. في البيت كان أبوها يستعد للخروج. تسـاءل مشـيرا إلـى المخلاة القماش..

- ما هذا يا نوال؟
- كتب في الطب.

ابتسم الرجل وهز رأسه وانصرف إلى عمله. عادت أمها التي استيقظت لإعداد الشاي والفطار لأبيها إلى النـوم. جلست هي في الصالة أمـام المخـلاة وتـذكرت أن تخلـع ملابسها. ارتدت جلبابا من القطن وعادت تجلس أمام المخلاة من جديد. فتحتها بسرعة ودلقت الكتب على "الكليم" القـديم الذي فوق الأرض.. كلها كتب بالإنجليزية. يمكن لها أن تقرأ على الأقل العناوين. "ذاكابيتال". قالـت لنفسـها هـذا عـن العاصمة! لكن من هو كارل ماركس هذا مؤلـف الكتـاب الضخم. فتحت الكتاب فوجدت صورة المؤلف تحتل الصفحة الأولى تكاد تقفز منها إلى حجرها. رأس كبير وشعر أسـود

كثيف وذقن كثيف ووجه مستدير وعينان ثاقبتان فوقهما جبهة عريضة. قالت في نفسها مبتسمة "يا حول الله. رجل شرس! ". وراحت تقلب بقية الكتب التي لم تستطع أن تفهم عناوينها أبدا. كيف حقا لم تحافظ على الإنجليزية التي تعلمتهـا فـي المدرسة؟ قرأت عنوانًا طويلاً لم تفهم منه غير كلمة "فاميلي" ورأت بالصفحة الأولى للكتاب رجلاً آخر يبدو أطول، ربما، وجهه أطول، كثيف الذقن والشعر مثل الأول، لكنه يبدو أكثر وداعة. اسمه فريدريك انجلز.. ورأت صورة رجـل ثالـث أصلع ذقنه مقصوصة رفيعة اسمه لينين. تذكرت أنها سمعت أسماءهم تتردد في أحاديث الزملاء ليلة رأس السـنة. هـل يمكن أن يكون هؤلاء الناس ذوو اللحى هم سبب المشاكل مع الحكومة؟ خافت للحظة، لكنها ابتسمت مـن نفسـها. كانـت سعادة لقاء الأمس في تريانون لا تزال تشملها.

أعادت الكتب إلى المخلاة وصعدت على سلم خشبي ووضعتها فوق السندرة بين صفائح السردين المملح والمخلل والبقايا المنزلية ونامت ذلك الصباح سعيدة كالأطفال الـذين حكت لهم الجدة حكاية جديدة جميلة مثيرة قبل النوم..

كان لابد من وقوع أكثر من حادثـة فـي المدينـة ووصولها إلى قسم الاستقبال لتأخذها من هذا التفكير، لكن لم تعد تصل حوادث كأنما لم يكـن اليـوم شـم النسـيم فـي الاسكندرية. لماذا حقا لا تنهض وتتصل هي بالتليفون بأحمد الذي لم يصل حتى الآن. فعلت ذلك فلم تجـد حـرارة فـي الخط. الخط مقطوع طول الوقت. وقبل أن تفكر كيف أحست بشيء من الرعب غير المفهوم ليلة أمس بعد أن غادرت أبلة نرجس وقبل أن تنام، وكيف دق قلبها بسرعة، دعاها مـدير المستشفى لمقابلته..

عرفتهم داخل غرفة المدير الواسعة. ثلة من رجال المباحث الذين يرتدون زيا مدنيا، وجوههم حمراء وعيـونهم يطل منها شرر وملابسهم نظيفة لامعة، إنهم ضباط ولا أقل، حولهم عدد من المخبرين كبير. لا تعرف لماذا وقعت عيناها على أياديهم الغليظة، الجميع، ضباطًا ومخبرين.. كان بينهم ضابط برتبة أعلى، لابد، فهو الأطول، والأقوى بدنيا، وهـو الذي تأملها بعينيه عند دخولها. إنه طويل جـدا أكثـر ممـا ينبغي، يكاد يصل في طوله إلى صاري السفينة أو العلم..

يستطيع أن يمسك أي شخص بيد واحـدة ويرفعـه عاليا ويلقى به من النافذة دون حتى أن يتحرك من مكانه!.. بدا لها مدير المستشفى القصير مسكينًا بينهم. ظهر في عينيه رعب فظيع. كان في الحجرة أيضـا عـدد مـن الأطبـاء المستائين من الشباب. سمعت الضابط الطويل يقول:

- أعتذر لكم عن دخولنا غرفة الأطباء وتفتيشـها، لكنها إجراءات ضرورية.

هذا إذن سبب استياء الأطباء. قال أحدهم للضابط..

- ما هي التهمة الموجهة للـدكتور أحمـد حتـى نستطيع أن نساعدك..

- العمل على قلب نظام الحكـم وتكـوين تنظـيم شيوعي متصل بجهات أجنبية..

كان يقول الكلام بهدوء وثقة متجاهلاً وجود نـوال تماما. كان يقصد ذلك وكانت هي توشك علـى الانهيـار.. لكنها سمعت الطبيب الشاب يقول:

- دكتور أحمد يفعل ذلك!؟ اسمح لي أقول لسيادتك مستحيل..

- نعم!؟

تساءل الضابط في غلاظة فقال الطبيب الشاب:

- اسمعني ولا تحاول إرهـابي. أحمـد شـخص خجول جدا يحب الموسيقى والغناء والشعر فكيف يقلب نظام الحكم؟ إنه بالكاد يقلب صفحة كتاب..

ضحك الأطباء الشبان وازداد رعب المدير وأحست نوال بالقدرة تدب فيها. هناك إمكانية للمواجهة إذن. اقتـرب الضابط من الطبيب الشاب وهمس بهدوء:

- يبدو أنك صديقه الحميم.
- أنا هنا منذ أسبوع فقط، لكـن لا أعتـذر عـن صداقته.
- من أين أتيت؟
- من أسوان.
- من أسوان وتعمل في الإسكندرية.
- لو أن الدولة وفرت المستشـفيات فـي أسـوان لظللت هناك..

هز الضابط رأسه أكثر من مرة وعاد على الخلـف صامتًا ثم جلس على مقعد المدير الواقف في ذعـر خلـف مكتبه وقال:

- أعدك أنك ستجد عملاً في أسوان، والآن نـتكلم مع السستر نوال. ألا زال صوتك حلو يا سستر..؟

كان الطبيب الشاب قد بلغ غاية الضيق فاندفع يقول:

- إذن نستطيع الانصراف، أم لديك أسئلة أخرى. أقصد تهديدا آخر؟

اقترب منه في غيظ عدد من المخبـرين والضـباط لكن الضابط الكبير الطويل الجـالس الآن أشـار إلـيهم أن يتوقفوا في أماكنهم. اندفع الطبيب الشاب خارجا. فقال هو:

- حماس شباب، غدا يتعلم كيف يكون الحماس.

ثم أمسك بمظروف كبير جدا أخرج منه اللوحة التي كانت ترسمها بريجيت لنوال وقال وهـو يعرضـها علـى الواقفين.

- هذه صورتك يا نوال. كانت ترسمها بريجيت.. هل تتكرين ذلك.؟

- لا.

- إذن تعرفين بريجيت.

- قابلتها مرة.

- أين؟

- هنا. جاءت مع أحمد وتعرفت علي. قالت إنهـا تستطيع أن تساعدني للعمل بالإذاعة..

- هل رأى أحد منكم بريجيت؟

كان يخاطب الأطباء الآخـرين الـذين لا يزالـون واقفين. لم ينتظر إجابتهم. قال:

- لا يعرف أحد بريجيت يا مستر نوال. فيم كنـتم تتحدثون؟.. لا تقولي لي إنكم تحدثتم عن عبد الحليم حـافظ وأسمهان..

- تحدثنا عن سيد درويش.

- وكارل ماركس والماركسية.

اتسعت عينا نوال وتذكرت صورة الرجل الشـرس كارل ماركس. لم تترك للخوف فرصة فقالت على الفور:

- هل الماركسية نوع من الطبيخ مثل الشركسـية مثلاً!!

هنا انفجر الأطباء فـي الضـحك، أوشـك مـدير المستشفى يضحك لكنه قمع رغبته وزم شفتيه واربـد وجـه الضابط الكبير وقال:

- واضح أن الدكتور أحمد ترك أثره عليك كثيرا، إذن سنأخذك إليه..

اقترب منها ثلاثة مخبرين. واقتـرب منـه مـدير المستشفى وقال..

- لكن يا افندم هنا مكان عمل وهـذه سـابقة لـم تحدث في أي مستشفى.

صرخ فيه الضابط الطويل القوي..

- لماذا يا حضرة المدير. جامع هذا أم جامعـة؟. المستشفى الذي تديره حضرتك وكر للشيوعية والشـيوعيين فهل يرضيك هذا؟ أظنه يرضيك!.

- سكت المدير مسقطًا في يده. أحس بقية الأطباء بخطورة الموقف. توقفوا صامتين، أما نوال فقـد تماسـكت حتى لا تقع مغشيا عليها وخرجت مع رجال البوليس، كلمـا مروا بأحد العنابر، اندفعت الممرضات تبكين، ووقف بعض المرضى يتابعون المشهد في غيظ وبصق بعضهم في الفناء، وعلى الأرض، وهتف واحد يسقط الظلم، لكن صوته الواهن لم يساعده في أن يسمعه أحد، ورجال الأمن جميعا وبيـنهم

نوال كانوا في فناء المستشفى الآن يصعدون إلى سـيارتهم المصفحة الجديدة..

( ٥ )

من قبل لم تعد تعنيني قصة المغنية، وجـدت أنهـا ستنتهي بسرعة، وشرعت في كتابة هذا المكان!. لـم أكـن أدرك أنني سأكون أحد أبطاله. سأنحي الآن المكـان وأفـرد الصفحات لنفسي. وتقدرون فتضحك الأقدار! هكذا قال المعلم أبو العلاء. وهناك شر كبير في الدنيا، لكـن هنـاك دائمـا بصيصا من أمل. لا أذكر من قال ذلك. لعلـه فـولتير فـي "كنديد" قال شيئًا قريبا منه. إذن هناك دائما إمكانية للتفـاؤل. لم تصلني رسائل أخرى من جين، ولم ترد حتى على بطاقة التهنئة التي أرسلتها مع بداية العام. إما إن رسائلها لا تصل، أو رسالتي لم تصل أيضا.

منذ حطت الأسرة الجديدة في البيت المقابـل وأنـا أتحين الفرص لأرى الفتاة الصغيرة. لماذا أفعل ذلـك حقـا؟ ترددت كثيرا في أن أحدثها. لماذا أرغب في الحديث معهـا ولماذا أتردد؟ إن ريقي يجف، وأشعر وكأن شعر رأسي يقف في اللحظة التي أفكر فيها في الحديث معهـا. فـي النهايـة

نجحت. سقطت عيناي على العنبتين النابتتين فـي صـدرها وتشجعت!. يا إلهي. كيف حقا لم يحدث أني انجذبت إلى أية بنت من البنات هنا ولا في طريقي إلى المدرسة. إنني لأدرك الآن إدراكا صحيحا لا تشوبه شائبة أن عواطفي نحو جين لم تدخل قط منطقة الحب.

كنت مسحورا حقا، لكن بالمعرفة أكثر ممـا هـو بالجمال. جين تمثل الإمبراطورية البريطانية ولـيس ذلـك بالقليل أن يقترب منها أحد، فما بالك إذا كان هناك إعجاب لم تسمح له الظروف بالتطور ليكون حبا. لقد وضعتني الكتـب على الطريق المستقيم، وعشت قصص حب أبطالها أكثر مما عشت قصص حبي أنا، كما قالت لي جين مـرة، الآن أدرك أن الطريق المستقيم لا يصنع كاتبا، وإن كنت لا أعرف كيف انحرف!.

الخلاصة أن قلبي يدق اليـوم فـاعطوه الفرصـة للطيران. يا سلام. يا لها من لغة شكسبيرية.

- لم أعرف اسمك.

سألتها فابتسمت مندهشة وببراءة قالت:

- سعيدة، ويدللوني بسعدة.

ما الذي رفعني عن الأرض إلى الفضاء الرحيب.

لقد استقبلت اسمها بشفتي وليس بأذني، ومضغته وابتلعته وأحسست بطعمه شهيا في فمي، بالضبط كطعم العنب..

كانت تلعب الهولاهوب، وكانت قد توقفت ووجدت نفسي أقول لها أن تعود إلى البيت ولا تلعب في الشارع بالليل ولدهشتي أطاعتني وانصرفت، لكنها وهي تعبر البوابة داخلة على المساكن التفتت ناحيتي وابتسمت.. هذه إذن ليست صبية في العاشرة أو حتى الثانية عشرة. إنها إلهة يونانية صغيرة ستكبر بيننا وستفتننا جميعا. شعرها الأصفر الملموم كذيل حصان خاف ظهرها سينحل عن الشريط الأخضر ويطير في كل اتجاه وسنجري خلفها ولا نلحق بها أبدا، سعدة هذه النحيلة كالقشة المثيرة للبهجة السحرية جاءتني بالليل، في المنام طبعا، وأعطتني كوبا من الكريستال المضيء وعنقود عنب أحمر. قربت الكوب من فمي فامتلأ بعصير العنب الذي في يدي الأخرى ورحت أشرب والكوب لا يفرغ والعنقود كلما جفت حباته عادت إلى طزاجتها حتى دارت بي الأرض وسقطت وسط الطريق الخالي الذي كان وحده يمتد بين الصحراء ورأيت عيون الناس من السماء تطل علي

وتضحك والصحراء امتلأت شـجرا حتـى طلـع الصـباح فنهضت مشبعا بالسعادة ولم أشأ أن اقـص رؤيتـي علـى أخوتي!!

صعدت إلى السطح فرحان لأراها أمـامي كأنهـا نزلت في التو من الشمس على حبال الضوء، كأنما اسـتقبل أحد ضوء النهار بمرآة محدبة فصار هذه الفتاة، صارت هي خلاصة هذا الضوء. الضوء.الضوء. وجدتها..

الضوء هو الذي سيساعدني في هذه العلاقة الجميلة. علاقة!؟. أمس ظهر عيد المشعور مع المساء. تقدم مباشـرة إلى سعدة ينظر في عينيها. كان الطوق في وسطها فتوقفـت عن اللعب وسقط الطوق حول قدميها وتـردد فـوق الأرض أكثر من مرة حتى سكن. خافت. هتفت من فوق الرصيف" لا تخافي" تقدمت ناحية عيد الذي ابتسم لي وأخذ طريقـه إلـى البيت. كان مظهره اليوم يدعو للرثاء على غير العادة. بـدا كأنما لا أحد يعتني به. وربما هو الذي يهرب من الآخـرين. يظهر في معظم الأيام قادما من المدينة وفي صحبته واحد أو اثنان من المجاذيب. الآن يزداد عددهم معه. أسرعت سـعدة

خائفة ودخلت من بوابة المساكن. مضى وقت طويل عـدت بعده إلى البيت. رأيتها تقف أمام باب بيتهم. قالت:

- أنت لم تقل لي اسمك.
- سليمان.

لم يبد أنها تأثرت. هل كانت تنتظر أن يكون اسمي حسن أو أحمد أو عمرو أو فتحي مثلاً. قلت.

- أبي وأمي سمياني هكذا.

ابتسمت وقالت:

- سليمان اسم جميل. إنه اسم نبي وحكيم..

البنت إذن ليست صغيرة. إنها آلهة يونانية حقيقيـة ستنمو بيننا ولا أقل من ذلك. لماذا إذن لا يكون ما بيننا بداية لعلاقة. سوف يساعدني الضوء! الضفادع تركـب الأفيـال وتضربها بألسنتها. والأفيال تبكي بدموع حقيقية تنزل وتمشي فوق أسنانها التي هي من العاج..!

هذه العبارة التي تسربت إلى الكتابة لا تناسب مقام الحب السامي، لكنه سيتركها. أغلق دفتر، وأمسـك بمـرآة صغيرة كان تركها فوق مكتبه وراح يتأمل صورته فيها..

هو أسمر وأخوته بيض، هو قصير وهم بين بين، لكنه القارئ المثقف بينهم، الشهم القريب دائما من الناس، وسيئ الحظ الذي يشفق عليه الجميع. ظل لسنوات يحلم أن يعثر على مذكرات عمه الذي انقطعت أخباره في أفريقيا، والذي كان يراسل المجلات الأدبية فلا تنشر له شيئًا، وترد عليه أن يقتصد من الغموض والصور السحرية. لقد ترك وراءه سيرة مجنونة يحفظها أخوته، وبينهم والد سليمان.

كيف التقى هذا العم بالشاعر فخري أبو السعود مترجم توماس هاردي، صدفة في التريانون أيام الحرب. قرأ عليه شيئا من شعره وقصة قصيرة، فقال له فخري أبو السعود "أنت تحتاج إلى بلد آخر يتحمل موهبتك يا سليمان أفندي". كان عمه يحمل اسم سليمان أيضا، وها هو سليمان يحمل اسمه ويحمل أزمته، فهل يمكن أن ينتهي مثله؟! فليؤجل الحديث في ذلك. هكذا فكر وراح يتذكر عمه الذي ذهب يزور فخري أبو السعود سعيدا، فها هو شاعر مرموق وناقد ومترجم كبير يفهمه ويدعوه لزيارته. وجد فخري هناك جالسا في الحديقة ينتظره لكنه كان منتحرا برصاصة أطلقها على رأسه. فيما بعد عرف عمه من الصحف أن زوجة

الشاعر وابنه قتلتهما الغارات الألمانية في لندن. عاد العم خائفا يرتعد، لم يعد للكتابة بعد ذلك اليوم. هكذا أعلن لأخيه والد سليمان الصغير الذي يحبه عمه لأنه يحمل اسمه!. ذات صباح خرج فيه العم إلى البحر. عبر ميدان المنشية وترك تمثال إسماعيل باشا خلفه ووقف لحظات فوق سور الكورنيش ثم نزل إلى الصخور التي تفصل السور عن البحر وتمنع عنه نحر الماء. وقف لحظات طويلة فوق الصخور السوداء الضخمة، ثم هوب، ألقى بنفسه إلى الماء الصاخب.. لم يكن يعرف العوم. انتحر على طريقة إسماعيل أدهم فيلسوف الإسكندرية الذي سبق فخري أبو السعود في الانتحار وإن اختلفت الأسباب. لقد عانى اسماعيل أدهم من اكتئاب وجودي غريب، تملكه من قراءة شوبنهاور وكيركجارد. كتب كتابه "لماذا أنا ملحد" فلم يتحمله الناس. لم يعد العالم ذا معنى بالنسبة إليه فألقى بنفسه إلى البحر الواسع. لكن العم، على غير ما حدث مع إسماعيل أدهم، لم يمت. شخص ما كان يقف بعيدا، أرسلته فيما يبدو العناية الإلهية، رآه يضرب بذراعيه الماء بهستيرية فأدرك أنه لا يجيد السباحة، فقفز هو الذي يجيد السباحة وأنقذه. قال العم إن هذا

الشخص إنما أرسله سوء الحظ وليست العناية الإلهية.. وهكذا لم يدخل سليمان الكاتب، عم سليمان الكاتب أيضا، تاريخ المنتحرين السكندريين. وحين عرف من إحدى المجلات انتحار شاعر شاب جديد هو منير رمزي لم ينشر إلا شذرات قليلة من الشعر المنثور أدرك أن المدينة المجنونة لا تريد أن تعطيه فرصة في الموت، كما لم يعطه الوطن فرصته في الحياة، ففر وراء حلم ميت. أفريقيا والإمبراطورية المصرية في أفريقيا. النور في قلب الظلام!.

يا للإسكندرية. المدينة التي امتلأت بالأجانب والأديان حتى صارت كبرج بابل، ولم تفتح نوافذها لعمه. هاهم الذين فتحت لهم نوافذها وأبوابها يخرجون منها، طوعا أو كرها يخرجون، يتخلون عنها، الوجهاء منهم من الإيطاليين واليونانيين، والصعاليك من القبارصة والأرمن السكارى الضائعين في بارات الأزقة العفنة حول شارع السبع بنات. المدينة تعود لأصحابها. لا بأس، مع أنها لم تكن يوما للمصريين، أمر بها الإسكندر، وبناها البطالمة وحسدها الرومان وأهملها العرب فأحياها محمد علي باشا فتساقط عليها الأجانب من كل سماء. جاءوا مع كل سحابة يرسلها

البحر المتوسط. ربما كانوا لصوصا، مـع كـونهم تجـارا وأصحاب حرف وفنون، لكـنهم جميعـا أحبـوا المدينـة. الاسكندرية مدينة يحبهـا الغـزاة دائمـا وتحـب غزاتهـا. الإسكندرية قلب كبير! هذه الأيام يعلوها الكدر. على الأقـل هنا. لقد عاد سليمان إلى دفتره بعد أسابيع وكتب.. يبـدو أن الحب لا ينمو بسهولة وكأنما الأرض لا تنبت الزهور.. ففي الوقت الذي انشغلت فيه بطرائف الأخبـار أسـجلها ليـوم أحتاجها فيه سرى الخبر في البيوت محملاً بالفزع. لقـد تـم القبض على نوال وعاد خير الدين مريضـا وأنـا أصـابني العمى ليلة الامتحان!

هأنذا أسترد بصري آخر يوم في الامتحان، بالضبط عند خروجي من اللجنة. كل شيء كان مرتبا ضدي. عمـى مؤقت لعين لا أعرف من الذي قذفني به. في العام الماضـي كنت مبصرا ومريضا فعينوا لي شخصا مبصرا لكنه كتـب غير ما أمليته عليه فرسبت. فهل هذا العـام، وأنـا أعمـى، سيكتب من عينوه لي ما أمليته عليه؟ إن رسوبي مضـمون تماما. ضاقت نفسي واشتد الضيق بي واستبد بعـودة خيـر الدين من القاهرة مريضا إلى مستشفى الصدر. لماذا جعلـوا

هذا المستشفى قريبا منا إلى هذا الحد؟.. فلأعد أقرأ بقلبي ما كنت سجلته من الصحف من باب التسلي. إنني أعرف أنني لم أعد أنا! اثنين، واحد مجنون والآخر في الطريق! اعترف حسني مورو الذي قتل أمه السيدة عبيدة عوضين وكيلة الاتحاد النسائي بأنه كان في موقف الدفاع عن النفس فقد هجمت عليه بيد الهون والسكين فانتزعها منها وقتلها. في الوقت الذي تقدمت فيه سيدة يونانية تطلب الطلاق من زوجها الذي اختفى في شهر العسل منذ ست وعشرين سنة، لقد حكم لها القاضي بالطلاق. للأسف مر خبر هذه السيدة كأنه بالأمر العادي وكان أجدر بالصحف والهيئات النسائية أن تحتفل بها فهي الرمز النادر للوفاء. كان أجدر أن تمنح لقب بنيلوبي اليونانية في مصر. الحياة العصرية لم تعد تقف عند كثير من القيم فيما يبدو. وشركة ستوديو نحاس في الهرم يتم تحويلها إلى أول معهد للسينما تملكه الدولة، كما تم تنفيذ حكم الإعدام شنقا في السيد أمين محمود المحبوس في قضية الجاسوسية الكبرى. كان جامد الأعصاب فقبل تنفيذ الحكم ورفض أن يطلب شيئا وقال إنه لا يطلب شيئا من أحد إلا من الله الذي هو فوق الجميع. وفي قضية طريفة قالت النيابة لا مسئولية

على الطبيب إذا نسى القطن أو الشاس في بطن المـريض، إنما المسئولية على رئيسة التمريض أثناء العملية الجراحية. وأفرجت بريطانيا عن أرصدة مصر، ورفعت مصر الحراسة عن ممتلكات بريطانيا، لكن لا جـين عـادت ولا رسـائلها تصل، ومضت ستة اشهر على وفاة سيسيل دي ميل الـذي مات في ٢٢ يناير الماضي، واحتفالات الثـورة علـى قـدم وساق. وتزوجت مسيحية من ثلاثة أشخاص واختفـت ليـتم ضبطها في الكنيسة تتزوج من الرابع. قالت إنهـا اعتنقـت الإسلام وطلقت من الأول! وعرض فيلم بين الإطـلال فـي سينما ريو، وانتشرت في رسائل العشـاق جملـة يوسـف السباعي المكتوبة أعلى الأفيش "أيتها الشمس لا تغربي حتى تشهدي أن حبي لها خالد كخلودك" ولا تزال الهجرة اليهودية تزداد من أوروبا الشرقية إلى إسرائيل، وأخبار فندق هيلتون النيل الذي افتتح في فبراير الماضي كل يوم في الصـحف. حفلاته وعروض الأزياء التي تقام فيه. سبقت افتتاحه ضجة كبيرة، وقيل إن عشرات الفنـانين العـالميين سيحضـرون الافتتاح مع صاحب إمبراطورية فنادق هيلتون فـي العـالم، مستر هيلتون نفسه، لكن الذي حضر الافتتـاح عـدد قليـل

أشهرهم جين راسل الجميلة. ولا يزال حديث الصحف عـن الممثلة الجديدة "سعاد حسني" البريئة التي ظهرت فـي فـيلم حسن ونعيمة. رأيـت الفـيلم وأحببـت صـوتها وعينيهـا وابتسامتها. إنها تفتح للمشـاهد أبـواب الراحـة والعذوبـة وستكون ممثلة الزمن القادم. وانتهى نجيب محفوظ من كتابة الفصل رقم "١٤" من قصته الطويلة - هكذا قالت الصـحف بدلا من كلمة رواية - أولاد حارتنا. وقال إنه لـولا أعبـاء العمل في الرقابة السينمائية لأتم الرواية هذا العام، ونشـرت مجلة المصور مقالاً لأحد القراء يعيب فيـه علـى محفـوظ محاولته كتابة تاريخ البشرية من خلال تاريخ الأنبياء، وكان من الكلام الذي قاله إن هذه محاولة عقلية أكثر منها خبـرة معايشة للكاتب، وأنها تدخل به في مناطق محرمة كان يجب ألا يتطرق محفوظ إليها.!

وعرضت السينما فيلم أحدب نوتردام فطلب منـي كروان أن نراه معا وقال إنه يبحث عن الروايـة ليقرأهـا، وصحبته معي أيضا لنرى فيلم "ذئاب المينا" أو "IN THE WATER FRONT" لإيليا كازان.

قلت له لابد أن يعرف شيئا عن الثقافة السـينمائية وبالذات مدرسة ستوديو الممثل التي أنشأها كازان في أميركا وتخرج فيها مارلون براندو بطل هذا الفيلم.. وحين غرقـت الباخرة دندرة في النيل أمام القناطر وفوقها مائتـا شـخص غاص قلبي في صدري، وأحسست أن الأيام القادمة لن تكون سهلة. إن غرق هذه السفينة نذير شؤم كوني، لقد مات أكثـر من خمسين شخصا، وأصيب أكثر من خمسين آخرين وامتلأ الشاطيء بالجثث والنحيب وأقيمت جنازة للموتى حضـرها آلاف المشيعين في القاهرة، في الوقت الذي تم فيه في كنيسة الإسكندرية ترسيم بطريرك الأقباط الجديد كيرلس السـادس الذي سينسى من اليوم اسم الرهبنة مينا المتوحد كما نسى من قبل اسم ما قبل الرهبنة "عازر". لقد سألت نسيم الذي عاد من المعهد الزراعي للأجازة الصيفية عن ذلك فقال إنها عمليـة معقدة، والحقيقة أنني أحسست أنه لا يفهم شـيئا فيهـا! لـم أستطع مشاهدة فيلم حطمت قيودي أو The defiant ones، كنت مشغولا بالمذاكرة استعدادا للامتحان، لكن جميع الأولاد في المساكن، وربما في الإسكندرية كلها ذهبوا ليشاهدوه في سينما الهمبرا. لم يعد هناك حديث لهـم إلا تـوني كيـرتس

الأبيض وسيدني بواتييه الأسود وأغنية سيدني بواتييه الأخيرة بعد فشلهما في الهروب بالقطار. لم أستطع أن أمنـع نفسـي وتركت المذاكرة وشاهدته في حفلة التاسعة مساء ولم أستطع النوم تلك الليلة، بالطبع ولا المذاكرة.. في الصـباح التـالي قرأت بالصحف عن وفاة أستاذ الفلاسفة يوسف كرم - كـان أستاذ المسرح جورج أبيض قد مات منذ أسـبوع - وجـين مانسفيلد تخلع ملابسها قطعة قطعة في مجلس الأمن وأمـام كل الأعضاء..!

توقف سليمان عن القراءة، خاصة أن ما بقى لديه من أخبار جمعها لم يتم تنسـيقها بعـد، وأدرك أن العبـارة الأخيرة لم يكتبها من قبل، ولم تكن خبرا من الأخبار، هـي من نوع الكلام المرسل الذي يكتبه دون شعور، هذه المرة لم يكن يكتب، لكنها خرجت من بين شفتيه ورآها أمامه تمضي سابحة في فضاء العشة، بل وتتسال خارجة من ثقـب بـين الجدار الصفيح والحائط. بسرعة أمسك بـالقلم وراح يكتـب خوفا من أن تستدرجه الخيالات المجنونة. يحن كثيـرا هـذه الأيام إلى رؤية الولد عيد لا يدري لماذا. ركب أمس علـى السطح مرآة فوق حامل من الخشب تواجه بيت سعدة وتميل

بزاوية خمس وأربعين درجة على الطاقة الكبيرة في سـقف صالة البيت التي عادة ما يفتحونها أيام الصيف هذه بالنهار. ليس على سعدة إلا أن تقف على سطح بيتها تعكس بمرآة في يدها ضوء الشمس على مرآته المائلة التي بـدورها تعكـس الضوء من طاقة الصالة فتستقبله الأرض فيعـرف هـو أن سعدة تنتظره قرب السماء! لن يفطن أحد من أهله أو أخوتـه إلى هذه الحيلة. لن يفكر أحد في مصدر هذا الضـوء الـذي يسقط لحظات من الطاقة إلى الصالة ثم يختفـي.. سـليمان يحب الضوء.. فوق السطح لن يستطيع أن يكلمها كثيرا هي التي تقف على السطح المقابل، لكنه يستطيع أن يلقـي إليهـا برسائل، ويستقبل رسائلها. "قرأت في مجلـة الكواكـب أن الممثل الأمريكي ميكي روني قصير جدا لكنـه بالثقـة فـي النفس تغلب على شكله وأصبح نجما مشهورا." قالت ذلك في رسالتها الأخيرة. من قال لها أني لا أثق في نفسـي؟. إنهـا تشجعني على أية حال.. "لقد بدأ أهلي ينتبهون على صعودي المتكرر على السطح. سأتوقف بعض الأيام". يا لها من فتـاة ذكية. كان قد بدأ يكتب معجبا بها. يمر الآن مجنون الغنـاء كثيرا، ولا يكاد يمر أسبوع إلا ويمر مجنون العلم، ولا يزال

عيد يأتي بالمجاذيب ينزل بهم على القبو ويعود بعـد ذلـك وحده. قال تاجر البهار إن عيد يرسلهم فـوق المـاء إلـى الأبدية، وأنهم لن يعودوا أبدا.

آه لو استطعت الجلوس مع عيد وحدثني عما يرى. ذلك العالم الذي لا يراه غيره، والذي يحتاج إلى ثمن فـادح من الإنسان ليدخل فيه. عيد الذي يمشـي يتأملنـا ويبتسـم ويوسع في عينيه من غبطة مجهولة المصدر. لو حدثني عيد لكتبت أخطر رواية لكاتب عربي. لـم يفعـل ذلـك غيـر دستويفسكي الذي كان الصرع يحمله إلى رؤى غريبة، حتى إنني بعد أن قرأت له رواية الأبله منعت نفسي بصعوبة مـن القفز من فوق السطح إلى الأرض، ومن القفـز مـن فـوق كوبري كرموز إلى ترعة المحمودية، ومن الوقـوف أمـام القطارات لتدهسني، ومن خلع ملابسي في الطرقـات!. لقـد دعاني عم حمزة، بالليل، والقمر عال في السماء، والظلمـة ليست عميقة، والجو حار، ولا أعرف كيف ولماذا أحسسـت وهو يصحبني من بيتنا على بيته بأننا نمشـي وسـط الليـل الروسي عميق الظلام، وأننا نركب عربة تمشي وسط الجليد، وأن سائق العربة قاس يضرب الحصان بالسوط بقـوة، وأن

البيت الذي سنصل إليه هو قصر دراكيولا، والعفاريت تقفـز علينا من الفضاء على الأرض، ودخلت معه البيـت شـحيح الضوء. في الصالة بنات وبنون نائمون على الأرض وعلى كنبة صغيرة لم أنظر إليهم في الغرفة الداخلية، جلست علـى كنبة في مواجهة السـرير النحـاس ذي الأعمـدة العاليـة والناموسية البيضاء. سرير قـديم قـوي ولا أحـد خلـف الناموسية. الأم جالسة على الأرض جوار الدولاب حزينـة أسندت رأسها بيدها. بعد ذلك أشياء كثيرة مبعثرة هنا وهناك لا تهم أحدا.. لكن على الأرض، أمامنا مباشرة ميزت مخلاة كبيرة بيضاء ومتسخة كثيـرا.. أيهمـا أفضـل جـاليفر أم روبنسون كروزو؟!

- لقد لجأت إليك يا أستاذ سـليمان لأنـك أكثـر المتعلمين هنا ثقافة.

- أشكرك يا عم حمزة.

ما سأقوله لك أرجوك لا تقله لأحد.

اندهشت جدا. قلت:

- لكن الناس كلها تعرف ما حدث لنوال.

- ليس ذلك بالضبط. انظر على مـا فـي هـذه المخلاة.

دلق ما في داخلها فإذا به كتب لا يقل عددها عـن خمسة عشر كتابا.

- انظر إلى هذه الكتب وقل لنا الحقيقة..

كانت زوجته لا تزال صامتة تماما، إلا أن عينيهـا اتسعتا الآن وهي تراني أقلب الكتب بينما عم حمزة يتكلم بلا توقف..

- لم يقل لي أحد بالمستشفى لماذا قبضـوا علـى نوال. بل كانوا يهربون مني حين يعرفون أني والدها. فـي قسم شرطة كرموز لم يفيدوني بشيء، في المحافظة كـذلك، أكثر من شهر الآن أدور في أقسام البوليس بلا فائدة. هداني تفكيري إلى سماع إذاعة إسرائيل رغـم أن ذلـك ممنـوع، وكذلك  إذاعة لندن. لقد عملت مع الأجانب أثنـاء الحـرب العالمية الماضية وأعرف دور الإذاعات في الحروب. وجدت تشويشا كبيرا على إذاعة اسرائيل لكني استطعت التقاط إذاعة لندن. تتكلم كل يوم عن الشيوعيين الذين قبض عليهم نظـام عبد الناصر للمرة الثانية خلال العـام، وكيـف أنهـم فـي

المعتقلات يتم تعذيبهم كالحيوانات الآن.. هل لهـذه الكتـب علاقة بالشيوعية؟

كنت توقفت عن فحص الكتب التي قرأت عناوينهـا بسرعة. وقالت الزوجة:

- هل للشيوعية علاقة بالغناء. نوال كانت تغنـي للعيانين في المستشفى هل هذه هـي الشـيوعية يـا أسـتاذ سليمان؟

وانفجرت الأم في البكاء وهي تقول:

- أنا مش عارفة إيه الشيوعية دي ومالها بينا.

قلت بهدوء:

- هل جاءوا هنا وفتشوا البيت؟

تردد عم حمزة قليلاً ثم قال:

- جاءوا في الفجر وهددوني لو قلت ذلك لأحد.

- ولم يجدوا هذه الكتب؟

قالت الأم:

- أنا رأيتها من قبل فوق السندرة فحملتهـا إلـى السطح وألقيتها مع الكراكيب. كنت أنوي أخبر نـوال بـذلك

عندما تعود من المستشفى ذلك اليوم. لم تعد ونسيتها أنا فوق السطح ولم أعدها إلى السندرة..

وعادت إلى البكاء بينما قلت أنا بهدوء غير مصدق:

- لقد أنقذت نوال من حبل المشنقة.

- يا لهوي.

صرخت المرأة ولطمت خـديها. نهرهـا حمـزة. تأملني ممتقع الوجه مذعورا. قلت:

- لا تخف. سنحرق الكتب وينتهي الأمر.

فكر عم حمزة قليلاً ثم قال.

- لا. لا داعي لحرقها. قد يشم أحـد الـدخان أو يراه. الأفضل أن نلقي بها في الترعة.

- سأفعل أنا ذلك. أما نوال فلا أظن أنها سـتغيب، ليس هناك أي دليل اتهام ضدها. ولا بد أنها ستعود بسرعة.

- لكن أين هي يا أستاذ سليمان، لقد مضى أكثـر من شهر؟.

- هذا ما سأعرفه لك بسرعة من صديق صـحفي بمكتب جريدة الأخبار هنا فـي الإسـكندرية. الصـحفيون

يعرفون كثيرا من الأسرار. المهم لا تخبر أحدا بـأمر هـذه الكتب..

حملت المخلاة وخرجت. مشيت بالضبط مثل ريفي مطرود من أرضه في السهول الروسـية الواسـعة. رأيـت السماء تمطر ثلجا، يرتفع على الأرض جليدا، وكدت أتزحلق بحق، لما اقتربت من المحمودية اندهشت جدا من هذه الرؤى الروسية التي تتلبسني الليلة حتى أني رأيت سطح الترعـة جليدا متجمدا لذلك لم ألق بالكتب. حملتها إلى البيت.

كيف حقا ألقى أنا الكاتب المثقف بالكتب في الترعة؟ وأي كتب هذه التي كنت سألقيها؟ إنها الكتب التـي غيـرت تاريخ الإنسانية إن لم تكن أربكته تماما. في لحظة تملكنـي الخوف، لكن عم حمزة يعرف الآن أني ألقيت بالكتـب فـي الترعة وهكذا لن يعرف أحد أنها عندي..

ابتعدت كثيرا عن قصتي الشخصية. لا بـأس. لـم يوجد الكاتب الذي لم تخنه القصة. هـل يمكـن أن أهمـل المجنون الجديد الذي مر بالمنطقة اليوم. لقد ظهـر عجـوزا محطما يمشي في الشارع متلفتا حوله في رعب، يقترب من كل واحد يقابله ويسأله "ممكن سيجارة وينجز خبيبـي" يـداه

ترتعشان وعلى وجهه لا تزال حمرة عز زائل. اقترب منه الأولاد وهتفوا مجنون يوناني.. مجنون يوناني..انتبه الخواجه بطسو فني الماكينة الحمراء الأصلع أحمر الوجه الذي نادرا ما يكلمه أحد. مصمص شفتيه وطلب من أحد الصبية أن يشتري له ثلاث بيضات بقرشين صاغ ليتغدى، ودخل على الماكينة لم يخرج منها كعادته إلا الساعة الثالثة ليغلق بابها ويعود إلى البيت. أبعد محمود الملاح الأولاد عن المجنون اليوناني. أخذه من يده واقترب به من منزل القبو ليتفرج عليه الجالسون. تأملهم الرجل في أثماله الرثة وقال "معلهش خبيبي مخالي غلط في الحساب" كانت هذه أول مرة يرى فيها أحد يونانيا مجنونا. كنا نسينا أنهم بشر مثلنا. كنا نظن أنهم يونانيون!. يعني أيه غلط في الحساب؟ تساءل محمود، ومن هو مخالي؟ تساءل تاجر البهار بينما محمود القزعة ينظر على المشهد غير راض، بعد قليل ستحرقه السيجارة التي بين أصبعيه والتي سينساها. قال الرجل: أنا مخالي خبيبي. من خمستاشر سنة كان عمري ستين سنة. مراتي ماتت وأولادي سابو مصر وأنا أخب مصر. كان عندي بار صغير في العطارين وعمارة. بعت البار والعمارة

لواحد يوناني صغير، شاب يعني، بألف جنيه ومائتين جنيـه كمان. قسمت الفلوس كل سنة مائة وعشرين جنيها، يعني كل شهر عشرة جنيهات. قلت مخالي اللي هو أنا مـش ممكـن يعيش كمان أكثر من عشر سنين. حطيت الفلوس في البنـك وكل شهر آخذ عشرة جنيهات، الفلـوس خلصـت خبيبـي والعشر سنين خلصت كمان خبيبي وراخ الـدكان والعمـارة وفضلت أنا فقير غلبان مش لاقي حتى ثمـن السـيجارة أو الكاس، شفت إزاي خبيبي مخالي غلط في الحساب..

انتهى من قصته ونتر القزعة السيجارة التي أحرقت أصبعيه وتقدم ليعطي مخالي سيجارة وربـع جنيـه. مشـى مخالي سعيدا ناحية كرموز، زيوس كبير الآلهة يبكي علـى ترعة المحمودية. لا أعرف لماذا تذكرت الديب بعد أن رأيت مخالي، ولا أعرف لماذا كلما تذكرته رأيته أمامي!

من زمان لم يجلس الديب مع أحد منـا كبـارا أو صغارا، واليوم لم يناديه الأولاد فقط، بل نهضوا يحيطون به ويحاصرونه ويرغمونه على الجلـوس معهـم فلقـد طـال اشتياقهم لحكاياته.

تقدمت منه تاركا الجلسة مع تاجر البهار، وتبعني محمود الملاح الذي نظر إليه الديب وقال:

- هذه القصة لو حولتها إلى فيلم تدفع لي حقي، أنا المؤلف.

ضحكنا جميعا وفوجئنا بتاجر البهار ينضم إلينا. المسافة بين السلالم المؤدية للقبو جوار دكانة العنيبسي، وسلالم الماكينة الحمراء لا تزيد على ثلاثين مترا، لكن لم يحدث من قبل أن انتقل تاجر البهار من الأولى إلى الثانية، كان يعرف أن الديب هو صاحب هذه الجلسة وسيدها، فلزم الصمت.

- كان ممكنا جدا ألا أعود إليكم هذه المرة. أجل. كان ممكنا جدا أن يأكلني السائق.

- كيف يأكلك السائق.

أخذ الديب نفسا طويلا أخرجه بهدوء ثم راح يحكي..

"سائق القطار هذه المرة لم أشاهد مثله من قبل. طوله يزيد على مترين، تقريبا مترين وربع، طول ذراعه وحدها متر كامل، وطول كفه على الأقل طول قدمه. في

قدمه حذاء تفصيل مقاس خمسين، قال لي إنه أحيانا يسـافر مشيا من الإسكندرية إلى القاهرة فيقطع المسافة فـي نهـار واحد أو ليل واحد.. أي نصف يوم. أي والله. هكذا قال. لـم أصدق، لكنا كنا نتوقف في بعض محطات الريف فينزل من القطار يقطف البلح من النخل بيده وهو واقف فوق الأرض. وخلال حركة القطار أراه يمد يده من النافذة يمسك بـالطيور السابحة في الفضاء. كثيرا ما أمسك بصقور قوية باعها فـي الطريق في المدن الكبيرة، طنطا مثلاً أو دمنهور أو القاهرة.

راحوا ينظرون في دهشة كأنمـا هـذه أول مـرة يستمعون فيها إلى حكايات الديب. نوع من المسرة الجميلـة تنزل عليهم مع الديب رغم أنهم يعرفون أنه مؤلف كبير. هذه المرة كانت وحشتهم أكبر وسرورهم في غايته. قال محمـود الملاح من أين ظهر لك هذا السائق المارد؟ قـال الـديب لا أعرف. لقد حكى لي قصته، وكيف كان أحد أفراد عصـابة أدهم الشرقاوي في محافظة البحيرة. هل كان أدهم الشرقاوي زعيم عصابة! تساءل مصطفى ساخرا. أجل أجاب الـديب. لكن الإذاعة تحكي ملحمته باعتبـاره رجـلا وطنيـا ضـد الإنجليز والإقطاع، تساءل كروان فأجـاب الـديب، وهـل

السرقة تمنع ذلك. ثم هل تعرف أنت شيئا عن تاريخ الزعماء والوطنيين؟ ضحكنا واستمر يتحدث. كان أدهم وعصابته يسرقون الباشوات وقطارات البضاعة. ولما تم القبض على أدهم هرب وهذا السائق، اسمه كاسر، الله يكسر دماغه، هرب إلى أسوان، هكذا حكى لي، ومن أسوان نزل عكس النيل إلى السودان. كان معه ثلاثة من العصابة أكلتهم التماسيح. أما هو فكان التمساح يقابله وما يكاد يفتح فكيه حتى يمسك هو كل فك بيد ويفشخه إلى نهايته ويترك التمساح ميتا في مكانه بعد أن يتلوى في الماء من الألم. إنه أسود من بلك، فتح بلك عينيه في غيظ، فقال الديب أنا أقصد بلك الشارع ولا أقصدك، فتضايق بلك أكثر لكنه سكت واستمر الديب، في السودان لم يدرك أحد أنه مصري، واشتغل في تجارة سن الفيل، كان يحرس قافلة الصيادين الكبيرة. كانوا هم ينصبون الشباك للأفيال، ويصوبون إليها الإبر المملوءة بالسائل المخدر، لكنه كان يمسك الفيل من خرطومه بيديه، ويثني الخرطوم على مهل وبقوة والفيل يصرخ حتى يقع على جانبه فيهجم عليه الصيادون غير مصدقين يذبحونه. يأخذون العاج ويعطون اللحم للزنوج الذين

يقابلونهم في الغابات. لحم الفيل ليس حراما. هكذا قال لـي، وإذا وضعته في الملح عدة أيام ثم طهوته تجده ذا طعم رائع. الفيل يأكلونه في الهند وباكستان أيضا. هـذا كلامـه. كـان يتوجه بحديثه إلى محمود الذي لم يعد مندهشا وقال المهـم. كيف كاد يأكلك؟ لا داعي للتطويل. حاضر يا سي محمـود. قال الديب واستمر. كان السائق لا يخاف من الحيوانـات إلا النمر. هكذا حدثني. النمر غدار قد يقفز فوقه فجأة من أعلى الأشجار. الحيوان الذي يواجهه من الأمام مسكين محتومـة نهايته حتى ولو كان الأسد نفسه أو وحيد القرن. لكن الـذي حدث أنه لا حيوان من هذه هاجمه. أكل قرد أحمق أصـبع قدمه اليمنى الكبير وهو نائم. قضمه قضمة واحدة وأخذه في فمه وجرى صارخاً بينما نهض السائق فزعا يقفز في الهواء من الألم. وقف القرد بعيدا يمضغ في الأصبع والدم ينثال من شدقيه ويتأمل ضاحكا السائق الذي تهاوى أخيرا على الأرض هامدا، ثم سمع القرد يقول له "هذا جزاء الظالمين. هذا جزاء الظالمين" ويدخل في الأدغال الكثيفة.

عاد السائق إلى مصر بعد ذلك وهو على يقـين أن القرد كان بني آدم ممن فتك بهم مع أدهم الشـرقاوي، ظـل

يتابعه حتى عثر عليه هناك في الأدغال. تلبسته روح القـرد لينتقم، وبعدها لم يعد يظهر إلا في المنام. كل ليلة يظهر لـه ويضحك ويقول له هذا جزاء الظالمين. ولم يعد السائق يرى قرودا حقيقية في الغابات. لقد اعتبر ما حدث جزاء أفعالـه، وأحضر سكينا قطع بها أصبع قدمه اليسرى الكبيـر أيضـا وتماسك حتى كوى بالنار مكان الجرح ثم أغمى عليه بعض الوقت. هكذا عاد الاتزان إلى جسده وصار يمشي فلا تشعر أنه فقد شيئا من أصابعه.

- هكذا انتهت القصة؟

- لقد خرجنا بالقطار أنا وهو والعطشجي، كنا في طريقنا إلى أسوان. سفر طويل. في عودتنا وجدته وحده. أين العطشجي؟ سألته فقال أنه تركنا فجأة بلا سبب. في الطريق قفزت فوق العربات حتى وصلت إلى القطار ولمحتـه مـن أعلى يلقى بالفحم إلى النار بنفسه، ثم يجلس ليستريح ويأكـل من فخذ من اللحم شواه على نار القطار. لقد تعلم أكل البنـى آدم من الغابات. هذا ما لم يقله لي ورأيته. ما كدنا نصل إلى القاهرة حتى قررت أنه هكذا يكون أكـل العطشـجي كلـه،

فنزلت وهربت وأتيت وحدي في قطار عادي للركاب.. لقد بدأت أكره عملي ولا أظن أني سأستمر فيه.

صمت وصمتنا لحظات طويلة حتى قال مصطفى بتأمل وصت خفيف:

- الله يكون في عون ربنا على الشعب..

ارتبك الديب الذي جرت العادة أن يقول هو ذلك. تلعثم ولم يجد شيئا يقوله وانطلقنا نضحك بينما انصرف هو يقول عالم "ولاد ديك كلاب بصحيح".

توقف سليمان عن الكتابة. لم يعرف أنه في لحظات الصمت الطويلة التي أعقبت حديث الديب قال تاجر البهار لنفسه هذا رجل فيه من أسرار العطارة الكثير، أما محمود الملاح فقد قرر أن يترك الاسكندرية نهائيا فلم يعد له مكان في حضرة هذا المؤلف العجيب.

في هذا الأسبوع أعلنت مديرية الصحة أن عدد المواليد من المواطنين حتى هذا الشهر ستمائة وخمسون بينهم ثلاثون طفلا أجنبيا وعدد الموتى مائة وخمسون بينهم عشرة من الأجانب، ثلاثة من الجالية اليونانية، واثنان من الإيطالية، وأرمني، وقبرصي، ويهودي من العشرين الذين لم

يتركوا الاسكندرية، ويوغسلافي وسويسري، وبلغ عدد المهاجرين في النصف الأول من هذا العام من الإسكندرية خمسة آلاف، ومقدار من تبقى من الأجانب الآن خمسة وأربعون ألفا. كما أعلنت الغرفة التجارية أن عدد الشركات والمؤسسات التي تم تمصيرها منذ بداية هذا العام بلغ في الإسكندرية وحدها مائة شركة ومؤسسة وبنكا، وعدد المحلات والورش الأجنبية التي آلت للمصريين في الإسكندرية بالبيع بلغت ثلاثمائة. وأن عدد الرحلات البحرية التي أقلت الأجانب من المحطة البحرية إلى موانئ البحر المتوسط بلغ خمسا وعشرين رحلة حتى نهاية يوليو بواقع رحلة كل أسبوع.

## ( ٦ )

نادية وإبراهيم مرسي كانا أكثر المهتمين بمرض خير الدين. تباعدت لقاءتهما في الأشهر الأخيرة، في بعض الأحيان كادت تفتر تماما، لكن لا نادية استطاعت أن تسلاو إبراهيم ولا هو استطاع. قال لها إنه بعد أن يدور العام الأول في عمله في كفر الزيات يستطيع الانتقال إلى الإسكندرية، ساعتها سيخطبها ولن يقف أمامه عائق. بدورها كانت تشعر أن هناك ما يعوقه في أسرته، رغم أنه لا يعارضها، لكن الأمل لم يهرب منها. ما الذي في إبراهيم يجعلها تتمسك به هكذا؟ ربما لأنه الحب الأول، هي خفقة القلب الأولى ولا سبب آخر. لذا لا تصدق الكذب الذي في عينيه وهو يقول إنه سيخطبها! وأن أحدا لا يمانع من أهله. إبراهيم يحبها وهي تعرف وحتى الآن لم توجد الفتاة التي تصدق أن من يحبها سوف يعجز عن الفوز بها في النهاية! ما ينقص إبراهيم هو أن يسكت ولا يتحدث عن المرضى وذوي العاهات، لقد ابتعد كثيرا عن ذلك، منذ اليوم الذي أغمى

عليها فيه، أما بعد الزواج فلن تسمح له بالكلام إلا عما هـو بهيج. قال لها من فوق السطح:

- لابد أن نلتقي في مكان آخر.

- أنا أيضا أفكر في ذلك. سيأتي ناس كثيرون من المساكن يزورون خير الدين وقـد يروننـا فـي الحديقـة.. الأفضل أن نتوقف حتى يشفى خير الدين.

- لكني أحتاج أن أقابلك، لقد وجدت مكانـا آخـر غير بعيد.

- أين؟.

- شارع المدرسة التليانية. الشارع الصغير بـين المدرسة وسور مدافن عامود السواري.

- يا لهوي يا إبراهيم، من المرض إلى الموت!

- السور عال ولن نرى المقابر، إنه شارع هـادئ جدا لا يمشي فيه أحد، لا بالليل ولا بالنهـار، فقـط بعـض الأحياء.

سكتت. وقال هو:

- نلتقي مرة واحدة، إذا لم يعجبك الشارع توقفنـا عن اللقاء.

- ومتى نلتقي.
- غدا الجمعة. سأنتظرك أمام المدرسة التليانية الساعة العاشرة صباحا.

إبراهيم مرسي لا يعرف أن تجار المخدرات من جبل ناعسة وسوق عوداية بكرموز، وشارع الرحمة وجبل الطوبجية ومنطقة الغاطس بكوم الشقافة، يلتقون في هذا الشارع يتبادلون البضائع. تجار القطاعي أحيانا يظهرون فيه يبيعون لعدد من الزبائن في مواعيد محددة وبسرعة فائقة، كما أن صبيان التجار يجعلون الشارع طريقهم إلى مينا البصل حيث عمال مصانع حلج وكبس القطن والدخان ومخازن الميناء. أحمد حجازي، الولد الفاشل في المساكن، الذي تحاشاه الكبار قبل الصغار، والمتخصص في سرقة القطارات القديمة في ورش منطقة الزيتون، كان قد نقل نشاطه إلى تجارة المخدرات. كان ينقل شيئا منها من جبل ناعسة بكرموز إلى بعض التجار بشارع الرحمة. لقد رأى إبراهيم ونادية في ذلك الوقت من الضحى، ومع المساء، كان كل حي في المساكن قد عرف القصة وكل بيت أيضا!!

شوهد إبراهيم يخرج من البيت مسرعا. رآه الجميع يكاد يهرول في طريقه إلى المحمودية ناحية كرمـوز. قـال الأولاد إنه "طفش" وقال الكبار إنه لن يعود إلا بعد أن تهـدأ الزوبعة. تجمع الرجال في الجامع الصـغير سـاعة صـلاة المغرب قبل أن تقع كارثة بين العائلتين.. سلام والـد ناديـة جاس صامتا. سألوه أن يتكلم فلم ينطق. وهـل ينطـق أبـو البنت؟. أجمع الرجال على أن ما قيل إشاعة غير صـحيحة وراءها إبليس من المساكن، فإبراهيم ولد جاد ومسئول ونادية بنت مؤدبة خجولة كالقطة المغمضة. فاجأهم والـد إبـراهيم قائلا:

- ياجماعة إبراهيم بالكاد انتهى من دبلوم التجارة واشتغل في كفر الزيات، ورغـم ذلـك أسـتطيع أن أبيـع القيراطين اللذين أملكهما في البلد وأزوج بها إبراهيم لناديـة اليوم قبل الغد، بل إنني أخطبها له أمامكم من والدها واقطـع كل الألسنة.

اغتبط الرجال. ونظروا إلى سلام الذي قال:

- لا عليك يا مرسي، الأمر كله كما قال الرجـال مجرد إشاعة.

كان يكذب. لقد ضرب ابنه سلامة نادية حتى أشرفت على الموت فاعترفت. كان الرجال يعرفون أنه يكذب، فهو رجل صعيدي لا يريد أن يزوج ابنته من ولد فلاح، كما أنه لا يزوج ابنته على هذا النحو من الفضيحة!

لم تمض لحظات حتى نهض سلام تاركا المجلس كله، بينما ظهرت الحيرة على والد إبراهيم، الذي بدوره مط شفتيه وهز رأسه يائسا ونهض. أدرك الجميع أنه منذ الآن لن يستطيع أحد منهم التدخل في الأمر، وعليهم جميعا انتظار الخطوة القادمة التي ستكون من عائلة سلام بالتأكيد...

بالليل قال مرسي لزوجته..

- لابد أن نترك المساكن ونرحل.
- نرحل لأن ولدنا أحب بنت الجيران؟ يرحلوا هم..
- من زمان أشعر بأن حظي قليل في الإسكندرية..
- أين هي إسكندرية؟ أننا حتى لم نرها. مشوار أو اثنين للأنفوشي خلال عشرين سنة. ياريتنا شفنا إسكندرية أو عرفناها، لم يكن جرى ما جرى..

سكت طويلا. فكر الرجل أنه لأمر مدهش حقـا أن يفكر في الرحيل، لكنه كان يشعر برغبة عميقة في مغـادرة الإسكندرية والعودة إلى قريته سمنود. من زمـان يريـد أن يقول لزوجته إنه يشعر بدنو الأجل، وأنه يريد أن يموت بين أهله، ويدفن جوار أمه وأبيه. قال:

- لقد قلت لإبراهيم ألا يعود قبل أن تبرد المسألة، من الصباح سأتقدم بطلب نقل إلى سمنود. سيقولون جبانـا. موافق. المهم أن تستعدي للرحيل..

في ذلك الوقت من الليل كان سلامة، أخـو ناديـة، يجلس وحده على شاطئ ترعة المحمودية مختارا أكثر نقطة مظلمة، مخفيا تحت قميصه خنجرا كان قد شحذه كثيرا طول النهار. لقد ظل سلامة كثيرا ينتظر إبراهيم بعد ذلك، وكلمـا رآه الخواجة بطسو يشحذ الخنجر بالنهار مصـمص شـفتيه دهشة حتى ناداه وقال له "أنت عايز تقتل واحد حب أختك يا سلامة. أنت أكيد واحد حمار، الحب يا حبيبي مـش حـرام، أحسن لك تمسك إبراهيم تخليه يتجوز أختك، يعني إيه هـو فلاح وأنت صعيدي؟. أنا بنتي تحب واحد أرمنـي. بعـدين فلاح صعيدي كله مصري، أنت سلامة رجعي وأبوك متخاف

ومصر مش ممكن تتقدم بسببك أنت وأبوك سـلامة، حاجـة نيلة!!

استطاع مرسي أن ينهي إجراءات نقله في أسـبوع واحد. رآه الناس محني الظهر مهدل الأكتاف وهو ينقل مـع العمال"عزال" بيته على العربة الكارو الكبيرة التـي يجرهـا حصان. صافح الرجال كاظما حزنا حقيقيا. رأى النهار حول أبيض، لم يكن يدرك ذلك من قبل حقا.. أما أم إبراهيم فقـد خرجت إلى العربة دون أن تصافح أحدا من النساء. ما كادت العربة تتحرك حتى أمرت الحوذي أن يقـف. كيـف حقـا يرحلون هكذا كمن لحق بهم عار لا يمحـى.. نزلـت مـن العربة. إلى أين أنت ذاهبة يا أم إبراهيم؟. تساءل مرسي فلم تجبه. كانت النساء تقفن أمام أبواب البيوت غير مصدقات ما يحدث. ارتمت في أحضانهن واحدة واحدة، البعيـدات مـن النساء تركن بيوتهن وأقبلن بسرعة يقبلن المرأة التي عاشت بينهن عشرين عاما لم يسمع لها أحد صوتا!. فجأة تغير كـل شيء. امتلأ الفضاء خارج البوابة بالنساء والرجال يـودعن مرسي وزوجته وأطفاله. عائلة واحدة لم يخرج منها أحـد،

عائلة سلام، وكان سلامة واقفا بعيدا على شاطئ الترعة يفكر كيف سيخرج أحشاء إبراهيم بخنجر في أول لقاء بينهما.

كان لابد للقاء أن ينتهي، وللعربة أن تبتعد، والناس بدأت تعود إلى بيوتها مندهشة من أحوال الدنيا، وتاجر البهار الذي كان يجلس في مكانه قال لمحمود الملاح هذا وداع يليق بالزعماء، أنتم ناس طيبون جدا.. ومحمود الملاح كان شاردا بذهنه يفكر في أن لحظة سفره إلى القاهرة يجرب حظه مرة جديدة قد حانت. لن يفكر في الإخراج السينمائي بعد اليـوم. هذه المهمة ليست منذورة له، سيرضى بـأي عمـل.. قـال لتاجر البهار.

- غدا سوف أرحل أنا أيضا إلـى القـاهرة ولـن أعود.

ضحك تاجر البهار وقال:

- ما أكثر ما قلت ذلك ثم نراك بيننا.

- هذه المرة أتكلم جادا، لقد زهقت مـن الفـراغ والجري وراء النساء. عمري يقرب من الثلاثين يـا فلفـل، لابد من نهاية لهذا العبث.

- هل وجدت فرصة في الإخراج؟

- دعك من هذا العبث يا فلفل. أنا أدركت الحقيقة. الإخراج علم وفن كبير. سأبدأ كومبارسا من قهـوة "بعـرة" وبعدها يقضي الله بما يكون.

سكت تاجر البهار قليلا، بدا متـأثرا بحـق، كـان محمود القزعة يتناول إفطاره متأخرا كالعادة، فول وفلافـل وبصل وطماطم على منضدة خشبية وضعها له عماله علـى السلالم وجلس أمامها على مقعد قديم، وبين الحين والحـين يرفع عينيه يتابع النساء. قال تاجر البهار:

- عارف ياسي محمود، الإنسان غلبان جـدا لمـا تشوفه ياكل، انظر إلى أي إنسان وهو يأكل تشعر أنه مسكين جدا، خاصة لو كان جائعا، تراه يستحق الشفقة. أي والله.

ابتسم محمود لأنه يعرف أنه يقصد محمود القزعة، لكنه حين تأمل القزعة وجد ما يقوله تاجر البهار صـحيحا. بدا له القزعة أكثر الناس مسكنة واستحقاقا للشفقة. قال تاجر البهار:

- أنا أيضا فكرت في شيء مجنـون، أن أتـرك مصر كلها إلى الهند.

- الهند. وماذا تفعل هناك؟ الهند أكثر من خمسمائة مليون شخص فهل تحتاج إليك؟

- أنا لن أذهب للعمل. لا. أحتـاج دروسـا فـي العطارة.

- نعم!

- دروسا في الروح يا سي محمود. زهقـت مـن جسمي. أنا لو رحت الهند ورجعت، سأرجع مشـيا، سـآخذ طريق التوابل البري، من الهند إلى إيران إلى العـراق إلـى الشام إلى فلسطين إلى مصر، وبعد عودتي سيعرف النـاس كيف تخلصت من جسمي.

بدا محمود مرتبكا جدا وغير قـادر علـى الفهـم واستمر تاجر البهار يتكلم..

- سأجلس هناك وحياتك علـى شـاطئ المحـيط الهندي وأمسك سكينا أقطع به قطعا مـن جسـدي وأرميهـا للقطط والكلاب..

وقف محمود غير قادر علـى فهـم هـذا الرجـل العجيب. أحس بالأسف لأنه سيتركه بعد أن قضى معه أياما مجنونة وراء النساء. لم يترك فرصة لذكرياته تتـداعى. لا

يريد أن يضعف. رأى نادية سلام تمشي بسرعة في الطريق، بجلبابها والملاءة السوداء سقطت عن رأسـها إلـى كتفيهـا وكادت تسقط إلى الأرض لولا أنها تتشبث فيها بيدها. كانت مرتبكة حتى إنها وضعت في قدميها شبشـب زنوبـة مـن الشباشب التي ظهرت بعد الوحدة مع سـوريا فـي سـوق المنشية. كان يبدو أنها لم تعتن بنفسها، لم يكن في يدها غير "بوك" صغير، وكانت تحاول أن تسوي شعرها بيدها وهـي تمشي بسرعة لا تلتفت إلى أحد. كان قد رأى سلامة يمشـي وراء العربة التي نقلت عائلة مرسي وأثاثها منذ قليل. طيـب سلامة لديه حلم أن يقتل إبراهيم فإلى أين تذهب نادية. هـل ستطفش؟ هل يمكن أن تفعل هذا بنت بالمساكن؟. الدنيا تتغير بسرعة يا محمود.. لكن نادية ذهبت إلى كوم الشقافة.

جلست نادية في ظل شجرة سدر عتيقة بين أشجار الكافور والكازورين قريب منها أقارب المرضى ينتظـرون موعد الزيارة يتفرقون على المقاعد الخشبية والنجيل. ناديـة تثبت عينيها على نوافذ المستشفى تتأمل الوجوه المريضة من بعيد..

لماذا جاءت نادية الآن إلى المكان الذي لم تحبـه؟. هل فكرت أنها قد تجد ابراهيم جالسا فيه؟. هل جاءت تنظر إلى ذلك المريض البعيد الذي كان دائمـاً ينظـر إليهـا؟. لا تعرف نادية إلا أنها وجدت الطريق مفتوحا إلى الخروج من البيت فانطلقت في عزمها ألا تعود.

لم تفكر أين تذهب. المهم أن تخرج من السجن الذي تنتظر عقابها فيه. بعد أن عبرت المحمودية بالمعدية فكـرت أن تذهب تبحث عن إبراهيم في كفر الزيات.

كانت وهي تنطلق خارجة قـد التقطـت "البـوك" الصغير على أمل أن به نقودا فإذا بها لا تجد به غير خمسة قروش.. لتلتقط أنفاسها في الطريق وتفكر ماذا تفعل.. حـين بدأ الناس ينهضون من الحديقة في اتجـاه بـاب المستشـفى تذكرت خير الدين. لماذا حقا لا تزور خير الدين وتتحـدث قليلاً معه. هو مريض مشرف على الموت كما يقولون، وهي تنتظر القتل كما يبدو من سلوك أهلها.. نهضت من فورهـا وعبرت باب المستشفى. سألت عن الغرفة التي بهـا خيـر الدين ووصلت إليها. وقفت بالباب لا تصدق. خيـر الـدين ممدد فوق السرير تحت البطانية والملاءة البيضاء مثل عود

القصب، تبرز يداه مثل عودي الكبريت تمسكان بالجورنال. كان بالغرفة مريض آخر حوله عدد كبير من الفلاحين، نساء ورجال وأطفال، بينما لم يكن أحد مع خير الدين.

- غير معقول! نادية!

نهض واعتدل جالسا فوق السرير. وضع الجورنال على الكوميدينو المجاور. أشار إلى كرسي قريـب سـحبته وقربته من سريره وجلست قريبا من وجهه. الآن فقط، فـي هذه اللحظة فكرت أن تلتقط العدوى مباشرة من خير الـدين. يا لها من طريقة جميلة للموت. لقد انطلق - لحسن حظها - خير الدين في سعال طويل كاد فيه يختنق، فاقتربـت منـه تسقيه ماء، لكنه كان يضع المنديل يستقبل بـه مـا يطـرده صدره. لم يبد أبدا أنها ارتبكت. والعجيب أن أحدا من زوار المريض الآخر لم يهتم. أخذ خير الدين نفسا طويلا وقال:

- آسف يا نادية.
- ربنا معاك يا خير الدين.
- لكن كيف غامرت بالخروج؟
- أنت تعرف القصة؟.

- ومن لا يعرفها يا نادية. ثم كيف خرجت بهـذه الثياب؟ أنت طفشانة؟

سكتت وتركت دموعها تنزل على خديها. ثم قالت..

- هل تزورك الجوني يا خير الدين؟

- زارتني مرة. أنا طلبت منهـا أن تمتنـع عـن زيارتي حتى أشفى، أهلي يزورونني. أنا خائف على الجوني يا نادية. أنت أيضا لا تقتربي مني كثيرا، قولي لي ما هـي أخبار نوال؟

- لا أحد يعرف..

- مسكينة. من كان يعـرف أنـه فـي المسـاكن ستخرج بنت تشتغل في السياسة.

- هل تصدق ذلك يا خير الدين؟

- أنا لم أعد فاهما لأي شيء، حتى سليمان رسب للعام الثاني بسبب العمى المؤقت العجيب الذي أصابه.

- ليس لأي بنت فينا ذنب فيما جرى لهـا، إنهـا مصائب تنزل علينا دون سبب مفهوم..

- لا تيأسي يا ناديـة، إبـراهيم مصـيره يرجـع ويخطبك.

- المشكلة في أهلي..

- أهلك مصيرهم إلى اللين، المهم أن تصمدي ولا تنهاري.

سكتا لحظات ثم قالت:

- قل لي يا خير الدين.. أنت متعلم. هـل هنـاك شيء أسمه الحب؟

ابتسم وقال:

- طبعا يا نادية، لن أقول لك قيس ولا ليلى، أنـت نفسك، ما الذي وصل بك إلى هذه النهاية؟ أليس هو الحب؟

- يعني كل حب لازم ينتهي على مصيبة يا خيـر الدين؟

تأملها يهز رأسه بأسف.

- أبدا يا نادية. الحب عادة ينتهي نهايـة سـعيدة، لكن الناس لا تتذكر إلا النهايات الغريبة والشاذة.

فكرت قليلاً وهزت رأسها كمن أدركت صحة الكلام ثم قالت:

- أنا عارفة أن الجوني، هي التي لا تزورك. أمها منعتها، لكن أرجوك أن تسامحها يا خير الدين..

تنهد وقال:

- طول عمري أحب الجوني حب أفلاطوني، حب روحي، إذن كيف لا أسامحها؟ ثم إنني أتمنى لهـا السـعادة حتى مع غيري، أنا عمري قصير في الدنيا يا نادية..

عادت دموعها إلى النزول إلى خديها.

- بعد الشر عنك يا خير الدين، إن شاء الله تعيش مائة سنة. من يعرف، ربما تعيش مثل سيدنا نوح ألف سنة..

ابتسم وقال:

- أنا عارف كل شيء عن نفسي يا نادية، مرضي وراثي لا حل له، وتهدج صوته قليلاً، لا يؤرقني غير أخوتي الصغار. أخوتي الثلاثة الأصغر مني جاءوا إلى الحياة مثلي ليكبروا وقبل أن يفرحوا يصيبهم المرض اللعين ويموتـون. أنا لم أكن أعرف، لكنهم يعرفون الآن ويرون أخـاهم فـي طريقه إلى الموت. إنه عذاب فظيع يا نادية.

قالت غير قادرة على أن توقف دموعها:

- لكن ربنا له تصاريف أخرى يا خير الدين.

وبدأ الموجودون في الحجرة ينتبهون إلى حالتهمـا وبدأت بعض النساء تتأثرن وتنتحبن.

- ليت أبي وأمي لم ينجبا أحدا من الأبناء.

ازداد نحيب النساء الفلاحات وعلا صوتهن وأدرك خير الدين الموقف فراح يضحك محاولا التخفيف منه وقال:

- لكن لم تخبريني هل كنت طفشانة؟

- لا أعرف يا خير الدين، وجدت الطريق مفتوحا فهربت.

- ولم تفكري في أي شيء ستفعلين؟

- لا. على الإطلاق.

ازداد ضحكه فبدأت تضحك بـين دهشـة الـزوار المنتحبين.

- هكذا تزيدين المشكلة يا نادية.

- ماداموا سيقتلونني يتساوى كل شيء..

- هل سيقتلونك فعلا؟ أهلك صعايدة لكن لا أظن. لابد أن الإسكندرية غيرت في طباعهم. اقتربي من أمك. أمك تستطيع أن تنقذك. ابكي بين يديها وعلى صدرها. أمك هـي ملاذك يا نادية..

- سمعت أنهم سيزوجونني إلى مخبر قريب لأبي أكبر مني بعشرين سنة وسبق له الزواج.

ضحك خير الدين وقال:

- مادام مخبر تزوجيه فورا.

اندهشت وتأملته فقال:

- أجل. تعطيه سيجارة فيسكت ويتركك تفعلين ما تشائين.

ضحكت معه وطال ضحكهما الـذي ارتفـع وراح يسعل وقالت:

- لم تتغير يا خير الدين.

قال:

- الدنيا حلوة يا نادية. لازم نعيشها لآخر لحظـة، لن نعود إليها مرة أخرى، ولا نعرف ماذا سيحدث لنـا فـي الآخرة. لازم نضحك.

قامت وصافحته وخرجت وهو يقول لها:

- لاتخافي يا نادية. لن يجبروك علـى شـيء لا تحبينه.

ما كادت تغادر باب الحجرة حتـى عـادت بغتـة وبسرعة انحنت على خير الدين وقبلته علـى خـده. صـار

مندهشا جدا إلا أنه أحس بطعم قبلتها منعشا، لقد جرى الـدم في عروقه، ولمع البرق في عينيه.

ثبت عينيه مبتهجا على عينيها ثم أشـار إليهـا أن تقترب بوجهها منه.

اقتربت فهمس في أذنها..

- لايمكن لأحد أن يقتل هذا الجمال الرباني، الدنيا نفسها تزعل منه. هيا عودي إلى البيت وسأراك قريبا هناك.

ابتسمت نادية وأحست أن موجة من الفرح تحملهـا وتطير بها في الفضاء الأبيض الوسيع وخرجت عائدة بخطى واسعة وتصميم وعزم ولم تلتفت إلى قلبها الذي يدق بقوة..

( ٧ )

دق باب العشة رجل طويل يرتدي بدلة من الكتـان الرمادي. رجل في حوالي الخمسين من العمر هادئ الملامح أسمر البشرة حين خرج حمزة يقابله اكتشف إنه قصير جـدا بالنسبة إليه حتى إنه نظر إليه من أسفل وهو يقول:

- أنا حمزة، ومستعد لكل شيء.

ابتسم الرجل وقال في نبرة وادعة:

- طيب اسمح لي أولا بالدخول يا رجل.

دعاه حمزة على الدخول غير مصدق. ليس من المعقول أن يكون هذا الرجل قادما من رئاسة الجمهورية!!

بسرعة قطع الرجل الصالة ووقف في الغرفة الداخلية. كانت كابية رغم الضوء. قال حمزة لزوجته التي وقفت مذعورة في أحد الأركان.

- اصنعي لنا شايا يا امرأة..

دعا الرجل إلى الجلوس على الكنبة جواره.

- طبعا تريد أن تعرف من أنا ولماذا أنا هنا، ألم ترسل خطابا إلى السيد الرئيس؟

- أرسلت.

أجاب حمزة بشجاعة استمدها من الطريقة التي يتحدث بها الرجل، والهدوء الذي على وجهه.

- والرئيس يا سيد حمزة رد عليك..

- إذن سأتسلم ابنتي.

- ستتسلمها.

- اليوم؟

- بعد قليل.

كانت الأم تقف بالباب تسمع الحوار فاندفعت داخله تقبل يد الرجل الذي سحب يده بسرعة مستغفرا الله بينما تماسك حمزة الذي يغالب دموعه وقال:

- أنا كنت أعرف أن الرئيس عبد الناصر لن يخذلني.

قال الرجل باسما.

- هيا إذن غير ثيابك بسرعة وتعال معي.

وقف حمزة ينظر حواليه. قال مرتبكا.

- ليس عندي غير هذا الجلباب الذي أرتديه.

كان يرتدي جلبابا أبيض وطاقية بيضاء قطيفة.

- إذن هيا بنا، وسنشرب الشاي فيما بعد..

خرجا والزوجة لا تصدق، لكن نوعا من الطمأنينة والسلام تركهما الزائر الغريب هذا خلفه.أوشكت الأم أن تطلق زغرودة لكنها جلست تبكي في صمت..

كان حمزة يخب في الطريق يكاد يرمح حتى إن الرجل الطويل جدا بالنسبة إليه لم يكن قادرا على اللحاق به.

كان يتأمله ويبتسم. عند كوبري كرموز أوقف حمزة تاكسـيا وسأل الرجل.

- على أين؟
- على أمن الدولة. دعني أنا أرشد السائق.

لم يكن مع حمزة إلا جنيه واحد حتى آخر الشـهر، لكن لا بأس أن يأخذ تاكسيا ليصل بسرعة إلى ابنتـه. قلبـه انقبض وهو يسمع كلمة أمن الدولة، ثم عاد واطمأن.

لابد أنهم سينفذون ما يقوله الرئيس عبـد الناصـر لهم، والرجل قال إنه سيعود بنوال.

همس الرجل في أذن السائق بالعنوان فبان الـذعر على وجهه، لكن ماذا يفعل. كان حمزة يعرف الطريق مـن كرموز إلى محطة مصر ثم الطريق إلى الشلالات، لكن بعد ذلك دخل التاكسي في شوارع ضيقة جميلة وارفة الأشـجار فلم يعرف أين هو بالضبط. والأضـواء التـي كانـت فـي الشوارع بدأت تقل حتى وجد نفسه ينزل من التاكسـي فـي شارع شبه مظلم، لكن رائحة الأشجار الجميلة تنتشر فوقـه وحوله، وأمام مبنى من ثلاثة طوابق، هو في الحقيقـة أحـد القصور القديمة قبل الثورة، كان يقف عدد من الجنود شاكي

السلاح، وعلى البعد عدد من السـيارات اللامعـة. المبنـى المنخفض الجميل حوله حديقة صغيرة بها مصابيح تدور مع سورها وتضيء المبنى من الخارج، لكن المبنى نفسـه مـن الداخل يبدو شحيح الضوء.

- لاتخف. اتبعني.

مشى الرجل، ومشى حمزة خلفه. بدأ يرتبك ويتعثر وإن أعجبه للحظة أن أحدا لا يوقف الرجل الذي صـعد بـه إلى الدور الثاني، ومن ثم لم يوقفه هو أيضـا. فـي صـالة يجلس بها خمسة أفراد في صمت رهيب أشار الرجـل إلـى حمزة أن يجلس ثم دلف من باب لا يكاد يظهر لم يغب خلفه أكثر من دقيقة ثم عاد ينحني هامسا في أذن حمزة.

- لا تذكر شيئا مما قلته لك.

ثم أشار إليه أن يدخل بعد أن فتح البـاب الخفـي. تردد حمزة للحظة. دخل ليصبح الباب خلفه وليجـد نفسـه وحده في مواجهة غرفة واسعة طويلة في آخرها يجلس رجل مهيب، إلى مكتب فخيم. كان الرجل مشغولا في كتابة شـيء ما لكنه أشار على حمزة أن يتقدم. حين وصل إليـه وقـف الرجل الطويل جدا، وصافح حمزة بقوة. لقد أحس حمزة بيده

كأنما صنعت من فولاذ. أشار إليه الرجل أن يجلـس أمامـه فجلس. كان الرجل الفولاذي الطويل قد خلع جاكـت البدلـة وظل بالقميص اللينوه الفاخر والحمالة اللامعـة والكرافتـة الأكثر لمعانا. أخرج علبة سجائر كنت أميركية قدم واحـدة منها إلى حمزة الذي أعتذر عنها قائلاً "آسف. ما بـاغيرش" وأخرج علبة سجائره "الجولدن ويست" فلم يتمالـك الرجـل نفسه وابتسم مندهشا، لكنه لم يتردد في إشعال سيجارة حمزة بولاعته الذهبية.

- هيه، قل لي يا سيد حمزة، لماذا أرسلت خطابـا إلى السيد الرئيس؟

ارتبك حمزة، تذكر ما قاله له الرجل الوديع فتشجع.

- يافندم ما المسئول بأعلم من السائل.

- صحيح. عندك حق. لكن لا أحد هنا يعرف شيئا عن ابنتك.. بدأ حمزة يرتبك أكثر، بل لقد اهتز بالمقعد، لكنه سرعان ما تماسك وأطفأ السيجارة في المنفضة التي أمامـه وقال:

- طيب ما دمتم لا تعرفون شيئا عن ابنتي اسـمح لي أعود إلى البيت.

ووقف يهم بالانصراف فبان غيظ شديد على وجه الرجل الفولاذي ثم صرخ فيه.

- إجلس مكانك يا روح أمك. هل تعرف ماذا فعلت يا رجل يا تافه أنت؟ أزعجت رئيس البلاد من أجل بنتك التافهة الشرموطة.

كان الرجل الفولاذي قد وقف، وارتفع صوته فدخل عدد من المخبرين من أبواب لم يرها حمزة، بل لم يرهم وهم يدخلون، انشقت عنهم أرض الغرفة. وجد حمزة نفسه يقف مرعوبا يكاد يتلاشى.

صرخ الرجل الفولاذي وهو يشير إلى المخبرين أن يظلوا بعيدا..

- تريد ابنتك؟ ليس قبل أن تقول لي من نصحك بإرسال خطاب للرئيس، ومن هم الشيوعيون الذين يعملون في السكة الحديد، والشيوعيون الذين يعيشون في المساكن.

ضاعت صورة الرجل الوديع الذي صحب حمزة إلى هنا من ذهنه. ضاع كل شيء يربطه بالحياة. أدرك أنه في محنة حقيقية. غريق يضرب بذراعيه في بحر متلاطم. لكنه تكلم بصوت لا يكاد يخرج من فمه.

- يا سعادة البيه الناس في المساكن غلابة وربمـا لا يعرفون حتى الآن أن الإنجليز خرجوا من البلاد..

هنا كاد الضابط يضحك. حقا لقد كاد جسمه يهتـز، لكنه تماسك وتحدث وإن بصراخ أقل بعد لحظات من الدهشة والصمت..

- وحياة أمك؟.طيب. الآن سترى مـاذا سـنفعل بابنتك أمامك..

فتح باب ظهرت منه نوال ممسوكة بيدي اثنين مـن المخبرين في حالة إعياء تام. تقدمت نحو أبيها لكنها سقطت على الأرض وجرى هو إلى قدمي الرجل الفولاذي.

- أبوس رجلك كله إلا بنتي. اقتلني أنا؟؟.

أمسكه الرجل من ياقته من عند قفاه وكاد يحمله عن الأرض.

- قل لي من نصحك بإرسال الخطاب.

كانت نوال قد استطاعت الوقوف فـي ركـن مـن الغرفة الواسعة.

- لا أحد، والله العظيم لا أحد غير غبائي..

بدا لحمزة أن الموقف لن ينتهي أبدا، لكن الرجـل الفولاذي أشار لرجاله على نحو مفاجئ.

- خذوا أولاد القحبة أرموهم في الشارع..

هكذا انتهى كل شيء. وفي التاكسي الـذي اسـتقله حمزة مع نوال كانت ذراعه حول كتفيها بينما نامـت علـى صدره.

ترك هو دموعه تنزل على وجهه بغزارة، والسائق الذي كان يراهما في المرآة بدا مندهشا جدا يهز رأسه فـي استغراب وتأثر، أوشك يسأل حمزة عما به لكنـه فكـر أن يحترم الموقف بالصمت الجليل..

في البيت كانت الأم قد استعدت لاستقبال نوال بذبح دجاجة وشراء زجاجة كوكا كولا من دكانة العنيبسي لتقدمها لها مع الأكل. حول الطبلية عادت دموع حمزة تنزل وهـو يتأمل ابنته التي تأكل في حزن لا مثيل له.ثقيل كأنه جبل.

تكلمت نوال لأول مرة..

- لاتبك يا أبي..

تأملها مليا وقال:

- أنت سليمة يا نوال؟

- سليمة مائة في المائة.

اضطربت الأم وقالت:

- هل كان ممكن أن..؟

سكتوا جميعا للحظات ثم قال حمزة:

- دول كلاب ممكن يعملوا أي شيء.. لكن ربنـا لطف.

ثم خاطب نوال:

- انسى يا بنتي كل شيء والتفتي إلى عملك.

هزت رأسها في أسف. لم ترد للحظات. ثم قالت:

- كيف أنسى يا أبي..؟

- ضربوكي يا نوال؟

- صفعة أو صفعتين. لكن الضـرب كـان فـي الغرف حولي طول النهار والليل. أصوات التعذيب لم تنقطع لا بالنهار ولا بالليل. تخيلت أنهم لم يتركـوا شخصـا فـي الإسكندرية إلا ضربوه. تمنيت الموت لأني في كـل لحظـة كنت خائفة يعذبوني..

عاد حمزة وقال:

- حمدا لله على سلامتك يا بنتي.. إنسي ما مضى.

قالت أمها في أسف..

- سامحينا يا نوال. لقد ألقينا الكتب التي وضعتيها فوق السندرة في ترعة المحمودية. لقد جاءوا وفتشوا البيـت ولحسن الحظ كنت نقلتها إلى السطح.

هزت نوال رأسها في أسف ثم قالت:

- رغم أني لا أعرف الإنجليزية لكني أتمنى الآن لو قرأت هذه الكتب التي تسببت في هذا كله.

ثم فجأة ابتسمت وسألت أباها:

- لكن هل صحيح أنت أرسلت برقية للرئيس؟.

تراجع إلى الخلف في زهو وقال..

- أرسلت خطابا كاملا..

- من الذي كتبه لك؟.

- أنا. بخطى. لكن الفكرة كانت فكرة سليمان عبد الباسط. قلت للرئيس: من حمزة بن عبد الله إلى جمال عبـد الناصر رئيس البلاد. أعرفكم أنه تم القـبض علـى ابنتـي الحكيمة نوال مـن قسـم العمليـات بالمستشـفى الأميـري بالإسكندرية بتهمة الشيوعية التي لا نعرفها. ابنتي لا تعرف إلا الغناء لأن صوتها جميل، وهي تغنـي للمرضـى فـي

المستشفى، وأنا رجل عامل دريسة في السكة الحديـد لكنـي علمت ابنتي فهل يكون جزائي أن تقبضوا عليها وبدلا من أن تزف إلى عريس تزف إلى السجن - وضحكت نوال وارتفع صوتها وضحك أخواتها حولها وبانت السعادة على الوجـوه واستمر حمزة - وهل هذا جزائي أنا الذي تطوعـت أيـام العدوان الثلاثي في الحرس الوطني لأفدي الوطن بروحـي. أنني لا أشكو لأحد بعد الله إلا لك وأنا على ثقة أن عذاب الله شديد لكل من ظلمني وظلم ابنتي وحياتها وحياتي الآن بـين يديك والسلام.. انطلق يضـحك مـلء شـدقيه، وارتفعـت أصواتهم، وقالت الأم "أبوكي طول عمره زكي ونبيـه" ثـم أطلقت زغرودة عالية تقاطر بعدها السـكان مـن البيـوت جميعها يهنئون نوال بسلامة العودة، حتى الدجاج ارتفع نقيقه في العشش وارتفعت أصوات الماعز والغنم، وأذن أكثر من ديك والليل بعد لم ينتصف.

كان عدد من الأولاد لا يزالون في الشارع. دخلـوا إلى المساكن متجهين إلى بيت عم حمزة ليروا نوال التي كان مقبوضا عليها بسبب السياسة!! وصل الخبر إلى بيت سليمان فذهب بسرعة ليهنئها. الوحيد الذي ظل في مكانه هو حبشي

ومعه بدرة ومراكبي غريب يحتسون الشاي. خرج حبشي ووقف على الشاطئ يستطلع وعرف من الأولاد أن نوال التي كان مقبوضا عليها عادت. نظر إلى المساكن الرابضة في الظلام وهز رأسه دهشة. من يصدق أنه في هذا المكان النائم على بعضه تقع كل هذه الأحداث. عاد إلى زوجته والضيف. كان عدد من الأولاد لا يزال جالسا يغالب النوم، وعدد آخر نائما. لم يعد حبشي يعرف أبناءه من صلبه من اللقطاء.. لاحظ أن بصر بدرة لا ينزل عن وجه المراكبي. لم تكن هذه أول مرة يتردد هذا المراكبي عليهم.

لم يدرك حبشي منذ اللقاء الأول وحتى الليلة أن شيئا ما سيحدثه هذا المراكبي في حياته. وبالطبع لم يفكر أبدا أن الليلة ستنتهي القصة التي بدأت ولم يدر. لقد سأله حبشي:

- هل ستغيب المركب كثيرا في كفر عشري؟

أجاب المراكبي:

- حمولتنا قليلة من القمح. سنفرغها بسرعة ونعود. لن نحمل شيئا من الاسكندرية. ربما نحمل بضاعة من القاهرة إلى قنا.

سكت حبشي وراح يسـحب أنفاسـا هادئـة مـن "الجوزة". صار معتادا أن يأتي هذا الرجل مع "الصندل" مرة كل ثلاثة أشهر. في كل مرة يحمل إليه شـيئا مـن حمولـة الصندل. قصب. قمح. بصل. عسل. قطن، وغير ذلك ممـا تحمله بدرة وتبيعه إلى العنيبسي أو السـيد خليـل باسـتثناء القطن الذي يحمله حبشي إلى محل قطن في كرموز. دعـاه حبشي إلى شرب الشاي أول مرة منذ حوالي العام، وكانـت المراكب قد اضطرت للانتظار كثيرا في المحمودية لزيادتها المفاجئة، كان الصندل الذي يعمل عليه هذا المراكبي يقـف أمام كشك حبشي مباشرة. الرجل أسمر مستدير الوجه صغير العينين بشكل لافت بحيث تتخيله ضعيف النظر من كثرة ما يرف أهدابه، على رأسه عمة كبيرة، لكنه دائما نظيف حليق اللحية ترك شاربا صغيرا خفيفا لا يكاد يبين.. للرجل صدر عريض وذراعان قويتان وجلبابه الصوف نظيف على غيـر عادة المراكبية فوق المحمودية، ومن فتحة جلبابه يظهر على صدره صديري أبيض نظيف، وفي قدميه حذاء لامع، أسود، وليس حافيا كمعظم المراكبية!

سأله حبشي حين التقى به أول مرة:

- هل أتيت إلى الإسكندرية من قبل؟
- هذه أول رحلة لي.
- الصندل ملكك؟
- ملكنا نحن جماعة من أولاد العم..
- مبروك.
- يبارك فيك لكن قل لي، هل تعيش هنا دائما؟
- طبعا. أين نذهب يا ابن العم!؟

كان الجو شتويا، وحبشي قد وضع بينهم "قصـعة" بها فحم مشتعل، لاحظ أن الرجل بين الحين والحين يمد يـده يسوي قطع الفحم المشتعل جوار بعضها بأصابعه! أو يضغط عليها عميقا داخل النار دون أن تصاب أصابعه بحروق مـن أي نوع، أو يبدو عليه أنه يتألم.. بل كان يتكلم مـع حبشـي وهو يفعل ذلك. ولاحظ حبشي أن بدره تتأمله بدهشة طـول الوقت، وبعد أن غادر الرجل الكشـك رأى حبشـي بـدرة تنتفض.

- مالك يا امرأة؟
- جسمي يا حبشي ماسكة فيه الكهربا..
- ثلاثة بالله العظيم أنت مرة لبوة!

لكن بدرة كانت بالفعل تشـعر بنـار تسـري فـي جسدها، نار تتردد كتيار كهربي من قدمها إلى رأسها تكـاد تهزها كلها وتحرقها. لقد أحمـر وجههـا بشـكل غريـب، وتمددت فوق الأرض وقالت "غطيني يا حبشي". غطاها بكل الأغطية الممكنة لكنها لم تكف عن الارتعاش حتى راحت في نوم عميق..

لأيام وبدرة ذاهلة بعد ذلك. الصندل بعد أن أفـرغ حمولته عند كفر عشري عاد من أمام الكشك، ووقف حبشي يرسل تحيته بذراعه إلى الرجل الذي كان بدوره يحييه مـن فوق الصندل. رأى حبشي بدره تقف جواره حزينة مذهولـة وهي تتأمل الرجل السابح مع الصندل فوق الماء. عافت بدرة الطعام بعد ذلك حتى أوشكت تموت. لكنها أكلت وعادت إليها عافيتها شيئا فشيئا. بعد ثلاثة أشهر عادل الصندل والرجـل وسهر مع حبشي وبدرة التي جرى الدم في وجهها وانطلقت منه البهجة. حكى لهم الرجل كيف تخـرج للنوتيـة بالليـل عرائس النيل بين البلاد ترقص على حواف الصندل وأحيانا تغني بصوت جميل آسر غير مفهوم. وكيف ينزل وراءهـا بعض المراكبية على الماء فلا يعودون! في كل رحلة "تنـده"

عرائس البحر واحدا أو اثنين من النوتية. للعرائس دائما جسم السمكة ووجوه البنات الصغيرات اللاتي كن يلقى بهن قديما ليفيض النيل وهن بعد عذارى لم يمسسهن بشر ولا جان.. وكيف حين يكون الريح شماليا يعاكس نزول المراكب من الجنوب، تخرج عرائس النيل خاف الصندل تدفعه برءوسها فيزول خوف المراكبية وينطلقون في الغناء والهتاف بالمواويل وأكثرهم يبكي حين تنصرف بنات النيل ويغبن في الماء بعد أن تعتدل الريح. كلما اقترب المركب من المدن قلت العرائس يا حبشي. إنها تخشى المدن وزحام الناس. النيل أسرار يا حبشي. تعرف طبعا قصة عمرو بن العاص لما فتح مصر مع النيل حين وجد المصريين يلقون إليه كل عام بفتاة جميلة ليفيض على البلاد. تعرف القصة أم لا يا عربي؟ أنا والله لا أعرف القصة يا رباني. أنا أتعلم منك! تسميني بالرباني يا حبشي؟ والله أنا أراك تمسك بالنار يا سيدنا! أنت مبروك. اسمع يا حبشي القصة العجيبة. لقد تحير عمرو بن العاص فأرسل إلى خليفة المسلمين عمر بن الخطاب، هناك في المدينة المنورة يطلب منه المشورة. عمر كان "واعر!". أرسل ورقة إلى عمرو وقال له أن يلقى بها

في النيل. الورقة كان فيها الآتي يا حبشي. من عمـر بـن الخطاب إلى نيل مصر. إذا كنت تجري من عندك فلا تجر، وإذا كنت تجري من عند الله فأهلا ومرحبـا.. مـن يومهـا يجري النيل دون بنات. تعرف لو لم يرسل إليه عمـر بـن الخطاب بالرسالة كان الماء امتلأ بالعرائس ولم يكن هنـاك مكان للسفن تمشي على الماء.. يا سلام يا رباني. حكايتـك تسلب العقل، يعني لولا الورقة دي يمكن ما كان تفضل فـي بر مصر بنت بنوت. لكن رحمة ربك كبيرة. ونظر حبشـي إلى بدرة وقال ضاحكا؟ ليته ما أرسل الورقـة عمـر بـن الخطاب كنا ارتحنا من بدرة! ضحكوا، قال الرباني: تعـرف أن الناس في قنا يسمونني أيضا بالرباني. حسبت أنك تعرف لكنك قلت لي سببا لم يخطر ببالي. الناس في قنا يسـمونني بالرباني لأني أول ما اشتغلت كـان علـى غليـون كبيـر، للسياحة، ويمكن أيضا لأني يوم ولدت ولد جاموس البلد كله، العشر وغير العشر.. وكان إعجاب بدره بالرجـل يـزداد. حبشي يرى ذلك في عينيها في كل زيارة للرجل. ويراه فـي الشحوب الذي يعتورها بعد رحيله وحتى يعود ليتحدث عـن اللصوص الذين يهاجمون الصندل بالليل على طول النيـل.

وكيف أنه تقريبا لا ينام منذ خروجه من قنا حتـى عودتـه، وبدرة كلما غاب الرجل قل إقبالها على الطعـام وزاد علـى الماء من كثرة النار التي في صدرها. تقول أنـا لا أعـرف ماذا جرى لي يا حبشي. يخيل إلي أنـي سأشـرب الترعـة والبحر، وحبشي يأخذ الماء بالمجان من دكانـة العنيبسـي، ومنذ أيام ذهب يملأ "جركن" فمنعة العنيبسي وطالبـه بـدفع جنيه كامل. كيف يا رجل، لقد تعودت تعطيني الماء بالمجان، أجل، لكنك الآن تستهلك أكثر من جركن في اليوم الواحد ولم تكن تفعل ذلك من قبل، وسعر المياه ارتفع، وجنيه ليس كثيرا عليك. يا رجل يا عنيبسي أنا طول عمري أسرق لك بلاليص العسل وأبيعها لك برخص التراب، وحزم القصـب وأجولـة البصل والعدس والفول وحتى فول السـوداني وغيـره ولا تكرمني في الماء الذي خلقه الله للناس جميعا. صـرخ فيـه العنيبسي. أنا أسامحك في صفيحة، لكنك تستهلك أكثر مـن ستين صفيحة في الشهر؟ ماذا تفعل؟ ارحم شبابك وزوجتك؟ ضحك حبشي وأدرك سر غيظ الرجل. قال. يـا رجـل يـا عجوز أنا أستحم مع زوجتي في الترعة بالليل. نحن نستعمل الماء في الشرب فقط، تشرب صفيحتين وثلاثا في اليوم؟ أنا

لا أشرب حتى زجاجة ولكنها بدرة يا عنيبسي. بدرة! أنـت تستغفلني. والله العظيم بدرة يا عنيبسي السبب، العفريت الذي ركبها عطشان لا يرتوي فماذا أفعل أنا يا عنيبسي؟.

عفريت هو الذي يركبها يا حبشي أم أنت لا تعطي نفسك راحة؟ غريب أمرك يا عنيبسي يا ابن ديـك الكلـب، طيب ما ذنبي أنا إذا كان أنت لا تركب وبتاعك نشف وصار مثل جلدة الحنفية. امشي يا حبشي يا بن الكلب. الله يسامحك، بس سيبني أخد مية الولية حتموت. خد ولا ترينى وجهـك. وظهر الرباني هذه المرة كما يظهر كل مرة فعادت الـروح إلى بدرة وتفتحت بشرتها وازدهرت عيناها.

هذه الليلة، حدثهما الرباني عـن مصـر الواسـعة الكبيرة، فهو كل ليلة، والمركب نازل مـن الصـعيد إلـى بحري، يصعد أعلى الصاري فيرى جنة الله لا تنتهي علـى الجانبين. والهواء فوق الصاري له طعم ماء زمزم، وحـين ينزل من فوق الصاري، تكون الشمس صاعدة فـي الـدنيا، فيتعجب من هذه الجنة الهادئة كيف تتحول إلى جحيم يتقاتـل فيه أبناء آدم بالنهار. هذه المرة أمضى الرباني معهم ثـلاث جلسات عبر ثلاث ليال وهذا شيء لم يفعله من قبل. تألقـت

بدرة حتى كادت تنفجر من الابتهاج!، كل ليلة لا تنزل عينيها عن الرباني، وحينما خرج حبشي يستطلع أمر الصياح والجلبة التي يسمعها في المساكن وعرف من الأولاد بعودة نوال، عاد هو إلى الكشك فوجد الرباني يمد يديه يمسح بهما دموعا في عيني بدرة. لم يشعر بغيرة من أي نوع، فالرجل مبروك، لكنه اندهش من بكاء بدرة. بعد أن انصرف الرباني إلى سفينته سأل بدرة عن سبب بكائها فدخلت في حضنه وأخذته إليها بشدة ما الذي جرى يا امرأة؟ إخلعي إذن ملابسك! لا، أنا لا أريد ذلك، لا تبتعد عني الليلة يا حبشي، اتركني في حضنك حتى الصباح. وفي الصباح نهض حبشي على بكاء الأطفال. لماذا تبكون؟ أين بدرة؟ أنهم ينادونها باسمها مثله تماما. خرج مسرعا فلم يجدها على الشاطئ. ولم يجد الصندل ولا الرباني. سمع صوت أحد أبنائه يقول له، لقد باستني في الفجر وقالت لي سأعود بسرعة يا طرزان. كان حبشي في غاية الضيق يقول بصوت غير مسموع "بنت ديك الكلب".

تذكر الليلة كلها، الليالي التي أمضاها الرباني المجهول هذا معهم، حين عاد بالليل ليراه يمسح عن بدرة

دموعها. كيف حقا نسى اختفاء زوجته السابقة. كيف اطمأن للأيام والسنين؟.ثم، ثم من الذي نظم هذه الدنيا علـى هـذا النحو العجيب؟ عادت نوال بالليل وغابت بدرة في الصـباح. يارب، يا قادر لماذا يكون علي حبشي مـن دون النـاس أن يدفع ثمن الغياب. حبشي الذي جعل من قلبه للقطاء، أبنائك، مأوى ومسكنا.. وترك حبشي الطريـق مفتوحـا لدموعـه الساخنة المريرة. لقد استيقظ الأطفال جميعا ووقفـوا أمامـه واجمين، فلم يميز اللقطاء من غيرهم، بل بدوا جميعا أمامـه لقطاء حقيقيين.

( ٨ )

وجدت أبلة نرجس نفسها وحدها. دون اتفـاق لـم تحضر الجوني ولا نادية سلام ولا حسنة ولا نوال. هل لأن الإسكندرية دخلت في الخريـف انكمـش الجميـع؟ أجمـل السهرات كانت في الخريف دائما والشتاء. ذاك الدفء الذي لا يعوض من الصحبة والألفة والأحاديث البريئة. هو طـائر الحزن الذي حط على البنات..

انفرد كروان بركن من الغرفة يـذاكر دروسـه. لا يزعجه صوت ماكينة الخياطة. لقد تعود عليه بينما نام أبـوه متعبا. عاد اليوم من رحلة عمل طويلة في الصحراء الغربية.

توقفت أبلة نرجس عن الخياطة، شرعت في زخرفة قطعة من الثياب بخيط ملون. وضعت أكثر من "كستبان" في أصابعها التي راحت تتحرك بالإبرة والخيط بخفة لافتة للنظر حتى إن كروان كان يرفع رأسه عن المذاكرة بـين لحظـة وأخرى يتأمل هذه الأصابع المدربة. توقف عن القراءة ثـم شرع يكتب ويفكر..

- عندك واجب كثير يا كروان؟

تساءلت أبلة نرجس فأجاب:

- لا. أنا فقط أكتب خطابا لخير الدين.

سكتت. اسم خير الدين مثير للشجن في كل البيوت. لقد خرج من المستشفى بعد فترة طويلة هذه المرة؛ لكن أحدا لم يصدق. صار واضحا أن خطبته للجـوني لـن تسـتمر طويلاً، ويتمنى له الجميع النجاة وطول العمر.

- هل طلب منك أن تراسله؟

- أبدا. لكني أحببت ذلك.

- مسكين خير الدين يعيش وحيدا في القاهرة، لابد أنه سيفرح كثيرا بخطابك.

لم تستطع أن تمنع نفسها من النظـر بـين لحظـة وأخرى إلى ابنها معجبة حتى قالت:

- حدثني يا كروان عـن القصـص التـي أراك تقرؤها كثيرا هذه الأيام. هل تحب القصص على هذا الحد؟

- أحبها جدا. في المدرسة يخصصون لنا حصتين في الأسبوع للمطالعة الحرة في المكتبة. اكتشـفت بالمكتبـة قصصا جميلة واشتركت في جماعة الموسيقى.

- الموسيقى؟!. لم تقل لي. ماذا تعزف؟.

- ناي.

فتحت أبلة نرجس عينيها إلى غايتهما سعادة ودهشة واستمر هو في الكلام.

- في العام الماضي، وأنا في سنة أولـى، قـرأت قصة جميلة للأطفال اسمها "الصياد التائه" وقصة ولد صغير تاه في الصحراء في رحلة صيد وراح أهله يبحثـون عنـه. جلست أبكي لأنهم تعبوا في البحث عنه ولم يجدوه. سـألني المدرس عن سبب بكائي فأخبرته فسألني أي صياد هذا الذي

تاه وتبكي من أجله؟ قلت له هذا الذي في الكتـاب، انـدهش وضحك ثم قال إنهم سيجدونه في النهاية، المهم أن أصل إلى نهاية القصة، ثم إن ما حدث ليس حقيقة إنما هو خيال فليس هناك في الحقيقة صياد تاه. كنت أنا أحسب أن القصص التي أقرؤها حقيقية. أي والله. كنت أنسى نفسي وأندمج فيها تماما.

وضحك وابتسمت وهي تتأمله بإعجـاب ممـزوج بالدهشة والسعادة معا. لقد أخذت الكتب كروان من الشـارع وهذا يكفي، ومن يدري ربما تصنع منـه الكتـب شخصـا عظيما.. لكن كروان كان قد بدأ يتثاءب فقام وانحنى يقبلهـا على رأسها ودخل لينام لتبقى هي وحدها ويوغل المكان فـي الصمت أكثر.

أبلة نرجس لا تشغل الراديو حين تكون وحدها، هي في الحقيقة لا تهتم به كثيرا، ولولا حضور البنـات وحـبهن للأغاني لنسيت أبلة نرجس أمر الراديو تماما.. البنات هـن اللاتي يجرين وراء الموسيقى، ويشغفن بالأغنيات. هي تحب الصمت، ولو استطاعت لنشرته في العالم. فقط تهفو نفسـها من زمان إلى سيجارة تدخنها وحدها رغم أنها لم تفعل ذلـك من قبل قط، ولا كان أبوها أو أحد من أخوتها مدخنا، كـذلك

زوجها لا يطيق التدخين. إنها حقا تندهش من هـذه الرغبـة العجيبة حتى إنها تغمض عينيها لحظات تتخيل فيها أنها تأخذ نفسا طويلا من سيجارة وهمية وتنفث دخانًا أبـيض كثيفـا مشوبا بالزرقة الهادئة في الفضاء النسيم!. أنها تـنهض الآن واقفة وسط الصمت والفراغ ونسـمة الخريـف السـكندرية الطرية المنذرة بالشتاء تدفعها دفعا إلى النوم الجميل. النـوم على سرير من الزئبق، أو فوق بحيرة من القطيفة، يحملهـا ويهدهدها. يفتح طريق أحلام الطفولة. يا إلهي. ما هي هـذه الرغبة العابثة في أن تصعد إلى السطح.. السطح وحدها الآن والليل يكاد ينتصف؟ السطح يا نرجس؟!. أجل. السطح الذي فوقه الليل الساجي والسماء ذات ملايين العيون!. إنها حتى لم تفعل ذلك بالنهار، ربما مرة أو مرتين خـلال العـام. الآن تشعر بأنها رغبة جسدها كله وروحها معا. ماذا يحدث لـو رآك أحد يا نرجس؟. لا يهم.. هذا جنون!. أعـرف، ولـو! وكانت تصعد السلم الخشبي الموجود في العشـة الخارجيـة والذي يفضي إلى فتحة تسلم إلى السطح مباشرة. هناك رجال يحبون بالليل أن يصعدوا إلى السطح ويدخنوا سجائرهم تحت السماء. لا فائدة في الكلام، لقد بدأت تصعد السـلم بالفعـل!

والرجال هنا ينامون مبكرين من التعب، شيء ما يسـاعدها على الصعود ويدفعها من أسفل، إنها تشعر به يرفع عجيزتها لكنها لا تدرك ملمسه بالضبط!.

قمر كبير في السماء هذه الليلة.. كيف حقا لم تـر القمر كثيرا من فوق الأرض. ياالله! كأننا وسط النهار مـن الضوء. لكنه ضوء حان، والسطح ممتـد أمامهـا طـويلا عريضا مثل طريق خال مهجور. المساكن صفوف متعامـدة ومتوازية تصنع بينها شوارع ضيقة. كل صف عشرة بيوت. كلها ستون بيتا وبيت. لا تعرف في أي صف يوجد البيـت الأخير. كل سطح يمتد فوق البيوت العشرة بـلا حـواجز. السطح مغسول بمطر سحري سقط ولم يشعر به أحد. السطح بارد ومنعش. هي حافية والبرد المنعش يصعد مـن قـدميها إلى فخذيها وينزل من أعلى وجهها وعنقهـا إلـى صـدرها وبطنها. البرد المنعش يسري في عظامها. انتشاء فائق يكـاد يحملها عن أرض السطح. تترك المحمودية خلفها وتتجه إلى نهاية السطح المطلة على السكك الحديدية. علـى المسـاحة الواسعة من القضبان والقطارات التي تسلم إلى الميناء وإلـى الأرصفة وإلى ورش منطقة الزيتون. كل ذلك سـمعته ولـم

تره يا إلهي. أكثر من عشرين سنة وهي تسكن هنا ولم يسبق لها رؤية هذا المشهد المهيب. اتساع غامض، فضاء أسود إلا من مصابيح متباعدة على الأعمدة والسيمافورات، أرض أشد سوادا لكنها تلمع تحت ضوء القمر. أرض مغطاة بالمازوت. قضبان تمتد إلى مالا نهايـة، تتشـابك وتنحنـي وتتباعـد. قطارات متوقفة وعربات بضاعة متناثرة وسيمافورات تلمـع ألوان أذرعها البيضاء والقناديل الحمراء فوقها. أين الرجـل الذي يشعل القناديل. ذلك الذي استمعت إلـى قصـته العـام الماضي. كانت ليلة منعشة كليلتها هذه، صعد هو القناديلجي الذي لا يعمل إلا بالليل، بعد أن أشعل القنديل لم ينزل مـن فوق السيمافور. لمس خده سطح القنديل وهو ينزل فاستراح إلى برودته وسرى الانتعاش إلـى جسـمه كلـه فاحتضـن السيمافور، ثم صعد وجلس فوقه رافضا العودة مرة أخـرى إلى الأرض. وجدوه معلقًا في الصباح. تركوه فلم ينزل حتى اليوم الثالث فصعدوا إليه قبل أن يموت من الجوع والعطش. ظل رافضا الكلام بعد ذلك مع الناس. وبعده فعل ذلك أكثـر من قناديلجي حتى بات النـاس لا يندهشـون إذا رأوا فـي الصباح أحدهم جالسا فوق السيمافور.. ماذا دهـى الرجـال

ليفعلوا ذلك؟. سمعت صوت عربات بضاعة يـدفعها قطـار على مهل. إنه قطار طويل يتقدم في بطء صوته ثقيل يمشي في اتجاه الأرصفة ويتلوى مع القضبان التي تنحني كـدودة بحجم الدنيا. يقولون إن الديب يحرس هذه القطارات بالليـل والنهار.. كروان يحدثها ويحدث البنات كثيرا عن حكايـات الديب. إن ما يحكيه قليل بالنسبة لرجل يعـيش معلقـا فـي الفضاء ويرمح به القطار في أنحاء الدنيا. هـؤلاء التعسـاء الذين ينامون تحتها الآن، بمن فيهم زوجها، هم الذين يمدون هذه القضبان لتجري بالبضائع ليزداد العمران في الـدنيا ولا أحد يعرف أن القضبان انشأها رجال كالفئران تخـرج مـن جحورها كل يوم في الصباح لتعود في المساء ولا تخرج إلا في الصباح التالي. السور الطويل الأبيض الـذي لا ينتهـي بعيدا أمامها هو الذي يفصل منطقة السـكك الحديديـة عـن بحيرة مريوط. يقول كروان إن المحافظة تبني جسـرا الآن وسط البحيرة يربط منطقة محرم بك بمنطقة القباري جسـر كبير يدور خلف الإسكندرية. يذهب كروان والأولاد يجلسون فوقه في الأجازات يصطادون السمك. دنيا يا نرجس لا آخر لها. هذا هو البلوك الأصفر اللون الذي ينظم حركة مـرور

القطارات فوق القضبان، هو المضاء أمامها الآن، ولابـد أن بداخله عبد الباسط والد سليمان أو الرجل الأسود الجديد الذي نزل بالمساكن الذي اسمه غريب.. رجل واحد فـي البلـوك وسط هذا الليل والفضاء الواسع والصمت الراسخ. إنه أهـم رجل في الكون الآن. كل شيء فوق القضبان يخضع ليديه.. يا لقوة الرجال الـذين لا يخـافون الليـل ولا الوحشـة ولا الفراغ.. لكنها أيضا قوية وإلا ما خرجت الآن وحدها إلـى السطح.. هذا العالم الكبير الصامت هو الـذي تفرقـت فيـه البنات، وستتفرق فيه الباقيات، وهي دائما لن تترك غرفتها، ربما بعد ثلاثين سنة تطويها الأرض، وربما بعد خمسين إذا عمرت، والمؤكد أنه بعد مائة سنة لن يوجد أحد ممن تعرفهم على وجه الأرض.. يا الله! كيف حقا تصبح الدنيا خالية من الناس؟ اهتز جسمها للحظة وسرعان ما أدركـت أن الـدنيا سيملؤها كروان وأصحابه وأنها لن تفرغ أبدا من الناس. من كان يصدق أنها هي ابنة حي محرم بك والرصافة وجـرين وشارع منشه تحبس نفسها في هذا المكـان الضـيق. مـن شوارع نظيفة واسعة ترشها عربات البلديـة كـل ليلـة ولا تنقطع فيها الإضاءة طول العام، وبيوت كبيرة ذات شـرفات

عالية وأشجار على جانبي الشوارع، من هذا كله إلى بيـوت تتزاحم بالشجار وأزقة قصيرة جدا متربة بينها. من روائـح الكافور والياسمين والتمر حنة في الشوارع وعلى واجهـات الفلل والبيوت إلى روائح الطير والحيوان والرجال المتعبين. من البنات الجريئات اللاتي يتسللن مع الأصيل إلـى حديقـة الشلالات وكازينو الشجرة والسيدات المتأنقات اللاتي يتجمعن في الحفلة الصباحية لسينما محرم بك إلى سيدات ذاهلات عن الدنيا لا يرين فيها شيئا أبعد من أزواجهن وأطفالهن، وبنات مكسورات الجناح، يرين الدنيا وهن جالسات لا يتعرفن إليها، ومن تفكر في الخروج إلى الدنيا تقابلها بالقسوة. إنـه سـوء الحظ ترفرف رايته فوق البنات.. لكـنهن اللاتـي يؤنسـن وحشتها، كن ومازلن، رغم اختفاء من بقى منهن في بعـض الليالي، ولا شك أنها ستسمح للبنات الأصغر أن يأتين إليهـا يتعلمن الخياطة على يديها، ويشغلن لياليها كالسابقات، والدنيا لن تتوقف. لكنها الليلة تريـد أن تـرى حكمـت وعينيهـا المراوغتين، وشوقية ابنتها وضحكتها التي هربت منها فـي الفراغ الحزين. كما تشتاق إلى بدرية الحمراء كالدجاجة التي دونها الآن صحراء وراء صحراء، كما تتـوق أن تخـرج

مشيرة من سجن حزنها على خطيبها، ونادية التي حبسها أهلها انتظارا لمصير تعس، والجوني التي تتحدث عيناها دائما بالحزن الممزوج بالخجل. ماذا تفعل البنت الجميلة مع الفارس العليل. أنت معذورة يا جوني فيما لو تركت خير الدين.. قالت لها ذلك وكانت هي بدورها تنتظر أن يقول لها أحد ذلك لكنها حتى الآن لم تتخل عنه. نوال لم يعد يراها أحد، لم تعد تتكلم إلى أحد فيما يبدو. مسكينة ابنتي المطربة ذات الصوت الشجي. بدأت بالغناء للمرضى والذين بين الموت والحياة وانتهت إلى تهمة لا يعرفها أحد هنا. هل كان العالم ضيقا إلى هذا الحد الذي جعل أبوها تاجر المانيفاتورة ببوالينو يوافق على زواجها من على زين العابدين التاجر الشاب الصغير ذلك الوقت. ما الذي ألقى في قلب أبيها بالحب لذلك التاجر الشاب ليهبها له؟ لا يستطيع أحد أن يرد طلبا لعلي، حتى الآن ينتصر في كل بيع أو شراء بالهدوء والاتزان. لا يعرف أحد أبدا مشاعره الحقيقية. لا يكفي أبدا أن يكون في الأصل من بلدة أبيها الذي هاجر من الصعيد إلى الإسكندرية منذ خمسين سنة. لقد أحبت هي على زين العابدين من أول نظرة. أسرها هدوءه واتزانه وقلة كلامه،

أسرها صمته الذي لم يوغل فيه بقدر ما يوغل منذ "العلقـة" التي أخذها مع الرجال على كوبري كفر عشري. لكنها تفتح صدرها للهواء النقي، وتفتح فمها تكاد تشربه، وتعـود إلـى بداية السطح لتطل على ترعة المحمودية، وتهـز ذراعيهـا القصيرتين أمامها وخلفها في سعادة طفولية، ثم، ثـم فجـأة تجلس على أرض السطح الباردة. تريد أن تشـمل البـرودة المنعشة كل نقطة في جسمها. فكرت أن تتمدد نائمـة علـى ظهرها، ونامت بالفعل. ضحكت. كيف يكون شكلها الآن هي القصيرة البدينة. هل يمكن أن تقف وترى نفسها نائمة؟ مـاذا يحدث لو رأت على زين العابدين يقف أمامهـا فجـأة الآن؟ ليس مهما أي شيء في العالم. لقد عادت تقف بعد أن تشبعت بالبرودة المنعشة، وبدت المحمودية أمامهـا ممتـدة علـى الناحيتين مظلمة وسط شاطئين مضيئين بنور القمـر. كيـف حقا يعجز هذا النور عن إضاءة الماء. حتى مصابيح الشارع حطمها الأولاد. ليس ثمة شيء يضيء غير الماكينة الحمراء المبنية من القرميد الأحمر، التي ترك الخواجة بطسـو فيهـا النور مضاء قبل أن يعود إلى بيته. علـى الشـاطئ الآخـر الظلام كثيف، وليس من شيء مضيء غير ترام نسى سائقها

أنوارها بينما تقف مركونة حتى الصباح. لكن شـيئا يمشـي وسط ظلام الماء. شيء يلمع بسرعة ويختفي وسـط البحـر الأبيض الخفيف فوق الماء. حوت يا نـرجس أم تمسـاح أم سمكة كبيرة؟ ليس بالمحمودية غير أسماك البلطي والقراميط التي لا يأكلها أحد. إنه حبشي هذا الذي يسبح بـين المـاء. يقولون إنه يسبح كل ليلة وسط الترعة هذه الأيـام، وأحيانـا يصرخ، ويهذي بكلام غير مفهوم منذ اختفـت بـدرة، إنـه يضرب الماء بذراعيه فينفتح أمامه ويسبح مسـافة طويلـة متمددا فوق الماء كثعبان لا ينتهي طوله.

شخص عجيب حبشي هذا. تتركه النسـاء اللاتـي تظهرن في حياته فجأة، ويزداد الأطفال الذين يـدخلون فـي رعايته. يقولون إنه كثيرا في الصباح الباكر ما يمشي بطول المحمودية ويعود حاملا طفلا جديدا، لقيطا. كان يجد الأطفال قريبا من عشته كأن هناك اتفاقا بين الجنـاة وبينـه، الآن لا يرسلون إليه أطفالا فميشي هو باحثا عنهم. نوع عجيب مـن البشر حقا. لكن ما الذي يمنع أن يكون هذا الذي يسبح شـيئا آخر غير حبشي؟. تتراجع في ذعر. أحست به يجذبها مـن جلبابها من الخاف. التفتت فرأته يمر مـن أمامهـا أبـيض

خاطفا، شيء كالأثير سرعان ما يعود ليقف أمامها هي التي صارت بعيدة الآن عن سور السطح ولم تعد ترى شيئا فـي الدنيا غير هذا الواقف أمامها، خطوط ودوائر بيضاء غيـر متصلة أقرب إلى النقط تتحرك أمامها يمينا ويسـارا وإلـى الأمام وإلى الخلف، إنها تبتسم ثم تضحك، ما الذي يدغدغها فوق أعطافها. الخيوط والنقط تقترب وتستطيل عالية وهـي تنزل إلى الأرض ضاحكة والذي يدغدغها لا يتوقف وجسدها كله يهتز ويستسلم وينادي، وعلى زين العابدين لم يعد علـى زين العابدين من العلقة، وشمل الصمت كـل أعضـائه، ولا تفلح مساعدتها له بالغنج والحركة والأداء المبالغ فيه للشهوة والمواء والتنهدات والبارفان الشانيل خمسـة!. الآن المـارد الدري الذي يقف أمامها يتضاءل نازلا إليها وتمتد أصـابعه إلى عنقها، لقد بات فوقها تماما، ثم تمشي أصابعه الباردة إلى صدرها الذي يتسع عند طوق جلبابها وتشتعل فيهـا النـار وتسري فيها كهرباء اللذة وينفرط عقدها متمددة.. لا يتماسك فيها عضو بآخر من جسدها، ومن عجب أن جلبابها تمـزق في لحظة وانشق إلى نصفين، وتمـزق تحتـه "الكـومبين" واتسعت بطنها كواحة استراح عليهـا الشـعاع المسـحور

وصارت تبتسم وتتأوه وهو يعمل فيها بلا انقطـاع. شـملتها اللذة العجيبة الصاعدة من برودة السـطح إلـى مؤخرتهـا والصاعدة من الدفء المركز المصوب بين فخذيها. إنها تفقد الوعي للحظات. أين كنت حقا يا نرجس. تقول لنفسها وهـي تقف تلملم ثوبها فوقها. لقد رأته يبتعد إلى نهاية السطح مـن ناحية السكك الحديدية ثم يختفي في ظلام الفضـاء، لكنهـا سمعته يقول لها من بعيد إنه سيعود ولن يخذلها في الليـالي القادمة. راحت تبكي ويهتز جسدها ويكـاد صـوتها الـذي تحاول جاهدة أن تكتمه أن ينفجر وسط الصمت الذي أوغـل فيه الليل. من هذا الكائن الذي أشعلها بهذه اللذة السـرمدية؟ وكيف لها أن تعرف وسط هذا الكون الواسع الذي لا يبدو أن هناك له نهاية..

( ٩ )

"الدنيا ما لها يا زعـبلاوي، شـقلبوا حالهـا فـين المداوي". الواحد غرقان في الحيرة غير قادر على فهـم أي

شيء. قال العربي لنفسه وهو يستمع للأغنية القديمـة التـي يبثها الراديو..

- هل سنمضي رأس السنة وحدنا هذا العام أيضا".

سأل كاتينا التي كانت في أبهى زينة الليلة. أجابت..

- ستأتي أسمهان وجورجيت.. ستجلس بين ثلاث نساء يا عربي الليلة.

قال لنفسه بصوت مسموع "ولا هـارون الرشـيد" فسمعته وتساءلت.

- من الرشيد هذا؟

- واحد صاحبي.

قال وهو يصب لها قدحا من النبيذ، ثم استطرد.

- أنا غير قادر على تحمل العطر الذي تضـعينه الليلة كاتينا..

ابتسمت وهي تقترب منه وتنام برأسها على صدره.

- لازم تتحمل كل شيء عربي مـن الآن حتـى أترك مصر.

- قرار نهائي كاتينا؟

- أسابيع قليلة وأسافر عربي.

هذا هو اليوم الذي يخشاه. ماذا سيفعل بعد كاتينا؟.

لن تترك له الأتيليه، حتى لو فعلت فلن يستطيع إدارته. لم يحاول أن يتعلم شيئا. ستحضر الليلة جورجيت التي يبدو أنها ستفوز بكل شيء. إنها على أية حال سيدة متدينة تذهب إلى الكنيسة المرقسية كل أسبوع، وتعيش مع زوجها التاجر في سوق الخيط، ولديها طفل وطفلة تصحبهما معها إلى الكنيسة دائما لتلقي دروس الأحد. سمعها تقول ذلك أكثر من مرة، وهو يشك في كون زوجها تاجرا بسوق الخيط. لابد أنه مجرد عامل عند أحد التجار. هذا كله لا يهم. إنه حتى لا يسأل كاتينا لماذا تأتي جورجيت تسهر معهما وحدها، ويكاد يقص على كاتينا مغامرته مع أسمهان منذ شم النسيم الماضي، لكنه يتراجع، فبرغم أنها هي التي لفتت انتباهه إلى نزوات أسمهان لا يحب أن يجرح شعورها.. يا له من خائب. لن يجرح شعورها ولن تتأثر، إنها لا تحبه أكثر من نزوة أيضا كأسمهان وإن تكررت، وهؤلاء الأجانب بهم ميزة الوضوح والصراحة وبرغم أنهم عاشوا طويلا بين أولاد العرب إلا أنهم لم يتخلوا عن ذلك، ولم يصابوا بالمجاملة الكاذبة أو الخجل المجاني، وكاتينا إذا كانت تحبه ستقول له

ذلك، وهي وضعته في مرتبـة بـين بـين، بـين الحبيـب والصديق، لذلك لن يهمها إذا كانت أسمهان فازت به مرة أو أكثر، أو حتى وقعت في غرامه بحق وحقيق! كاتينا منذ بداية الشتاء تغدق عليه في النقود، وهو صار ضيفا دائمـا علـى البارات والملاهي على الكورنيش، ولا تمـر ليلـة دون أن يخرج في الثالثة صباحا صافقا باب الملهى أو البـار خلفـه ضابطا ياقة المعطف على رقبته وهو يواجـه الـريح ورذاذ الأمواج التي تصطدم بصخور الشاطئ، وفي كل ليلة يتقـدم على الشاطئ ويقف عند أقرب نقطة على الماء غير مبال أن تطول المياه ثيابه أو حذاءه، ويشعل سيجارة، ويقـف ينفـث دخانها في هدوء، يفكر في شيء يفكر فيه فلا يجـد!، همـا يطرحه بعيدا عنه فلا يجد، فرحا يسعد به فلا يجد. لا يتحرك ذهنه ولا يدق قلبه ويمشي مندهشا من نفسه، لكنـه يشـعر بمذاق دخان السيجارة "البحارى" كأفضل ما يمكن تذوقه من تبغ. إن جسمه ليهدأ وروحه تنتشي، ولا يفكر أبدا أن ذلك قد يكون بتأثير الخمر التي شربها في البار أو الملهـى. لمـاذا تغدق عليه كاتينا الأموال؟ ليس أبدا لأنها تسـتثمر جسـده، المؤكد لأنها ستترك مصر. الأتيليـه بحـق يوشـك علـى

الخراب. أعداد النساء والفتيات في تناقص شديد، ربما يمـر الأسبوع فلا تأتي غير امرأة أو فتاة أو اثنتين علـى الأكثـر لتفصيل ثوب واحد أو فستان واحد. نسـاء الطبقـة الراقيـة السكندرية اللاتي كن يترددن على الأتيليه انقطعن.

بعض نساء الطبقة الوسطى بـدأن يتـرددن علـى الأتيليه لكنهن يجدن الأسعار غالية فلا يعدن مـرة أخـرى. كاتينا لا تخفض أسعارها. والنساء المصريات مـن الطبقـة الوسطى بدأن يخرجن إلى الملتقيات الأجنبية، لكـن بعـد أن شح الأجانب. لم يعد العربي يستمع إلى قصص الحب النارية الغريبة تحكيها النساء باللغات المختلفة، الأرمنية والمالطيـة واليونانية والتركية والسويسرية والنمساوية والروسية أيضـا والعبرية. الأتيليه كان مثل برج بابل تتطاير من حوله وفوق رأسه الحروف العجيبة للغات الغريبة، ويبتسم هو، وتقول له كاتينا فيما بعد أو أسمهان "كلها قصص نسوان عن الرجـال الخونة والغدارين". كل هذه الدنيا انكمشت، كان هو بينها مثل الفرس لكن غير جامح، ركز عينيه وروحه علـى كاتينـا، كمهرة وحيدة. كانت نعما إلهية يا عربي يـا حمـار!. الآن ستتركك كاتينا وما أنت إلا نزوة طائشة لأسمهان. كيف حقا

لا تحب أسمهان صوت أسمهان؟. كلما استمعت إليه أشاحت بيدها ووجهها ثم هزت كتفها وابتسمت. ليس الأتيليه وحـده هو الذي تغير. الملاهي والبارات قل روادها من الأجانـب، يشاع أن عطيات حسين ستحول ملهاها إلى مطعـم وصـالة أفراح، أما السفينة فقد أغلق أبوابه تماما ولا يعرف أحد إلام سيصير، والكاب دور تحول بالفعل إلى مقهى. تلـك أمـاكن فتحتها له راشيل بالخمسين جنيها وأغرقته فيها كاتينا فرآهـا وهي تأفل. لم تعد فرق الباليه الأرمنية ولا الإيطالية تتنقـل بينها. على أية حال لقد أكل السمان وشرب الويسكي وفـتح مرة زجاجة جوني ووكر بخمسة جنيهات كاملـة. الأسـبوع الماضي سأل أسمهان هل يمكن أن تصحبه إلى السينما. قالت له إن هذه هي رغبتها أيضا. كان هو يحاول أن يوصل مـا انقطع بينهما بعد اللقاء الوحيد الذي سمحت له به معها بعـد شم النسيم أو كانت هي تحاول أن ترضـيه قبـل أن تتـرك البلاد!

خرجا من الأتيليه معا تحت بصر كاتينا، انحرفا معا إلى شارع مسجد العطارين والهواء يقابلهمـا ورذاذ خفيـف يتطاير فوقهما. دخلا إلى شارع عبد المنعم. وأمـام سـينما

ستار توقفا. ميدان المحطة خـال تقريبـا بسـبب المطـر، والأشجار المتفرقة غير لامعة الخضرة. سـيارات حنطـور قليلة تقف بعيدا أمام المحطـة، وبضـع سـيارات تاكسـي صفراء. نظرت أسمهان في سـاعتها وقالـت السـاعة الآن السادسة ووضعت ذراعها في ذراعه والتصقت بـه بشـدة وهطل مطر متوسط ففتحت شمسيتها الصغيرة الملونة فوقهما معا. دخلا شارع النبي دانيـال يمشـيان تحـت البلكونـات وانحرفا إلى شارع فؤاد في طريقهما إلى سينما أمير.

- أنت تحب سينما أمير؟

سألته. أجاب:

- دخلتها مرة.. كان فيلم أوليس.
- ها ها. إنه فيلم مغامرات رائع.
- لقد ضحك أوليس على الوحش وقال إن اسمه لا أحد..

ضحكت، والتصقت به أكثر.. قالت:

- أنا أحب الأفلام العاطفية. هل تعـرف أي فـيلم تعرض سينما أمير الآن.؟
- لا.. نتركها للحظ..

- حين نذهب إلى سينما أمير نخرج مـن الفـيلم نتعشى في بسترودس. سأعزمك الليلة على العشاء..

لم يعارض. إنه يعرف كيف يتعامل الأجانب. ليس عارا أن تعزم المرأة الرجل.

عدد قليل من الرواد أمام السينما التي ستفتح بابهـا بعد دقائق، يرتدون المعاطف الثقيلـة، ومعـاطف المطـر، وقفازات جلدية ملونة في أيـدي النسـاء اللاتـي يرتـدين المعاطف الوثيرة. رائحة البارفانات تشع في الفضـاء أمـام السينما التي فتحت أبوابها الزجاجية ليدخل الرواد يتوقفـون في الردهة الداخلية لاتقاء المطر. السينما تعرض فيلما عـن ملوك الكوميديا، قرأت أسمهان الأفيش وقالت إنه مقتطفـات من أفلام شارلي شابلن ولوريل وهاردي وغيرهم مـن رواد السينما الصامتة في الكوميديا. قالت إنهـا مبسـوطة وأنهـا بالفعل في حاجة إلى المرح الليلة..

جعله دفء المكيف، وأسـمهان، يشـعر بالراحـة والانسجام. لم يتعود على السينمات المكيفة. الهمبرا وبـلازا وماجيستيك وكونكورديا وبارك وريتس وركس والشرق كلها غير مكيفة. هي سينمات الدرجة الثانية التي يدخلها مبتعـدا

عن سينما الدرجة الثالثة في الأحياء الشـعبية. فـي سـينما الهمبرا يظل يفكر حتى يبدأ الفيلم كيف حقا تقـيم أم كلثـوم حفلاتها الغنائية في هذه السينما ذات المقاعد الخشبية. قال له خير الدين مرة إنهم يضعون "شلت" صغيرة فـوق المقاعـد أثناء الحفلة، وقال محمود الملاح إن سينما الهمبـرا تتميـز بمساحتها الكبيرة وبأنها مستطيلة وليست عريضـة لـذلك لا يتشتت الصوت، كذلك تكون رؤية الجمهور لأم كلثوم أفضل. لكن العربي لم يكف أبدا عن التفكير في هذا السـؤال الـذي يعرف أنه لا يهم في شيء، فهو ليس مـن رواد حفـلات أم كلثوم، وليس من مدخني الحشيش الذين يجتمعون حولها في المقاهي والبيوت، وأدهشه أنه لا يستطيع أن يتوقف عن هذا التساؤل في كل مرة يدخل فيها سينما الهمبـرا حتـى يبـدأ الشعاع يسقط من خلفه إلى الشاشة البيضاء التي تنفرج عنها الستائر الحمراء الثقيلة إلى الجانبين وتدق أجـراس شـركة فوكس أو يتثاءب أسد مترو جولد وين ماير!

في سينما بلازا لا يرتاح كثيرا. يرى الفـيلم الأول ويخرج في الاستراحة غير منتظر للفيلم الثاني. لا ينسى عند خروجه أن يلقى بنظرة على الفتاة الجميلـة داخـل شـباك

التذاكر! في الحقيقة هو لا يذهب إلى سينما بلازا إلا ليرى هذه الفتاة، ولا يعرف أين اختفت منذ سنوات، ولم يعد يذهب إلى سينما بلازا. كذلك فعل مع سينما ماجيستيك. فوجئ أول مرة يدخلها بامرأة تجلس جواره في الظلام. إنها سينما كبيرة جدا جمهورها قليل جدا لا يعرف لماذا. وبدون مقدمات مدت المرأة التي لا يراها يدها إلى سرواله تفك أزراره وتتوغل فيه. تركها مسلوب الروح من الصدمة والدهشة، والرغبة، بعد لحظات، لاحظ أنها تفعل ذلك بيد وبالأخرى تقضم سندوتش فول اشترته من محل بنيامين المقابل للسينما في الغالب. شعر بالسائل الساخن ينزل على فخذيه، وأدرك حجم الكارثة التي سببتها له هذه المرأة التي لابد لوثت سرواله تماما، وسمع صوتها الخشن وهي تطلب الأجرة قرش صاغ قدمه لها ولا يصدق ما جرى. رآها بعد ذلك في الظلام تمشي كشبح بين المقاعد تجلس هنا ثم هناك. ترك الفيلم وراح يبحث عنها بعينيه في الظلام. قبل النهاية بقليل رآها تمشي متجهة على باب الخروج. زاحت الستارة لتخرج فسقط عليها الضوء. امرأة مهوشة الشعر جلبابها رث، وحافية أيضا. تذكر الرائحة الزنخة التي تركتها في المكان،

وانتهى الفيلم وهو يكاد يتقيأ ويفكر ما الذي يمنع أن تكـون رجلا!؟ إن يدها خشنة وصوتها خشن وشـعرها المنكـوش الذي رآه وهي تخرج قصير ويمكن أن يكون مجرد باروكة. لقد خرج يبحث عنها أمام السينما. لماذا فعل ذلك حقا؟.ممـا كان يريد أن يستوثق؟. رأى شابا قذرا يجلس على الرصيف المقابل أمام صندوق مسح أحذية ويقف أمامه شخص يضـع حذاءه فوق الصندوق لتلميعه. اقترب العربي حتى ارتفعـت إليه الرائحة الزنخة التي تعجب كيف لا يـدركها الشـخص صاحب الحذاء. لم تكن امرأة إذن.ترك الشارع كله ولم يعـد إلى سينما ماجيستيك أبدا بعد ذلك. في الحقيقة هو لا يحـب من سينمات الدرجة الثانية غير سينما الهمبرا. لكـن لمـاذا يتذكر ذلك كله الآن وهو يقف في هذا الجو الأثيري الجميل. هكذا نحن أبناء الأحياء الفقيرة يعز علينا الفوز بلحظات مـن الجمال. قال لنفسه وتهادى ماشيا الخطوات القليلة حتى الباب الداخلي للسينما الذي فتح الآن للرواد.. لقد ضحكا كثيرا تلك الليلة خلال الفيلم..

في مطعم "بسترودس" خلف السينما سألها..

- ما رأيك في النبيذ قبل العشاء؟

ابتسمت. تدرك أن العربي على دراية بالتقاليد الأوربية من معاشرته لكاتينا. قالت:

- موافقة. لكن لا تنس إنني صاحبة العزومة.

تعشيا من فواكه البحر مع النبيذ الأبيض. لقد أعطى العربي البالطو إلى الرجل الواقف بالباب مثل أي بيه حقيقي، كذلك فعلت أسمهان مثل أي ليدي. إنه يتذكر ذلك الآن وهو يأكل. قال:

- بسترودس في الصيف يفرش مقاعده في الخارج. جلسة جميلة جدا.

قالت:

- أعرف. نحن كثيرا ما نأتي لنجلس فيه.

كان بالمطعم عدد كبير من الأجانب، يونانيون وطليان، شباب ورجال ونساء، لكن كان هناك ثلاثة من أبناء البلد مع أحدهم امرأة بدينة جدا وجهها مليء بالأصباغ بينما يجلس الآخران كل منهما منفردا ويشرب الخمر بإمعان. كانت موسيقى شتراوس تحول المكان إلى حديقة مليئة بالفراشات..

- ما رأيك أن نرقص عربي؟

- ما رأيك أن أمضي معك ليلة أخرى أسمهان؟
- عربي، أنا أحب وحبيبي في مصر الآن..

سكت قليلاً وقال..

- إذن لن ترحلي..
- لقد جاء ليعود بي.

سكت من جديد بشكل أعمق وقال.

- كل الناس ترحل..
- أنت عربي لازم تعرف ماذا يحدث في مصر.
- ليس مهما أن أعرف أسمهان، هل سيمنع ذلك أن أحزن؟ هل معقول أن تخلو إسكندرية من الأجانب..؟
- إنها بلدكم عربي وممكن لكم أن تجعلوها أفضل..

كانت تأخذ يده بين يديها. ثم وقفت وجذبته نحو الراقصين ليرقص معها ولو دقيقة واحدة. وجد نفسه بين الرجال والنساء السعداء فراح يتقافز معها بلا نظام وهي تضحك. توقفت الموسيقى لكنه كان يود لو استمرت. عادا إلى المنضدة وانشغلا بالأكل من جديد، مضت ثلاث ساعات

كأنها من زمن مسحور رغم ما غشي العربي أكثر من مرة من ألم وهو يدرك أن عالمه القديم ينهار.

لقد وقفا تلك الليلة، الأسبوع الماضي، أمام بسترودس، يبتسمان، والعربي يقاوم الرغبة في أن يحتوي أسمهان في صدره وقالت له:

- ستتركني الآن؟
- سأوصلك إلى البيت في الأزاريطة.
- أريد أن أمشي على البحر.
- الآن في هذا البرد.
- يارب نموت من البرد..

هذه البنت تشبه جينا لولو بريجيدا. هكذا فكر وهما يسرعان بشارع صفية زغلول في اتجاه البحر. كل المحلات في الشارع مغلقة باستثناء الكافيتريات التي يتسلل الضوء شحيحا من الخلف أبوابها الزجاجية. ايليت وسانتا لوتشيا وبتسيريا وتافرنا وقهوة البلياردو. صوت الكعب العالي لأسمهان يدوي بين الصمت وأضواء الشارع الخافتة. هذه البنت تشبه تماما جينا لولو بريجيدا! أنفها الصغير وفمها الصغير أيضا وعيناها الواسعتان وسرعتها في الكلام

وصدرها الناهد ودقة خصرها.. يا للعـذاب الـذي يتعذبـه عربي. لم يستطع أن يتزوج واحدة ممن رآهن في الأتيليـه. مرت عليه النساء كأنه مجرد إشارة مرور!.

في محطة الرمل كان عدد قليل ينتظر الترام. هواء البحر القادم عريضا يملأ الفضاء باردا جدا. لا يـزال أثـر النبيذ، أما أثر البالطو وأسمهان التي تتأبط ذراعه فلا ينتهي. على الكورنيش أدرك كم هي مجنونة وكـم هـو مجنـون ليطاوعها. الموج يرتفع على الشاطئ ويعبره إلى منتصـف الشارع، لكنهما أسرعا على الرصيف تحت الشرفات، بـين حين وحين تفاجئهما موسيقى أحد الملاهي أو البارات، أمـام ميرامار عند السلسلة تسمر العربـي وهـو يـرى المـرأة الصغيرة الجميلة الخارجة من الباب تقف أمامه مباشرة.

- ازيك يا عربي.

قالت دون تردد. رغم أنه كان واضحا سكرها فـلا تكاد تقف، ويسندها شاب صغير ليس هو صفوت الجعفري.

- ازيك يا حكمت..

قال ذلك وأسرع لا يترك ذراع أسمهان ولا يصدق. لابد أنها أيضا لا تصدق. هو يتأبط ذراعا أجنبية وهي تستند على ذراع شاب غير زوجها فكيف يصدقان؟..

ما كاد يبتعد حتى توقف ضاحكا..

- زمان يا أسمهان، فكرت مرة أرمي نفسي في البحر.

- أنا أيضا يا عربي..

- طيب أنا عندي أسباب، فقر وعدم تعليم وقلة خبرة بأي عمل وفشل في الحب على طول الخط.

- أنا أيضا يا عربي عندي أسبابي. بيت عشت فيه خمسا وعشرين سنة هي عمري، وجيران شوام أحبوني وأحببتهم، وجيران طلاينة أصحاب لنا نسهر سوا كل يوم سبت، ونخرج سوا كل يوم أحد طول الزمن وفي كل حفلة وكل مناسبة حلوة أو وحشة وكل كريسماس، أكثرهم سافر والباقي كلامهم كله في السياسة. حتى الشوام سافروا أمريكا اللاتينية - وسكتت قليلا ثم استطردت - وولد مصري كان ساكن في شارع طيبة ويدرس في كلية الهندسة تعرفت عليه في حديقة الشلالات وكان عمري أربع عشرة سنة.

- أحببته؟

- أكثر. أعطيته نفسي. كـان أول رجـل. بعـد الامتحان اختفى ولم يعد إلى الإسكندرية.

- شيء ولا الخيال..

- كان صعيدي، من الصعيد يعني، كان آخر سنة في الكلية، وضحك علي وقال لي إنه في سنة أولى..

- شيء عجيب حقا..

- كيف أنسى هذا كله وأسافر؟ لكن الحياة أيضـا حلوة ولازم نعيشها عربي..

- إلى هذا الحد تحبين مصر أسمهان؟.

- عائلة بابا هنا منذ مائة سـنة. أسـمع. المطـر شديد، هيا نجري، أو نقف حتى يأتي تاكسي..

وقفا وفردت من جديد مظلتهـا فوقهمـا. عبـرت أمامهما سيارة فورد كبيرة محملة بالسكارى، عبرت بسرعة فتطاير الماء المتجمع على أرض الشارع ناحيتهما فتراجعـا إلى الخلف بسرعة، ثم توقف تاكسي قديم بـدا مثـل شـيخ عجوز قادم من بلاد لا اسم لها.

وجد نفسه وحيدا عند نهاية شارع السلطان حسـين، أو بدايته فهو لا يعرف، أمامه كلية الطـب وخلفـه حـدائق الشلالات المظلمة، وكل شيء من حوله صامت. لقد تـرك أسمهان منذ لحظات وترك التاكسي ليقـف ويقبلهـا علـى الرصيف قبل أن تدلف إلى العمارة. لقد عاد بسرعة ناحيـة الترام، في نيته أن يعبر الشارع إلى الكورنيش ليلقى بنفسـه في أول بار. ضاق بأحاديث السفر، وأحاديث الهجـرة مـن مصر، وأحاديث السياسة. لماذا حقا يجهد نفسه في علاقـات لا معنى لها مع الأجنبيات؟ الليلة لن يسمح لواحـدة مـنهن بالحديث عن السفر أو في السياسة.

جاءت جورجيت أولا. بدت امرأة جميلة حقا الليلة. خلعت البالطو ليظهر الفستان الأسود الذي يخرج منه جيدها اللامع محاطا بعقد من اللؤلؤ الأبيض الساحر. كيف حقا لـم يلفت انتباهه جمال هذه المرأة من قبل. لقد بدت بشرتها أكثر بياضا مما رآها من قبل خلال السنين الطويلة التي عملا فيها معا بالأتيليه. إنه يرى كل شيء أفضل هذه الليلة. لقد وقـف يقابل جورجيت وأخذ منها المعطف ليعلقه علـى المشـجب البعيد ولم تنهض كاتينا من مكانها. انحنت جورجيت وقبلتها

ورأى العربي مؤخرتها وهي تنحني " محـرودة كـويس"..
أحس برغبة غريبة أن يمشي على ردفيها بيديه. أخر ذلـك
إلى آخر الليل !! لقد جاءت جورجيت دون زوجها. هي في
الحقيقة امرأة غير طبيعية، تذهب إلى الكنيسة وتحافظ علـى
دروس الأحد وتأتي لتحتفل برأس السنة دون زوج.. عنـدما
انتهت من تقبيل كاتينا التفتت وفاجأته بتقبيله علـى خديـه.
لاحظ أنها بين القبلة الأولى والثانية نظـرت إليـه بعينـين
واسعتين حادتين. ماذا تريد منه النسوان الليلة؟ إنه يعرف أن
الليلة آخر احتفال بآخر العام سيحضره هنا، فهل يـردن بـه
شيئا لا ينسى؟ احتفال جنسي جماعي؟ لقد قالت له جورجيت
بعد تقبيله.

- نفسي أبوسك من زمان يا عربي!!

انتعش وانفرجـت أسـاريره كمـا يقـال ومشـى
كالطاووس على دورة المياه ليتبول ثم عاد ليجـد المـرأتين
تنظر كل منهما إلى الأخرى وتضحكان.. نسى أن يغلق باب
دورة المياه وكان يوجه البول الكثيف إلى منتصـف قاعـدة
التواليت فأحدث عند اصطدامه بالمـاء المترسـب بالقاعـدة

صوتا قويا متصلا لاشك أنهما سمعتاه ولذلك يضحكان. سمع جورجيت تقول لكاتينا:

- إذن ارتحت..

- ارتحت تماما.

تأمل العربي كاتينا مندهشا. ما الذي كان يتعبها ولم يعرفه. وجدته حائرا فقالت:

- عارف عربي أنا في الأسبوع الماضي سـخنت جدا ومسكتني حمى أرعشتني كثيرا. ذهبت إلى المستشـفى اليوناني فأخبرني الطبيب أنهـا أعـراض انقطـاع الـدورة الشهرية. لا تفهم ذلك أنت عربي. يعني لم أعد قادرة علـى الإنجاب.

أدهشه ذلك. هل كانت تنجب أطفـالا ولا يـدري؟ وعادت تقول له:

- أنت عربي واحد حمار. أي ست تزعـل لمـا تنقطع الدورة حتى لو لم تكن متزوجة. انقطاع الدورة معناه انقطاع الأنوثة. سن اليأس يعني يا عربي. لكن رغم هذا أنا مبسوطة لأني هكذا أستطيع أن أفعل ما أريد دون خوف من الحمل، أنا كنت أعمل طرقا جهنمية لأمنع الحمـل. دلوقـت

خلاص!. أنا لا يمكن أتخلى عن الرجال. كل النسوان هكذا. أليس كذلك جورجيت؟.

- من تستطيع أن تتخلى عن الرجال كاتينا؟

أجابت جورجيت فقالت كاتينا للعربي:

- جورجيت مسكينة. زوجها أحب واحدة مسلمة.. أشهر إسلامه وتزوجها. لا يريد تطليق جورجيت. الإسلام يعني أربع زوجات. جورجيت تصر على الطلاق.

وضع العربي رأسه منكسا على كفه، ليس من صداع، ولا من تعب، لكن من عدم فهم ما يحدث حوله في هذا العالم. ودق جرس الباب فنهض يفتح في تباطؤ. يعرف أنها أسمهان. لكنه فوجئ بفتاة أخرى معها. كان يتوقعها وحدها، أو مع خطيبها الذي جاء من إيطاليا. دارت أسمهان بالقبلات على الجميع وقدمت لهم الفتاة الإيطالية.

- جولييت حبيبة أنطونيو لم تعرف أنه مسافر إلى إيطاليا، جاءت لتراه.. مسكينة لم يتصل بها منذ سفره. لابد أنه انشغل بفتاة أخرى.

كانت تتحدث بالعربية فوقفت جولييت ذاهلة ومتحيرة وابتسمت لأنهم ابتسموا. شربوا وأكلوا وتحدثوا عن

العائلات التي تركت مصر، وعن الضـباط، مـن الجـيش والبوليس، الذين استولوا على فلل وقصور بأسعار لا تذكر، وأحيانا مجانا، من الأجانب الذين رحلـوا، وعـن أسـاليب الأجانب في تهريب أموالهم، بشراء انتيكات ثمينـة وتحـف فنية، وعن حي العطارين حولهم وكيف آلت أكثـر محـلات الموبيليا لمصريين من الصعيد، أكثرهم مسيحيون في الحقيقة فهم الأشطر دائما في التجارة، وأكثرهم كـان يعمـل عنـد الأجانب أصحاب المحلات من اليهود والإيطاليين والشـوام، ووجد العربي أن الأفضل له أن يطلق لذهنه العنان ليفكر في حكمت التي رآها خارجة من بار ميرامار منذ أسبوع بالليل، وفي مصير بنات المساكن، الجوني ونادية سلام وحسنة أخته العانس، ولما دقت الساعة الثانية عشرة في الراديو وأعلـن المذيع عن بدء عام جديد، وسمعت أصوات المقذوفات مـن النوافذ على أراضي الشوارع، هرع كل منهم يلقى بما يجده في طريقه مما يبدو لا حاجة لكاتينا به. تسابقوا فـي إلقـاء الزجاجات والصحون، وجوليـت أيضـا تحمسـت معهـم وانطلقت في ضحك عال متهتك، وفي لحظة ظن العربي أنهم سيلقون بكل ما في البيت من القديم والجديد، وكان ينظر على

كاتينا التي سكرت تماما فتقول له "ارمي انت كمان عربـي. عربي ممكن ترميني لو حبيت. يالا يا نسوان نرمي العربي" ضحكن واندفعن يحملنه، كن قد ثملن تماما، لكنـه كـان لا يزال واعيا، قاومهن وهو يضحك، لم يجدن أمـامهن إلا أن يدغدغنه لتنهار مقاومته من الضحك، لكنهن كـن يضـحكن أيضا، فانهارت مقاومتهن قبله، ومعهـن جوليـت كـذلك، وتساقطن على السجاد، وأصبح الصباح وهم متناثرون علـى الأرض، كل منهم بملابسه كما هي لا يشعر بـالآخر، لكـن كاتينا كانت في حضن جورجيت، وأسـمهان فـي حضـن جوليت بينما العربي كان قد تدحرج من فوق السجادة ونـام وحده على البلاط البارد.

( ١٠ )

وصلني هذا الأسبوع خطابان من جين معا، رغم أن الفارق الزمني بين تاريخ كتابة كل منهمـا وخروجـه مـن سيدني باستراليا ستة أشهر. كيف اجتمعا إذن في الطريـق؟

تسألني في الخطاب الثاني لماذا لم أرد على خطابها الأول الذي كانت كتبته ردا على خطابي الذي حمل لها التهنئة بالعام الجديد، تقصد العام الذي ينتهي الليلة. قالت في الرسالة الأولى إن خطابي وصلها في إبريل مما أدهشني جدا، وقالت إنها تكتب لي في الشهر نفسه. وفي الرسالة الثانية، التي كتبتها في أكتوبر كانت تسأل عن الأولى وهل وصلتني أم لا؟ وإذا كانت وصلتني فلماذا لم أرد عليها؟. خطابي تأخر في الوصول أربعة أشهر، وخطاباها تأخرا حتى نهاية العام، وظننت أنا أنها كفت عن الكتابة لي. خطاباها وصلا إلي معا مما يشي أنهما كانا محجوزين في مكان واحد. مكان واحد هو أيضا الذي حجز رسالتي قبل رسالتيها. لكن.. يبدو أن القائم بهذه المهمة ينقصه الذكاء. وصول رسالتيها إلي معا أمر يثير الريبة. تذكرت ما جرى لنوال. توقعت أن تطلب جهة أمنية ما استجوابي. دققت النظر في مظروف كل رسالة. آثار الفتح ظاهرة. شيء من التدقيق يوضح كيف تم فتح المظروف. الأفضل ألا أكتب إلى جين مرة أخرى. إن جين تسألني عن الأحوال السياسية والاقتصادية في الرسالة الثانية. لعل ذلك ما جعلهم يطلقون سراح الرسالة الأولى. إن

ردي لن يصل إلى جين، وأي كلام في السياسة أو الاقتصاد يمكن اعتباره نوعا من التجسس. الأفضل أن أصمت. شـيئا فشيئا ستيأس جين ولا ترسل إلي.. اضطربت بعض الوقت، لكني ظللت أجمع الأخبار التي أراها هامة لروايتـي التـي أكتبها. إنها أكثر من رواية في الحقيقة. أحيانا أكتـب عـن نفسي. أحيانا عن الناس حولي.. لابد من صـياغة أخـرى للرواية، من إعادة بنائها. الوقت أمامي متسـع. لا أظـن أن البيت سينهدم فوق رأسي كما انهدم البيت الذي كان يسـكنه الفيلسوف يوسف كرم في طنطا. لقد مات كما كتبت من قبل، لكنه مات حزينا بسبب انهيار بيته السابق على كتبـه التـي نشرها والتي لم ينشرها. كان يعيش مع أخته، ولم يتـزوج، ويعاني من صداع مزمن لعله كـان وراء كتابتـه لمؤلفاتـه الصعبة مثل "الطبيعة وما بعد الطبيعة" و"العقل والوجود". إنه أفضل من كتب عن تاريخ الفلسفة اليونانية، وتاريخ الفلسـفة الأوربية في العصر الوسيط. وهو نموذج للمفكر العصامي، فلم يكن حاصلا على شهادات عالية، مجرد البكالوريا التـي سافر بعدها على نفقته إلى فرنسا، ودرس الفلسفة وعاد ليعينه طه حسين مدرسا بالجامعة، ليتخـرج علـى يديـه كتـاب

وفلاسفة، كان متشائما يرى المدنية الحديثة عقيمـة، وكـان زاهدا، لكنه مات وفي قلبه حسرة من الأوساط الثقافية التي لم توله حقه من التقدير..

هكذا كتبت الصحف في رثائه كأنما تعتذر له. هكذا كل العقول الكبيرة في بلادنا.. ربما في الشرق كلـه. لكـن الحياة لم تخل من طرائف في الأشهر الأخيرة لهذا العام. ففي مطار القاهرة صرخت إحدى المضيفات بسبب لدغة عقرب، وبدء البيع بالتقسيط للأراضي والشقق في أجمـل مصـايف الإسكندرية، المعمورة، وتقرر إقامة تمثال لشـاعرنا أحمـد شوقي في روما في حديقة بورجيزي مع تماثيل شعراء العالم فيكتور هوجو وبايرون وجوته والفردوسي، وعرضت سينما مترو فيلم سجين زندا. وخلعت فرنسية شابة ملابسها قطعـة قطعة في مطار القاهرة لتأخذ حماماً شمسيا، عمرها ثمانيـة عشرة عاما وكانت في طريقها إلى الهند ورأت شمسا نادرة في بلادها، وعرض فيلم "شبح فرانكشتين" وظهـر الراديـو الترانزستور في مصر، وأول سيارة مصرية اسمها رمسيس، بينما أقام الشيوعيون المذابح للعراقيين في كركوك، واكتشف الصحفيون مكمن بديعة مصابني في لبنان. إنهـا فـي بلـدة

شتورة تبيع الجبن والزبد والكتاكيت في محل كبير تملكه هناك بعد أن تركت مصر بسبب الضرائب وتخلت عن الرقص. لقد هربها طيار إنجليزي سنة ١٩٥٠ من صحراء بلبيس إلى فلسطين ثم إلى الأردن ومن هناك سافرت إلى بلادتها بلبنان. وأكد عبد الناصر في خطاباته أنه لن تمر إسرائيل من قناة السويس ولن تفرض إرادتها علينا، وصرح وزير الصناعة عزيز صدقي أمام الرئيس بأن الخطة الجديدة تستهدف افتتاح مصنع جديد كل أسبوع. وصدرت رواية قصة حب ليوسف إدريس، والتهمتها في ساعات. لغة يوسف إدريس متدفقة مثل نبض القلب، ومشاعر أبطاله فياضة، وبطل هذه الرواية اسمه حمزة وأبوه يعمل عسكري دريسة في السكة الحديد، مجنون كأنه خرج من بيننا. وتمت سرقة عصى توت عنخ آمون من متحف الآثار المصرية. العصا مكتوب عليها بالهيروغليفية "من يحمل العصا تحصل له بركة الإله آمون ويمشي في ركابه" وبدأ مشروع كبير لاستئصال مرض الملاريا من مصر، في الوقت الذي فجع فيه شيخ الملحنين المصريين زكريا أحمد في أكبر أولاده

بينما لم يعد الابن الأصغر الذي اختفى منذ ثلاثة أعوام كمـا اصيبت ابنته في حادث سقوط أوتوبيس بسوريا!

شيء لا يصدقه عقل تفوق حتـى علـى الـدراما اليونانية.. لقد مات ابنه الكبير يعقوب في بيته بأثر الحبـوب المنومة والخمر وقد ترك جواره ورقة كتب فيها بخطه (لعل الدار الآخرة هي التي فيها الشفاء) وكـان بعـد شـابا فـي السادسة والثلاثين، له محاولات في التلحين ورشح نفسه في الانتخابات الشعبية بمصر الجديدة ونجح إلا أنه فجأة انتحر!. وعادت فتيات الباليه الإنجليزيات للرقص في مصر بعـد أن كن ممنوعات من الدخول بعد العـدوان الثلاثـي، وكتبـت الصحف عن حب المليونير أوناسيس لمغنية الأوبرا ماريـا كالاس، وبدأ عرض أضخم إنتاج سينمائي مصري، وهو فيلم "المرأة المجهولة" المأخوذ عن الميلودراما العالميـة "مـدام إكس" وما انتهى العام إلا بوفاة أدهم وانلي فنان الإسـكندرية العظيم أخو سيف وانلي الفنان الأكثر شهرة. لقد كان أدهـم شديد التأثر بالمدرسة التأثيرية، بديجا بصفة خاصة في رسمه لراقصات الباليه. وتزوج شاه إيران من فرح ديبا في ليلة من ليالي ألف ليلة وليلة بإيران، وسيبدأ العـام الجديـد بتفجيـر

ثلاثين طنا من الديناميت بداية للعمل فـي مشـروع السـد العالي.

في المساكن وقعت أحداث لم نتوقعها. عاد الـديب من إحدى سفراته صامتا جهما رفض كل توسـلات الأولاد والشباب أن يحكي لهم شيئا، ولما سألته بعيدا عنهم قال "لقـد زهقت من حياتي معلقا في الفضاء" وسكت قليلا ثم قـال "إن ما رأيته خلال العشرين عاما الماضية منذ بداية هذا العمـل العجيب، ما رأيته يا سليمان يمـلأ مجلـدات. إننـي رجـل النصف الثاني من الكون. النصف الأعلـى. وأنـتم رجـال النصف الأسفل، لكم الأرض ولي السماء ولقد تعبت أريد أن تلمس قدماي الأرض مثلكم".

أدهشني للغاية، وتركته تقـديرا لرغبتـه أن يظـل صامتا مع نفسه لا يكلمه أحد، على الأقل لعدة أيام. قال إنـه يفكر في أمر سيفيد حياته تماما وبعدها يمكن له أن يحكي لي عن الذي رآه وحده دون العالمين" كان اليوم التالي هو بداية الشهر الجديد، موعد صرف المرتبات، ودفع الديون للعنيبسي أو للسيد خليل فالجميع هنا تقريبا، باستثناء على زين العابدين وغبريال والد نسيم ومـريم وأسـرتي، يشـترون بالأجـل،

"شكك"، من الدكانتين. لا يخصص كل محل نوتة لكل شخص كما يحدث في الأرياف، لكن لدى كل محل كـراس ضـخم جعل لكل زبون صفحة فيه. الناس منقسمون بين الـدكانتين، كل ورغبته أو مزاجه، الديب ضمن الذين يشترون بالأجـل من دكانة السيد خليل.

- أنت حرامي أضفت إلى حسابي الكثير ممـا لا تستحق.

- أنت نصاب تشتري وتأكل أنت وأولادك ووقت الدفع تدعي علينا بالباطل.

- أنا لا يمكن أبدا أن آكل وأولادي بعشرة جنيهات في الشهر. لماذا؟ هل نأكل فلوسا؟ غايتـه نصـرف ثلاثـة جنيهات!..

هنا تدخل خليل بن السيد خليل، وهو أطول من أبيه الطويل، له عين مقلوبة، هو الذي قلبها في الحقيقة فلقد تعود أن يغلقها وينظر للبنات والنسوان بالأخرى بإمعان حتى جاء اليوم الذي فيه لم يستطع أن يعود إلى فتحها كاملة!، وخليـل مصارع حصل على بطولة شركة الزيوت والصابون التـي يعمل فيها، وأشيع عنه أنه قبل أي مصارعة يـدهن جسـمه

بالزيت فلا يكون هناك سبيل لخصمه لإمســاكه، وبــالطبع يتعذر الإيقاع به!. تدخل خليل وأمسك بخناق الديب ليرفعــه عن الأرض عاليا ثم يتركه ليســقط علــى مؤخرتــه بــين ضحكات الأولاد والرجال الذين تجمعوا حول الشجار.. نظر إليه الديب من أسفل بغيظ، الحقيقة أنه لم يكن ينظر إليه، كان يمعن النظر في "كشكول" الشكك الموضوع علــى منضــدة بعيدة، في لحظة قفز إلى الكشكول وأمسك به ثم أطلق ساقيه للريح. جرى وراءه خليل وأبوه السيد خليل، وكــان الــديب وهو يجري يمزق في صفحات الكشكول وينثرها في الفضاء قطعا وارتبك السيد خليل وولداه بين محاولة جمــع الأوراق الممزقة واللحاق بالديب. في النهاية لحق به خليــل، وجمــع أبوه وأخوه ما يمكن جمعه من الأوراق و"عجنوا " الــديب. تركوه على أرض شارع قنال المحمودية غير قــادر علــى الحركة مصابا بكسور في ذراعيه وكدمات لا نهاية لها فــي وجهه وكل جسمه.

في مفكرة صغيرة كتبت يومها أن هذا يوم من أيام العرب، يؤرخ به هنا. لقد أضاع الديب أموالا كثيــرة علــى السيد خليل الذي ترك عملاءه يدفعون ما يرونه مناسبا. كــاد

قلبه يحترق وهو يرى ما يدفعه كل رجل أقل مما يعرفه عن قدرته الشرائية.

ذلك اليوم نقلت الإسعاف الديب الذي لم يتهم سيد خليل وأولاده بشيء. قال إن عصابة مجهولة خرجت عليه في الطريق وضربته، وعاد من المستشفى أبيض اللون من فرط الشاش والجبس الذي يحيط بأعضائه.

ما كاد الديب يفك الجبس عن ذراعيه حتى لجأ إليه مرعي، العامل في محل العنيبسي، ليكتب له خطابا إلى أهله في الصعيد. كتب له الديب الخطاب وأغلق عليه المظروف وكتب فوقه العنوان. بعد أسبوع جاءت عربة كارو محملة بالرجال المسلحين بالهراوات الذين تركوا العربة وهرولوا ناحية مرعي الذي بدوره هرول ليحتضن أباه وأخوته وأبناء عمومته ولا يصدق أنهم قبلوا دعوته بهذه السرعة لزيارة الإسكندرية. قابلت مرعي الهراوات والصفعات والركلات وكان يطير بين أقدامهم وأذرعهم وجرينا كلنا نصرخ ونحاول إنقاذه. كانوا يرتدون جلابيب سوداء، وعمما ضخمة تهدلت على أكتفاهم وعيونهم حمراء من الغيظ، وأمسك

كبيرهم مرعي من قفاه يسنده حتى لا يقع على الأرض. كان واضحا أنه أبو مرعي..

- هذا ولدنا ولا دخل لأحد فيما نفعله به، سنقتله هنا أمامكم.. كان كل مكان في جسم مرعي يشخب دما. لم يكن من السهل رؤية وجهه تحت الدم المتفجر من كل ناحية في رأسه، كان مشهدا محزنا حقا لم ينهه غير فلفل تاجر البهار الذي اندفع مرتميا على ساق والد مرعي..

- أبوس رجلك يا عم الحاج أن تعطينا فرصة لنعرف الحكاية، لو كان ابنك يستحق القتل سنقتله معكم.

- أعطوه الخطاب.

أمر والد مرعي أحد أبنائه الذي أخرج من صدره خطابا ناوله لفلفل وصرخ فيه.

- أقرأ ماذا كتب ولدنا.

راح فلفل يقرأ في صمت ونحن حوله، وكل رجال المساكن الذين تواجدوا بالشارع والأولاد وحبشى وبدرة وكل النساء الخارجات الملاحة تجمعن أيضا حول الرجال يتفرجن على ما يجري.

لا صوت لفلفل غير أن وجهه يتغير من الأحمر إلى الأصفر إلى الأخضر إلى الأسود ثم صرخ "مرعي لا يعرف الكتابة يا رجال، مرعي مظلوم لا يعرف الكتابة يا حاج"

نظر والد مرعي للرجال الذين معه لكن الأسف لـم يصعد إلى وجوههم، وإن صعدت الحيرة. وقال فلفل:

- الآن اتركوا مرعي وتعال نجلس فـي الـدكان نعرف الحكاية بهدوء.. دخلوا دكانة العنيبسي التي اتسـعت لعدد قليل، وانفض الزحام. بعد قليل صار الناس يضـربون كفا بكف. لقد أملى مرعي على الديب كلاما وكتـب الـديب كلاما آخر.. مرعي يملي "والدي الحبيـب" وكتـب الـديب "والدي الحمار" مرعي يملي "أتمنى أن تكون بخير أنت وأمي وإخوتي والعائلة كبيرها وصغيرها" وكتب الديب "أتمنـى أن يدهسك قطار وتغرق أمي في الترعة أما أخـوتي وعـائلتي فتأكلهم الديابة في الصحراء" مرعي يملي "وجدت عملا فـي الإسكندرية مرتاح فيه وياليتكم تزورونـي" وكتـب الـديب "وجدت عملا ولا أريد رؤية أحدكم لأني لا أتشرف بكم فأنتم عار على المجتمع والثورة كما قال الـرئيس جمـال عبـد الناصر!".

لم ينم أحد تلك الليلة. اختفى الديب ولم يعد للظهور بعدها حتى اليوم. رأى النـاس زوجتـه وطفليـه يتركـون المساكن بالليل. ظل أهل مرعي فـي الإسـكندرية أسـبوعا يبحثون عن الديب لقتله.. قيل إنهم أوصوا أقاربهم في الوكالة ليقتلوه بعد رحيلهم. مرعي لا يزال يعمل في دكانة العنيبسي متيقظا لكل كلمة تقال عن الديب علها تهديه إلى مكانه ليقتله. يا إلهي.!

إذا عدت إلى نفسي، في محاولة أن أضع نفسي في قلب المكان، فلم تتطور قصتي مع سـعدة. حبسـها المطـر والبرد، في الأيام المشمسة القليلة كانت تصعد إلى السـطح لترسل إلي الإشارة الضوئية. صار إخوتي يتعجبون وأبـي وأمي معهم، لأمري وأنا أفتح طاقـة سـقف الصـالة فـي صباحات كثيرة فتدخل منها الريح وأحيانا يفاجئنا المطر. لم يفطن أحد حتى الآن لحيلتي. كلامنا وكل منا علـى السـطح المقابل للآخر يكون همسا، أحيانا بالإشـارة، أكثـر الوقـت نبتسم بلا سبب. لعله الفرح الذي يجتاحني حين أراها، ولابد أنها تفرح أيضا، فهي لا تكف عن إرسال الرسائل، في كـل مرة رسالة تقريبا، ورقة صغيرة تطويها على زلطة أصـغر

ثم تقذفها إلي. إنها لا تجيد الكتابة عن الحب، مازالت طفلة، وأنا حتى الآن لا أرسل إليها أية رسالة، فلن تفهمني، لكنـي أحثها على قراءة أي شيء يقع في يدها، صحيفة أو كتـاب، تفعل ذلك وتكتب لي عني بضعة أسـطر فـي كـل مـرة. الأسبوع الماضي قذفت الرسالة. طوت الورقة على نفسـها دون "الزلاطة". حملت الريح الرسـالة علـى منـور البيـت المجاور فسقطت داخله. بان الذعر على وجهها. خافت حتى كادت تتلاشى. البيت المجاور يسكنه عـم كيـراس وابنـه إسحق، وعم كيرلس يخرج من العمل إلى البار كل يـوم ولا يعود إلا في منتصف الليل وكذلك يفعل إسحق فيما يبدو فهو يعود سكرانا بالليل مع أبيه. قلت لها ألا تقلق، أنني سـأعالج الأمر، إن عليها أن تنزل إلى البيت. ونزلت أنا إلى الشـارع أفكر في العمل. قد يرى كيرلس الخطاب ويقـرؤه بصـوت عال وربما يدفعه السكر إلى إيقاظ الناس جميعا في المساكن وتلاوة الخطاب عليهم. ستكون فضيحة حقيقية. كانت الماكينة الحمراء أمامي مغسولة ناضحة بالرطوبة والأرض الترابيـة على الشاطئ طرية ندية، وجدران المساكن من الخارج مبتلة أيضا بفعل مطر الليلة السابقة، ولا أحد يبرز مـن دكـانتي

العنيبسي والسيد خليل، ولم يظهر تاجر البهار، وبالطبع لم يظهر محمود الملاح الذي سافر منذ شهور إلى القاهرة ولم يعد ولا أعرف من هو مصدر الإشاعة التي تقول إن محمود الملاح سافر إلى إيطاليا مع كومبارس إيطالية وهناك سيجرب حظه في السينما العالمية..

كذلك لم يظهر محمود القزعة على الدرج المؤدي إلى القبو اليوم. تواطأ الجميع على الغياب، لكن الولد الصغير رمضان مر من أمامي فجأة ليشتري شيئا من دكانة العنيبسي. بعد قليل عاد يحمل في يده باكو شاي ماركة "الكوباية".

- تعال يا رمضان.
- نعم يا أستاذ سليمان.

كان حافيا ويرتدي شورتا في هذا الشتاء. والده مشهور بالقسوة.

- سأعطيك ثلاثة قروش تدخل السينما وتشتري طيارة ورق أيضا. اتسعت عينا الولد الذي لم يتجاوز السادسة من العمر بعد.

- ستصعد معي على السطح وتنزل بحبـل مـن منور بيت عم كيرلس تحضر لي ورقفة طارت منـي وأنـا فوق السطح.

- ولو رآني عم كيرلس..

- يا رمضان لو عم كيرلس موجود كنت طرقـت الباب!

- حاضر يا أستاذ سليمان، لكن امسك الحبل بقوة.

- لا تخف يا رمضان.

أحضرت حبلا، وصعدنا إلى السطح معا، ربطـت رمضان من وسطه بالحبل ورحت أدليه من المنور.

- أنا خائف يا أستاذ سليمان.

- لا تخف أنا معك.

كان باكو الشاي في يده لا يتركه وأنـا أراه نـازلا معلقا في الفضاء حتى وصل الأرض بسلام. بسرعة أمسـك بالورقة المطوية ورحت أجذب الحبل أرفعه إلى أعلى. لقـد كان رمضان ثقيلا بأكثر مما يبدو من جسـده. ثقـيلا فـي النزول وفي الصعود. أرهقني للغاية وأنا أرفعه شبرا شبرا. عدت قليلا إلى الخاف وصار الحبل يحتك بجانب المنور وأنا

أسحبه على مهل. وصلت رأس كروان إلى السطح وهـوب، انقطع الحبل وهوى رمضان بسرعة وسمعت صوت ارتطام جسمه بالأرض. آه يا أستاذ سليمان. سمعت صـوته يتـألم وشملني الرعب أن يكون أصابه كسر ما.

- رمضان. حاول تتحرك.
- ظهري يا أستاذ سليمان. لا أستطيع.
- حاول أرجوك. حاول.

وسكت لحظات وقفت فيها متحيرا، لكنـي سـمعت صوته يقول:

- خلاص يا استاذ سليمان أنا وقفت.
- حاول تمشي.
- مشيت. أنا سليم يا أستاذ سليمان.
- طيب يا رمضان سأنزل لك الحبل مرة أخرى.
- لا. أرجوك. سأظل هنا حتى يأتي عم كيـرلس وأخرج من الباب.
- لكن كيرلس سيأتي في منتصف الليل.
- مش مهم!.

رأيته يجلس على الأرض ويبدأ في البكـاء. ظـل لوقت طويل يبكي وأنا في حيرة على السـطح، ثـم تركتـه وجلست بالشارع حتى منتصف الليل انتظر كيرلس الذي جاء وفتح الباب وأنا معه أشرح له كيف سقطت إحدى الورقـات المهمة من أحد الكتب وأنا أذاكر فوق السطح وكيف حاولت إخراجها بالحبل ورمضان، ولاحظت أن عم كيرلس لا يهتم بما أقول، بل بدا لا يسمع فسكت، وفتح الباب فخرج رمضان مسرعا لا يكلم أحدا. رمضان. رمضان. ناديت عليه فوقـف بالشارع وألقى لي الورقة على الأرض وأطلق ساقيه للريح. الفلوس يا رمضان. الثلاثة قروش. لا أريد يا أستاذ سليمان. كان والده طوال هذا الوقت يبحث عنه وكلما مر من أمـامي هو أو أحد أخوته أشيح بوجهي عنه، أسمعه يقول يائسا الولد خرج يشتري لنا باكو شاي فلم يعد، يكون انخطف!؟ وأظـل أشيح بوجهي عنه. ترى ماذا سيفعل أبوه معـي إذا عـرف القصة. لكن رمضان فيما يبدو لم يتكلم. ولا أعرف أي نوع من المعلومات وصلت إلى أسرة سعدة جعلتها تخفيهـا عـن المكان تماما. قالت لي أختها الصغرى أنهم أرسـلوها عنـد خالها في الحضرة. في أي مكان في الحضـرة؟ لا تعـرف.

هل تم ذلك لإبعادها عني؟ هل يعرفون بالقصة؟. الأيام هـي التي ستكشف لي الحقيقة. لكن ما هي هذه القصة العجيبة من الحب التي انفجرت بيني وبين هذه الطفلة. وكيف لا أستطيع أن أتحدث مع أحد عنها؟ هل يمكن؟. وهل سأتحمل غيـاب وجهها الصبوح الذي كنت أراه فوق السطح فيخيل إلي أنـه هو الذي يضيء الدنيا من حولي. أمس رآني تـاجر البهـار شارد اللب فقال لي يا أستاذ سليمان عليك بلبان جاوة قلت له ما هو لبان جاوة قال اللادن، يحميك مـن الشـر، وتطيـب بالكافور فهو ينعش الدنيا حولك، واشـرب الدارصـين، أي القرفة، أي خشب الصين، فهي تشرح صدرك، وقبل النـوم ابدغ ثلاث حبات من الحبهان وتنفس يتعطر فمك وتخرج كل روائح أكل النهار، ولا تحرم طعامك من القرنفـل، فالبيـت الخالي من القرنفل ينمو فيه الفقر، وزامله بالزنجبيل وانتبـه إلى السعادة التي تمشي في دمك، وليتك تترك هـذه الـبلاد وتأتي معي إلى سومطرة والهند والصين نبني قصـرا مـن أشجار البخور واللبان، قصرا مليئا بالبركة، ونصطاد أيائـل المسك الذكور على هضبة التبت، فأيائل التبت تحمل أفضـل المسك لا يتعطر به إلا الملوك والأمراء.. يا أستاذ سـليمان

لقد تركني محمود الملاح بعد أن كنت جذبته إلى عالم المتعة السحرية، كنت أتمنى لو سافر معي علـى طريـق التوابـل لنصل إلى أرض الله المسحورة في آسيا. الآن أريدك معي. أم لعلك توافقني على أن أقاضي الدولة مطالبا بأراضي جدي عمر بن سليمان نجم الدين القاضـي الـدماميني، صـاحب الوكالة التي كانت أكبر من شارع فرنسا قبل شارع فرنسـا وقبل فرنسا ذاتها!.

بدا لي تاجر البهار في موقف عجيب، فكرت للحظة أن مسا أصاب عقله. تذكرت أن أحدا منا لا يعرف من أيـن جاء ولا متى ظهر في المكان، وكيف قبلناه كحقيقة كونيـة، كشيء أنزله الله من السماء علينا. فكرت أي نوع من العذاب يمكن أن يحمله هذا الرجل الغامض، لكني رأيت عيدا قادمـا من بعيد في ثياب نظيفة ومعه خمسة من المجاذيب وعدد من أولاد المساكن يقابلونه ضاحكين.. بسرعة أحاطوا به ومـن معه من المجاذيب الذين كانوا قد اقتربوا منا في طريقهم إلى الملاحة. كنا نعرف أن عيدا قد اختفى لأسابيع طويلة، وأنـه صار ملازما لحارس المشرحة العموميـة بكـوم الدكـة لا يتحرك إلا حين يتم نقل إحدى الجثث المجهولة للدفن بمدافن

عامود السواري أو المنارة. يقف عيد ويساهم مع عدد من الذين يعملون بالمشرحة في حمل النعش الذي يمشون به حتى المدافن. كيف توصل عيد إلى المشرحة؟! كيف انتهى إلى هذا العمل؟ لا أحد يعرف. لكن كان واضحا أن عيدا لا يتقاضى عليه أجرا. الذين رأوه قالوا إنه أحيانا يتعطف عليه بعض المشاركين في الجنازة من المارة بقرش أو قطعة بخمسة قروش، لكنه يعطي الفلوس لأول امرأة تقابله وينظر في عينها في الطريق. كان دائما يحمل النعش وعيناه تنظران إلى جانب الطريق حيث الرجال والنساء. وبدا دائما قويا، يدخل تحت ذراع النعش عند المشرحة فلا يخرج من تحتها إلا عند المقبرة بينما يتغير الثلاثة الآخرون كثيرا في الطريق من طالبي الثواب والأجر من الله. كان عيد أحيانا يشرع في الهرولة الخفيفة، حتى بالميت الثقيل، فيهرول الآخرون، ويجري فيجرون بالنعش، فتتهلل الناس وتكبر فرحة بهذا الميت الخفيف المبارك من الله الذاهب طائرا إلى جنة الخلد، وعيد وهو يجري لا يكف عن الابتسامة وتطل البهجة من عينيه وعلى وجهه. باغته مصطفى...

- على أين يا عيد مع هؤلاء المجاذيب؟

- إلى ربنا.
- نعم؟
- إلى الملاحة نرى ربنا.

ضحك الأولاد ووقفت أنا أتأمل. قال بلك:

- ربنا مرة واحدة يا عيد؟
- تعال وأنت تشوف.

سكت الأولاد قليلا ثم هتف مصطفى على طريقـة أنور وجدي في الأفلام:

- ياللابينا..

أسرعوا جميعا ينزلون السلالم إلى القبو المؤدي إلى الملاحة ولمحت دمعا في عين تاجر البهار ودهشة على وجه محمود القزعة جعلت السيجارة تحرقه فيتركها هـذه المـرة بهدوء غير مبتعد عن شروده. مشيت خلفهم. خرجنا من القبو يسبقنا عيد بقفطانه الكستور الأخضر حافيـا يسـرع ببقـين عجيب في الفضاء ونحن وبيننا المجاذيب الذين اختلطوا بنـا نحاول جميعا أن نلحق به. كان عيد يأخذ طريقه إلـى بيـت خميس الجمال، ثم تجاوزه إلى مقلب القمامة العمومي للمدينة هناك عند دوران بحيرة مريوط أمام الصحراء. الأرض على

يميننا بيضاء من آثار الحجر الجيري ومنخفقة تتنـاثر فيهـا مخلفات المدينة، وعلى يسارنا طينية زلقة هي بدايات البحيرة بينهما طرق جافة محاطة بالهيش والبوص والحلفاء. الأرض أمامنا ملحية وطينية يختلط فيها بياض الملح بسـواد الطـين وبعدها تبدو مياه البحيرة صافية ممتدة حتى الأفـق البعيـد، وليس هناك صياد واحد الآن في المساء.

وقف عيد ونحن خلفه وهتف:

- هاهو ربنا هناك أمامكم..

تأمله الأولاد لحظة، تأملوا أنفسهم لحظات. قال هو:

- انظروا بقوة إلى السماء هناك عند آخر المياه.

انفجروا ضاحكين يضربون كفا بكف وتقـدم منـه مصطفى وأمسك بقفطانه من عند كتفه وجذبه إليه صـارخا فيه:

- فين ربنا ياله.. انت بتستعبط؟!

سكت عيد وإن صوب عينيه إلى مصطفى. كانـت الشمس الذهبية تختلط أشعتها الأخيرة بسحب رمادية تتـدافع إلى الأفق قادمة من الغرب والشمال، كانـت فـي الفضـاء

تشكيلات بصرية عديدة كأنها كائنات مبهمة، وحولهم نسـمة باردة منعشة تبعث على الراحة. قال إبراهيم بلك:

- أنا شايف حاجات غريبة فعلا في السماء.

هتف عيد:

- شفتم؟. انظروا بقوة مثل بلك.

وقفوا ينظرون بقوة، وأنا معهم، بعيدا عنهم قلـيلا، أتابع بسمة المجاذيب وعيونهم المشدوهة، والصـمت الـذي ران على الدنيا، والنهار الذاهب والليل القادم وشـيئا فشـيئا ظهرت خطوط حمراء شفافة لوجه مستدير كبير. قال عيد:

- كل مساء، بالصيف والشتاء، يظهر هذا الوجه. كل مساء في الصيف والشتاء يبتسم لي. انتظروا.

بدأت تظهر وسط الوجه نقط هلامية سمراء أشـبه بالأنف والعيون.

قال مصطفى:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، عيد اتجنن فعـلا يـا جماعة.

واستمر عيد يتكلم.

- إنه وجه لا يتغيـر لا بالصـيف ولا بالشـتاء. انظروا إنه يبتسم لكم. بدأ صوت يتهادى قادما من الفضـاء. صوت غير واضح كأنه سنابك خيل بعيدة، تزداد شيئا فشيئا من كل اتجاه. اقترب مني كروان وقال:

- شيء عجيب، هيا من هنا يا سليمان.

قلت له:

- لا تخف.

الحقيقة إنني شعرت بعدم القـدرة علـى الحركـة. صرخ كروان.

- لا أستطيع رفع قدمي.

- اسكت.

هتف فيه عيد زاجرا وابتسـم فابتسـم المجاذيـب وارتفعت أصوات سنابك الخيل وبان الـذعر علـى وجـوه الأولاد جميعا، وبدأ الوجه البعيد عند الأفق يبتسم بوضـوح ويكاد يشتعل، ومرت قافلة من الطيور فوق رءوسنا تبعتهـا قافلة ثم عدة قوافل راحت تدور فوقنا بعيدا وتصـرخ غـاق غاق غاق! إنها نوارس وطيور سـوداء أيضـا كالغربـان والصوت الذي كان لسنابك الخيل بدأ يتركز في نقطة واحدة

في الفضاء ويزداد ويزداد، والأولاد في ذعر لا يسـتطيعون الحركة ولا الصراخ، وعيد مبتسم سعيد ينظر إلـى الأفـق والمجاذيب الخمسة اقتربوا منه وراحـوا يندهشـون مثلـه سعداء، ثم ابتعد صوت سنابك الخيل في الفضاء بسرعة حتى تلاشى وتفرقت الطيور مرفرفة في الاتجاهات الأربعة. كان عرق كثير قد تفصد على وجهي ووجوه الأولاد، وبدأ الوجه الكبير الأحمر الباسم عند الأفق يتلاشى مع سقوط الشمس في الماء، ودخل الظلام ثقيلا فصفق عيد بقـوة وبعـده صـفق المجاذيب الخمسة، ولم يستطع مصطفى أو غيره أن يعلـق بكلمة، وقال عيد:

- ربنا يحبني ويحبكم، شفتوه وما حدش جرى لـه حاجة.

وهنا صرخ عبده:

- هيا يا أولاد ديك الكلب نجري من هنا قبـل أن يسخطنا ربنا خنازير يبيعها خميس الجمال.

أطلق ساقيه للريح فتبعه الجميع بينما مشـى عيـد ضاحكا بهدوء وحوله المجاذيب الخمسـة، وأنـا خلفهـم لا يفطنون لوجودي ولا يشعرون بي. بدأ مطر خفيف يتسـاقط

فأسرعت وتجاوزتهم بينما ظلوا هم يمشون على مهـل فـي صمت عجيب. شعرت للحظة وأنا أمشي تحت المطر إننـي قد انفصلت عن الدنيا، إنني تلاشيت، ثم فطنت إلى أنني فـي الطريق إلى البيت!!

أعاد سليمان قراءة ما كتبه فاكتشف أنه لم تتسـرب إليه أي جملة من الجمل غير المفهومـة، المجنونـة، التـي تسربت من قبل في كل ما كتب. هذا تغير لـه معنـى يـا سليمان. إما أنك على الطريق الصحيح وإما أنك ذاهب إلـى التلاشي.. قال لنفسه وتذكر أن هناك شـيئا كـان عليـه أن يضيفه فأمسك بالقلم وعاد إلى الكراسة..

من المهم جدا أن أقرر أنه قد خرج من الإسكندرية في النصف الأخير من هذا العام خمسة عشر ألف أجنبـي، أكثرهم من التجار الصغار، وتم تمصـير خمسـين شـركة ومؤسسة، وسجلت الشركة الخديوية للنقل البحـري أربعـين رحلة بحرية إلى اليونان وإيطاليا، بزيادة على مـا تـم فـي النصف الأول من العام، لكن في الوقت نفسه ازدادت مواليد المواطنين المصريين فبلغوا ألفي طفـل، وازدادت وفيـاتهم فبلغت مائتي ميت، وظل مواليـد الأجانـب فـي انكمـاش،

فسجلت وزارة الصحة عشرين مولودا، وقلت أيضا وفيـاتهم فقد مات عشرة أشخاص في ستة أشهر بينهم خمسـة مـاتوا بالتسمم الكحولي. لقد ظهر لأول مرة الغش في الكحول، وتم القبض على الشركة الوهمية التي تصنع البراندي في إحـدى الخرابات من الكحول الميثيلـي.. لقـد شـاع الـذعر مـن المشروبات الروحية المحلية، مثـل زوتـوس وبولانـاكي، وارتفعت أسعار الويسكي فبلغ سعر الزجاجة من الفـات أو الجوني ووكر سبعة جنيهات بعد أن كان خمسة"..

(١١)

أخي وصديقي الأديب الفيلسوف سليمان:

أدامك الله.. وبعد،

مع بداية هذا العام أرجو لك دوام الصحة وأن يكون عام خير وسعادة لك ولأسرتك ولكل أهالينا في المسـاكن.

أقرأ عن أمطار غزيرة هطلت على الإسـكندرية الجميلـة. المطر خير على أية حال، تعودنا عليه مع نهاية وبداية كـل عام، نوة الميلاد، وإن كان يبدو غير عادي هذا العام. حلوان خالية من المطر وجافة، رغم أنها ملائمة تماما لصـحتي إلا أني شديد الحنين لمطر الإسكندرية، للدنيا حين تطلع الشمس بعد المطر وتصعد النساء على الأسطح، خاصـة الجـوني، فيتلألأ ضوء النهار، ويملأ الأولاد الطرقات..

في اشتياق إلى رسائلك.

المخلص

خير الدين خير

الدين خير

أخي خير الدين:

تحياتي القلبية.. وبعد،

أشكرك على تهنئتك الرقيقة بالعام الجديد. حقـا أن الأمطار هذا العام غير عادية، أغلق بوغاز الميناء، وبلغـت سرعة الرياح أكثر من ستين كيلو مترا في الساعة. وقعـت حوادث تصادم كثيرة لعلك قرأت عن بعضها في الصـحف، لكن الكارثة الحقيقية كانت ذوبان بعض البيوت القديمة فـي

المنشية وبحري. مات خلق كثير، لكن الصحف لم تذكر ذلك. كنت سعيدا لأن العام بدأ بداية قويـة بالنسـبة إلـى الأمـة المصرية، فلقد أعلنت الصحف أن مصر تدخل عصر الذرة ببدء العمل في مفاعل "أنشاص" النووي للأعمال السلمية، كما تم إدخال أول ستة أجهزة طبية تعمل بالطاقة الذريـة إلـى مستشفياتنا لعلاج الأنواع المستعصية من الأمـراض. إنهـا بداية قوية للأمة المصرية كما قلت لك، لكـن بالنسـبة لـي شخصيا بدأ العام بالحزن لمصرع الكاتب الفرنسي الوجودي البير كامي في الرابع من يناير هذا في حادث سيارة جنـوب فرنسا. إن البير كامي صغير، في السابعة والأربعـين مـن عمره، وحصل منذ ثلاث سنوات على جـائزة نوبـل فـي الآداب، فهو أصغر من حصل عليها حتى الآن، ولقد قـرأت له رواية "الغريب" بالإنجليزية وكذلك مسرحية "سوء تفاهم"، ومنذ ذلك الوقت لم أعد كما كنت، تغيرت نظرتي إلى الـدنيا يا خير الدين. هذا موضوع يطول شرحه.

على أية حال، لقد كان من غرائب الأمطار أيضـا نفاذها إلى غرفة العرش الملكية بقصر رأس التين. ساء حظ الملكية حتى في الأثاث والمباني! دار الزمن دورة عنيفة حقا

على الملوك، ولعلك سمعت كيف رفضت المحكمة الابتدائية والاستئنافية في الإسكندرية حكم النفقة الذي كانـت الملكـة ناريمان قد حصلت عليه في محاكم بيـروت ضـد زوجهـا الدكتور أدهم النقيب الذي تزوجها بعد طلاقها مـن الملـك فاروق.

ناريمان الملكة لا تجد نفقة تعيش بها، لقد تأثر تاجر البهار جدا وكاد يبكي حين قرأ الخبر معي في الجريدة، أمـا محمود القزعة فقد ظل ساهما لا ينطق حتى حرقت السيجارة أصبعيه، ثم لعن الدنيا وثورة يوليو التي لم تكتـف بـإذلال الملك، بل تركت ناريمان المصرية لـذل أيضـا، محمـود القزعة على وشك الجنون، أمس ظل يتكلم طول النهار بكلام غير مفهوم، معظمه لعنات لوزير التموين بسبب قرار إلغـاء وحدة الأقة والرطل كمقياس في الوزن واستخدام الكيلو جرام والجرام. رأيه أن هذه سرقة علنية للشعب؛ لأن الكيلو نصف أقة لكن سعر الكيلو هو سعر الأقـة، حاولنـا أن نفهمـه أن الكيلو ثلاثة أرباع الأقة وليس نصفها وأن السعر سيتغير إلى الأقل، لكنه يعتبر أن كلامنا كذب وتدليس. الثورة التي أذلت الملوك والباشوات سـتتفرغ لإذلال الشـعب. هكـذا يقـول

القزعة.. ما علينا. أردت فقط أن أنقل إليك صورة مما هـو جار في المساكن أو حولها. وإلى أن نلتقي لك أجمل أمنياتي.

المخلص

سليمان

صديقي كروان:

أهديك كل سلامي

أشتاق إليكم جدا. لنسمة العصاري والجلوس علـى شاطئ ترعة المحمودية. أنا هنا مبسـوط والحمـد لله. زاد مرتبي جنيهين فصار عشرة جنيهات. أسكن في شـقة مـع اثنين من زملائي وندفع جميعا ثلاثة جنيهات في الشهر، أي أنني أدفع جنيها واحدا. الشقة قريبة من محطة حلوان، جوار فندق جلانز. مرضى للمرة الثانية أخافني جدا. لا أصدق أني نجوت. لا يضايقني هنا غير الوقت. طويل يا كروان يبـدو لي أطول مما هو في الإسكندرية ربما لأن القـاهرة مدينـة واسعة بالنسبة لشاب مريض نحيل مثلـي. أمضـي معظـم الوقت آخر النهار في الحديقة اليابانية حيث تماثيـل كثيـرة

للإله بوذا. حديقة جميلة في حلوان. وأنا لاأعرف هل بـوذا هذا إله حقا أم نبي؟ يخيل إلي أنه واحد عادي مثلنـا!.زرت الجمعة الماضية متحف الشمع. التماثيـل الخـالق النـاطق أصحابها. شيء معجزة. أزور العيـون الكبريتيـة أحيانـا. يسمونها الكابريتاج. أظن الكلمة فرنسية. صحتي تتحسن فيما يبدو. لن أستطيع الحضور قبل العيد الصغير. هل لا يـزال محمود القزعة يتفرج على سيقان النساء؟. النساء في القاهرة شيء آخر. لو حضر القزعة هنا سيجن. تحياتي للجميع..

أخوك

خير الدين خير الدين خير.

أخي الكبير خير الدين:

أهديك أجمل التحيات.

أنت أيضا أوحشني فراقك. أوحشنا كلنا. نتـذكرك دائما. لا زلنا نتعجب كيف تعيش وحدك في القـاهرة. لقـد صرت قدوة لنا نحن الأصغر سنا، صرت مثلنا الأعلى فـي التحدي والقوة. ومادمت أنت سعيد فـنحن جميعـا سـعداء. قرأت قصصا قصيرة جميلة لمحمود تيمور، قرأت مسـرحية

عطيل لشكسبير مترجمة إلى العربية، وكذلك مسرحية تاجر البندقية. أخذتني القراءة من كل شيء. في انتظار رسـائلك التي تطمئنني دائما عليك.

أخوك

الصغير كروان.

أخي خير الدين:

تحياتي القلبية.. وبعد،

الليلة نفتقدك بشدة، فغدا يبدأ الشهر الكـريم، شـهر رمضان المبارك، الناس كلها سهرانة رغم البـرد حتـى إن الأولاد يملأون الشارع تحت أعمدة النـور. لكنـي أشـعر بالوحشة الشديدة، وكأنني وحدي في ظلام واسع لأسباب قـد أشرحها لك يوما. كنت أتمنى لو سهرت معنا هذه الليلة، ربما بددت وحشتي التي أزادها أني شاهدت أمس فـيلم أريـد أن أعيش لسوزان هيوارد. فيلم إنساني مؤلم عن إعـدام امـرأة جميلة مظلومة. فيلم عن قوة الرغبة فـي الحيـاة وبـؤس الإنسان أمام الموت.

قرأت خبرا عجيبا عن سيدة شابة في أسيوط صدر عليها حكم بالإعدام فصرخت بأنها بريئـة وأن القاتـل هـو

زوجها الذي تحبه. لقد خدعها وقال لها إن المحكمة لا تصدر حكما بإعدام النساء لذلك تقدمت واعترفت بأنها القاتلة. هذه امرأة أكثر بؤسا من سوزان هيوارد لأنها جاهلة، لكن الموت المرعب جعلها تصرخ بالحقيقة. لا أعرف كيف تقع ثلاث كوارث جوية في يوم واحد، هو يوم أمس، حيث انفجرت طائرة ركاب فوق إيطاليا، وانفجرت طائرة عسكرية برتغالية فوق لشبونة، لكن المأساة العبثية هي اصطدام طائرة كانت تقل فرقة موسيقى عسكرية أمريكية بطائرة أخرى فوق خليج ريو بالبرازيل. كان فريق الموسيقى في طريقه إلى السفارة الأمريكية بريو دي جانيرو ليعزف هناك لمناسبة زيارة إزينهاور للبرازيل.

هذا العبث يقابله عبث مصري، مضحك مبكي، يتمثل في هذه القضية التي تنظرها المحكمة غدا بعد تداولها في المحاكم لأكثر من ثلاثين سنة. كانت وزارة الأوقاف قد طالبت صاحب قطعة أرض في ماسبيرو بالقاهرة بإيجار ثمانية جنيهات فماطل في الدفع فرفعت الوزارة عليه دعوى ظل يعارض فيها والوزارة تقدم مستنداتها حتى مات الرجل، فانتقل حق الوزارة إلى الورثة، الذين بدورهم طعنوا في

مستندات الوزارة، واستمر الأمر حتى مات الورثة، ثم انتقل للأحفاد وغدا تصدر المحكمة حكمها في أمر الثمانية جنيهات التي صرفت الوزارة من أجلها أكثر من ألف جنيـه حتـى الآن. أليس هذا هو سوء التفاهم بأجلى معانيه. أي عبث! لا تلمني على هذا المزاج السوداوي هذه المرة. على أية حـال في إيطاليا تجري محاكمة لأنيتا إيكبرج الممثلة الجميلة ذات الصدر العالي؛ لأنها رقصت عارية في ملهى ليلى. لقد دعتها راقصة الملهى التركية التي كانت تخلع ملابسها قطعة قطعة أمام الرواد فقامت أيضا وفعلت الشيء نفسه فدخل البـوليس وتم توجيه تهمة الخروج على الآداب إليها وإلـى الراقصـة التركية. كان ذلك عام ١٩٥٨، والقضية مستمرة حتى الآن، ولاشك أن هذا يسعد قـراء الصـحف فـي إيطاليـا. فـي الإسكندرية يعرض أيضا فيلم جميل هو الـبعض يفضـلونها ساخنة، سأجد الفرصة لمشاهدته لينشلني من هذا المزاج. لقد وضعت بريجيت باردو مولودها الأول الشهر الماضـي ولا زالت الصحف تتحدث عن ذلك، لكن أعجبتني زيـارة يـول برينر لمعسكرات اللاجئين الفلسطينيين في لبنـان باعتبـاره سفيرا متجولا للأمم المتحدة، كذلك أعجبتني زيارة عبد الحليم

حافظ إلى ليمان طره وغناءه للمساجين. دعني أحاول التخفيف عنك وعن نفسي. يقولون إن هذا العام هو عام أفريقيا بسبب حركات الاستقلال. منذ ثمانين سنة كانت الصيحة تدفقوا إلى افريقيا، الآن فهي أخرجوا من أفريقيا. أدهشني أن حسني مورو قاتل أمه تبرع بعينيه لبنك العيون بعد أن يتم إعدامه بشرط عدم تركيبها لامرأة، طبعا. لكن خذ هذه الإحصائية المدهشة التي نشرتها الصحف عن الخضار الذي استهلكته الإسكندرية العام الماضي:

١٤ مليون أقة بطاطس و٤,٥ مليون أقة باذنجان و ٥,٢ مليون أقة كوسة ومليون أقة بامية و١,٦ مليون أقة ملوخية، و١,٣ مليون أقة فاصوليا و١,٤ مليون مليون أقة قلقاس، ومليون أقة بسلة و١,٤ مليون كرنبة، و١,٢ مليون قرنبيطة و٤,٥ مليون خرشوفة، و٣٣,٥ مليون أقة طماطم و٥,٢ مليون أقة خيار.........

الإحصائية طويلة لم تترك صنفا من الخضر إلا وذكرته، ولا أعرف معنى لنشرها ونحن على أبواب رمضان، هل هي تحذير من الإسراف في الخضر؟ وما معنى قولهم إن أهل الإسكندرية أكثر الناس أكلا للخضر؟ ما

معنى هذا الحسد الأحمق؟ طيب لماذا لا يتحدثون عن الأراضي الزراعية جنوب خط الرمل التي بدأت تتآكل ويغزوها الغرباء من شمال وجنوب مصر؟ إنها مراكز صغيرة جدا الآن لكنها ستكبر وستقضي على الخضرة وستصبح مناطق عشوائية نموذجية وأوكارا للإجرام، واللي يعيش ياما يشوف! لماذا لا يتحدثون عن عمليات تهريب النقد التي تتم على قدم وساق من قبل الأجانب الذين يستعدون لمغادرة البلاد، ولماذا لا يتحدثون عن الدعارة التي لاتزال تمارس علنا في الشوارع القريبة من الكورنيش؟ ولماذا لا يتحدثون عن مئات الأطفال الذين يتسولون في الطرقات أو يجمعون أعقاب السجائر؟

لا أريد أن أثقل عليك، أردت أن أغير مزاجي الاكتئابي بذكر بعض الطرائف فلم أفلح. يكفي هذا الآن. لعلك لو كنت بيننا هذه الليلة المباركة لكانت أفضل. إن شاء الله نراك في العيد في أحسن حال.

أخوك

سليمان

أخي الكبير خير الدين:

أهديك أجمل التحيات

أمس كانت الجوني سهرانة عندنا مع أمي ونـوال وحسنة. في رمضان يحلو السهر كما تعرف. قـرأت لهـن خطابك الأسبق. سامحني. ما عدا، طبعا، حديثك عن محمود القزعة وسيقان النساء! تأثرت الجوني وقالت إنها ستراسـلك في أسرع وقت، وإنه لا يؤخرها عن ذلك غير أنها لا تعرف كيف تكتب الرسائل، وإنها اشترت كتـاب أشـهر الرسـائل الغرامية كي تحل هذه المشكلة! كن في حزن شـديد بسـبب رحيل نادية سلام. زوجها أهلها بالعافية لقريـب لهـم فـي الصعيد. رأتها أمي قبل سفرها. أخبرتها نادية أنها حاولـت الانتحار أكثر من مرة وفشلت. لم تطاوعها نفسها على قتـل روحها. أمسكت صفيحة الدي.دي. تي ولم تستطع أن تشربه. سكبت على نفسها الجاز ولم تستطع إشعال عود الكبريـت. انتهت الليلة ببكاء جماعي من البنات وأمي أيضا!. نوال التي لم تعد تتكلم كثيرا كانت أكثرهن بكاء، وأخرجت من شـنطة يدها علبة سجائر سحبت منها سيجارة وأشعلتها ثـم راحـت تدخن كأحسن مدخن بين دهشة الجميع. قالت إنها منذ القبض عليها وهي تدخن السجائر وتشـرب القهـوة السـادة، وأن

الضابط الذي قبض عليها لا يريد أن ينساها، أرسل واستدعاها أكثر من مرة، وطلب منها أن تكتب تقارير عن زملائها من الممرضات والأطباء والمرضى أيضا إن أمكن، وأن هذه هي الطريقة الوحيدة المضمونة لدخولها إلى الإذاعة. نوال قالت أيضا إنها لم تعد قادرة على الغناء. ولم تعد تحبه، وصوتها صار خشنا لكن الضابط لا يرحمها ويهددها.

تقول إنها حتى الآن لا تنفذ رغباته، وإنها بالليل تغني للمرضى فيصفو صوتها ويصير كالبللور. نوال قالت فجأة "لازم أعمل أي حاجة " وبدت شاردة. خافت عليها أمي والجوني وحسنة وأنا أيضا شعرت بالخوف عليها. لكن لماذا أنقل لك هذه الصورة الصعبة؟. سميرة خرجت من حزنها على خطيبها وصارت تسهر عندنا رغم عدم حضورها أمس. تقول إن مدرسا زميلا للطفي أخيها سيتقدم لخطبتها، المشكلة أن لطفي وهو يجلس معه بالمقهى سقط من فوق المقعد فانكسرت فخذه مرة أخرى.

المخلص

كروان

حبيبي خير الدين:

ربنا معاك وقلبي معاك. لم يعجبني كتاب الخطابات الغرامية. كلامه حلو لكنه ليس كلامي. سامحني يا خير الدين إذا كان أسلوبي مش ولابد! أنا والله أحبك أكثر من عدد نجوم السماء، وأحب أسمع عبد الحليم حافظ وهو يغني علـى قـد الشوق اللي في عيوني يا جميل سلم، وأحب دائما أهديها إليك خصوصا لما يقول "دمعي شهودي جرح خدودي فـي ليـل سهادي" خذ بالك من صحتك يا خير الدين، الصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يدركه إلا المرضى. بعد الشر عنك يـا ح.ب.ي.ب.ي.

المخلصة

إلى الأبد

الجوني

حبيبتي الجوني...

لك من قلبي أرق الأمنيات وأحلى الهمسات..

إذا كان هناك شيء واحد حلو بقى من الإنجليز في مصر فهو اسمك الذي صار عنوانا على الجمال. أشتاق إليك بالليل والنهار، خطابك أعطاني قوة تهد جبـال. وجهـك لا

يفارق خيالي. أعمل وقتا إضافيا أتقاضى عنه ثلاث جنيهات شهريا. أوفر الآن ستة جنيهات كل شـهر بعـد مصـاريف السكن والمأكل والملبس، لذلك سيكون معـي خـلال عـام ونصف على الأكثر المائة جنيه التي التزمت بـدفعها مهـرا لك. بعد ذلك سيكون أمامنا عام آخر حتى نتزوج. ما رأيـك في فستان فرح ديبا التي تزوجها شاه إيـران آخـر العـام الماضي؟ فستان من محلات كريستيان ديور في باريس. يـا خسارة. قبل العدوان الثلاثي الغاشم كانت منتجات كريستيان ديور موجودة في مصر. السياسة ضيعت علينا فرصة شراء الفستان! ما رأيك في هذه النكتة.. والله أنت عندي أجمل من فرح ديبا، والفستان الذي ستعده لك أبلة نرجس أحسن مـن كريستيان ديور. ثم أسمعي الجورنال كتب إيه عـن فسـتان فرح ديبا:

" فستان مخيب للآمال الذي ارتدته فرح ديبـا فـي فرحها. لقد ظل الفستان الذي صممه كريستيان ديـور سـرا حتى يوم الزفاف فكان مفاجأة لكل بيوت الأزياء. لقد أعـاد موضة "الأمبير" التي انتهت من سنتين، وهو يشـبه قمـيص النوم، وعبارة عن فستان بسفرة مرصـعة بفصـوص مـن

اللولي والمجوهرات ينزل عنها جيب بكسر بسيطة، والجيب ليست واسعة وليست ضيقة، أما الديكولتيه فهو مدور وبدون أكمام يلبس فوقه بالطو بأكمام طويلة ومطرز يشبه "الليزوز" ينتهي بذيل طويل مرصع كصدر الفستان تماما" وأنا طبعـا مش فاهم يعني أيه "الأمبير" والليزوز، لكن ربما تعرفينه أنت أو أبلة نرجس. قالت الصحفية في النهاية إن الفسـتان جـاء مخيبا للآمال.. رغم أي شيء أريدك تقرئي هذه التفاصـيل لأبلة نرجس حتى تصنع في الوقت المناسب فستانا أجمل لك. المهم يا حبيبتي بمناسبة عبد الحليم حافظ أحب أهديكي أغنيته الجديدة " باحلم بيك"، أسمحي لي أغنيها لك رغـم صـوتي الخشن!!

المحب المخلص

الولهان

خير الدين خير الدين

خير

صديقي كروان:

أهديك كل سلامي

هل تعرف كيف كان الوقت الذي أمضيته بينكم في العيد الصغير؟ كان كأنه في الجنة. هي ثلاثة أيام فقط لكنها كانت أجمل ثلاثة أيام في عمري يا كروان. صحيح أني لم أرك غير دقائق ولا سليمان، ولا أحد غير الجوني، لكنك ستعذرني. هل سيعطيني الله فرصة مرة أخرى في قضاء ثلاثة أيام جديدة في هذه الجنة؟ يا ليت!.

لقد عدت فرحانا جدا ونشيطا جدا إلى حلوان. أخذت من الجوني طاقة كبيرة على الحياة.. هل تعرف إني ذهبت إلى نوال في المستشفى؟ فاجأتها في العيد فاندهشت جدا. حدثتها عن كلامك لي في خطابك الأخير وطلبت منها أن تتماسك وألا تخشى شيئا، قلت لها إنني أعيش في حلوان لكن الطريق سهل جدا بالمترو إلى باب اللوق، ثم من على الكورنيش يمكن أن أركب المترو إلى منشية البكري حيث يسكن الرئيس جمال عبد الناصر، والمشوار كله لا يستغرق أكثر من ساعة ونصف، وأستطيع أن أقدم إليه شكوى بالحاصل معها. قالت نوال إن عم حمزة سبق له وقدم شكوى

للرئيس حين قبضوا عليها وأنه لذلك أفرجوا عنها، وهـي لا تظن أن الرئيس متفرغ لها، كفاية عليه مشـاكل البلـد مـع الاستعمار. وقالت لي إنها قوية وستنتصـر. والحقيقـة يـا كروان أنني وجدتها كذلك. بل إنها هي التي أعطتني شيئا من القوة. قالت لي ألا أتحدث في هذا الموضوع مع أحد حتى لا يصيبني أذى، قلت لها أنا لا يهمني شـيء، العمـر واحـد والرب واحد. يا سلام يا كروان. لقد أحسست هذه المـرة أن ربنا خلقنا كلنا، سكان المساكن، من أم واحـدة وأب واحـد، وهذا سر الألفة والمحبة التي بيننا جميعا، بنـات وصـبيان. أقرأ الآن كتابا جميلا عنوانه "دع القلق وابدأ الحياة". سامحني سأغيب عنك برسائلي قليلاً حتى أعطيك فرصـة للمـذاكرة فالامتحانات على الأبواب. هل نسيت يا كروان؟

أخوك

خير الدين خير

الدين خير

اندفع العربي يبكي في حضن كاتينا بصوت مقهور. قالت في ألم:

- لا فائدة يا عربي. انتهى كل شيء.

حقا انتهى كل شيء وعليه أن يدرك ذلك. هذه هي الحقيقة التي عليه مواجهتها. غدا سترحل كاتينـا وسـتتركه وحيدا في الهواء. منذ بداية العام وهي تستعد للرحيل وهـو يكذب ما يرى بعينيه. الآن آل الأتيلييه إلى جورجيت، مـن الغد هي السيدة الأولى، من الغد سيترك الأتيلييـه. سـيتلقفه الفراغ لكن لن يبقى في مكان لم تعد فيه كاتينا.

كانت جورجيت تنتحب في ركن من الصالة، وهـو لا يصدق دموع جورجيت، أما أسمهان فقد سافرت بعد بداية العام ولم يتأثر بغيابها. سفر كاتينا هو الغياب الفاجع. جذبته كاتينا إلى صدرها وراحت تمشي بأصابعها في شعره بحنان وتتكلم:

- عارف عربي أنا زعلانة أكثر منك. أنا حاسـة أني شجرة يخلعونها من الأرض بالقوة، جذورها تنقطع وهي

ماسكة في الأرض لا تريد أن تتركها.. أنا حزني أكثر منـك عربي. أرجوك لا تبك أمامي. ثم أنت رجل عربي والرجال مثل الجبال لا يبكون. أنا واحدة ست كبيرة. أكثر من خمسين سنة عربي. من زمان أقول لك أنا خمسين سنة. الحقيقـة أن أنا دلوقت أكتر. شوف عربي. أنا جربت رجال كتير لكن لم أنس زوجي. ياناكيس عربي. ياناكيس كان عظيم لا يعوض. كان شيوعي عربي. أنت تعرف يعني إيـه شـيوعي طبعـا دلوقت. تعرف يعني إيه يساري عربي. يعني يكره ملك فـي كل مكان. ملك مصر ملك يونان ملك إنجليز. كـان يكـره الرأسمالية والاحتلال النازي. يكره الاستعمار. مات في جبال اليونان عربي. كان وطني كبيـر. تمـام زي جمـال عبـد الناصر. عارف رغم إن كتير من الأجانب يمشي من مصر لكن الحقيقة إن جمال هذا يحب بلادكم عربي. لازم حد يـدفع ثمن هذا الحب. نحن الأجانب ندفع الثمن.

غير مهم. نحن عندنا بلاد نسافر إليهـا. المشـكلة عربي أن هناك أجانب غير فاهمين، ومصريين يكرهون كل حاجة من الأجانب، حتى النظام حتى النظافة حتى الحريـة.

هذا غلط عربي. لذلك لازم تحصل مشاكل كتير في مصـر مع الدول الأجنبية.

المهم الآن عربي أن تحافظوا على بلـدكم. علـى إسكندرية الجميلة عربي. أنا أمشـي غيـري يمشـي لكـن إسكندرية لا تمشي. ثم إنه ممكن جدا أرجع حتى وأنا عجوزة كركوبة أزور إسكندرية وأمشي في الشوارع وأقابلك تـاني لكن لا نتكلم في الحب أو في الجواز. أنا وكل الأجانب غير زعلانين من إسكندرية. إسكندرية بلد تحب الأجانب من أول يوم. إسكندرية يعني أجانب عربي. لكـن المصـريين لازم يتمتعوا باسكندرية.

عارف عربي كيف بنى الإسكندر إسكندرية. فـتح محارة كبيرة طلعت منها إسكندرية. إسكندرية بلد مسـحور عربي. الأجانب حافظوا كتير على اللؤلؤة التي طلعت مـن المحارة. على إسكندرية يعني. المهم أنتم أيضـا تحـافظوا عليها. إياكم أن ترجعوا اللؤلؤة للمحارة وترموها في البحر!

لازم إسكندرية تفضل واسعة جميلة بيضاء نظيفـة. الإسكندرية الآن تبكي على أصدقائها الأجانب. أنـا أعـرف إسكندرية جيدا عربي. أنت مسكين عربي لا تعرفهـا. لـم

تجلس في كلوب محمد علي ولا في نادي سبورتنج ولا فـي أي كلوب للأجانب. إنت لم ترقص فلامنكو ولا سـامبا ولا رومبا ولا روك آند رول ولا شفت رقصة الكان كان عربي. أنت لا يجب يخاف لما كاتينا تمشي. تقدر تشـتغل أشـغال كتير. أنا عارفة إنك لا يمكن تنبسط مع جورجيت - رفعـت جورجيت إليها عينيها تعاتبها فقالت لها: معلهش جورجيـت أنا أعرف عربي كويس واستمرت تتحـدث إليـه - أنـت إسكندراني، يعني شجاع عربي لا يخاف. هيا قـم نشـرب ميتاكسا. هيا نسكر عربي. هذه آخر ليلة.

قام العربـي ثقـيلا وأحضـر زجاجـة البرانـدي والكئوس. قالت جورجيت إنها ستشـاركهما بكـأس واحـد. قامت كاتينا وأحضرت حقيبة صغيرة وأخرجـت مـا فيهـا وقالت.

- شايف عربي أنا واخدة إيـه مـن إسـكندرية. عملات، مئة جنيه، عشرين جنيه، عشرة جنيه، خمسة جنيه، جنيه، نص جنيه، ربع جنيه. بريزة. شلن. عملات معدنيـة كمان. نصف فرنك. قرش صاغ. قرش تعريفة، مليم أحمر. هذا جنيه السلطان حسين الفضي، شوف ثقيل قد إيه، وهـذا

جنيه الملك فؤاد، وهذا جنيه الملك فاروق، وهذا جنيه جمال عبد الناصر عليه صورة نسر، جنيه السلطان حسين كان يشتري دولاب، وجنيه الملك فؤاد أيضاً، جنيه الملك فاروق كان يشتري تايير، جنيه عبد الناصر يشتري بلوزة عربي. الدنيا تغيرت كتير. تعرف أنا سأترك كل ما في الشقة لجورجيت، وأنت لك خمسين جنيه.. خمسين جنيه كاتينا أحسن من خمسين جنيه راشيل عربي. لازم تبدأ بها حياتك. تعمل أي مشروع. أنا سوف آخذ من إسكندرية اللوحة هذه الملفوفة في ورق، لوحة غير أصلية طبعا لفنان كبير إسكندراني اسمه محمود سعيد، لوحة فيها بنات بحري. اسمها بنات بحري. لوحة تفكرك طول العمر باسكندرية، أيضا اشتريت صورة كبيرة لميدان المنشية وتمثال محمد علي في وسط الميدان وطبعا صوري التي تصورتها في إسكندرية طول عمري مع ياناكيس ومع أصحابي ومعك أنت أيضا، لكن أهم شيء أخذته عربي هو هذه.

وأخرجت من الحقيبة زجاجة صغيرة بها رمل وقالت وهي تنتحب.

- زجاجة رمل من شاطئ ستانلي سأحتفظ بها طول عمري عربي. هنا انتحب الجميع، وارتفعت حرارة أجسادهم ولما كاد العربي ينفجر من الحزن وقف وفي يده كأس البراندي وهتف وهو يغمغم.

- الليلة آخر ليلة لكاتينا الجميلة في الإسكندرية عروس البحر المتوسط. الليلة لازم تكون أحلى ليلة، رغم إن إسكندرية كلها زعلانة علشان كاتينا. كرموز وبحري والسيالة وخط الرمل كله والمنشية وحارة اليهود وسوق الخيط والميدان. إسكندرية الماء والهواء. إسكندرية محمود الملاح وسليمان وفلفل مطحون والبنت الحلوة حكمت والتي هي أحلى وأحلى الجوني وحتى حسنة أختي. إسكندرية محمد علي باشا وإسماعيل باشا والملك فاروق باشا وجمال عبد الناصر باشا!

وأمسك بزجاجة الرمل ورفعها على أنفه يشمها ويهتف ويغمغم.

- إسكندرية ماريا وترابها زعفران. إسكندرية كاتينا الجميلة التي لبست أجمل النسوان والبنات. أعظم خياطة، ملكة العطارين وأميرة السمان والميتاكسا والشقاوة.

الليلة لازم تكون أحلى ليلة. يعني ننزل كلنـا ناكـل سـمان ونطلع على البحر نركب حناطير لحـد الصـبح، وياريـت نستحم في البحر. نعوم. نعوم لحد اليونان. أي والله اليونان..

وسكت الجميع. جلسوا في صمت عجيب يشـربون ويأكلون.

- حط لي أسطوانة الآهات لأم كلثوم عربي.

نهض العربي على مهل ووضع الأسـطوانة علـى البيك أب.

- دلوقتي تمشي، أنت وجورجيت.
- من يوصلك المطار كاتينا بكره الصبح؟
- أنا مسافرة مع ثلاثين واحد وواحدة من الجاليـة اليونانية، ثم أننا سنسافر بالمركب.
- طيب أسهر آخر ليلة معك كاتينا.
- لا حبيبي عربي. أرجـوك.أنـا عـايزه أكـون لوحدي.
- لماذا كاتينا؟
- لأني عايزة أقعد أبكي لوحـدي طـول الليـل. أرجوك عربي..

لم يستطع حتى أن يكمل الليلة فـي بـار اللؤلـؤة الزرقاء، دمر عشرين جنيها من الخمسين في أقل من ساعة. فتح ثلاث زجاجات ويسكي لثلاث نساء ونهض يبصق على كل شيء. منذ قليل أخذ كاتينا في حضنه لآخر مرة. ضـمها بشدة كأنه يريد إخفاءها في صدره. قبـل رأسـها ووجهـا وعينيها وأنفها ويديها، وهي أيضا فعلت ذلك، ثم خرج جاريا تاركا جورجيت تودع كاتينا على مهلها.

لن يرى جورجيت مرة أخرى ولا يريد. لن يمر من هنا.

أخذ طريقه إلى محطة الرمل، والتقطه التاكسي إلى اللؤلؤة الزرقا. لم يستطع البقاء. كان يشرب الويسـكي مـن الزجاجة ويسمع صوت زخات المطر الخفيفة في الخارج ولا يغيب عن باله صوت كاتينا جالسة وحدها في البيت تشـرب الميتاكسا وتسمع آهات أم كلثوم وتبكي، كاتينا التي لا علاقة لها بالتمصير ولا تخشى التأميم الذي يتحدث عنه الأجانـب كخطوة قادمة بعد عام أو اثنين علـى الأكثـر، كاتينـا الآن اكتشفت إنها منذ مات ياناكيس كان عليها أن ترحل، أو على الأكثر منذ سافرت فيدرا مع زوجها إلى أثينا واستقرا هناك..

لا تزال هناك يونانيات ويونانيون في الإسكندرية، فلماذا دون الجميع وجد عملاً عند كاتينا التي كانت أسرع من الجميع في الرحيل؟.. كيف حقا بدأ العمل عند كاتينا؟. هذا تاريخ قديم ما فائدة أن يتذكره؟. لقد كانت سنوات العمل عندها أجمل سنين عمره على أية حال. ماذا يمكن أن يعمل الآن؟ لا شـيء. لا شيء. لا أحد أيضا!

أجل الإسكندرية الآن نائمة، اللمبـات واهنـة فـي الطرقات. لا أحد يمشي إلا هو والريح الباردة، وهـو لـيس صاحب المدينة. لا شيء ولا أحد. عليه أن يفكر كيف يجـد عملا جديدا. عليه أيضا أن ينفق الثلاثين جنيها الباقيـة فـي البارات. كما جاءت تضيع. حقا هي أهم من نقود راشـيل، لكن لم يكن من المناسب أن يترك حياته تمضي علـى هـذا الشكل. فليبحث عن عمل دائم، عمل مصري، مع مصريين، ووسط مصريين. ولابد أنه سينجح في ذلك.

لكن العربي أنفق عدة أسابيع جالسا بجانـب دكانـة العنيبسي مع تاجر البهار ومحمود القزعة وسليمان في بعض الأحيان والآخرين من الصيع الذين لا يعرف مصدرهم أحد! كان حزينا لا يكلم أحدا، يبدو شاردا في أكثر الوقـت حتـى

جلس معهم لطفي السائح لعدة دقائق على غير عادته وهو في طريقه إلى البيت. كانت ذراعه اليسرى في الجبس هذه المرة وسأل العربي.

- أراك دائما هنا يا عربي على غير العادة.
- كاتينا سافرت، تركت مصر.

قال العربي ذلك بصوت خفيض دون أن ينظر إلى لطفي الذي قال:

- الناس كلها تسافر هذه الأيام. أنا لا أعرف مـا هذا الهلع الذي أصاب الأجانب؟

ارتفع صوت لطفي فدخل محمـود القزعـة فـي الحديث.

- ألا تعرف يا سي لطفي؟ السياسة يا حبيبي. بكرة نشوف ماذا سيفعل أولاد البلد بالبلد، سيخربون كل شيء..

قال تاجر البهار:

- ما هذا يا معلم محمود؟ هل أنت ضد السياسـة الاقتصادية للبلد؟
- لا ياحبيبي أنا لست ضد أي شيء، أنا فقط أسأل نفسي لما بلد مليانة ناس عواطلية مثلك كيف تتقدم؟

ضحك الجميع. لم يزد العربي عن ابتسـامة. قـال سليمان:

- الهلع يا لطفي مـن الإشـاعات عـن التـأميم. الأجنبي الآن لا يعرف ماذا سيحدث غدا لمصنعه أو ورشته.

قال لطفي.

- أنا على أية حال تارك البلد أيضـا لكـن إلـى الصومال.

- نعم؟

تساءل سليمان، فقال لطفي:

- إعارة للتدريس في الصومال العام القادم.

قال تاجر البهار:

- بلاش الصومال يا سـي لطفـي. لا مؤاخـذة الصومال حر، والحر ضار لصحتك. أجل ممكن جدا عظامك كلها تفرقع مرة واحدة..

سكتوا قليلا يتأملون تـاجر البهـار ثـم انطلقـوا يضحكون، وضحك العربي معهم وفاجأهم محمـود القزعـة قائلا:

- إسمع يا سي عربي أنا عندي شغل لـك، لـيس عندي أنا، لكن ما رأيك أن تذهب غدا إلى المحافظة وتقـدم طلب تشتغل في البادية، سمعت أنهم يطلبون عمالا الآن.

قال تاجر البهار محتجا.

- ماذا يفعل في البادية يا معلم محمـود؟ يشـتغل كناس؟ العربي يشتغل كناس!؟

تضايق محمود القزعة ونفخ السيجارة التي في فمه على الأرض وقال:

- الفرجة على النسوان أحسن وأفيد مـن الكـلام معكم.

نهض العربي شاعرا بالمهانة. احمر وجهه ومشـي حزينا. ظل يمشي ناحية كوبري كرموز لا يشعر بأي شيء حوله. أخيرا يا عربي أدركت أنك ضيعت حياتك في عمل لا معنى له.. حتى لو كنت بدأت كناسا منذ عشر سنوات كنـت الآن مراقبا كبيرا. على أول مقهى قابله جلس. شرب شـايا ودخن سيجارة ونهض يقول لنفسه لا بأس.

لدهشته في اليوم التالي وجد عملا في البلدية، عاملا في إدارة التخطيط! ثلاثة أيام فقط قضاها في إعداد الأوراق المطلوبة ثم تسلم العمل.

- هل تعرف قيادة الموتوسيكل؟.

سأله الملاحظ

- أجل..

كان يفعل ذلك في بعض الأحيان في أول سني شبابه.

- ستأخذ هذه اللافتات الجديدة وتقوم بوضعها بدلا من القديمة. نحن بصدد تغيير معظم أسماء شوارع مدينة إسكندرية. سنعطيك خارطة بالشوارع وكشفًا بأسمائها القديمة والجديدة.

كان للموتوسييكل جزء ملحق، صندوق على جانبه مثل موتوسيكلات عمال البريد. وضع فيه عشرات اللافتات الجديدة وأخذ الخارطة واتجه إلى الشوارع المطلوب تغييرها في المدينة القديمة. كرموز وراغب والعطارين والعمري واللبان.. راح يؤدي عمله بهمة ونشاط وسرعة فائقة. نريد

تغيير شوارع المدينة كلها في أسرع وقت، هناك مكافأة على السرعة. هكذا قال له الملاحظ صباح أول يوم عمل.

شارع هيلين وشارع أثينا وشارع مينرفا وشارع فينوس تحل محلها لافتات تحمل أسماء شارع الياسمين وشارع الفل وشارع الزنبق. شارع كفافيس وشارع بابا دوبلو وشارع هيرودوت يحل محلها شارع عمرو بن العاص وشارع أبو عبيدة بن الجراح وشارع سعد بن أبي وقاص. شارع أجاممنون وشارع أخيل وشارع رومولوس وشارع فيلوكتيتس يحل محلها شارع خالد بن الوليد وشارع المثنى بن حارثة الشيباني وشارع موسى بن نصير وشارع طارق بن زياد. شارع شيفاليه دور فيتي يحل محله شارع الأحرار، شارع الموسيات وشارع ألكترا يحل محلهما شارع الفنون وشارع الرشاقة. شارع.. شارع.. شارع.. شوارع كثيرة راح يغيرها العربي كل يوم.. شرق وغرب ووسط المدينة. كان يعرف أن هناك عددا آخر من زملائه يفعلون ذلك في كل مكان.

الإسكندرية مدينة كبيرة رغم أنه يراها دائما عكس ذلك، ومهمة تغيير أسماء الشوارع تبدو لا تنتهي.. كثير من

هذه الشوارع التي يغير العربي أسماءها سمع بها تتردد فـي حوارات كاتينا مع أصدقائها مـن اليونـانيين والإيطـاليين. كفافيس اسم شاعر يوناني كبير كان يعيش بالإسكندرية ومات منذ عشرين سنة. شارع هيلين هو شارع البنت الجميلة التي قامت من أجلها الحرب. لقد شاهد الفيلم المثيـر عـن هـذه الحرب ومعه كاتينا ذاتها. شارع جوبيتر شارع باسـم إلـه، أصبح اسمه شارع بطرس الآن. أسماء شوارع كثيرة سمعها من قبل في أتيليه كاتينا كان يتصور أن أصـحابها جميعـا أحياء. اليوم فقط أدرك إنها أسماء لأبطال أموات، اليوم تأكد له موتهم إلى الأبد! لكن العربي كان كلما غير لافتة أحـس بالضوء ينكسر في الشارع ويسري فيه شيء من الغبش. بل يصبح الشارع أكثر ضيقا من ذي قبل وأقل هواء. كل يـوم ينتهي العربي من العمل وهو يشعر بالاختناق. تصير شوارع المدينة كلها ضيقة باردة رغم أنه كل صباح يسمع الملاحـظ يقول له وهو يسلمه اللافتات الجديدة، هـذه أسـماء أهلـك وبلادك، الحقيقة أنه لا يكره الأسماء الجديدة، ولا حتى يحب الأسماء القديمة، إنه فقط يحب كاتينا ولا يبدو إنه سينسـاها يوما ما. العربي اليوم، ومنذ الصباح الباكر يتلكأ في العمل،

قرر بالفعل أن يطلب من الملاحظ أعفاءه من هذا العمل، وتحويله إلى عمل آخر، حتى لو صار كناسا، هذه اللافتة الأخيرة للشارع الأخير، شارع عنتر بن شداد التي ستحل محل لافتة شارع هرقليز.. هرقليز!؟ إنه يعرفه. شاهد الفيلم في سينما الهمبرا سمع اسمه كثيرا يتردد في بيت كاتينا بين الرجال في الحفلات، لعله أكثر الأسماء التي سمعها. لا يريد أن يغير هذه اللافتة. ماذا يحدث لو تركها كما هي. لا يظن إن أحدا يراقبه بدقة. المراقب يدور بسرعة على عدد من الشوارع يراها كعينات على الإنجاز، لكنه لا يدور على كل الشوارع، وقد لا يمر أبدا بشارع هرقليز هذا، ثم إن هرقليز كان بطلاً لا يقل عن عنترة بن شداد، فما معنى أن ينزع اسم بطل ليضع محله اسم بطل آخر؟. لكنه لا يستطيع حقيقة أن يترك اللافتة. قد يكون سيئ الحظ فلا يأتي المراقب إلا إلى هذا الشارع. لابد من حيلة. لابد من تمويه.

اتجه إلى محل دهان وجده قريبا واشترى دهانا أبيض بلون اسم الشارع المكتوب على اللافتة، ودهانا أزرق بلون أرضية اللافتة، واشترى فرشاة صغيرة وطمس حرف الزاي الأخير في اسم هرقليز باللون الأزرق ثم الحق بالياء

حرف الشين فصار اسم الشارع "شارع هرقليش" وقال لنفسه هكذا صار الشارع عربيا!

ترك اللافتة مكانها وأخذ طريقه إلى البيـت فـوق الموتوسيكل. كان الطريق غائما أمام عينيه، للحظة فكـر أن النهار قد مضى بسرعة، وليل الشتاء سـيعود يهجـم علـى المدينة، لكنه أدرك أن دموعا تترقرق في عينيه..

( ١٣ )

أدمنت نوال تدخين السجائر، وأدمنت الاستماع إلى الإذاعات الأجنبية. كلما وجدت نفسها فـي البيـت أخـذت الراديو جوارها وراحت تبحث عن الإذاعات التـي تشـوش عليها الحكومة المصرية، صوت إسرائيل، لندن صوت مصر الحرة، التي لا تعرف من أي البلاد تأتي. تفشل في التقـاط صوت إسرائيل إلا قليلا، ولدقائق، تنجح في التقـاط لنـدن كثيرا، وصوت مصر الحرة بعض الأوقات، ونوال لم تستطع النوم أمس رغم أن لديها اليوم اختبار أصـوات بالإذاعـة، وتحتاج إلى راحة تامة وهدوء أعصاب، لم تكن قلقـة مـن الامتحان، لكنها سمعت إذاعـة لنـدن تعلـن أن السـلطات

المصرية الديكتاتورية قد قتلت عددا من اليساريين المحبوسين في سجون مصر من جراء التعذيب الوحشي، وإنها تتكتم أخبار هذا القتل، لكنها لن تستطيع أبدا أن تخفي نبأ مقتل الشاعر الشاب المناضل عصمت مفتاح، فصوت الشاعر سيصحو ويعلو في الفضاء في كل الدنيا، وأبدا فصوت الشاعر لن يموت. وراح صوت قوي يبث قصيدة المرأة الثورة..

إن ديلاكروا الذي انتهى للتو
من رسم الحرية وهي تقود الشعب
قد خرج يجري في الحدائق.
فرأى المرأة التي انتهت لتوها من صنع الثورة
فبكى بين يديها أن تنتظر.
فالحرية الحقة لم يرسمها بعد.

ازداد التشويش فلم تعد تسمع، ولم تعد مكانها، راحت تمشي في الحجرة غير مصدقة، انفتح الطريق من عينيها لدموع حرى وبكاء مكتوم. ستذهب إذن للإذاعة غداً، انطلاق صوتها هو الذي سيعطيها القوة على المقاومة رغم أنها تعرف أن دعوتها للإذاعة لن تزيد عن فخ منصوب. لقد

دق جرس التليفون في حجرة الممرضات بالمستشـفى منـذ ثلاثة أيام. كان هناك شخص على الطرف الآخر يطلبها.

- لكن يا افندم أنا لم أتقدم بطلـب للإذاعـة هـذه الأيام.

- ليس مهما أن تقدميه بنفسك، شخص يقدرك فعل ذلك، هل السبت القادم موعد مناسب للاختبار؟.

- مناسب جدا. إنه يوم أجازتي؟

انتهت المكالمة ولم تفكر نوال كثيرا، أدركت علـى الفور أن الضابط السياسي الكبير هو الذي وراء هذه الدعوة. أسلوب آخر جديد بعد أن رفضت تماما كتابة أي تقرير عـن أي أحد. رشوة من الصعب أن ترفضها. ستذهب، وسينطلق صوتها من الإذاعة، ولن تكتب تقريرا عن أحد. ستنتصر إذا سمع الناس صوتها. هذا الضوء الواهن للفجر يعطيها القوة، جافاها النوم ثم طردته بعد أن سمعت نبـأ مقتـل عصـمت مفتاح، الشاعر النحيل الوجه الذي كان يشبه المسيح، ومقاطع من القصيدة تعود إلى ذاكرتها بقوة وترددها في صمت..لكن النوم غلبها في النهاية. نامت لساعة أيقظتهـا بعـدها أمهـا

وأبوها. لا يعرفان أنها لم تنم معظم الليل. يريدانها أن تستعد للإذاعة أحسن استعداد.

في الساعة العاشرة كانت أمام باب محطـة إذاعـة الاسكندرية في باكوس.

كان الواقف على الباب في انتظارها. أخذها علـى الحجرة صغيرة مبطنة بالفلين الرمادي في وسطها منضـدة صغيرة يتوسطها ميكروفون.

هذه حجرة اختبار الأصوات يا نوال. يبدو أن الأمر حقيقي.

جلست على مقعد من المقاعد الثلاثة حول المنضدة. فتح الباب الثقيل ودخل منه رجل مهيـب الطلعـة والثيـاب وسيدة في حوالي الخمسين يبدو عليها التعب.

- أهلا آنسة نوال، أنا عبد الفتـاح سـليم مـدير البرامج ومعي ماما لطيفة كبيرة المذيعين.

كانت نوال قد وقفت مرتبكة. أشار إليها بـالجلوس. جلست لكن ازداد ارتباكها. ما هذه الفرصة المفاجئة. إنها لم تتدرب منذ وقت طويل، ولابد أن التدخين ترك أثره السـيئ على حنجرتها. هي إذن زيارة فشنك!

- هل تغني شيئا لأم كلثوم؟
- يا ريت أبدأ بسيد درويش.

تطلع مدير البرامج إلى كبيـرة المـذيعين رافعـا حاجبيه في دهشة، ونوال بدورها لم تعرف لماذا قالت ذلـك. تذكرت الدكتور أحمد منذ قليل، بل تذكرته طول الليل بعـد سماع نبأ مقتل عصمت مفتاح.

- وهو كذلك. تفضلي.

بدأت نوال بيا عشاق النبي صلوا على جماله، ثـم الحلوة دي قامت تعجن في البدرية، ثم أنا هويت وانتهيـت، وبدا عليها شيء من التعب تساءلت..

- هل يكفي ذلك؟

أجاب الرجل الذي لمس بالفعل جمال صوتها رغـم مظاهر التعب.

- لا يابنتي، نحب أن نسمعك أكثر.

بدت الطيبة في نبرات صـوته، أحسـت نـوال أن صوتها قد سلك وزالت عنها الرهبة والتعـب. غنـت لعبـد الوهاب" أخي جاوز الظالمون المدى" والرجـل فـي غايـة الدهشة، فوجئت بالسيدة كبيرة المذيعين تخرج من حقيبة يدها

قطعة من السكر النبات تقدمها إليها، فوقفت نوال وغنت لأم كلثوم وتسلطنت:

أنا في انتظارك خليت

ناري في ضلوعي وحطيت

إيدي على خدي وعديت

بالثانية غيابك ولاجيت

ياريت يا ريت يا ريت يا ريت.

يا ريتني عمري ما حبيت.

بكت وابكت المرأة والرجل قـاوم الشـجن وحـين انتهت قبلتها المرأة بينما بدا الغم على وجه الرجل الذي قال:

- يكفي هذا اليوم.
- هل أصلح للإذاعة.

تساءلت نوال في قلق.

- سأخبرك بكل شيء في حينه.

أمام باب الإذاعة كان النهار مضيئا أكثر من كـل يوم. أخذت طريقها في الشارع الخالي  في اتجـاه طريـق

الحرية، التي قررت أن تعبره إلى الكورنيش. تريد أن تقـف قليلا على شاطئ البحر. تريد أن تتنشق هواء الدنيا كلها.

كانت تشعر بالقوة والزهو والفخـر رغـم أن مـا سمعته من الرجل قد يشي بغير ذلك. إنها على يقـين مـن وصول صوتها للناس.

وبدأت مقاطع من قصيدة عصمت مفتاح تقفز إلـى ذاكرتها وهي تنظر إلى الموج القوي.

هنا. هنا في الإسكندرية.

التي ينزل عليها المطر يغسلها

لترى السماء وجهها في الأرض

أي مدينتي العبقرية

مدينة النزق والجنون والاستشهاد

كيف دخلتك الخيول العجوز

محملة بكل هذا الغباء والتراب

كيف فتحت أبوابك للبرابرة

وتبعثرت فيك النساء

هبينا مدينتي القدرة على الثورة

أطلقي مدينتي أسر المرأة الذكية

دعيها تصنع الثورات
وتشوي بصلا على الفحم
وتوزع الخبز على جنود النهار..

ظلت نوال لعدة أيام تطير كفراشـة مليئـة بـالقوة والرشاقة والتفاؤل. للحظة تقفز إلى وعيها صورة عصـمت مفتاح يصرخ تحت الضرب بالشوم والكرابيج، وقـد ترفـع يدها أمام عينيها حتى لا ترى المشهد، لكنها سرعان ما تعود إلى حالتها العجيبة هذه من القوة والأمل.

للحظة أيضا ترى الدكتور أحمد جالسا حزينا فـي ركن من السجن، تكاد تقفز من عينها دمعة، وسـرعان مـا تعود إلى تفاؤلها. سينطلق صوتها من الإذاعة، وسيملأ الأثير في كل البلاد، وستغني في كل المدن المصرية مدينـة بعـد مدينة ويخرج لها الشعب في كل مكان يصفق طربا لأغانيها. إنها المرأة التي ستصنع الثورة، التي ستوزع الخبـز علـى جنود النهار. ولقد كان سلوكها في المستشفى مدهشا للجميع. تساءلوا عن سر السعادة التي انسكبت فـي روحهـا بهـذه السرعة وإقلاعها عن التدخين وارتفـاع ضـحكاتها طـول الوردية وتشجيعها للمرضى وغنائها لهـم فـي أي وقـت،

والنكت العجيبة التي صارت ترويها أيضا، واحد أعور دخل السينما اشترى كحكاية أكلها للي جنبه، واحد صعيدي اتعلم انجليزي ودخل السينما سمع بياع البوفيه في الاستراحة ماشي بين الكراسي ينادي شيبسي شيبسي قاله تعالى هنا يا بتاع المراكب! واحد أطرش قابل واحد أطرش سأله أنت رايح فين قال له رايح البيت قال له ياه أنا كنت فاكرك رايح البيت، واحد دخل السيما ظهرت صورة جمال عبد الناصر على الشاشة في فيلم تسجيلي السينما كلها صقفت إلا هو، قام اللي جانبه قال له صقف ليمسكوك، السينما كلها مباحث. ها ها ها ..

ولم يفهم أحد هذا السلوك الجديد من التحرر والانطلاق لنوال حتى إن بعض زميلاتها قلن إن مخها فيما يبدو ضرب!.

عشرة أيام على الأكثر وبدأت نوال تعود إلى هدوئها القديم. عادت إلى التدخين والصمت، في يوم أجازتها توقفت سيارة ملاكي فيات في شارع قنال المحمودية أمام المساكن ونزل منها عبد الفتاح سليم الرجل المهيب، مدير البرامج بإذاعة الإسكندرية، فوجد نفسه محاطا بعشرات من

الأطفال الحفاة شبه العراة يتفرجون عليه كما كـان يتفـرج سكان الليليبوت على جاليفر حين رأوه لأول مرة.

كانوا يضحكون حوله ولا يعرف السبب فاضطر أن يتبسم إليهم. الصدفة جعلت سليمان خارجا من المساكن فرآه مرتبكا. أبعد عنه الأطفال وعرف إنه يريد الآنسة نوال حمزة فصحبه إلى بيتها. تردد الرجل قليلا لكن سليمان قال:

- لا تخف السيارة في أمان.

كان الرجل لا يشعر بالأمان على نفسه هـو لكنـه مشى خلف سليمان الذي دخل به إلى زقاق معتم ضيق بـين العشش وتوقف أمام بيت نوال ودق الباب.

- أستاذ عبد الفتاح!

كانت نوال هي التي فتحت الباب. أدهشـها مـرأى مدير البرامج وارتبكت. كانت ترتدي جلبابا منزليا بسـيطا، لكن لحسن الحظ أنها كانت قد أخذت للتو حماما لذلك بـدت يانعة نشيطة. صحبت الرجل إلى الحجرة الداخلية واعتـذر سليمان عن الدخول لكن أم نوال صممت على دخوله فحمزة غير موجود ولابد من رجل يجلس مع هذا الغريب.

جلس عبد الفتاح سليم على طرف الكنبة مثل طفـل مطيع بينما ارتبكت نوال من رقة الحال. فوجئت به يقول:

- أنا أتذكر الآن حياتي. كان أبي مجرد مـزارع بسيط في وسية الخواجة إيفـانجيلوس بمحافظـة الغربيـة. وبالمناسبة يا نوال كل العظماء بدءوا من الصفر. عبد الحلـيم حافظ تربى في ملجأ، وأم كلثوم كانت تطـوف تغنـي فـي الأفراح والموالد في طفولتها مع أبيها وأخيها.

تشجعت نوال وقال سليمان:

- ومحمد عبد الوهاب بدأ حياته مطربا غلبانا فـي ملاهي روض الفرج حتى أخذه أمير الشعراء أحمد شـوقي فتغيرت حالته.

تأمله الرجل سعيدا بمعلوماته وقالت نوال:

- الأستاذ سليمان يعتبر كأخي تماما، وهو أديـب ومثقف كبير..

- هذا واضح.

قال الرجل وسكت. كانت الأم قد أقبلـت بصـينية الشاي الذي رفضه الرجـل تمامـا وبطريقـة بـدت فجـأة استفزازية مما جعل نوال تشير إلى أمها أن تعود بالشاي لكن

سليمان الذي فكر أن الرجل قد يكون خائفا من شرب الشاي في مكان فقير كهذا مـد يـده وأمسـك بكـوب راح يتلـذذ بالاحتساء منها مما جعل عبد الفتاح سليم يبتسم مخففا من أثر الموقف كله ثم بدأ يتكلم..

- نوال يا بنتي لقد جئت هنا لأنـي مـؤمن جـدا بموهبتك..

تهللت أسارير نوال وسليمان معا. كانـت الأم قـد خرجت إلى الصالة وجلست وحدها.

- أنا لم أسمع مثل صوتك من قبل وأرى أنك لابد أن تتركي الإسكندرية.

- أتركها إلى أين؟

تساءلت نوال بصوت مختنق.

- إلى القاهرة. القاهرة هي مكانك وهي التي تليق بصوتك. تحدثت مع أحد زملائي هناك وسوف يسـهل لـك الطريق.

اندفع سليمان في الحديث.

- أنا رأيي من رأي الأستاذ، الإسـكندرية مدينـة منسية. القاهرة هي المجد الحقيقي لأي كاتب أو فنان.

قالت نوال:

- انتظر يا سليمان، المسألة ليست هكذا بالضـبط. أستاذ عبد الفتاح يخفى سرا، أرجوك صارحني، أنا أعـرف من يطاردني..

قال الرجل:

- يا بنتي إسمعي كلام الأستاذ سليمان وهو مثقف كما تقولين، إذاعة اسكندرية إذاعة محلية لكن القاهرة شـيء آخر.

تأملته نوال للحظات ثم قالت:

- هل ترى أن الذي يطاردني هنا لـن يطـاردني هناك؟

بدا سليمان مندهشا ومرتبكا من هذا الكـلام عـن المطاردة في الغناء.

وبدا أن الرجل مشغول الفكر للحظات. مـا الـذي جعله حقا يأتي إلى هنا؟ هذا الحماس للحق الذي لا يسـتطيع أن يتخلص منه. كيف حقا فاتـه أن الـذي يطاردهـا هنـا سيطاردها هناك. قال بصوت هادئ:

- لقد حاولت إنقاذك يا ابنتـي. الاختبـار الـذي أجريناه لك كان بأوامر من جهة أمنية الغرض منه وضـعك على حافة السكين. هل تعرفين معنى ذلك؟ ترين المجد كـم هو قريب ثم لا يعطيك أحد فرصة الوصول إليه. لقد وافقت في البداية كعمل روتيني. لم أتوقع حلاوة صوتك. قلت لنفسي ماذا يحدث لو جاءت واحدة هاوية غنت ومشت؟ نرى مثـل ذلك كل يوم، لكن صوتك أشعرني بالذنب. صوتك هدية من السماء ولا يجب أبدا حبسه. لقد أخبرت مسئول الأمن الكبير بأن صوتك يستحق أن يكون هدية لشعب مصر فنظر إلـي باستخفاف. قال لي أنسى الموضوع. لكني يا ابنتي لا أستطيع فدعيني أساعدك.

خيم طائر الصمت على الحجرة. كانت الأم تسـمع في الصالة فيما يبدو فارتفع صوت بكائها ليصـل خفيضـا إليهم. قال سليمان في غيظ مكتوم.

- وهل البلد سابت إلى هذه الدرجة؟ أنا أستطيع أن أكتب للصحف عن هذا الظلم.

- يا أستاذ سليمان، دعنا ننقذ الموقف بهـدوء. إذا تسرب صوت نوال من الإذاعة لن يستطيع أحد أن يتعرض

لها في شيء -  وأخرج كارتا من جيبه - هذا تليفوني يمكن أن تتصلي بي حين تقررين..

قام وصافحها. كانت صامتة تفكر في هذا الرجـل الشجاع.

أمسكت بيده لحظات طويلة ثم قالت.

- أشكرك جدا يا أستاذ عبد الفتاح، أشكرك من كل قلبي، يكفيني موقفك النبيل.

خرج الرجل مسرعا لا يستطيع سليمان أن يلحـق به. ما كاد يخرج من باب المساكن المعتمة على شارع قنال المحمودية الباهر الضوء وإلى الفضاء الواسع الأبيض أمامه حتى وقف في حالة من الذهول.

- ما هذا؟

هتف غير مصدق ما يرى. كان سليمان الذي لحق به الآن يقف جواره مغتاظا غير مصدق.

- يا أولاد الكلب.

هتف سليمان بينما كـان الصـبية الصـغار جـدا والأطفال يقفون على الناحية الأخرى من الشارع ظهـورهم إلى الترعة ووجوههم إلى بوابة المسـاكن يضـحكون بـلا

توقف. لقد أفرغوا العجلات الأربع لسيارة عبد الفتاح سـليم من الهواء.

بعد لحظات لم يتمالك سليمان نفسه مـن الابتسـام وقال:

- سأساعدك يا أستاذ، سأنقل العجلات واحدة بعـد أخرى على عربة كارو وأملأها لك بـالهواء فـي كرمـوز وأعود، لكنك ستضطر أن تمضي اليوم بيننا. ستزيدنا شـرفا على أية حال..

كان الرجل في حالة يأس بالغ، بـل بـدأ الخـوف يتسرب إلى قلبه، وكاد يفقد السيطرة على أعصـابه. فـي الحقيقة لم يكن يريد أن يستمع إلى أحد.

( ١٤ )

أخي خير الدين:

تحياتي القلبية.. وبعد،

أسعدني خطابك الجميل الذي كتبته من قلبك تهنئني بالنجاح. تهنئتك لي أفضل من النجاح ذاته. للأسف لم أحصل

على غير خمسين بالمائة من درجة النجاح، وهذا يعني أنني لن ألتحق بالجامعة كما تمنيت لي، وكما كنت أتمنى أنا في الحقيقة.

لكن لا بأس. المهم أنني نجحت. الأدب والفلسفة لا يحتاجان إلى شهادة من الجامعة أو غيرها. إن ما حدث لي في العامين السابقين وهذا العام يؤكد أنه كانت هناك مؤامرة ضدي، مرة يتم تسريب الامتحانات وفي الموعد الجديد للامتحان تصيبني الحمى، وفي المرة الثانية يصيبني عمى مؤقت لعين، وهذا العام تم تسريب امتحانات الرياضة كما تعلم، وكدت أيأس ولا أدخل الامتحان في الموعد الجديد، لكنني صممت على مواجهة المؤامرة اللعينة. بل لقد كدت من البداية لا أدخل الامتحان بعد أن مات بوريس باسترناك في آخر مايو الماضي. لقد مات قبل الامتحانات بأيام قليلة، وكان حزني عليه شديدا رغم أني لم أقرأ له شيئا، ولا حتى روايته التي فازت بجائزة نوبل دكتور جيفاجو. إنها لم تترجم ولم أعثر على نسخة بالإنجليزية لها في مصر. يخيل إلي أن الدولة لا تسمح بدخولها إرضاء للاتحاد السوفييتي فالرواية كما قرأت عنها تسيء إلى الشيوعية. هل رأيت أو قرأت

حديث الصحف عن الاستقبالات الكبيرة للرئيس عبد الناصر في اليونان. اليونانيون شعب طيب، رغم أنهم يغادرون بلادنا يوما بعد يوم فهم يحبون بلادنا جدا، ويحبـون الإسـكندرية أكثر، بل يعتبرونها مدينة يونانية. الإشاعات تسـري بـأن التمصير سيتحول إلى تأميم وأن تهريب النقد يزداد يوما بعد يوم من مصر. إذا تحقق التأميم لن يبقى في مصر أحـد، لا يوناني ولا إيطالي ولا حتى شامي. ربما يبقى العدد القليـل المسكين من اليوغسلاف الذين هربوا من جحيم الشيوعية بعد الحرب العالمية الثانية وفتحوا محلات فـول وطعميـة فـي الإسكندرية. هل تعرف أنهم في الزيارة الأخيرة لتيتـو تـم القبض عليهم عدة أيام في مديرية الأمن ثم أطلق سـراحهم بعد رحيله؟! ما علينا من السياسة. يقولون إن مارلين مونرو أفسدت الرجيم القاسي الذي تتبعه وأكلت قطعة بقـلاوة، وأن آرثر ميلر، زوجها، غضب منها جدا. آرثر ميللر هذا مؤلف مسرحي مشهور في أميركا وينام مع أجمل امرأة في العالم.. هل يتكرر ذلك معنا؟ لقد ظهرت نتيجة جوائز الدولـة فـي الفنون والآداب وفاز العقاد بالجائزة التقديريـة فـي الأدب،

وفاز فنان الإسكندرية الكبير محمود سعيد بالجائزة التقديرية في الفنون.

رأيت فيلم شرخ في المرآة، تمثيل أورسون ويلز وكذلك جولييت جريكو التي قرأت عنها أنها مطربة الوجوديين في فرنسا. ربما لذلك ذهبت لأرى الفيلم. شاهدت أيضا فيلم آلة الزمن. الفيلم أجمل من الرواية. يا له من شعور بالضياع حين يجد الإنسان نفسه في عصر آخر لا يعرفه ولا يجد لغة للتخاطب مع الآخرين فما بالك لو حدث ذلك للإنسان وهو يعيش في عصره الطبيعي. إن ذلك يحدث كثيرا في الحقيقة، وإن روحي حزينة رغم أنني عثرت على سعدة أخيرا. لقد كتبت لك من قبل كيف أحببتها، وشرحت لك كيف أخفوها عني شهورا طويلة. عثرت عليها عند عمها في الحضرة. رحنا نتقابل سرا مرة كل أسبوع في حديقة الحيوان. الأسبوع الماضي رآنا جدها. تصور جدها وليس أحد آخر! طلب مني الابتعاد عن البنت الصغيرة التي كانت واقفة لا تبالي.

قال لي إنني سأعلمها أشياء أكبر من عمرها. في الحقيقة لم أجد ما أقوله للرجل المسن كما لم ألم نفسي على

هذا الاندفاع في حب بنت لم تبلغ بعد. إذا سألتني أقول لـك إنني لازلت أحبها لكن يمكن أن يكون سلوكي غير طبيعـي. الأدباء شخصيات جانحة في كثير من الأحيان. لقـد رأيـت نجيب محفوظ يمشي في شارع صفية زغلول علـى عينيـه نظارة سوداء وينظر إلى الأمام ولا يكلم أحدا ولا يقف.. لكن عمي كان الأكثر غرابة بين كل أدباء العالم. هيمنجواي أكثر من قام برحلات خارج أميركا كان يعود. عمي لم يعد مـن أواسط أفريقيا. لم يرسل حتى رسالة واحـدة. هـل أكلتـه الأسود؟ أنا لن أترك الإسكندرية في أي يـوم. هنـا نبتـت موهبتي وفي هذا المكان نشأت. هذا المكان هو سر موهبتي، موهبتنا جميعا. ربما أكتب إليك يومـا عـن لمـاذا نحـن موهوبون. انتبه إلى صحتك يا خير الدين.

المخلص

سليمان

أخي الكبير خي الدين:

أهديك أجمل التحيات

استقبل خطاباتك كما استقبل ماء الحيـاة. تعطينـي دائما القوة والأمل خاصة هذه الأيام التي أرى فيها أبي حزينا حزنا لا يفسره لي، ولا أمي أيضا تعطيني تفسـيرا لـذلك. عافت نفس أبي التجارة، حتى الديون التي له عند الناس لـم يعد يطالب بها. تحدث منذ أيام عن خروجه إلى المعاش العام القادم فهل ذلك هو السبب؟ إنني قلق جدا علـى أبـي هـذه الأيام.

المخلص

كروان

حبيبي خير الدين...

حاسة بيك مش قادر تكتب. حاسة بيك تعبان. أوعى تكسفني يا خير الدين وتمرض تاني. ابعت لي جواب اطمئن عليك. كروان كان يطمئنني عليك دائما. كروان يقول أنك لم تعد تراسله منذ فترة. أنا حيرانة خالص. أسأل أمك وأخوتك ولا يعطوني جواب. إيه اللي جرى لك يا حبيبي خير الدين.

المخلصة

للأبد

الجوني

أخي خير الدين:

تحية من القلب.. وبعد،

تأخرت رسائلك في الفترة الأخيـرة، لعـل المـانع خيرا. اسمح لي يا صديقي أن أكتب إليك دون انتظار لرسالة منك، فأنا أعرف مشاعرك الجميلة نحوي وأنـه لا يمنعـك شيء قوي. ثم أن كتابتي إليك تعوضني عن التـأليف الـذي توقفت عنه. أجل، في البداية أردت أن أكتب قصة عن مغنية تمر عليها أحداث النصف الأول من هذا القرن، لكن المغنية من الفصل الأول وقفت عاجزة عن الغناء وانتهت القصـة. بعد ذلك شرعت أكتب قصة المكان الذي نعيش فيه والمدينة من حولنا، لكن سرعان ما اقتحمتني قصة الحب المجنون مع البنت الصغيرة سعدة التي انتهت من حيث لا أتوقـع أبـدا. أيقظني الجد القادم من الماضي البعيد على حقيقـة طفولـة البنت ورجولتي، والذي أخفيته عنكم جميعا هو علاقة كـان يمكن أن تكون عميقة مع فتاة انجليزية فرقت بينـي وبينهـا السياسة، كل ذلك لم يعد يهمني الآن، ولا أحـب أن أتـذكره لأنه يعني شيئا واحدا هو أني فاشل تماما.

دعني يا صديقي أحدثك عن حبشي ذلك الساكن على شاطئ ترعة المحمودية لا يكاد الزمان يشعر به. صارت له زوجة جديدة بعد اختفاء بدرة، وكثر أولاده من اللقطاء. إن حبشي الآن لا يجدهم بالصدفة. في كل صباح يخرج يمشي على الشاطيء يبحث عنهم. إنه يبتعد كثيرا على الشاطئ، ويتجاوز منطقة محرم بك وأحيانا كوبري الناموس، وكثيرا ما أقابله عائدا حاملا طفلا لقيطا بين يديه. الغريب أن حبشي أيضا صار يقطع المدينة باحثا عن اللقطاء في شمالها. أحيانا على شاطئ البحر، وغالبا جوار المساجد الكبرى. يترك عشته كل ليلة في منتصف الليل، وقبل أن تنسكب على الدنيا أضواء الفجر يكون هو عند مسجد المرسي أبو العباس، أو سيدي تمراز، أو سيدي جابر أو أبو الدرداء. يدخل يصلي الفجر في المسجد الذي يتواجد عنده ثم يعود. في كثير من الأحيان يعود بلقيط، غلام أو فتاة، ضجرت زوجته الجديدة من هذا الزحام، فبدأ يبني كشكا آخر، منذ أيام عثر على لقيط جميل، غلام أشقر، في عنقه سلسلة ذهبية عليها حرفان، سين ونون، ومعه "بوك" صغير به خمسون جنيها وورقة مكتوب فيها" سيأتي يوم ونلتقي".

شيء ولا الأفلام. أطلعني حبشـي بنفسـه علـى السلسـلة والخمسين جنيها والورقة والغلام. لكن حبشي صـار كهـلا فجأة، بان عليه التعب، ولم يعد يقـوم برياضـته المفضـلة، السباحة، كثيرا في الترعة، وإن لم ينقطع عن متابعـة أولاده وهو جالس على الشاطئ في زهو..

ألا تلاحظ أننا لم نتطرق بالحديث أبدا إلى محمـود الملاح. لقد انقطعنا حتى عن سيرته في جلساتنا على السلالم عند مدخل القبو. آخر الأخبار أنه سافر إلى إيطاليا ليجـرب حظه في السينما هناك. إن أحدا لا يصدق ذلك. أمـا تـاجر البهار فقد وجد طريق المحاكم مسدودا. كان يود أن يسـترد شارع فرنسا باعتباره من أملاك أسرته. قال أنه عثر علـى كنز ولن يعود إلينا مرة أخرى. لقد انقطعت أيضا أخباره.

لكن عيد المشعور لا يزال يأتي كل مساء بالمجاذيب والمعتوهين وينزل بهم القبو ويأخذهم على البحيرة خلف بيت خميس الجمال يجلسون يتفرجون على "ربنا" الذي يرونه عند الأفق كما يقول عيد. المدهش أن عيد لا يزال يعود دونهـم، لكنه في اليوم التالي يظهر قادما وهم معه. متى عادوا وكيف التقى بهم ومن أي طريق؟ لا أحد يعرف.

خميس الجمال اشترى تليفزيون عشرين بوصة ولما رآهم يجلسون جماعات يحملقون في الأفق ركبـه الرعـب. فكر أن يتجنب أي أذى متوقع منهم فأخرج لهم التليفزيـون أمام البيت وراحوا يتفرجون عليه. ذهبت بنفسي ورأيت ذلك. يظلون مبتسمين طول الوقت، لكنهم فجأة قـاموا يضـحكون وحملوا التليفزيون ومشوا بـه وخمـيس الجمـال يصـرخ لإيقافهم، فانخلع التليفزيون مـن الأسـلاك الموصـلة بـه، واقتربوا من الماء وألقوه ثم جلسوا يبتسمون ويبحلقون فـي خط الأفق يتفرجون على "ربنا".

آخر الأخبار هو حلول مسفر جديد محل الديب الذي اختفى، وللمسفر الجديد زوجة جميلـة جـدا. بـدأ الأولاد، مصطفى وعيد وبلك وحتى كروان، يتابعونها. إنهم يجلسون الآن كثيرا على شاطئ الترعة يعطون وجوههم إلى البيـوت لا إلى الترعة حتى إذا فتحت زوجة المسفر الجديـد النافـذة رأوا وجهها الجميل. أنا شخصيا لا أعرف من أين حصـلت هذه المرأة الصغيرة على كل هذا الجمال. لها عينان واسعتان سوداوان مكحولتان دائما، ووجه خمري مسـتدير وشـفتان مكتنزتان مدهونتان دائما بالروج الثقيل، ولها أنـف صـغير

بشكل غريب يا أخي وتلبس دائما جلبابا مفتوحا عند الصدر عاري الذراعين وشعرها الأسود الغزير ينسدل على كتفيها، إنها كتلة من نار حطت في المساكن، يقال إن المسفر الجديد حين يخرج في مأمورية يأتي بأمه العجوز لتبقى مع زوجته ويأمرها ألا تفتح النافذة أبدا حتى يعود. هذه قصـة جديـدة، وهذه المرأة لو طال بها الوقت هنا ستشعل النار في الجميع. إلى أن أتلقى منك رسالة... لك خالص أمنياتي الطيبة.

المخلص

سليمان

أخي الحبيب سليمان:

أدامك الله.. وبعد،

أرجو ألا تفشي هذا السر إلى أحد. أنا غيـر قـادر على كتابة الرسائل. بالكاد أرسلت إلي الجوني حتى لاتقلـق. أنا الآن في مستشفى الصدر بحلوان. تستطيع أن ترسل إلـي على المستشفى. سأغيب فيها عاما كاملا كما قرر الأطبـاء. العنوان سهل. مستشفى الصدر بحلوان، عنبر رقم ستة الدور الثاني. المصنع يدفع تكاليف علاجي. لم أستطع الكتابة إلـى

كروان. لا تخبره بشيء، أرى دموعه أمامي. لكني متفائل يا أخي، ليس من المعقول أن ينتهي كل شيء بهذه السرعة. أنا لم أخطئ في حق أحد.

المخلص

خير الدين

الأخ الحبيب سليمان:

بعد التحية العطرة وأزكي السلام

حاجات كتير بتحصل يـا سـليمان ولا تكـن فـي الحسبان. طبعا أكيد عرفت بسفري إلى إيطاليا. لازم يكـون الخبر انتشر من بيتنا من زمان. أنا فعلا في إيطاليا. تعرفت قبل السفر في القاهرة في ستوديو نحاس علـى كومبـارس إيطالية عايشة في إسكندرية! شوف العجب يا سـليمان. لـم أتعرف عليها في الإسكندرية التي نعيش فيها معـا، السـينما جمعتنا في القاهرة، ويمكن الفقر.. أكيد الفقر. رجعت معاها إسكندرية وعشت معاها في شارع تانيس في شـقة واسـعة وهاوية ونظيفة. عشت معاها شهر جميل لغاية مـا تركنـا إسكندرية، دلوقت عايش معاها في روما.

أكلمك عن إيه ولا إيه يا سليمان!

من ساعة ما جئت وأنا بامشي أبص حواليـا علـى المتاحف والبيوت والميادين والنسـوان. طبعـا تلاقيـك لا تصدقني وعايز تتأكد كيف هي إيطالية وكانت عايشـة فـي إسكندرية لوحدها.. شوف يا سيدي، هي كانت متجوزة راجل فحام على مركب. كان قويا جدا لدرجة أنه لما كان يحب ينام معاها كان يمسكها من وسطها بيديه ويقف وسـط الصـالة ويرفعها ويفضل طالع نازل من غير ما يتحـرك سـنتيمتر واحد من مكانه. تخيل أنت كان فحل أد إيه! المهم صـاحبك الفحل هذا كان غبي، وريحته "كوك" على طول وفي يوم وقع من مدخنة المركب واتخنق. ساب لها بنت جميلة وفقر كتير! اضطرت تشتغل كومبارس لحد ما حوشت قرشين وسـافرت معايا ومع بنتها. بنتها عندها عشر سـنين، وكانـت تـروح معاها الاستوديو دائما وتنام معاها في اللوكاندة فـي شـارع كلوت بك. لما عرفتها قلت لها أنا مش قد الفحام، ضـحكت وسكتت. في شقتها في شارع تانيس شفت العجـب. نسـوان مالها أول من آخر تشتغل في الملاهي على الكورنيش بالليل وبالنهار تيجي الشارع وتدخل الشقق علشان تنام. ساعات من كتر النسوان كان يتهيأ لي إن إسكندرية كلهـا تشـتغل فـي

الملاهي والبارات. لكن الحمد لله معظمهن من الأجانـب. دا اللي شفته على الأقل! أنا أكتب لك هذا الكلام حتـى تبلغـه لفلفل مطحون. لو قعد هناك عند أي مكوجي في شارع أنيس سيعيش عيشة الملوك مع النسوان. يا ترى ما هـي أخبـاره فلفل مطحون؟ وحشني جدا. وحشتوني كلكم يا سليمان رغـم أني زعلان منك من زمان. من ساعة ما جئت أحكـي لـك قصة فيلم عن بورسعيد فكلمتني عن وجود الإنسـان وعـدم وجوده! على أية حال أنت عقلك كبير يا سليمان. أكبر عقـل في الحتة. ودلوقت أحب أقول لك أني تقدمت جدا في العمـل في السينما. أخذت دورا صغيرا في فيلم اسمه" السبعة ضـد طيبة" قصة قديمة لكاتب يوناني. سمعتهم بيقولوا كـده! أنـا طالع بدور واحد من آلهة اليونان، أكبر إله، اسمه زيـوس. لبسوني لبس آلهة، فروة مقطعة على صدري ومـايوه مـش باين، وأعطوني فخذ خروف وقعدت أكله قدام النـار علـى جبل ومراتي اللي اسمها هيرا تشوي قدامي فخذة الخـروف الثانية. الفيلم سيعرض في مصر هذه السنة أكيد. لا تنسـى اسم الفيلم، عايزكم تشوفوني وأنا إله. حاجة ثانيـة خـالص غيري وأنا بهدومي. والله عايز أعيط يا سليمان. أجمل أيـام

عمري كانت في مصر. مش عارف إيه اللي لحـس مخـي كده! الله يخرب بيت يوسف شاهين وبيت أم اللي يشتغل مع يوسف شاهين. لكن مين عارف. يمكن مصيري ارجع نجـم كبير يا سليمان وأوعى ما تشوفش الفيلم. سـلام لـي علـى محمود القزعة وعلى كل النسوان اللي طالعة ونازلـة إلـى الملاحة، وأهم سلام للديب الذي لو حضر هنـا سـيخطفونه خطف وكل يوم يؤلف لهم فيلم جديد. سلام لي حتى على الولد عيد المشعور أطيب ولد في الحتة، وعلـى جـدي خمـيس الجمال! يعني سلام لي على الحيوان والإنسان والجماد والطير السابح في الفضاء.

هذا باختصار يا سليمان وإلى اللقاء.

صاحبك الذي لن

ينساك،

محمود الملاح...

استيقظ الجيران على صوت الصراخ والعويل. لقد وصلت إلى المساكن سيارة عند الفجر تحمل جثة خير الدين، في اللحظة التي كانت فيها سفينة كبيرة تشق المحمودية قادمة من ناحية الميناء، يرتفع صاريها، وشراعها الكبير الأبيض مفرود إلى نهايته، والريح الصباحية تدفعها في تصميم غريب خارج المدينة.

خرج الرجال من البيوت كالجرذان، قصار القامة مهدلي الأكتاف، يبسملون ويحوقلون ويضربون كفا بكف في إثرهم النساء تسبقهن دموعهن إلى بيت خير الدين. كثير من الأولاد والبنات لم يذهبوا إلى المدرسة اليوم، وفي بيت الجوني انشغلت الأم بابنتها التي فقدت الوعي، بينما خرج الأب مكسور القلب لينضم إلى الرجال المواسين لوالد خير الدين.

سرعان ما صعدت الشمس. بدأ الجميع يفكرون جديا في سرعة إجراءات الدفن. كان كروان بين مصطفى وعبده وبلك وبقية الصبية والشباب يبكي بلا انقطاع، بينما

الآخرون الذين فاجأهم هذا الموت لا يعرفون لمـاذا حقـا لا تنزل من عيونهم دموع. صعد سليمان وحده فـوق السـطح ينظر ناحية سطح سعدة التي لا تزال عند أقاربهـا، وتـرك دمعة تنزل على خده وهو ينظـر إلـى السـماء، وبعـض عصافير صباحية تطير تحتها في الكون الواسع، وقليل مـن السحب البيض تمشي على مهل. وقال مختنقا بالأسى "الوداع يا خير الدين".

شوهد بعض الرجال يمشون ناحية كرموز لإنهـاء إجراءات الدفن والاتفاق مع متعهد فراشة ليقيم سرادق عزاء بالشارع، والآخرون مشوا إلى أعمالهم التي لا يستطيعون أن يتأخروا عنها، تاركين والد الجوني مع والـد خيـر الـدين عازمين على العودة بسرعة قبل الظهيـرة للمشـاركة فـي الجنازة.

فتح العنيبسي دكانته مبكرا كالعادة، حامدا شاكرا لله على كل ما يأتي به، متذكرا تقدم سنه وقرب نهايته، مستسلما لقضاء الله، وأشعل الراديو يستمع إلى قرآن الصباح ثم بعـد ذلك أطفأه. كذلك فعل السيد خليل بينما خرج حبشـي مـن عشته على سفح شاطئ الترعة ووقـف وسـط الشـارع لا

يصدق موت خير الدين. لقد صرخ حين علم بالنبـأ هاتفـا يارب، يارب خير الدين طيب وجدع، والدنيا مليانـة نـاس مالهاش لازمة، يارب كنت خلي لنا خير الدين..

اندهش الأولاد جدا حين رأوه يصرخ بكل هذا الألم، تراجعوا قليلا إلى الخلف ليتقدم هو ويقف وسط الشارع رافعا يديه إلى السماء مستمرا في الهتاف..

يا رب  يا مرسل الطير في السماء، يا منبت الشجر في الأرض الخراب، يا ربنا الذي نعبدك ونخطئ كثيرا فـي حقك وتسامحنا، نهمل في الصلاة والصوم وتغفر لنا، نسرق وننهب ونأكل بعضنا وتسامحنا، يا رب يا واضع اللقطاء في طريقي كل صباح لأكون سببا فـي حيـاتهم التـي سـوف يكرهونها بعد ذلك حين يكبرون ويعرفون أنهم أولاد حرام!، لكنها حكمتك، يا رازق من تشاء، يا معز من تشاء، يا مـذل من تشاء، يا من خلقت العنيبسي والسيد خليل والسيد الأعرج والديب وتاجر البهار ومحمود القزعة والولد عيد المشـعور. يا رب يا ربنا الذي أراه كثيرا بالليل فوق ميـاه المحموديـة نارا ونورا، يا منجي من المهالك، صبر أم خير الدين، ووالد خير الدين، وأخوة خير الدين، وخطيبة خير الـدين، علـى

موت خير الدين الذي كنت أحترمه غاية الاحترام، وكان يحييني كلما مر أمامي في الصباح أو في المساء، ويناديني دائما وهو مبتسم صباح الخير يا طرزان، مساء الخير يا طرزان!!

دخلت المنطقة في صمت طول النهار، حتى العويل في بيت خير الدين كان جليلا من فرط الألم! كان عويلا مخلوطا باليأس، أما البكاء في البيوت الأخرى فكان أشبه بالعجز الشديد. لقد أحس الجميع بالفاجعة كأمر غير واضح وغير مفهوم وشديد القسوة. إلى جانب الصمت كانت هناك دائما حركة. انتشر الخبر بين عمال وموظفي السكة الحديد في المناطق الأخرى، بالقباري والمكس ومحرم بك فحضروا في الظهيرة زرافات للمشاركة في تشييع الجنازة، وظهر أقارب خير الدين قادمين من الريف. ولا يعرف أحد كيف وصل الخبر إلى حكمت فحضرت من كامب شيزار، وإلى فاطمة فحضرت من الحضرة مع رشاد، وإلى شوقية فحضرت من كفر الدوار. لكن الأكثر إدهاشا كان حضور بدرية من ليبيا في اليوم نفسه لزيارة أهلها فكانت صدفة عجيبة يندر أن تحدث في الزمان.

بسرعة أقيم سرادق العزاء، جلـس فيـه الرجـال والشباب قبل التحرك بالنعش إلى المدافن. لقد تم نقل الجثمان من السيارة إلى النعش منذ قليل وعادت السيارة إلى القاهرة. مرافقو السيارة قالوا إنه تم في القاهرة غسل الجثة وتكفينهـا على نفقة الشركة، وتركوا مائة جنيـه مصـاريف للجنـازة تدفعها الشركة في مثل هذه الحالات. قرأ المقرئ ربع قـرآن فقط وعلى عجل مرجئا القراءة الكبيرة إلى المساء، وحمـل الرجال النعش وأسرعوا إلى مقابر عامود السواري طـابورا طويلا من الحزن. أول الطابور الرجـال مسـتغرقون فـي الصمت، بعدهم نساء يبكين بحرقة دون أن تعلو أصـواتهن فيكدن ينفجرن حقا من الألم. آخر الطابور كانت الجوني وقد اشتعل وجهها الأبيض من البكاء وحولها شـوقية وحكمـت وفاطمة وحسنة وبدرية ومنيرة اللاتي لم يكن أقل منها بكـاء على خير الدين، لكن الهلع والذهول كله كـان علـى وجـه الجوني. من الشرفات، في شارع عمود السواري بكرمـوز، كانت نساء يتطلعن على الموكب الحزين، تقع عيونهن علـى الجوني المشتعل وجهها بالألم العميـق فتنسـال دمـوعهن ويتمتمن بكلمات لا يسمعها أحد. الجوني طول الطريق تقول

جملة واحدة، مع السلامة يا خير الدين، وتصل الدموع إلى شفتيها وتدخل إلى فمها وتبلعها حارقة مالحة...

كان مصطفى وعبده يسرعان أحيانا لحمل النعش مع الآخرين، كذلك فعل سليمان أكثر من مرة. لم تكن هناك أجازة بالمدارس ولا بالجامعات، لكن نسيم ظهر قادما من المعهد الزراعي بمشتهر وتناوب معهم حمل النعش، كان لطفي السائح يتمنى لو حمل النعش معهم لكن كان ذلك مستحيلاً فمشى مضاعف الحزن يحاذر أن يصطدم بأحد، بينما كان تاجر البهار الذي ظهر بعد انقطاع قد حمل النعش من البداية ولا يريد أن يتركه، وبالفعل لم يتركه لأحد. كانت فيه قوة مسحورة. لقد سبق حبشي الجميع على المقابر لتجهيز المقبرة مع اللحاد، فتحها ورشها بماء الورد، وحرق فيها البخور، بينما كان محمود القزعة متأخرا عن الجميع يمشي وراء الجنازة يشعل سيجارة من سيجارة ويأخذ من كل واحدة نفسا أو اثنين على الأكثر ثم يلقى بها. كان مذهولا من هذا الموت الذي ظهر فجأة في المنطقة التي لم تعرف غير البهجة واللعب والفرجة على النسوان... كانت الجنازة بعد أن عبرت كوبري كرموز قد انضم إليها خلق كثير من

المقاهي، فالجنازة لشاب صغير كما هو واضح من تجهيـز النعش، ووضع الطربوش الأحمر أعلى النعش من الأمـام، والجنازة تجري بهم لأن النعش يجري بهم والنهـار أبـيض وكلما اقتربوا من باب المقـابر أسـرعوا أكثـر وارتفعـت الصيحات الله أكبر الله أكبر غير مصدقين خفة النعش الطائر على الجنة، ما كادوا يدخلون من باب المقابر، وترى النساء مئات المقابر المتناثرة على كل ناحية حتى ارتفـع عـويلهن وبكاؤهن وأغمى على جوني للمرة الثانية اليوم. فانشغلت بها البنات وبعض النساء، لكن الرجال كانوا قـد وصـلوا إلـى المقبرة، فأخرجوا الجثة في هدوء من النعش. ما إن ارتفعت بين أيديهم حتى صرخ حبشي "وحـدوه" وأسـرع الرجـال يوارون الجثة في المقبرة، زاد النحيب فملأ الفضاء، وقـف تاجر البهار قبل أن يغلق باب المقبرة يلقي بالكلام على رأس الميت، اللهم أدخله فسيح جناتك، اللهم اجعله شـفيعا لأهلـه وأخوته يوم القيامة، اللهم اغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، اللهم صبر أهله وعشيرته، اللهم أوقد له في قبـره شـمعة، ونجه من عذاب القبر، من كل ثعبان وشيطان، من كل ناكر ونكير، خير الدين بن خير الدين خير الأمير الجميل الوسـيم

اللطيف. وخنقته العبارات فلم يستطع أن يكمل فـراح ينثـر المسك من زجاجة صغيرة معه على المقبرة وعلى القريبين من الناس، ثم ناول اللحاد زجاجة عطر أخرى قائلا:

- من فضلك ضع هذه الزجاجة من العطـر مـع المرحوم. إنه عطر البلسم الذي سيجمع حوله الحور العـين في الجنة بإذن الله.

تناولها اللحاد مندهشا، وضعها في طية من طيـات كفن خير الدين وخرج من المقبرة قافزا. قبل أن يغلقوا بابها ظهر خمسة رجال وامرأة قادمين بسرعة ناحيتهم ينادونهم أن ينتظروا. انتظروهم في دهشة. كان أحد الرجال يحمل طفلا صغيرا ميتا بين ذراعيه، ملفوفا في كفن أبيض.

- أرجوكم ادفنوا ابننا هذا مع ابـنكم، أنـه طفـل بريء ونحن ناس فقراء لا مقابر لنا في الإسكندرية..

ازداد نحيب النساء من هذه المفاجأة. خير الدين مع الأبرار أيها الناس. هتف حبشي في الجميع. لا يبـك أحـد فخير الدين مع هذا الطفل ضمن مكانه في الجنة مع الأبرار. لا يبك أحد. اطلبوا الرحمة لموتانا.

ثقل الموقف على الأولاد والشباب الذين لم يكونـوا يعرفون كيف يبكون فاندفعوا في البكاء. لم يكونوا من قبـل حقا يعرفون الموت، ولم يعلموا بوجوده إلا اليوم. ثقيل هـو الموت كليل لا ينتهي، حجر لا ينزاح عن الصدر، ودهـر لا يمر. وقف والد خير الدين وبعض أقاربه في طريق الخروج يأخذون عزاء المشاركين في الجنازة، ورأى الجميع قريبـا منهم عيد المشعور يقف وحوله عدد كبير مـن المجاذيـب، بينهم مجنون الغناء، ومجنون العلم الذي صار يرتدي شورتا الآن وفانلة رياضية، ومخالي اليونـاني الـذي غلـط فـي الحساب، وآخرون لا يعرفون من أين جاء بهم عيد، كـانوا جميعا ينظرون نظرة لا نهائية إلى الناس، وبينهم عيد وقـف ينتحب ويتمتم "خير الدين مشي خير الدين راح، حبيبي خير الدين".

ارتفعت الشمس فوق الدنيا، اتسـع الفضـاء، عـاد الناس متعبين، وأغلقت النوافذ والشرفات في الطريق. أخذت حكمت الجوني في تاكسي ومعها شوقية وعدن بسرعة إلـى المساكن. ظهرت سـحابة سـوداء كبيـرة دخلـت فضـاء الإسكندرية فغامت الدنيا لحظات تخيل فيها الناس أن السحابة

قد استوت فوق المدينة لا تتحرك، وأن المدينة دخلت في الليل في عز النهار، فهتف البعض باسم الجلالة وانفرطت دموع النساء من جديد، وسجد بعض الرجال يصلي ركعتين فوق الأرض، وكانت السحابة تبتعد على مهل عن المدينة والشمس تتسيد الفضاء من جديد فيزداد بياضا وإشراقة والناس تتساءل في دهشة، كل هذا حدث من أجلك يا خير الدين اليوم؟ أيقنوا أنه ذاهب إلى الجنة دون حساب، وتمنى كبار السن لو كان يومهم مثل يومه في الخفة والمفاجآت الطيبة. اكتشفت النساء والبنات أن نوال لم تشارك في الجنازة. لم تظهر قط اليوم. "مسكينة نوال اللي فيها مكفيها" قالت بعضهن، ودخل الجميع البيوت التي جثم عليها الصمت..

على جانب السلالم المؤدية إلى القبو جلس سليمان وتاجر البهار وعدد قليل من الصيع الذين يظهرون كل يوم ممن شاركوا في الجنازة، كانوا صامتين، بينما راح، في صمت أيضا، محمود القزعة وعماله يجهزون طاولات السمك بالثلج المناسب لشحنها في العربات إلى المحلات البعيدة.؟

- كنت نويت اليوم أن أبدأ في الصباح رحلتي إلى آسيا، لكن هاتفا أسر إلي بموت خير الدين فأجلت الرحلة إلى الغد.

كان تاجر البهار يتكلم مفاجئا سليمان الذي لم يجـد شيئا يقوله. كان شاردا يفكر كيف حقا لن يرى خير الدين أو يكتب إليه أو يتلقى منه رسائل، لكن تاجر البهار ظل يتكلم.

- الكنز الذي عثرت عليه حقيقي يا أستاذ سليمان، لكنه ليس كنزا من النقود أو الذهب.

هنا وجد سليمان نفسه يرفع إليه عينيه.

- إنها مجموعة من الوثائق، أوراق أكلت الأرضة كثيرا من أطرافها، عثرت عليها في بدروم بيت قـديم أقـيم محل أحد الفنادق التي كان يملكها آل الدماميني، أهلي، فـي شارع فرنسا. أوراق فيها كلام واضح عن ساحل ملبار فـي الهند، الساحل الغربي، بلاد الفلفل، وعن ميناء قاليقوط، وعن قصر من الرخام غرفه جميعا مطلية بالذهب، عليها رسـوم لصور حيوانات وطيور وإنسان وكلام الله في القرآن، وحول القصر حديقة بها أشجار وزهور وجداول سحرية من مـاء رقراق، حديقة تزيد مساحتها على عشرة أميال، تتوزع فيها

النافورات وأقفاص الحيوانات البرية التـي كـان يجمعهـا الدماميني الكبير يغذي بها الصقور والسناقر التي كان يزهو بها، في الأوراق رسوم رسـمها فارسـي يـدعي ميـرزا للدماميني، أنه يشبهني والله يا أستاذ سليمان، رسـم القصـر وأعمدته الرخامية المطلية بالذهب والمرسوم عليهـا أفيـال تضحك، والحريم تتفرق في الحديقة تلهـو وتعـزف علـى الأعواد، إن رسوم الحريم تكاد تكون مرسومة بالأمس فقط، فالنعمة الإلهية تكاد تنسكب من وجوههن وأذرعهن الغضـة اللامعة تحت الملابس الشفافة. كان الدماميني يختار من يشاء من الحريم، وترك هناك في الهند أطفالا كثيرين لابـد أنهـم باعوا القصر، لكن الجزء الطلسم من الأوراق يتحدث عـن كنوز من العاج والذهب والفضة واليشم مدفونة فـي قبـو لا يصل إليه غير الدماميني، ومن دخله لم يستطع الخروج.. لقد فهمت الطلسم، ولم يبق لي إلا فهم طريق القبو، وأنـا مـن زمان روحي تهفو إلى السفر إلى الهند بلاد الروح فما بالـك إذا كان هناك كنز قد أفوز به. في ساحل ملبار، فـي مينـاء قاليقوط، سأجد من يعاونني بالتأكيد، ومن يدري ربمـا أجـد هناك من يمتلك مخطوطا عن عائلة الدماميني. تصور أنت يا

أستاذ سليمان حين يظهر لك أخوة أو أقارب في الهند فجـأة. يا له من حلم هذا الذي يراودني ويحفزني في اكتشاف كنوز طريق التوابل القديم، الكنوز الخفية التي هي مختوم عليهـا بأختام من صنع الجان.

كان سليمان قد انتبه إليه، بعد لحظـات لـم يعـد مندهشا من كلامه. هذا رجل منذور إلى الريح، لـذلك لـم يندهش حين رأى الرجل يرتعش بشدة بعد أن انتهـى مـن الكلام ثم ينهض لينصرف في صمت. صافحه سليمان وضمه الرجل إلى صدره بقوة لكنه لم يتكلم، كذلك فعل مع محمـود القزعة ومشى ناحية كرموز في عزم، بدا الرجـل لسـليمان شخصا لا يمكن أن يعود إلى الوراء.

مشى سليمان بدوره إلى البيت صامتا. لمـح عيـد المشعور قادما من ناحية كرموز وحوله رهط من المجاذيب بينهم مجنون الغناء ومجنون العلم ومخالي أيضا، أدرك أنهم في طريقهم إلى الملاحة لرؤية "ربنا" كما يفعلون كل يـوم. قال لنفسه "لله في خلقه شئون" وأصابه حزن يكاد يفجره فأخذ طريقه بسرعة إلى البيت في ضيق، جلس على مكتبـه فـي

الجزء الخاص الذي اقتطعه من العشة وأمسك بالقلم وكتب في كراسته.

"قصة سوريالية"

"الأفيال تخرج صامتة من القبو، في طابور طويل يقوده الممثل الهندي سابو، الجالسون على جانب السلالم يصيبهم الفزع، يجرون إلى كل ناحية، النساء القادمات لشراء السمك تعدن مهرولات لا ينقطع صراخهن. سابو يضحك مفرقعا بالسوط الطويل الذي في يده في الهواء. الأفيال تصعد السلالم، محمود القزعة يجري أمامها وعماله، الأفيال تدوس على طاولات الثلج والسمك فيتطاير ما فيها وينطحن تحت أقدامها، الأفيال تصطف على رصيف الشارع، ترفع خراطيمها عاليا، وتحرك آذانها العريضة، وتصرخ كلها، سابو يتقدمها ويشير إليها أن تتبعه إلى شاطئ الترعة. الأفيال تقف على الشاطئ، تمد خراطيمها في الترعة، تشرب الماء كله، ترتوي وتنتعش وتنفض أجسادها وتعود للصراخ، في سعادة هذه المرة. الترعة الآن صارت خالية من الماء، السفن تسقط إلى قاع الترعة. النوتية يقفزون يخوضون في وحل القاع ويصعدون إلى سفح الشاطيء الآخر، يجرون كخيل

قذرة صارخين رافعين أذرعهم إلى السماء من الرعب. في قاع الترعة تظهر نساء عجائز قابعات ينظرن إلى الفضاء الأبيض، إنهن عرائس النيل اللاتي ألقى بهن قديما إلى النهر استقرت أجسادهن أخيرا في الترعة. صرن عجائز الآن. يقفن في الطين، يتحولن إلى عصافير، تكبر وتصير غربانا، تطير مرفرفة فوق رءوس الأفيال، وفوق البيوت، تنتهي إلى الملاحة فوق رءوس عيد والمجاذيب الذين ينتظرون رؤية وجه ربنا. سابو يأخذ الأفيال ويعود إلى القبو. الماء يعلو وتعلو السفن فوقه في ترعة المحمودية. الرجال يعودون على الجلوس على حافة السلم المؤدي إلى القبو، النساء تعدن لشراء السمك ضاحكات منتعشات، محمود القزعة يتابع أردافهن الصاعدة الهابطة، الأسماك تحمل الثلج على رءوسها وتعود تقفز داخل الطاولات، العمال يقومون بتحميل الطاولات على العربة التي ستحملها إلى دكاكين المدينة. الرجال في مقاهي المدينة يتركونها إلى محطة الرمل، في شارع سعد زغلول ظهرت كيلوتات حريمي ممتلئة بأعضاء النساء الجنسية. في شارع صفية زغلول ظهرت سراويل الرجال تباع ممتلئة بأعضاء الرجال.. الرجال يذهبون إلى

شارع سعد زغلول يشترون كيلوتات النساء، والنساء تذهبن إلى شارع صفية زغلول يشترين سراويل الرجال، المدينة انقسمت نصفين، في الشرق عاش الرجال مع الكيلوتات الممتلئة وهجروا النساء، في الغرب عاشت النساء مع السراويل الممتلئة وهجرن الرجال، المدينة ظهرت لعماراتها عيون وتدلت من نهاياتها ضفائر وشعر منسدل، ظهرت تحت العمارات والبيوت أقدام حملتها ومشت بها جميعا لتقابل كل واحدة الأخرى وتبكي وتشد شعرها أمامها. العمارات أمضت اليوم كله في النحيب ثم عادت إلى مكانها. في الليل جاءت الرياح الأربع حملت المدينة وطارت بها، راح الرجال يلقون من فوق الريح بكيلوتات النساء، والنساء يلقين بسراويل الرجال. أخذت الرياح الأربع الرجال والنساء والبيوت والعمارات وغيبتهم في الكون الواسع، دخلت بهم مجرة بعد أن عبرت بهم عشر مجرات. على الأرض ظلت الكيلوتات والسراويل لكنها صارت ممتلئة بالفئران تخرج منها وتدخل ضاحكة وترتفع صأصأتها حتى امتلأ الفضاء باللهو والصخب.. حملت الفئران السراويل والكيلوتات على ذيولها وجرت بها إلى الميناء تختبئ في الغرف السفلى للسفن

حيث الأفران والأجهزة والمسافرون الفقراء. دب الهلع فـي السفن وراح الركاب يلقون بأنفسهم إلى الماء..!!"

توقف سليمان الذي لم يستطع أن يجد مخرجا جميلا لما يكتب. أدرك أنه لن يصل إلى نهاية سعيدة لهذه القصـة التي لم يهيئ نفسه لكتابتها. تذكر أنه كان قد انقطع على غير إرادة عن كتابة الجمل التي لا يعرف لها معنى أيضا حـين يكتب. لابد أنها تجمعت في مكان ما في قلبه لتقفز هذا اليوم الصعب، وتمنحه هذه القصة التي لا يعرف أي معنى لهـا. أغلق الكراسة وجلس صامتا لا يعرف ماذا يفعل حتى يحـل موعد العزاء في السرادق في المساء.

في المساء ارتفع صوت المقرئ بـالقرآن وجلـس الرجال والشباب والصبية جميعا في صمت. ظهـر المسـفر الجديد الذي حل محل الديب الـذي اختفـى بعـد الخطـاب العجيب الذي كتبه لمرعي، عرف الناس أنـه اسـتقال مـن العمل في السكة الحديد كلها، وعمل تباعا فوق عربات نقـل "حماد" الثري المعروف بالقباري. الـديب منـذور للـريح. الصدفة جعلت المسفر الجديد يجلس جوار مصـطفى الـذي كان قد بدأ يتماسك مدركا إنه لا حيلة لأحد أمام الموت الذي

هو أقوى شيء في الدنيا. بدا المسفر الجديد حزينا جدا على موت خير الدين، وبشكل كبير.

- أهلا وسهلا. كنت هنا في الصباح؟

تساءل مصطفى وهو يميل ناحيته.

- لا. كنت مسافر.

- مسافر؟ وكيف عرفت؟

- انتشر الخبر في السكة الحديد ووصل إلي، كنت في قطار متجه إلى أسوان، كنا بالكاد غادرنا الأقصـر، أي والله.

سكت مصطفى ثم فتح عينيه في دهشة بعد أن أدرك البعد الشديد للمسافة، أكثر من ألف كيلو متر، قال:

- كنت قرب أسوان وحضرت هنا في نفس اليوم! ركبت طيارة ولا إيه؟!

أوشك مصطفى أن يضحك بحـق. كـتم ضـحكته بصعوبة فاهتز جسده. قال المسفر الجديد:

- كنت فوق القطار فقفزت على أقـرب سـحابة متجهة إلى الشمال فحملتني إلى هنا، أي والله، هنـاك كمـا تعرف سحب تجري من الشمال إلى الجنوب، وسحب تجري

من الجنوب إلى الشمال. ركبت واحدة منها، وكله بـإذن الله سبحانه وتعالى هو الذي سخر لنا الخيل والأنعام والسـحاب لنركبها وزينة!

أخذ مصطفى نفسا عميقا حتى لا ينفجر بالضـحك. قام ومشى تاركا السرادق وصوت المقرئ المسـتغرق فـي القراءة يملأ الفضاء بالألم!. مشى مصطفى حتى وصل إلـى الماكينة الحمراء فاستند على جدارها ونظر إلى مياه الترعة وترك نفسه يضحك ويهتز. أخرجه المسفر الجديد من رهبـة الحزن. ابن ديك الكلاب حضر على سـحابة مـن أسـوان!؟ ويختارني أنا من دون الناس ليجلس جواري ويقول لي ذلك، يريد أن يجنني. شيء ما فوق القطارات يذهب بعقول الناس. الله يرحمك يا خير الدين ارتحت من هؤلاء المجـانين، والله يكون في عون ثورة يوليو ويكون كمان في عون ربنا علـى الشعب!.

- ياه يا بنات، كنت أشتاق لكن كثيرا. كنت أشتاق لليلة تجمعنا مثل ليالي زمان. يرحمك الله يـا خيـر الـدين جمعت بين الأحباب. كان قد مضى أسبوع على موت خيـر الدين، وكانت حكمت قد عادت مرة أخرى لتطمـئن علـى الجوني وعلى نوال التي لم تجد فرصة يوم الجنازة لتراهـا. كانت بدرية لا تزال في زيارة أهلها، كذلك شوقية لم تعد إلى بيتها في كفر الدوار، لكن منذ موت خير الدين يجتمعن كـل ليلة عند أبلة نرجس، الساعة الآن تقترب من العاشرة، قالت حسنة:

- أنا خائفة على الجوني يا أبلتي.

كانت حكمت قد أمضت مع الجوني جزءا كبيرا من النهار تقريبا ومعها شوقية التي قالت:

- الجوني عادت إلـى الأكـل والشـراب المهـم المسكينة نوال.

لكن حسنة اندفعت وقالت:

- اسمعوا. اسمعوا آخر خبر. أنا تقدم لي عريس.

ابتسمت أبلة نرجس. تهللت وجوه الأخريات. قالت بدرية:

- صحيح يا حسنة؟

- صحيح والله، زميل أخي العربي، أرمل وعنده ولد وبنت.

- معقول يا حسنة، هل أنت عانس حتى تتزوجي من أرمل؟

تساءلت حكمت فقالت حسنة بهدوء:

- حتى لو لم أعنس كثيرا، لم أعد أستطيع الحياة هنا، زهقت من الظلام، عايزة مكان فيه نور، العربي أخي أيضا سيتزوج.

- لابد أنه سيتزوج قريبة لخطيبك أو أخته حتى يسهل له زواجه منك.

- أبدا. العربي طول عمره يشتغل مع الأجانب، سيتزوج واحدة يونانية اسمها جورجيت.

- جورجيت!

تساءلت شوقية مستغربة الاسم فقالت حسنة:

- هو يقول ذلك، لكن أنا قلبي حاسس أنها مصرية، وقبطية أيضا. كنت أسمعه أحيانا يتكلم عن اليونانية التي كان يعمل عندها وفي الكلام يأتي ذكر واحدة قبطية اسمها جورجيت. العربي لئيم لا يبوح بأسراره بسهولة.

تساءلت بدرية في دهشة:

- وهل ينفع يتزوج قبطية؟

قالت الست نرجس:

- طبعا، الرسول تزوج من ماريا القبطية وخلف منها ولد..

سكتن للحظات طويلة حتى قالت حكمت:

- ربنا يوفقك يا حسنة. هيا بنا نزور نوال، المرة الماضية لم أجد الوقت، لازم نوال ترجع لصحتها.

قبل أن تتحركن قصت عليهن حسنة ما جرى لنوال في الأيام الأخيرة. كيف اقتنعت بكلام مدير البرامج بالإذاعة وسافرت إلى القاهرة للرجل الذي حدثها عنه، والذي قابلته بسهولة حيث وجدت تصريحا باسمها على باب الإذاعة، فدخلت إليه فرحانة، وطلب لها كوبا من الليمون، واستمع إلى صوتها بالمكتب، ثم قال لها: "دائما عبد الحميد بيه يتحمس

في غير مناسبة، يا مدموازيل نوال أنت صوتك لا يصلح أبدا للغناء." وتركها في المكتب وخرج. عادت نوال إلى التدخين من جديد، أكثر من ذي قبل، أهملت في عملها لكـن مـدير المستشفى الذي أشفق عليها أعطاها سنة أجازة بدون مرتـب حتى لا تتعرض للفصل من كثرة الغياب.

قالت حكمت بثقة:

- كل هذا يمكن حله، أنا الآن أعرف ناس كبـار في البلد وأستطيع أن أساعدها. هيا نراها بسـرعة. السـاعة تقترب من الحادية عشرة. خرجن جميعا وظلت أبلة نـرجس وحدها. كان كروان قد نام مبكرا فـي الحجـرة الداخليـة. فوجئت به أمامها يقول إنه لا يستطيع النوم وسـيخرج يشـم قليلا من الهواء على المحمودية. كان يمسك بالناي الصـغير في يده كانت تعرف مدى حزنه على خير الدين. رقـت لـه وتركته يخرج. كانت في حاجة إلى الصعود إلى السطح هذه الليلة عليلة النسيم تتفتح فيها مسام جسدها للنشوة رغم الألـم الذي يسكن البيوت. كانت في حاجـة إلـى ذلـك الأثيـري الغامض وتلك اللذة السرمدية. كان كروان للتو قـد أغفـى لحظات رأي فيها خير الدين يقف على ناصية الشارع يناديه

مشيرا إليه بذراعيه، كروان، كروان، تعالى معايا يا كروان، فقام مفزوعا من النوم خائفا لكنه لم يقص رؤيته على أمـه. على الشاطئ وجد سليمان جالسا على حجـر يتأمـل المـاء الساكن والبخر الأبيض الخفيف السابح فوق الماء. هـل رأى سليمان رؤياه أيضا؟. جلس جواره، وراح سليمان يتكلم..

- أسبوع الآن منذ موت خير الدين وأنا أفكر فـي مغادرة الإسكندرية، مغادرة مصر كلها، والسفر إلى إنجلترا أو استراليا. فكرت أسافر إلى أواسط أفريقيا أبحث عن عمي وأكتب معه حكاية الإمبراطورية المصرية، فكـرت ألحـق بتاجر البهار وأكتب قصة طريق التوابل، في آسيا، انتهيـت للسفر إلى أوربا بمساعدة جين بانكروفت!

لم يكن كروان يفهم تفاصيل ما قاله سليمان، الـذي راح بدوره يشرح له كل شيء وكروان في دهشة كبيرة مما يسمع، في الوقت الذي كانت فيه حكمت وبدريـة وشـوقية وحسنة جالسات حول وأمام نوال الصامتة.

كان مشهدها مخيفا في جلستها الجامدة فوق الكنبة، وشحوبها الشديد، والسيجارة التي تهتز بين أصبعيها وبـين شفتيها. انحنت كل منهن تقبلها ونوال لا تتحرك، ولا تبادلهن

القبلات أو التحية، تنظر بعيدا في الحائط المقابل ولا تحـرك عينيها.

- نوال. أنا بدرية حبيبتـك. أنـا شـايلة العقـد الكهرمان في رقبتي حتى الآن. شايفاه؟ دائمـا افتكـرك يـا نوال. احضرت لك فستان فرح إيطالي، احتفظي بـه ليـوم فرحك يا نوال.

- نوال بصي لي. أنا حكمت. قولي لي من ضايقك وأنا أقدر أضربه لك بالشبشب. أنا أعرف ناس كثير مهمـة في البلد يا نوال. صدقيني.

- نوال أنا شوقية. أنا خلفت ولد جميل اسمه على باسم أبي، يا ريت تقومي معي تشوفي علي عنـد مامـا يـا نوال.

لكن نوال لا تتحرك. أطفأت سـيجارتها وبـدت لا تسمعهن ولا أمل في أن تسمعهن.

- بصي لأصحابك يا نوال. تكلمي يا بنتـي أنـا خائفة يجري لك حاجة. ارحميني وارحمي أباك وأخواتك.

قالت الأم باكية لكن لا فائدة. طال الصمت وانتحبت الأم أكثر فأخذن في تهدئتها، لما هدأت ثقل الصمت أكثـر.

من يقطع هذا الصمت الآن؟ لا أحد علـى شـاطئ ترعـة المحمودية كان كروان مذهولاً من المعلومات التي أخبره بها سليمان، من الرواية التي كان قد شرع في كتابتها ولم يتمها، من رسالة محمود الملاح إليه. وقال سليمان:

- غدا في الصباح سأعطيك كل الرسـائل، حتـى رسائل خير الدين لي، وسأعطيك ما كتبته من الرواية، مـن يدري ربما تظهر لك ميول في الكتابة، ساعتها أرجـو لـك حظا أحسن، وأرجو أن تذكرني إذا استفدت مما أعطيته لك.

راح كروان ينفخ في الناي بهـدوء، وسـرى فـي الصمت والظلام الصوت الشجي للناي.

لقد تقدم كروان في دروس الموسيقى كثيـرا فهـو يعزف بتمكن وتلقائية. تأثر سليمان حتى إنه لم يعـد يشـعر بأي شيء حولهما حتى رأيا شيئاً يسبح في الماء على مهـل. لم يكن حبشي كما ظن كل منهما. كانت زوجتـه الجديـدة، كانت عارية تماماً تقترب من الشاطئ وتضحك لهما ثم تعود وتغطس ضاربة الماء بذراعيها لتختفي لحظات ثـم تظهـر بعيدا حمراء بين البخار الأبيض ثم من جديد تقترب منهمـا وتضحك... لم يكن هناك صوت في كشك حبشي ولا كشـك

الأولاد المجاور، الجميع نيام، والمرأة وحدها، اقتربت منهما كثيرا هذه المرة ثم أشارت لهما أن يبتعدا فهي تريد أن تخرج من الماء. كان الوقت منتصف الليل تقريبا، تركـا مكانهمـا عائدين كل منهما إلى بيته لا يصدقان ما رأياه. في بيت نوال قامت البنات يائسات ورحن يقبلنها مودعات. انسالت دمـوع هادئة من عيونهن وغادرن الحجرة ونوال جامدة في مكانها. في منتصف الصالة الخارجية جـاءهن الصـوت الملائكـي العذب الجميل حزينا واهنا محملا بالعذاب.

دخلـ ـت مـ ـرة جنينـ ـة
أشـ ـم ريحـ ـة الزهـ ـور
وأهنـ ـى نفسـ ـي الحزينـ ـة
واسـ ـمع نشـ ـيد الطيـ ـور

وقفن وقد علا وجوههن الفرح. عدن بهدوء. كانت نوال لا تزال جالسة جامدة في مكانها تنظر إلى الحـائط ولا تشعر بهن.

بصيت لقيت على الغصـون
بلبـ ـل ويـ ـاه وليفتـ ـه

واقف معاهـا فـي سـكون
أنـا فرحـت أمـا شـفته

قامت واقفة وراحـت تفـرد ذراعيهـا كجنـاحين وتحركهما بهدوء كما لو كانت راقصة باليه تطير في الفضاء وتغني ذاهلة عنهن لا تزال ويعلو صوتها الجميل.

وقــال لهــا يــا ملاكــي
اللــي تعوزيــه أطلبيــه
روحــي وعقلــي فــداكي
حبيبــك أوعــى تســيبيه

وانكمشت وخبأت رأسها بين ذراعيها ورق صوتها وازداد ألما.

وبعـ ـد مـ ـدة طويلـ ـة
في شرب كـاس الوصـال
لقيــت حبيبتــه الجميلــة
سـ ـاقت عليـ ـه الـ ـدلال
طـارت مـا سـألتش فيـه

وخلـــت الكـــون عـــذاب

اقتربت من حكمت، نظرت إليها نظـرة مهزومـة، انشرخ صوتها وامتزج بالغناء البكاء، هن تـركن دمـوعهن تنزل هادئة على خدودهن وعادت نوال تجلس إلـى الكنبـة وهن يقتربن منها وهي تحاول أن يصفو صوتها.

والـلـي كمــان زاد عذابــه
وليفتـــه لافـــت بغيـــره
وزودت لــــه مصـــــابه
وداق يا روحي مصيره

لكنها لم تنجح أن تتخاص من البكاء، بل زاد صوتها نشيجا.

خرجـــت صــعبان علـــي
حالتـــه تبكـــي الجمــاد
حفـــظ ودادهـــا وهـــي
خانـــت عهـــود الـــوداد.

انفرط عقدها فلم تعد قادرة على كبح البكاء. نوال. نوال يا حبيبتي.

رحن يقبلنها من كل ناحية وبكت الأم وفرحت معـا وهي تقول.

- الحمد لله يا بنات، البكاء أول الشفاء.

في الصباح الباكر خرجت نوال إلى العمل قويـة، تشعر أن العالم كله حقل واسع وهي المهرة الوحيـدة التـي ترمح فيه في كل الاتجاهات. صار العالم الآن ملـك يـديها بهذه القوة التي دبت فيها. كان النهار صاعدا أبيض من كـل يوم، الفضاء أوسع من كل يوم، وما إن خرجت مـن بـاب المساكن إلى شارع قنال المحمودية الخالي فـي مثـل هـذا الوقت من كل صباح حتى وقفـت قلـيلا ليراهـا الرجـال الخارجون إلى أعمالهم والتلاميذ الذاهبون إلى مدارسهم، بدا لها الكون بهذه الحركة الهادئة حولها جميلا وديعا فمشت في عزم إلى المعدية، رأت على الشاطئ حبشي واقفـا جـوار الكشك يلقى بتعليماته لعدد كبير من الأولاد والبنات العراة إلا من السراويل عن فائدة الاستحمام في الترعة فـي الصـباح الباكر، وكيف يساعد الأكبر الأصغر منهم على تعلم السباحة.

بدا لها حبشي مثل ملك في مملكة صغيرة، شعبه هو أطفاله، وأرضه هي أرض ربنا، قالت له ضاحكة "صباح الخير يـا طرزان" ولم تكن من قبل قد قالت له ذلك، هو أيضا فـوجئ واستولت عليه الدهشة فقال مرتبكا صباح النـور، صـباح النور يا مستر نوال، وسبحت بها المعدية يدفعها المعـداوي الصامت وحبشي يتابعها بعينيه معجبا بجمـال جسـمها ولا تزال بسمتها وهي تتكلم معلقة أمامه في الفضاء، قفزت نوال إلى الترام الواقف التي ما إن بدأت تتحرك حتى تنهدت نوال بعمق وأغمضت عينيها، وجدت نفسها ترتل مع إيقاع صوت عجلات الترام.

من أنت أيتها المرأة اللغز؟
قالت أنا التي اعتصر جويا حليبي
وقام مجنونا ليرسم فريق الإعدام
ويجري في الشوارع مع الثيران
يا رفاق..
الثيران عرفت جويا وأوسعت له الطريق
ووصل جويا إلى حافة النهر فرحان
هيا نصلي جميعا وراء جويا

هيا نصلي جميعا وراء جويا

في الوقت نفسه كان سليمان قد صعد إلى السـطح حزينا يلقى نظرة على الفضاء الذي يعشـقه لآخـر مـرة، لدهشته وجد سعدة جالسة فوق السطح المقابل تنتظره. رأتـه فوقفت فرحانة تبتسم ومن وجهها تشع البسمة والفرحة تنتقل إليه، ولدهشته قذفت إليه بورقة صغيرة ملفوفة حول زلطـة التقطها وفتحها يقرؤها غير مصدق "أنا مـش صـغيرة يـا سليمان. أنا كبيرة وباحبك وما فيش أي حاجـة فـي الـدنيا حتمنعني عنك المهم أنك أنت يا سليمان لا تتراجع".

وضع الورقة في الجيب الأيسر لجاكـت البيجامـة فأحس بقلبه ينبض.

- هل ستبقين هنا دائما؟

سألها فقالت:

- حتى لو أخفوني مرة ثانية سأعود، المهم تـنجح أنت في الحياة، ساعتها لن يستطيع أحد أن يخفيني..

ولتكمل سعادته أرسلت إليه قبلة نفختها على راحـة يدها فقفز في الفضاء يتلقاها بفمه فضحكت وسرى صـوتها

المبهج وسط الضوء فاشتعل سليمان من السعادة الغامرة وهتف.

- لن أذهب إلى أي مكان. سأبقى هنا، وسأكتب قصتي وسأنجح.

قالت:

- هل كنت نويت تسافر؟

قال:

- هذه حكاية صارت قديمة الآن.

- إذن انزل أنا بسرعة حتى ألحق بالمدرسة.

نزلت وظل هو واقفا سكرانا من النشوة. كان الحامل الذي أقامه وركب عليه المرآة قد سقط من زمان فشرع في إصلاحه وإعادته إلى مكانه. قرر بعد أن ينتهي من ذلك أن يخرج يمشي في المدينة على غير هدى، يقطعها كلها من كرموز إلى محطة الرمل ثم من محطة الرمل إلى قصر المنتزه ويعود بعد ذلك إلى الأنفوشي، ثم يركب الترام حتى الحضرة ويعود مشيا على شاطئ المحمودية حتى يعبر المساكن إلى كفر عشري والقباري والورديان والمكس ثم يعود بالترام إلى المدرسة التليانية عابرا مينا البصل، ثم

يدخل في كرموز من جديد. الإسكندرية مدينة سهلة، طويلة حقا، لكنها مستسلمة للمشاة وللركاب، لسكانها وللمهاجرين من كل الدنيا، ومن شمال وجنوب البلاد. كانت مديرية الصحة قد أعلنت اليوم أن المواليد زادت من المصريين بنسبة ١٠% بينما قلت مواليد الأجانب بنسبة خمسين في المائة، وفي الوقت الذي تجاوز فيه سكان الإسكندرية الخمسمائة وخمسين ألف مواطن تناقص الأجانب إلى ثلاثين ألف مواطن، وأعلنت إدارة الميناء أن الرحلات البحرية قد زادت فصارت هناك خمس رحلات شهرية بدلا من أربع إلى صقلية وأثينا ورودس واللاذقية وبيروت، وأعلنت الغرفة التجارية أن مصر شهدت أكبر حركة تمصير كل المؤسسات والشركات والورش والبنوك والمحلات الأجنبية خلال أربعة أعوام على أقصى تقدير، وفي المساء عرف كروان أن سليمان لن يبرح البلاد، ومن ثم لن يعطيه شيئا مما كتب أو احتفظ به من رسائل لخير الدين ومحمود الملاح، ولم يندهش كروان، اندهش من نفسه كيف صدق حقا أن سليمان يمكن أن يرحل إلى أي مكان آخر، وفي منتصف الليل وجد نفسه يخرج إلى شاطئ ترعة المحمودية دون سبب. لكنه حين

رأى زوجة حبشي الجديدة تسبح أمامه عارية وتقترب منـه وتضحك اهتز جسده وأدرك أن هذا هو السبب. فـي اليـوم التالي خرج كروان مرة أخرى في منتصف الليـل، وكانـت المرأة في انتظاره. في اليوم الثالث فعل ذلك أيضـا، وظـل يفعل ذلك كل يوم ويندهش من هذه الرعشـة اللذيـذة التـي تسري في جسده وهو يرى المرأة تسبح أمامـه فـي المـاء عارية. ولما شعرت أمه وأبوه بخروجه راح يتظاهر بـالنوم حتى إذا ناما خرج متسللا وحده حافيا كيلا يصـدر صـوتا، وحتى بعد أن ينتصف الليل بكثير كان يجد المرأة في انتظاره في الترعة وحدها دائما، لم يجد حبشي معها مـرة واحـدة، صارت ما إن تراه حتى يتهلل وجهها وتقفز في الماء تغطس وتطفو كسمكة حقيقية سعيدة،، دعته أكثر من مرة أن ينـزل معها فكان يشير بأصبعه السبابة رافضا فراحت تسبح ناحية كوبري كرموز وهو يمشي جوارها على الشـاطئ شـاعرا بملمس الأرض البارد ينعش قدميه، ورغم دخول الخريـف، كان بخر الماء الأبيض لا ينقطع، وهي تسبح فـوق المـاء وبينه عارية بلحمها الوردي وهو يمشي علـى الشـاطئ لا يرفع عينيه عنها، حتى تعود إلى الكشك فيعود هو إلى البيت.

احتفظ بسره فهذه الحلاوة التي تنطلق في روحه لو عـرف سرها أحد لتبخرت وراحت بلا رجعة، ولم يعد قادرا أن تمر به ليلة دون أن يتسال إليها خارجا فيجدها تنتظره، لم يـدرك أنها وهي تسبح ناحية كوبري كرموز كانت تزيد المسافة ليلة بعد ليلة، وهو يمشي معها غير شاعر بالتعب ولا بالجوع ولا بالعطش..

انتهت

**تنويه:**

* اعتمدت هذه الرواية في عدد مـن المعلومـات السياسية والاقتصادية والتاريخة على كتب عديـدة وبحـوث متنوعة وصحف ومقالات من أبرزها.

١- تجارة التوابل في مصر في العصر المملوكي تأليف: د. محمد عبد الغني الأشقر سلسلة تاريخ المصـريين عدد رقم ١٣٧.

٢- الرأسمالية الصناعية في مصر تأليف:د. عبـد السلام عبد الحليم عامر. من التمصير إلى التـأميم سلسـلة تاريخ المصريين عدد رقم ٥٩

٣- وجوه سكندرية تأليف: حسـن المناويشـي. الناشر: الملتقى المصري للإبداع والتنمية

٤- تاريخنا القومي في سبع سنوات تأليف: عبـد الرحمن الرافعي.

الناشر: دار المعارف المصرية.

٥- أربعون عاما على العـدوان. تـأليف:كمـال القلش، بورسعيد أيام المقاومة، كتاب الأهالي رقم ٥٩.

٦- مصر.ولع فرنسي، تـأليف:روبيـر سـوليه، ترجمة: لطيف فرج، الناشر: دار المستقبل العربي.

٧- صحيفة الأهرام، وصحيفة الأخبـار، ومجلـة المصور، ومجلة آخر ساعة سنوات ١٩٥٦ - ١٩٦٠.

٨- الاقتباس الأول من بودلير من قصيدة "شـجن Spleen " من ديوان أزهار الشر.

٩- الاقتباس الثاني لهاري تزالاس

من فصل "Am Ahmed etait Concierge "

المنشور في مجلة Mediterraneennes

عدد ٨/٩/ خريف ١٩٩٦

# نبذة مختصرة عن الكاتب

# إبراهيم عبد المجيد

- من مواليد الإسكندرية.
- حاصل على ليسانس الآداب قسم الفلسـفة عـام ١٩٧٣.
- يشغل الآن منصب رئيس تحرير سلسلة كتابـات جديدة الصادرة عن هيئة الكتاب.
- له ثماني روايات منهـا "المسـافات" والصـياد واليمام" و"قناديل البحر" و "ليلة العشق والدم".
- حصلت روايته "البلدة الأخرى" علـى جـائزة نجيب محفوظ من الجامعة الأمريكية عام ١٩٩٦.
- فازت رواية " لا أحد ينـام فـي الاسـكندرية" الصادرة بروايات الهلال بجائزة رواية العام بمعرض القاهرة الدولي للكتاب. كما ترجمت رواياته إلى لغات عديدة.
- له أربع مجموعات قصصـية منهـا "الشـجرة والعصافير" و "إغلاق النوافذ".

# هذه الرواية

# طيور العنبر

هي أول رواية عربية تصدر فـي الألفيـة الثالثـة للروائي إبراهيم عبد المجيد. وهي رحلة جديدة للإسكندرية، أرض وسماء الكاتب الأسطورية، وإن كانت روايته المهمـة السابقة " لا أحد ينام في الاسكندرية"، حـول المدينـة إبـان الحرب العالمية الثانية، حين اجتمعـت بهـا كـل أجنـاس الأرض.

لكن "طيور العنبـر" تحلـق فـي سـماء المدينـة الأسطورة بعد حرب السويس، حـين خرجـت منهـا كـل الأجناس.

في هذه الرواية يتابع المؤلف جهوده من تصـوير روح المكان/ الزمان من خلال عدد كبير مـن الشخصـيات المصرية والأجنبية شخصيات حالمة، لدى كل منهـا حلـم للإمساك بطائر العنبر الخرافي، ولا تدري أنها تسـبح فـي وسط من الصراعات الكونية. يحدد لها مصائر أخرى .

إنها ملحمة للنبل، والحب والفراق، وأغنيـة عذبـة لمدينة تمتد في الزمان.